الإلحاد..

الوهم المستحيل

نور الدين قوطيط



عنوان الكتاب: الإلحاد.. الوهم المستحيل!

المؤلف: نُورُ الدِّين قُوطِيط

الناشر: مؤسسة السبيل

الطبعة: الأولى ١٤٤٢هـ/ ٢٠٢٠م

فهرس الكتاب

بين يدي الكتاب ١١

موجة الإلحاد المعاصر ٢١

١) اختزال دوافع الإلحاد ٢٣

٢) أسباب السقوط في الإلحاد.. ٢٦

٣) تزيين الشبهات في النفوس.. ٥٠

٤) انتفاء مبررات الإلحاد ٥٣

٥) رفض القرآن لتبرير الكفر.. ٥٨

٦) تعامل القرآن مع قرار الكفر.. ٦٥

سمات الخطاب الإلحادي ٧١

١) التدافع بين الحق والباطل ٧٣

٢) القواسم بين الإلحاد القديم والمعاصر.. ٧٦

٣) الفروق بين الإلحاد القديم والمعاصر ٨٢

٤) سمات الخطاب الإلحادي المعاصر.. ٩٠

٥) شراسة الملحدين في نشر الإلحاد.. ١٠٤

٦) علاقة العلمانية بالإلحاد ١٠٨

٧) شمولية المنهج الإسلامي ١١٦

٨) مبررات الدعوة إلى الإلحاد ١٢٠

٩) مبررات الدعوة إلى الإسلام ١٢٦

نشأة الشبهات ١٣٣

١) رواج الشبهات ١٣٥

٢) معنى الشبهات ١٣٩

٣) فوائد الشبهات ١٤٢

٤) ثبات المحكمات ١٥٠

٥) أهمية الأصول المعرفية ١٥٤

٦) منهج التعامل مع الشبهة ١٦١

٧) دلالة تكثيف الشبهات ١٦٦

٨) أسباب تكثيف الشبهات ١٧١

٩) ضرورة تعزيز اليقين ١٧٨

١٠) سبل التخلص من تأثير الشبهات ١٨٤

١١) ترحيب الإسلام بالسؤال ١٩٠

عقيدة الإله ١٩٧

١) سلطة فكرة الإله.................................... ١٩٩

٢) أسطورة أصالة الإلحاد ٢٠١

٣) النزعة الإلهية في الإنسان............................. ٢١٢

٤) أصالة عقيدة الإله ٢٢٧

٥) ثمرات الإيمان بالله تعالى ٢٣٤

٦) إنكار وجود الله تعالى ٢٤٢

٧) إيمان التقليد ٢٤٦

موانع الاقتناع ٢٥٥

١) سمات أدلة وجود الله تعالى ٢٥٧

٢) التشكيك في أدلة وجود الله تعالى ٢٦٢

٣) أسباب عدم الاقتناع.................................. ٢٧١

٤) موانع الاقتناع في القرآن............................... ٢٨١

٥) كلام أهل العلم في موانع الاقتناع ٢٨٦

٦) شبهة فطرية الإيمان ٢٩٠

٧) التحرر من قبضة موانع الاقتناع ٣٠١

وهم الإنكار ٣٠٩

١) جناية الوهم على العقل........................... ٣١١

٢) أسباب العبث الإلحادي............................ ٣١٤

٣) استحالة تبرير الإنكار............................. ٣١٨

٤) الإله بين النقص والكمال.......................... ٣٢٥

٥) محددات فكرة الإله................................ ٣٣٢

٦) عبء الدليل...................................... ٣٤٠

٧) الدليل الذي يريده الملحد.......................... ٣٥٤

٨) تنوع الأدلة الإيمانية ٣٦٣

الانتقال إلى الإلحاد ٣٦٧

١) دلالات الانتقال إلى الإلحاد ٣٦٩

٢) دوافع الانتقال إلى الإلحاد ٣٧٥

٣) البحث عن الفردوس المنشود....................... ٣٨٣

٤) طبيعة العلاقة بين الزعماء والأتباع.................. ٣٩٤

٥) أسس مشروعية الرؤية الإلحادية..................... ٤٠١

٦) عملية الانتقال إلى الإلحاد ٤٠٦

٧) خدعة التبرير النفسي ٤١١

٨) وهم التحرر والانتصار ٤١٨

٩) الإيمان اكتشاف للذات........................ ٤٢٤

ديانة جديدة ٤٢٩

١) حماسة الترويج للإلحاد........................ ٤٣١

٢) الإلحاد بديل أفضل ٤٣٧

٣) الإلحاد عقيدة جديدة........................ ٤٤٣

٤) فكرة المستقبل للإلحاد........................ ٤٤٦

٥) ديانة متكاملة الأركان........................ ٤٥١

٦) إشاعة ضرورة تجاوز الدين........................ ٤٥٩

٧) الإلحاد رؤية وانتماء........................ ٤٦٥

٨) مفهوم الدين ٤٦٩

٩) شبهة ليس للإلحاد كتاب مقدس........................ ٤٧٨

البديل الإلحادي ٤٨٣

١) الإلحاد مرجعية بديلة........................ ٤٨٥

٢) مفهوم المرجعية........................ ٤٨٧

٣) معايير المرجعية الحقة ٤٩٦

٤) شمولية المرجعية الإسلامية ٥٠٥

٥) آثار المرجعية المادية ٥٠٨

٦) الذات الآفلة وشعور الاغتراب ٥١٧

٧) استحالة الالتزام بالأسس الإلحادية........................ ٥٢٧

٨) مناقضة الإلحاد للتكوين الفطري ٥٣٢

مصادر الاقتباسات ٥٤٧

هدايات

﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ «آية قرآنية»

«ما من مولود إلا يولد على الفطرة» «حديث نبوي»





بين يدي الكتاب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾.[١] والصلاة على رسولنا محمد المبعوث بالنور المبين رحمة للعالمين لعلهم يهتدون.. ثم رضوان الله على آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم يُنشرون. أما بعد:

فإن المتابع لأوضاع الأمة في لحظتها التاريخية الراهنة يجد أنّ من أبرز الاتجاهات التي تشكّل تحدّيًا قويًّا لها في عقيدتها وشريعتها؛ هو الإلحاد بشقيه: المعلن والمتخفي، الصريح والملتوي! إنه **الإلحاد الصريح**، الذي يعلن إنكار وجود الإله الخالق، ويدافع عن هذا الإنكار بعنف وشراسة، ويبذل جهودًا هائلة لتحقيق أهدافه. و**الإلحاد المتخفي** الذي يطالب بإبعاد الإنسان عن الله تعالى وتأطير نشاطات حياته بشعارات برّاقة خادعة تلبس لباس العلم والعقلانية والحرية، وهنا تدخل العلمانية والليبرالية والحداثة والنسوية. ولا شك أن مكمن خطورة الإلحاد المتخفي هو أنه البوابة المؤدية إلى الإلحاد الصريح والنهائي والشامل، دون اصطدام مباشر مع المسلم بعقيدته وشريعته وتاريخه! ولهذا يتم اليوم الترويج المكثف -خصوصًا لدى فئة الشباب- لهذا النوع من الإلحاد بأساليب شتى ووسائل مختلفة، تصادف هوى من النفوس، وشغفًا من العقول، وانجذابًا من الأهواء!

---

(١) الأنعام: ١.

والقول بأن الإلحاد يشكل تحديًّا للعقيدة لا يعني أن الإلحاد قوي في نفسه وطرحه وأدلته، بل تكمن قوة التحدي في أنّه يمارس دعوته بأساليب ملتوية وخادعة، مستغلًا جهالة العقول وخواء النفوس، ومستثمرًا انضمام الكثيرين لحملة تمييع العقيدة وتسييل المبادئ الإسلامية تحت ذريعة إظهار سماحة الإسلام ووسطيته واعتداله، ومستندًا لقوى الجاهلية العالمية التي تمارس الإرهاب السياسي والاقتصادي والعسكري لتمرير خططها وتحقيق أهدافها ليظل العالم الإسلامي ذرة تسبح في فلكها، بلا قيمة في ميزان القوى الكبرى، والغاية من ذلك هي إطالة أمد إخضاع العملاق الإسلامي!

ومن ثم، لابد من التوكيد على أنّ تكثيف الشبهات ضد الإسلام، واستغلال مختلف الوسائل لنشرها وإشاعتها بين الشباب المسلم، أكثر من أتباع أي دين آخر، لا تنفك عن معركة الأفكار وتغيير القناعات التي تشنّها الجاهلية المعاصرة على الإسلام والمسلمين، والتي بدورها لا تنفك عن الأهداف السياسية والاقتصادية والاستراتيجية البعيدة المدى! يقول ويرليمان -ملحد أمريكي-: «إذا طلبتَ من الملحدين الجدد أن يختاروا أول دين سيرغبون في القضاء عليه من على وجه الأرض، فسيختارون -دون تردد- الإسلامَ».[(١)]

إنّها حرب ضروس؛ دوافعها أحقادٌ وأطماعٌ، وأهدافها إخراج المسلم من الإسلام أو على الأقل التشويش على عقيدته ليكون مسلمًا اسمًا بلا مسمى، وليكون

(١) مهددات الإلحاد الجديد ص١٠١.

الإسلام دينًا بلا مضامين، دينًا يوافق المنظومة العلمانية والحداثة الغربية! وهذه حقيقة لا يتردد الغرب نفسه في التصريح بها والإعلان عنها. تقول شيريل بينارد: «من الواضح أن الولايات المتحدة والعالم الصناعي الحديث، بل المجتمع الدولي برمته، يفضلون عالمًا إسلاميًّا متناغمًا مع النظام العالمي: ديموقراطي وقابل للنمو الاقتصادي، ومستقر سياسيًّا، وتقدمي من الناحية الاجتماعية، يتبع قواعد السلوك الدولي وقوانينه».[1] يؤكد هذا المعنى وليام كافانو فيقول: «لقد وجدت الليبرالية المعاصرة عدوها الواضح في المسلمين الذين يرفضون التمييز بين الدين والسياسة».[2]

○ ○ ○

نحن نوقن -من منطلق عقيدتنا- بأن الحق مهما تلقى من الضربات، فإنّه لا يموت أبدًا، إذ يستحيل في حكمة الله تعالى أن ينتصر الباطل انتصارًا كاملًا ونهائيًّا، بل ما دام هناك إنسان يحمل عقيدة هذا الدين ومشعل هذا الوحي، فإنّ الباطل إلى زوال مهما طالت جولة انتصاره، وإنما الأمر مسألة وقت فقط: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴾.[3] ولذلك نحن نؤمن بيقين جازم بأن المستقبل لهذا الدين ولو كره الملحدون الصرحاء والمتخفون، ولو بذلوا ما عساهم أن يبذلوا في سبيل القضاء عليه وسلخ أتباعه عنه، لأن الإسلام يستمد قوته من الفطرة والعقل

(١) الإسلام الديموقراطي المدني ص١٣.

(٢) أسطورة العنف الديني ص٩.

(٣) الفتح: ٢٣.

والقيم المقدسة في الحياة، وأكثر من ذلك، لأنه دين الله سبحانه، والله سبحانه وعد ألا يترك هؤلاء المفسدين في الأرض لتحقيق خططهم الإبليسية، فقال سبحانه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾.[١] فهذا وعد الله، فما عسى إذن أن يملك المخاليق المهازيل!

ومن هنا، فهذه دعوة لكل مسلم قادر على أن يقوم بواجبه الشرعي، وبالوسيلة التي يحسن، ومن الجانب الذي يتقن، لأنّ الأذواق تختلف والاستعدادات العقلية شتّى، فما لا يُقنع زيدًا قد يكون سبب يقين لعمرو، ولله سبحانه في العقول والنفوس عجائب وخفايا. كما أنّ هذه الكتابة المستمرة بأساليب متنوعة تعمل على ترسيخ حقائق الإيمان في النفوس والعقول، لأنّ التكرار بصِيَغ متنوعة وبأساليب مختلفة عامل مُهم لابد منه لتحقيق النصر في معركة الأفكار، وهو منهج نهجه القرآن والسنة، فقد نوّع كثيرًا في أساليب ردوده على المقالات الباطلة وكَشْفِ المذاهب المنحرفة، من مجادلة عقلية، إلى موعظة تحفيزية، إلى لفت العقل والقلب إلى بدائع الآيات في الكون والحياة، إلى استعراض مصارع الكفار والمشركين والمناوئين عبر التاريخ، وغير ذلك.

ولهذا تجد أرباب المذاهب والاتجاهات الكبرى حريصين على تكرار بيان أفكارهم بشتى الأساليب، والتنظير لها والمناظرة عنها بمختلف الطرق، ودعمها

---

(١) النور: ٥٥.

بفنون من الأدلة والبراهين كما يظنون، وعرضها بالأشكال الأدبية والصور الحسية، ليمتلئ منها العقل والسمع والبصر، لما يعلمون للتكرار من الفاعلية في ترسيخ الأفكار في الأذهان. يقول غوستاف لو بون: «يمكن أن نفهم جيّدًا تأثير التكرار على الجماهير عندما ننظر إلى الهيبة التي يمارسها على الشخصيات الأكثر استنارة. فعندما نكرر الشيء مرارًا وتكرارًا ينتهي به الأمر إلى الانغراس في تلك الزوايا العميقة للاوعي حيث تُصنع دوافع كل أعمالنا».[1]

فكما أن الملاحدة الصرحاء والأخفياء (العلمانيين، الليبراليين، الحداثيين، النسويات) يستعلمون مختلف الإمكانيات لحرب الإسلام، ينبغي على المسلمين أن يستغلوا كل الإمكانيات والطاقات والوسائل لكشف الإلحاد والملحدين بمختلف أشكالهم وألوانهم واتجاهاتهم، كما قال الحق سبحانه: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾.[2] وذلك لحماية النشء من الانحراف الفكري والعقدي والسلوكي والأخلاقي والاجتماعي الذي يدأب هؤلاء المفسدون في الأرض في إشاعته بينهم، وكما يقول فريد الأنصاري فإن «تبليغ الرسالات وإلقاء البيانات؛ في زمن الفتن والضلالات، من أوجب الواجبات، وأنه لا نجاة لمن تعلّق ذلك بذمّته إلا بأدائه، وأن ذلك ضربٌ من ضروب الابتلاء بهذا الدين».[3]

---

(١) سيكولوجيا الجماهير ص١٣٣

(٢) التوبة: ٣٦.

(٣) الفطرية: بعثة التجديد المقبلة ص٢٠٠

وبعد، فهذا الكتاب لا يتعلق بالمواضيع المتداوَلة في جدل الإيمان والإلحاد، كقضية أدلة وجود الله، وبراهين النبوة، وقضية الشر، وكذلك الشبهات الجزئية، بل -إذا تجاوزنا الفصلين الأول والثاني اللذين رغم شيوع الكلام فيهما، وجدت أنه من الواجب وضعهما لمناسبتهما لخطة الكتاب- حاولت في أغلب فصوله التعريج على مواضيع ليس لها كثير ذيوع بين الشباب، وإن كان لا يخلو مجمل الكتاب من إشارات لتلك القضايا أو بعضها هنا وهناك في غضون الكلام. كما أنني أعترف بأن هناك مواضيع أخرى وتفصيلات أوسع كان ينبغي فسح المجال لها، لكن هكذا كانت الخطة، التركيز والاختصار دون الإسهاب والإكثار، سواء في المواضيع أم في التفصيل والتحليل، وحسبي التنبيه والإشارة وإن قصّرت في بسط العبارة. وأيضًا أحب أن أشير إلى أنك قد تلاحظ تكرار بعض الأفكار، وأبادر هنا للقول بأن هذا أسلوب لا مفر منه، أولًا لترسيخ الفكرة، وثانيًا لأن بعض السياقات رغم اختلاف الفصول تقتضي تكرار بعض الأفكار.

ولهذا، لست أفترض بأن هذا الكتاب قد يغني عن غيره في المباحث التي تطرّق إليها، بل كما ذكرت هو مجرد تنبيهات وإشارات، وعلى كل حال لو كان المرء لا ينشر إلا أن يبلغ حد الكمال في تأليفه لما نشر أحد ولبقيت الكتب مسودات. ولقد قال رسول الله ﷺ: «لَأن يُهدى بك رجلٌ واحدٌ خير لك من حُمر النَّعم».[١] وقال الإمام أبو شامة: «ما على العالم إلا نشر علمه، والله يهدي مَن يشاء إلى مراسم

---

(١) صحيح البخاري

حكمه».[1] وعسى أن ينسأ الله في العمر ويمد بالتوفيق فتكون هناك دراسات أخرى لها صلة بالموضوع.

ولا أنسى رفع جزيل الشكر والامتنان للفضلاء الذين تكرموا بقراءة المسودة ما قبل النهائية ونبهوا على بعض الأمور التي يحسن إعادة النظر فيها.

لقد بدأت الاشتغال بملف الإلحاد -بحثًا ومطالعة- منذ حوالي ستة أعوام، ثم أخذت في تخطيط هذا الكتاب وشيّدته لبنة لبنة، رغم ما تناوله بين فترة وأخرى من التغييرات الطفيفة أو الجوهرية، ورغم أني كنت أهجره أحيانًا الشهور ذوات العدد قبل العودة إليه، انشغالًا بأمور أخرى، ولهذا أسأل الله تعالى أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، وأن ينفع القرّاء لكلماته، وأن يتقبل ما فيه من حق وصواب، وأن يتجاوز عما فيه من باطل وخطأ، إنه ولي ذلك والقادر عليه والمنعم به، ولا حول ولا قوة إلا بالله.



---

(١) الباعث على إنكار البدع والحوادث ص٦٧.



موجة الإلحاد المعاصر

(١) اختزال دوافع الإلحاد

بعض الذين يتكلمون ويكتبون في موضوع الإلحاد يحصرون عوامل نشأته وظروفها في هذا العامل أو ذاك! والحقيقة أن هذا الحصر -من وجهة النظر الشخصية- خطأ بيّن، واختزال للقضية! لأن ظاهرة الإلحاد -مثل أية ظاهرة من الظواهر الاجتماعية- لا يمكن إلا أن تكون متشابكة العوامل ومُركّبة الروافد. ولهذا لا يصح تسطيحها أثناء التعامل معها، إذ من المؤكد الذي لا مراء فيه، أن الدوافع للانتقال إلى الإلحاد ليست واحدة ولا متحدة في معنى واحد، فليس كل الملاحدة ألحدوا حبًّا للشهرة أو اتّباعًا للشهوة أو رغبة في التخفف من الشعور بالمسؤولية أمام سلطة الإله!

نعم؛ قد يعلن هذا الملحد أو ذاك أنّ سبب إلحاده هو كثرة الشرور، أو وجود أخطاء علمية في القرآن، أو بسبب العنف الديني، أو بسبب تخلف المسلمين، إلى غير هذا من الشعارات التي يرفعها كل ملحد في سياق تبرير إلحاده! لكن؛ حتى وإن افترضنا صدق الملحد في دعواه، إلا أنّ ذلك في الحقيقة ليس أكثر من مبرر متهافت، سواء أمام نفسه أم أمام الآخرين! إذ لا توجد أدنى علاقة منطقية بين مبررات الملحد لخيار الإلحاد وعدم وجود الخالق! **هذا أولًا**.

ثانيًا: الإلحاد بما أنه انتقال من رؤية وجودية إلى رؤية وجودية أخرى مناقضة لها، لا شك أنّ عوامل نشأة خياره وبروزه متشابكة، ولذلك لا يمكن اختصار قراره واختزاله في عامل واحد، رغم بروز هذا العامل أو ذاك بشكل أكثر من بعض -ضمن

شروط أخرى- عند هذا الملحد أو ذاك، في سياق تبرير الانتقال إلى الإلحاد، لأنّ الدوافع مختلفة، بل كثيرًا ما تكون مبهمة وغامضة ومجهولة حتى لصاحب القرار!

وهذا القول هو نتيجة لرؤيتنا الإسلامية للإنسان التي تراه كيانًا مركبًا، تتدخل شبكة من العوامل والمؤثرات في توجيه قراراته وميولاته وقناعاته.

إنّ الإنسان في قراراته ومواقفه وقناعاته، لا يمكن أن ينفصل عن مخزون التجربة والخبرة التي مر بها، ولا عن البيئة الأسرية التي نشأ فيها، ولا عن حالته الشخصية والاجتماعية التي يعيشها ويمر بها، ولا فضائه الحضاري الذي يتحرك فيه، بالإضافة إلى السن ومستوى الوعي والثقافة. وبلا شك، فإن كل هذه العوامل من المهم أخذها بالاعتبار عند التعامل مع جنوح الشباب إلى الإلحاد.

وأيضًا؛ فالإنسان في كل نشاطاته ومواقفه يتحرك ولابد في ثنائية الدوافع والغايات، أي الدوافع التي تحفزه على الفعل، والغايات التي تجذبه للفعل. ولا شك أن الدوافع كما الغايات كثيرًا ما يجهل صاحبها حقيقتها ولا يكاد ينتبه إليها، بحكم تشابك وتعقيد مكوّناتها ومحدّداتها، وارتباطها بنزعات نفسية خفية وغامضة، كالرغبة في التقدير أو الشعور بالانتماء أو الإحساس بالتفوق، وغير ذلك من دوافع الاشتغال في النفس البشرية!

يقول عبد الوهاب المسيري: «عملية رصد الإنسان عملية تبلغ الغاية في التركيب. فالحقائق الإنسانية لا يمكن فهمها إلا من خلال دراسة دوافع الفاعل وعالمه الداخلي والمعنى الذي يُسقط عليه، فالإنسان ليس مجرد سلوك برّاني مادي

وحسب، يُرصد من خارجه، وإنما هو سلوك برّاني تُحرّكه دوافع جوانية يصعب الوصول إليها مباشرة من خلال الوصف الموضوعي وغيره».[١]

هذا يعني أنّ العوامل التي يُبرّر بها الملحد إلحاده يقتصر دورها على إثارة كوامن الرغبة في الإلحاد وتزيينه، وإنشاء حالة ميل إليه باعتباره بديلًا وخيارًا أفضل، بعد أن تكون نفسيّته -بفعل ظروف سابقة ومتشابكة- مهيّأة للسقوط ومستعدة للتنازل عن الإيمان والانتقال إلى الكفر والجحود، أي تكون هناك أولًا قابلية واستعداد للإلحاد، فتأتي بعض هذه العناصر التي يبرر بها هذا الملحد إلحاده لتشعل فتيل قرار الردة عن الإسلام والانتقال إلى الإلحاد! كما أشار الله تعالى إلى هذا المعنى كاشفًا جانبًا من أسباب السقوط: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾.[٢] فهي نفوس ساذجة ضحلة معرفيًّا، وخاوية مهترئة تربويًّا، ولهذا مع أدنى حرمان، أو صدمة، أو تحدٍّ، تسقط سقوطها، لأنها لا تعبد الله تعالى عن علم وفهم، ولا تؤسس علاقتها به على أصول ومبادئ واضحة، بل بمجرد الهوى الشارد والتقليد الجاهل البليد!

ومن أدلة ذلك؛ أنّه خلال التاريخ الإسلامي الطويل؛ حدثت أزمات اجتماعية عنيفة، ونشأت معارك وحروب طاحنة، وكانت هناك فترات في غاية التخلف والضعف، وكان هناك ظلم واستبداد سياسي وصراعات ذات شعارات دينية، وكان

---

(١) موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية ج١ ص١٠٣.

(٢) الحج: ١١.

هناك عدوان خارجي (التتار والصليبيون) شرس ومدمر جدًّا، وكانت هناك أوقات عصيبة انتشرت فيها الأوبئة الفتّاكة والمجاعات والأمراض، وكان هناك اتّساع في العلوم والمعارف والفلسفات والفنون، ومع ذلك لم يسجل التاريخ الإسلامي تفجر موجة إلحادية بمعنى إنكار وجود الله تعالى، بين أفراد الأمة الإسلامية كما هو الحال في عصرنا الحاضر، رغم ما وقع فيه كثير من المسلمين من الانحرافات والضلالات، العقدية والسلوكية والاجتماعية!

* * * *

(٢) أسباب السقوط في الإلحاد

ولهذا؛ لابد من التأكيد هنا على أنّ قرار الإلحاد لا يأتي فجأة، بل تسبقه مجموعة من العوامل تجعل صاحبه مهيّئًا لقبول الإلحاد ولديه استعداد مسبق للسقوط فيه. وذلك لأن لكل ظاهرة من الظواهر في عالم الإنسان أو عالم الحياة عوامل تكون السبب في تكوينها وتشكيلها، ثم في تثويرها وإبرازها، ثم في تغذيتها وتوجيهها، ثم في ترسيخها وإشاعتها، ثم يظل الأمر كذلك إلى أجل مسمى وما سبق به القدر الحكيم.

الإلحاد بما أنه نشاط يتعلّق بالإنسان؛ ينتقل إليه من الإيمان، لا يمكن إذن أن يَنِدَّ عن هذه السمة البشرية، ولا يمكن أن يكون بمنأى عن هذه السنّة الإلهية، بل لابد أن يكون خاضعًا لقانون عوامل نشأة الظواهر واستمراريتها مثل كل الظواهر والأحداث. وزعماء الإلحاد المعاصر يدركون جيّدًا هذا المعنى، أعني أنّ إحلال

أفكار جديدة ونشر ظاهرة جديدة ورسم توجهات جديدة، كل ذلك يتطلّب بيئة مناسبة، ولابد من المتابعة المستمرة لتحفيزها وترسيخها وتغذيتها، ولهذا يبذلون الجهود الضخمة من أجل تحقيق هذه النتائج والإبقاء عليها بارزة ومستمرة في الواقع المعاصر!

وإنك مهما نظرت في مسألة نشأة الإلحاد وانبعاث الرغبة فيه في نفوس، وميل عقول الشباب اليوم إليه، ستجد أن مناشئها لا تكاد تخرج عن الموارد التالية: الجهل الشرعي، الشهوة الباطنة، الغرور العقلي، العناد النفسي، المغالطات المنطقية، الثقافة الغالبة، الخواء الروحي، سذاجة التفكير، تزييف القناعات، بيئة الأسرة، تحطيم القدوة، علمنة الرؤية، كثرة الملهيات، مصادر غير موثوقة، الجهل بالسنن الإلهية، تكثيف الشبهات، الملاحدة المتخفون. غواية الشيطان، فتنة المصطلحات، قرناء السوء، وهذا تفصيلها باختصار:

أولًا: الجهل الشرعي. وذلك لأن الوحي الإلهي، مبني على قواعد وأصول ومبادئ، حاكمة وضابطة لكل جزئياته المتفرعة. ومن المؤكد أنّ مَن لم يكن له علم بذلك جملي أو تفصيلي، فحري أن يسقط في فخاخ الشبهات بسبب جهله. وهذا الأمر لا يريد كثير من الشباب المعاصر استيعابه وتصديقه، لأنه تم تزييف عقولهم من طرف الدجاجلة المعاصرين، إذ رسخوا في أذهانهم أن العلم الشرعي لا قيمة له، وأنّه بإمكان أي مسلم التوجه مباشرة إلى القرآن لفهم مراد الله تعالى، وخدعوهم ببعض الآيات التي تنص على أن هذا القرآن ميسر ومبيّن وعربي! لكن حين يفعل بعض الشباب ذلك، فإنهم يصادفون ويجدون بين أيديهم آيات كثيرة لا تستقيم مع

عقولهم الجاهلة ونفوسهم الآفنة، فبعضهم يبادر لفهم ما شاء بلا ضوابط ولا يبالي نهائيًا بأقوال العلماء والمفسرين، وبعضهم لا يعرفون مخرجًا بعد أن تلتبس عليهم الآيات!

ثانيًا: الشهوة الباطنة. وذلك لأن الشهوات الباطنة لها تأثير قوي على العقل والإدراك، فإن كانت مضبوطة بضوابط الشريعة، وكانت النفس مهذبة قد ترقت في مدارج التزكية، كان التأثير إيجابيًا نورانيًا. وإن كانت منفلتة ومرسلة مع الأهواء، وكانت النفس منغمسة في نزواتها، كان التأثير سلبيًّا ظلمانيًّا. وفي هذا يقول الشيخ الطريفي: «الشهوات النفسية أشد المؤثّرات في العقل، ولها سطوة وقوة وسيطرة على العقل ليست موجودة في الطبائع النفسية، فالنفس إذا اشتهت أسرت العقل، وساقته في تحقيق رغباتها».[١] ولما كان هذا العصر عصر شهوات عارمة، حتى إنّ الإنسان يجد نفسه يعيش في بيئة شهوانية، تضغط عليه نفسيًا وعقليًا، لا جرم أن جمهور الشباب لا يلتفتون لتحصيل العلم الشرعي والمعرفة الصحيحة، بل يتّبعون من يُهوّن عليهم الأمر، وينفخ فيهم وَهْمَ (لا تبع عقلك للفقهاء)، ويميلون إلى من يُفرّغ الأحكام من مضامينها!

ثالثًا: الغرور العقلي. وذلك لأن الغرور إذا غزا العقل وهيمن على الإدراك، فإنه يُري صاحبه أنه فوق الآخرين جميعًا، فلا يزال لذلك يطلب لنفسه التقدم والترأس والعلو عليهم، ولو بالباطل والخطأ والضلال! الذي يحدث هو أن المغرور بعقله والمعجب بذكائه يجد صعوبة في تقبل ما جاء به الوحي والتسليم له في

---

(١) الفصل بين النفس والعقل ص٨٣.

الجوانب التي لم يستطع استيعابها، أو ما يجري به القدر في تصاريفه، كما أنه يرفض أن يطلب الفهم عن طريق قواعده وأصوله المقررة، لكي يُوهِم نفسه بأن ذكاءه لا حدود له، وأنه حقًا غير محتاج لقضاء وقته في درس العلم وضبط أصوله وقواعده، كما أنه من غير الممكن أن يعجز عن فهم أية مسألة مهما كانت وبأي موضوع ارتبطت! ما لا يعرفه المغرور هو أنّ للعقل حدودًا ينتهي إليها إدراكه ولا يمكنه تجاوزها، وحين يحاول تجاوزها يتوه بين أمور لا يزال ينفتح بعضها على بعض، فتلتبس عليه ولا يعرف منها مخرجًا! وتأمل وصف البلخيُّ البليغ لابن الراوندي الملحد بعد أن اعترف له بتبحره في المعقول والاطلاع: «كان علمه فوق عقله».[١]

رابعًا: العناد النفسي. من أعظم الآفات الموبقة، التي تُردي العبد وتهلك دنياه وأخراه، آفة العناد! فالعنيد يشقى بنفسه قبل أن يشقى به غيره! وأساس العناد رؤية النفس أن الحق معها أبدًا، وأن أدنى تنازل واعتراف يهدر كرامتها ويسقط قيمتها! ومن ثم، فالعنيد مثل المغرور، لا تكمن مشكلته في عدم معرفة الحق، بل في رفض الحق بعد معرفته أو رفض طلبه والبحث عنه ابتداءً! ولهذا ترى الملاحدة يرفضون الحق ليس لأنه به خفاء أو لأنه يحفه الغموض، بل لمجرد الرفض، لكي لا يشعروا بسقوط قيمتهم بعد أن كانوا يرفعون شعار (لم نلحد إلا عن بحث ودرس)، وشعار (الإلحاد يقتضيه العقل والمنطق والعلم)! وأمارة ذلك، أنك مهما عرضت عليهم شيئًا من الأدلة والبراهين أو كشفت لهم بعضًا من لوازم القول الإلحادي، بادروا إلى السخرية أو فتح موضوع آخر أو طرح شبهة أخرى، وهذا هو ديدنهم أبدًا! وقد قال

---

(١) سير أعلام النبلاء. شمس الدين الذهبي ج١٤ ص٦١.

مصطفى محمود عن مرحلة إلحاده واصفًا ضغط الشك على عقله: «لم يكن الأمر سهلًا، لأني لم أشأ أن آخذ الأمر مأخذًا سهلًا».[1]

خامسًا: المغالطات المنطقية. من أكثر وأخطر أسباب الشبهات وعوامل نشأتها، الوقوع في فخاخ المغالطات المنطقية، ولذلك ما زال العقلاء من مختلف الاتجاهات، قديمًا وحديثًا، يحذرون من الانزلاق إليها والانخداع بها، وكتبوا في الموضوع لبيانها ومكامن الخلل فيها وسبل الوقاية منها. والمغالطة ليست في كثير من مظاهرها أكثر التباس الأفكار والتصورات، والتلاعب بالألفاظ والكلمات، عبر التعميم والتسليم، والغموض والإبهام، والتضخيم والتهويل، وما كان بسبيل ذلك. غير أن جملة أسباب الوقوع فيها هي الجهل، والغباء، وقلة الخبرة، والقناعات المسبقة، والخضوع لتأثير سلطة المتكلم، وعشق الجدل وحب الظهور، فهذه وغيرها أسباب توقع صاحبها في فخ المغالطات. ولهذا السبب يحرص زعماء الملاحدة على المغالطات وحشو كلامهم بها، إذ كانوا يدركون مسبقًا أن جمهور الأتباع والمتلقين من أرباب الجهالة والطيش والاستعداد المسبق لتقبل زخرف القول.

سادسًا: الثقافة الغالبة. ما فتئت العلمانية المعاصرة تبذل الجهود الجبارة لإنشاء نمط تفكير متشابه بين أفراد الناس. هذه النمطية بخصائصها ومقوماتها، وما تنتجه من رؤى وأفكار، ومن أحلام وتوجهات، هيّأت الفرصة للإلحاد المعاصر للترويج للمقالات الإلحادية، المتخفية والمعلنة، والمؤدية في النهاية إلى شبكة

---

(١) رحلتي من الشك إلى الإيمان ص٩.

الإلحاد، إذ يكفي أن يكون المرء بلا ثوابت ولا هوية ولا مرجعية ليسهل إسقاطه في بوتقة الإلحاد والعدمية والانحراف! اليوم هناك جهد هائل لإنشاء حالة شك في كل شيء، في الدين والعقيدة والمبادئ والثوابت، ولإنشاء حالة ارتباط لاشعوري بالدنيا وشهواتها، من خلال النموذج الغربي، المتشبّع بالانحلال والماديات والانطلاق واللهاث المسعور وراء اللذات الحسية. الذي يحدث هنا هو عرض كل ذلك على أنه طور العقل ومقتضى العلم ولازم الحضارة ومعيار النجاح! وبهذا يجد الشاب نفسه خاضعًا لهذه الثقافة الغالبة، فيجب عليه أن يشك في كل شيء ليشعر بأنه متقدم وعصراني وعقلاني وعلمي وحضاري، وليس مثل الآخرين الغارقين في الخرافة والعصبية والاتّباع الأعمى والتشدد البغيض!

سابعًا: الخواء الروحي. كل إنسان -وإن أنكر- يشعر شعورًا صادقًا أنه ليس هذا الجسد المحسوس، بل هو شيء آخر مكنون في أعماقه، وذلك الشيء هو حقيقته الوجودية. هذا الشيء المسمى بالروح، بما أنه ليس من مادة عالم الدنيا، فحياته لابد أن تكون بمدى ارتباطه بمصدره الحقيقي المتجاوز لنطاق عالم الدنيا. حين ينفصل العبد عن خالقه ومولاه هنا يكون قد قطع أسباب حياة روحه، فيشعر بالقلق والتوتر وبالغربة وعدم المعنى. وقد يكون له به ارتباط، لكنه ارتباط سطحي لا يوجد بينه وبين الانفصال التام كبير فرق! وفي الحالين معًا، يكون صاحب هذا الخواء الروحي مستعدًا للانكسار والسقوط بسهولة بالغة، مع أول شبهة أو أول ابتلاء، كما قال سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ

عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾.[١] ولا شك أن من أهم مشاكل الشباب اليوم، الخواء الروحي وسطحية الارتباط بالخالق، وذلك مما يجعلهم فريسة سهلة الاصطياد والقياد، عبر الإعلام -بمختلف أشكاله- العلماني الحريص على نشر التفاهة النفسية والسخافة الفكرية!

ثامنًا: سذاجة التفكير. منذ مجيء الاحتلال الغربي وسيطرته على بلدان العالم الإسلامي، كان من أهم ما حرص عليه هو تدمير التعليم وتفريغه من أي محتوى له قيمة أو أي مضمون له معنى، يمكن أن يُكوّن العقل المستنير، والوعي اليقظ، والشخصية المسلمة الإيجابية، من أجل أن يطيل أمد إخضاع المسلمين لهيمنته. استمرت هذه العملية طيلة بقاء الاحتلال، ثم عند رحيله مرغمًا، قام صبيانه من بني جلدتنا، يتابعون المشوار الأثيم، فحارب هؤلاء (العلمانيون، الليبراليون، النسويات) تحت ذرائع وشعارات شتّى التعليم الأصيل والمرتبط بالعقيدة والقيم والمبادئ الإسلامية. وهكذا تخرجت أجيال من المسلمين ساذجة العقل، سطحية التفكير، اللهم إلا ما تحصل به على شهادة مدرسية تساعدها على الظفر بوظيفة حكومية! ثم بعد الهجمات الشرسة للعلمانية والإلحاد في عصر الفضاءات المفتوحة، كان من الطبيعي أن تسقط في فخاخ الشكوك والحيرة والضلال حشودٌ هائلة من تلك الأجيال الساذجة العقل المبتوتة الصلة بالعقيدة. والذين يشتغلون في موضوع الإلحاد يعلمون أن شبهات جمّة لم تعلق بأذهان كثيرين إلا لسذاجة عقولهم!

---

(١) الحج: ١١.

تاسعًا: التدين الجاهل. خلال العقدين الأخيرين أخذ يسطع نجم دعاة جدد بوتيرة متسارعة ولافتًا للنظر. دعاة يحرصون على تقديم إسلام هادئ، ناعم، ومسالم، يركز على السلام النفسي، وعلى الطموح والنجاح المادي، بعيدًا عن نمط ومضامين وشعارات الدعوة التي ما فتئت تيارات إسلامية مختلفة تسير في دروبها. فدعاة ما بعد الصحوة لم يعودوا يهتمون بالتأصيل والتكوين الشرعي للمتلقي في طرح الإسلام، ولم يعودوا يهتمون بالقضايا الكبرى، مثل تطبيق الشريعة والجهاد والخلافة، كما كان أسلوب الدعوة قبل ذلك، بل صار التركيز على صناعة متدين ناعم ومسالم ومنفتح على العلمنة والحداثة الغربية، متدين مقياس النجاح لديه هو ما يحققه في المجال المادي والطموح الذاتي. يقول باتريك هايني في سياق حديثه عن الدعاة الجدد: «التركيز على العاطفة والتأمل والسعي لتحقيق السعادة الفردية هي القيم التي تسود خطابا يعمل غالبًا كعلاج وجداني يتناول مسائل الإيمان بمقاربات هادئة إلى جانب التركيز على تحقيق الأهداف».[1] هذا الأسلوب أنشأ قابلية للانكسار والسقوط لدى شريحة واسعة من الشباب المتدين بعد أن وجد نفسه وسط تيارات هائجة من التشكيكات حول كل شيء يمت إلى الإسلام بصلة! وقد حاورت بعض هؤلاء وصحبت بعضهم، وأساس مشكلتهم هو قلة العلم الشرعي![2]

---

(١) إسلام السوق ص٧٩.

(٢) ذكر ابن الجوزي كراهة السلف للقصاص وأنها ترجع لأمور، منها «التشاغل بذلك يشغل عن المهم من قراءة القرآن ورواية الحديث والتفقه في الدين». وذكر عن الإمام أبي قلابة قوله «ما أمات العلم إلا القصاص». كتاب القصاص والمذكرين ص١٥٩.

عاشرًا: تزييف القناعات. يتعرّض الشباب المسلم اليوم لقصف فكري عنيف، وتزييف للوعي رهيب جدًّا. فصناع القرار في الغرب -وأذنابهم العرب- لا يترددون في التصريح بأنّهم يخوضون معركة طرح إسلام جديد يناسب أجنداتهم الخبيثة. فقد صرّح وزير الحرب الأمريكي (دونالد رامسفيلد) إبّان غزو العراق، قائلًا: «نخوض حرب أفكار مثلما نخوض حربًا عسكرية، ونؤمن إيمانًا قويًا بأنّ أفكارنا لا مثيل لها.. إنّ تلك الحرب تستهدف تغيير المدارك، وإنّ من المحتم الفوز فيها، دون الاعتماد على القوة العسكرية وحدها».[١] بل حتى الكنيسة -التي ترفع شعار المحبة والسلام والإيمان!- لم تتردد في خوض هذه المعركة التي تجتمع فيها الأحقاد الدفينة مع الأطماع المسعورة. فهذا صمويل زويمر تحدث في مؤتمر القدس عام ١٩٣٥، بوضوح شديد وصراحة كاشفة، فقال: «مهمة التبشير التي ندبتكم دول المسيحية للقيام بها في البلاد المحمدية ليست هي إدخال المسلمين في المسيحية، فإن في هذا هداية لهم وتكريمًا، وإنما مهمتكم أن تُخرجوا المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقًا لا صلة له بالله، وبالتالي لا صلة تربطه بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمم في حياتها».[٢] ولك أن تتساءل هل هؤلاء دعاة دين سماوي أو عصابة مجرمة تخطط لإضعاف الضحية لسلبها وسحقها! يجب أن نعترف بأن هؤلاء المفسدين في الأرض قد حققوا الكثير من النجاح في ساحة معركة الأفكار وتزييف القناعات ضد أبناء العالم الإسلامي!

---

(١) حرب الأفكار بين بأس الأمريكان و يأسهم. على موقع صيد الفوائد:

http://www.saaid.net/Doat/kamel/١٧.htm

(٢) الإسلام في مواجهة الغزو الفكري الإستشراقي والتبشيري. محمد بخيت ص٢٤٦.

الحادي عشر: بيئة الأسرة. حين ينشأ الشاب في أسرة جاهلة أو أسرة منفلتة أو أسرة متزمتة، فلا شك أنّه يشب وقد غُرست في نفسه بذور التمرد والثورة والانفلات، خصوصًا عندما يثيرها الاستبداد السياسي والتخلف الاقتصادي والهشاشة النفسية واتّباع الأهواء. ولهذا وجدت دراسات معاصرة أن زعماء الإلحاد المعاصر كان من أبرز أسباب إلحادهم وتمردهم وثورتهم هو البيئة الأسرية في مرحلة الطفولة والمراهقة. يقول عمرو شريف: «في دراسة بعنوان «النمط النفسي للملحد»، والتي أجراها عالم النفس بنيامين هلاهمي، على أعضاء الاتحاد الأمريكي لتقدم الإلحاد، ظهر أن نصف مَن تبنوا الإلحاد قبل سن العشرين «وهم الأغلبية» فقدوا أحد والديهم قبل هذه السن، وأن عددًا كبيرًا منهم عانى كثيرًا في طفولته وصباه. واستنتج من ذلك أن أية دراسة للملحدين ينبغي أن تنطلق من دراسة ظروف النشأة والتربية».[1] ومن المؤسف أن نقول بأن جمهور الأسر في بلداننا الإسلامية تدور بين التزمت الجاهل أو الانفلات الطائش، فيشبّ الابن أو الابنة ولديه القابلية للسقوط بأدنى سبب، خصوصًا مع الأوضاع الاقتصادية المزرية لجمهور الأفراد.

الثاني عشر: تحطيم القدوة. يحرص المنافقون الجدد على تحطيم القدوة (الصحابة، العلماء، الدعاة) في نفوس الشباب، تحت غطاء البحث والتجديد واكتشاف الحقائق المغيّبة! ويتم ذلك عبر انتقاء المواقف العابرة أو الأقوال الشاذة في

---

(١) الإلحاد مشكلة نفسية. عمرو شريف ص١٢٤. وقد ذكر مجموعة من مشاهير الإلحاد وكيف كانت حياتهم الأسرية في سن الطفولة ص١٦٢. ولتفصيل أكثر انظر: نفسية الإلحاد. بول فيتز ص٢٣ إلى ٢١٠، فقد ناقش وقارن تأثير الأسرة، خصوصـًا الأب، في نشأة نزعة الإلحاد في الأبناء.

دواوين التفسير والفقه وغيرها التي تخدم الهدف، والتركيز عليها وتضخيمها وتهويل أمرها. ثم جاءت هجمات الـ (١١/ ٠٩/ ٢٠٠١) التي وقعت بأمريكا ليُكثّف الغرب -وصبيانه من بني جلدتنا- من عملية شيطنة المسلم وتحطيم القدوة النموذجية في لاشعور الشباب المسلم، عبر إلصاق تهمة العنف والإرهاب ورفض الحضارة بكل النماذج البارزة والمضيئة في التاريخ الإسلامي، قديمًا وحديثًا. فصار كثيرون يندفعون لإثبات البراءة من التهمة ولو بالردة عن الإسلام. وإنما كان تحطيم القدوة ركيزة في خطة الهدم والإفساد، لأن الإنسان بطبعه لابد له من نموذج ومثال أعلى يسير في دربه وينسج على منواله، فإذا فقد القدوة كان كالذي يجد نفسه في الصحراء بلا معالم ولا هدى. وفقدان القدوة مما يعانيه الشباب اليوم!

الثالث عشر: علمنة الرؤية. منذ أن هجم الاحتلال الغربي على بلدان المسلمين كان حريصاً على علمنة المسلم، سواء الناحية الفكرية أم الناحية السلوكية أو الناحية الاجتماعية، بالإضافة -طبعًا- إلى السياسة والتعليم والاقتصاد وغير ذلك. لأنّ ذلك من أبرز السبل والضمانات المؤكدة لتنفيذ مختلف بنود أجنداته وتحقيقها. وإن أخطر ما في خطة علمنة شخصيّة المسلم المعاصر؛ أن مثاله النموذجي وقدوته العليا لا يمكن أن تنفصل عن الغرب، بأنساق تفكيره وأنماط حياته وطبيعة رؤيته الكونية، لأنّ «المغلوب مولع أبدًا بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيّه ونحلته وسائر أحواله وعوائده، والسبب في ذلك أنّ النفس أبدًا تعتقد الكمال فيمن غلبها وانقادت إليه: إما لنظره بالكمال بما وقر عندها من تعظيمه أو لما تغالط به من انقيادها ليس لغلب طبيعي إنما هو لكمال الغالب».[١] ولهذا لما كان الإلحاد

---

(١) مقدمة ابن خلدون ج٢ ص٥٠٥.

المعاصر مصدره الغرب، وكان للغرب الهيمنة الثقافية عالميًا، فلا عجب أن صدّر ضمن صادراته الرؤى الإلحادية بمختلف تجلّياتها، ومن ثم صار كثيرون يقبلون هذه الرؤى بحكم أنها من أمارات التطور والتقدم والحضارة!

الرابع عشر: كثرة الملهيات. حين يهيمن النموذج المادي على المرء؛ فإنّه يملك عليه وعيه وحسّه، ومن ثم يربط كل تفكيره وأحلامه ونشاطاته وعلاقاته بالبُعد المادي. هذه الهيمنة تُوقع صاحبها في حالة الغفلة، فينسى معنى كونه إنسانًا. ومع مزيد من الغفلة يتنقل إلى حالة الإعراض، فيُعرض عن الحق والبحث عنه والالتزام به. فـ «الاستغراق في شهوات الدنيا، ورغائب النفوس، ودوافع الميول الفطرية هو الذي يشغل القلب عن التبصر والاعتبار؛ ويدفع بالناس إلى الغرق في لجة اللذائذ القريبة المحسوسة؛ ويحجب عنهم ما هو أرفع وأعلى؛ ويغلظ الحس فيحرمه متعة التطلع إلى ما وراء اللذة القريبة؛ ومتعة الاهتمامات الكبيرة اللائقة بدور الإنسان العظيم في هذه الأرض؛ واللائقة كذلك بمخلوق يستخلفه الله في هذا الملك العريض».[(١)] وكانت النتيجة لكثرة الملهيات وانفجار أمواج الشهوات أن الشاب اليوم لا يجد فراغًا للنظر في العواقب الدنيوية فضلًا عن الأخروية، ولا يجد فراغًا للتفكر في نفسه والحياة والكون من حوله، ولا في حرب القناعات التي تشنّها عليه مختلف الجهات، كما لا يجد فراغًا للقراءة والبحث لتنمية عقله وتزكية نفسه والترقي في مدارج الفهم الأصيل، بل مستغرَقًا في تفاهة الملهيات المختلفة!

الخامس عشر: مصادر غير موثوقة. من أبرز عوامل الحيرة والشكوك ثم

---

(١) في ظلال القرآن. سيد قطب ج١ ص٣٧٣.

الإلحاد لدى كثير من الشباب، أنهم يبحثون عن حقائق الإسلام ومبادئه في مصادر غير مناسبة ولا أصيلة ولا موثوقة! وذلك لأنهم تشربوا فكرة ما فتئ المفسدون في الأرض يروجون لها وهي أن الفقهاء حرفوا الإسلام أو لم يفهموه كما ينبغي، فينفر هؤلاء الشباب لاشعوريًا من العلماء وكتب العلماء! وكذلك بسبب جهل هؤلاء الشباب وغفلتهم أن الأمة خصوصًا خلال القرنين الماضيين وبوتيرة متصاعدة، تتعرض لقصف فكري عنيف ومعركة قناعات شرسة، هدفها تزييف عقول الشباب وتنفيرهم من الإسلام، لإطالة أمد إخضاع العملاق الإسلامي المرعب لهم! ولهذا تجد هؤلاء الشباب أنه لا مشكلة عند أحدهم في قراءة وسماع كل الشبهات المثارة ضد العقيدة والشريعة، لكنه غير مستعد لقراءة وسماع نقض هذه الشبهات! ومع ذلك يقول لك (لقد ألحدت بعد دراسة وبحث عميق)! إن الغذاء المسموم لابد أن يدمر الجسم، وكذلك المعرفة والثقافة المسمومة لابد أن تزيف العقل وتغرس فيه الشك والحيرة والضلال! ولهذا ما زال العلماء يشددون على ضرورة أخذ العلم عن الثقات، وليس عن كل من هب ودب.

السادس عشر: الجهل بالسنن الإلهية. من أعظم أسباب الشبهات عند الشباب، جهلهم بسنن الإلهية في حياة البشرية. لقد وضع الله سبحانه مجموعة من السنن والنواميس الصارمة والثابتة والمطردة لضبط حياة الإنسان والمجتمعات، وليكون للتكليف والحساب معنى وقيمة. فأصلها يرجع إلى مبدأ الأسباب والمسببات والمقدمات والنتائج، وغايتها مرتبطة بالوظيفة التكليفية التي خُلق لها الإنسان. ومن ثم، فهي سنن تتجاوز عقيدة الفرد والمجتمع، سواء كان مؤمنا أو كان كافرًا. فمن لم

يفهم هذه الحقيقة الثابتة والمطردة في عالم الدنيا، لا عجب أن تلتبس عليه الأمور المتعلقة بوجود الشرور وانتصار الكفار وتخلف المسلمين وما شابه هذه المسائل. ولهذا اعتنى القرآن الكريم بهذا المبحث ولفت إليه النظر وحثّ على تأمله ودراسته، لأنّ تأمل سنن الله تعالى في حياة البشرية يكشف أن الأمور ليست فوضى، بل موضوعة بحكمة بالغة، فالله سبحانه ليس منفصلًا عن العالم والإنسان بل هو وثيق الصلة بهما، وأن الإنسان مسؤول عن مواقفه وتصرفاته، وأن حركة التاريخ والمجتمعات رهينة بفعل الإنسان، خيرًا وشرًّا، استقامة وانحرافًا، وكل هذا يؤكد للعاقل أن الأمر لن يتوقف عند الموت وفي حدود الأرض، بل لابد من وجود عالم آخر يكون فيه الحساب والثواب والعقاب، لأن الإنسان مسؤول عن مواقفه وتصرفاته.

السابع عشر: تكثيف الشبهات. لا يجد المسلم المعاصر الخيار أمام وسائل الإعلام والتواصل، وقد استغل المفسدون في الأرض هذه الوسائل لضخ كَمٍّ هائل من الشبهات والتشكيكات في غاية الحبكة والتدليس، وانخرط في هذه العملية بعض بني جلدتنا، فصار المسلم اليوم يعيش في بيئة كثيفة الشبهات! فهؤلاء المنافقون الجدد من بني جلدتنا، من علمانيين وحداثيين وماركسيين ونسويات، خصوصًا من يرفع منهم شعار تجديد الإسلام واكتشاف الحقائق التي غيّبها الفقهاء بتآمر مع السلطات الحاكمة خلال التاريخ، يقومون بدور خطير جدًّا بين الشباب، عبر آلية شيطنة العلماء والفقهاء والدعاة، وآلية تكثيف عرض الأقوال الشاذة في الفقه والتفسير والمواقف، وآلية طرح أقوال جديدة منبثقة عن مناهج تحليلية وتفسيرية

غربيـة علـى أنهـا أهـداف الإسـلام الحقيقيـة مـن خـلال التلاعـب باللغـة ومـوارد الاسـتدلال، وعـبر شـعارات برّاقـة كشـعار (عقلـي لـيس للبيـع) أو (لا تبـع عقلـك للفقهاء)! عبر كل هذا يتم إدخـال المسـلم المتـابع والمتلقـي في حالـة شـكوك وحيـرة وتشوش! وقد كنت أقول هذا في منشورات مختلفـة في فيسبوك، وأذكـر مـنهم عـدنان إبراهيم والهالك محمد شحرور وغيرهما، كما ذكـر الـبعض بـأن سـبب إلحـادهم هـو عدنان إبراهيم.[١]

الثامن عشر: الملاحدة المتخفون. تكميلًا للنقطـة السـابقة، يبـدو أن الملحـدين -بمختلف اتجاهاتهم ومدارسهم، كالعلمانيين والحداثيين والليبراليين والماركسـيين والنسويات- في الوسط العربي والإسلامي، يقومون بدور خطير ووظيفة خبيثة. فهـم يمكّنون للأجندات الطاغوتية من التحقق والانتصار، من خلال الجهود التي يبـذلونها لإخراج الصغار والشباب من الإسلام، أو على الأقل بقذفهم في دوامات ومتاهات لا يعرفون منها مخرجًا، إن على المستوى العقدي والمعرفي، وإن على المستوى القيمي والأخلاقـي. ولا شـك أنّ ذلـك يمثّـل نقطـة مركزيـة في الصـراع الفكـري والحضـاري الموجه ضد الإسلام والمسلمين. ولهذا لا تجد أحدًا ألحد، إلحادًا صريحًا أو متخفيًا

---

(١) وجدت أحمد السيد يُصرح بنفس هذه النتيجة، فقال: «وقد وقفت على حالات ترك أصحابها الإسلام، مصرحين بأن أول خطوة في انحدارهم ذلك كانت متابعة عدنان إبراهيم، ثم الانحدار إلى محمد شحرور، ثم السقوط إلى المذهب الربوبي أو الإلحاد». سابغات: كيف نتعامل مع الشبهات الفكرية المعاصرة ص١٧. كما يمكن مشاهدة حلقة الدكتور إياد قنيبي بعنوان(لماذا يلحد بعض أتباع عدنان إبراهيم؟) وهي على الرابط التالي: https://youtu.be/CvQRcslNyjg

إلا وتجد ولاءه إلى المعسكر الذي صار ينتمي إليه، فهو المنهل والمركز والغاية بالنسبة إليه! وكيف يمكن للأمة أن تقوم لها قائمة، وهناك حشود من أبنائها ولاؤهم لأعدائها، وأهواؤهم مع أعدائها، ومنبع ثقافتهم من أعدائها! فمحمد عابد الجابري يقول: «الملاحظة التي أبداها أحد الزملاء حينما قال: «إن الأبستمولوجيا الفرنسية حاضرة أكثر فيما كتبتَ»، فعلًا، هذا صحيح، وهو راجع إلى عدة أسباب، منها أسباب ذاتية، ومنها أسباب موضوعية، الأسباب الذاتية هي أننا في المغرب مرتبطون بالثقافة الفرنسية أكثر مما نحن مرتبطون بالثقافة الأنغلوسكسونية أو غيرها».[١] بل إن محمد أركون اعترف بوضوح أن عدساته لرؤية التراث الإسلامي هي عدسات فرنسية صارخة، فيقول: «المنهجيات التي أطبقها على التراث العربي الإسلامي هي المنهجيات نفسها التي يطبقها علماء فرنسا على تراثهم اللاتيني المسيحي أو الأوروبي. وللأسف، فإن الجامعات العربية والإسلامية لا تزال بعيدة عن هذه الطفرة المنهجية التي حصلت في جامعات فرنسا منذ أكثر من ربع قرن، نحن في هذا المجال متأخرون جدًّا».[٢]

التاسع عشر: غواية الشيطان. من أعظم ما يغفل عنه الإنسان باعتباره من أسباب ضلاله وانحرافه، عداوة الشيطان له، رغم «أن الشيطان من أعظم أسباب صد بني آدم عن قبول الحق والوقوع في الضلال»،[٣] والعجيب أن بعض من تكلم في

---

(١) التراث والحداثة: دراسات ومناقشات ص٢٩٣.

(٢) الفكر الإسلامي: نقد واجتهاد ص٢٤٧.

(٣) الأسباب التي تصد عن قبول الحق. نايف العتيبي ص٥٧.

أسباب إلحاد الشباب وسقوطهم في حمأته لا يستحضرون هذا السبب الغيبي، عداوة الشيطان، علمًا أن حضور الشيطان في القرآن باعتباره من أعظم أسباب ضلال بني آدم وفسادهم وانحرافهم وكفرهم وشركهم، حضور بارز ومكثّف ومتنوع. يكشف القرآن بأن هذه العداوة من إبليس للإنسان بدأت منذ اللحظة التي أمر الله تعالى فيها بالسجود لآدم، فأطاع الملائكة عليهم السلام الأمر وأبى إبليس كبرًا وغرورًا وعجبًا بنفسه: ﴿فَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾.[(١)] ويخبرنا القرآن بإعلان إبليس التحدي لله سبحانه بأنه سيمضي عمره الدنيوي مهما طال، لإغواء نسل هذا المخلوق الذي تسبب له في اللعنة الأبدية: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَـٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾.[(٢)] كما بيّن لنا القرآن خطة إبليس لتنفيذ هذه المهمة: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لَـَٔاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَـٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَـٰكِرِينَ﴾.[(٣)] وأيضًا فضح غاية إبليس النهائية من الإصرار على إغوائهم وإضلالهم وإبعادهم عن الله خالقهم: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾.[(٤)] ولأجل هذا كله، ما زال القرآن يُذّكر بالعداوة الشديدة من إبليس للإنسان، ويحذر من التهاون بها، لأنها عداوة ثابتة لكل إنسان في كل زمان ومكان إلى يوم القيامة لا تني ولا تفتر لحظة واحدة: ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ

---

(١) طه: ١١٧.

(٢) الإسراء: ٦٢.

(٣) الأعراف: ١٦.

(٤) فاطر: ٦.

عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.[١] ولذلك يأمر سبحانه الإنسانَ بالحذر الشديد من الاستجابة لكيد الشيطان واتّباع زخرفة وساوسه والانخداع بتزيينه للانحراف، لأن أساليبه في الخداع والإضلال كثيرة ومتشابكة كما قال الحق تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾.[٢] فكل كفر وضلال وشرك وإلحاد وفساد وانحراف وشر في البشرية منذ كانت إلى أن تفنى، الشيطانُ أحد أبرز أسبابه. ولا سبيل للاعتصام من هذه العداوة التي تستهدف إضلال الإنسان عبر فنون من الخطوات والتزييفات، سوى باتباع الوحي الإلهي، فهو الجُنّة الواقية لعقل الإنسان وقلبه وسلوكه وحياته من الانزلاق في فخاخ إبليس، كما أمر الحق سبحانه بذلك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً﴾.[٣] وكذلك بيّن أنّه أعرض عن الله تعالى، ولم يأخذ بعلم الوحي الذي أنزله، ولم يتّبع سبيله، كانت عقوبته تسليط إبليس عليه ليضله عن الحق: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾.[٤]

العشرون: تزيين المصطلحات. أحد أهم الوسائل لتزييف الوعي وتغيير القناعات، هي تزيين الكلمات وزخرفة المصطلحات ذات المضامين الفكرية والحمولة العقدية. والملحدون الصرحاء والأخفياء يدركون هذه الحقيقة، ولذلك

---

(١) الزخرف: ٦٢.

(٢) النور: ٢١.

(٣) البقرة: ٢٠٨.

(٤) الزخرف: ٣٦.

يحرصون على استعمال منظومة من المصطلحات البرّاقة في ظاهرها والخطيرة على العقيدة والوعي في باطنها، وذلك من أجل إخفاء المقاصد الحقيقية والأهداف النهائية لمشاريعهم ومذاهبهم، ولأن ذلك من أسهل الطرق لتمرير مجموعة من الأفكار إلى المتلقي، فيتبنى معانيها دون أن يعي ودون أن يشعر، حتى يتشرّبها، فيفكر ويشعر ويعيش حياته في إطارها وبوحي منها، وكذلك لصرف انتباه الشباب المسلم عن حقيقة كونه يتعرّض لقصف عنيف ومعركة شرسة، ضد دينه وعقيدته ووعيه وهويته. يعترف مكسيم رودنسون -عالم اجتماع فرنسي- بهذه الحقيقة فيقول: «إحدى وسائل التجهيل الأكثر ذيوعًا في الوقت الحاضر هي تلك التي تقوم على تعمد غموض المفاهيم المستخدمة واستغلال هذا الغموض».[1] وتغيير معاني الكلمات والتلاعب بالمصطلحات أول من اخترعه إبليس لعنه الله، مع أبينا آدم عليه السلام، وذلك حين نهى الله آدم عن الأكل من شجرة واحدة، فجاء إبليس فوسوس إليه بأنه نهاه عن (شجرة الخلد والملك الدائم) [2]. فهؤلاء اليوم الذين يخدعون الشباب المسلم عن دينهم تحت شعارات فاتنة، إنما إمامهم إبليس. فالطعن في الصحابة والعلماء ورفض المنظومة التفسيرية والفقهية وقواعد الاستدلال هذه تتم تحت شعار (عقلك ليس للبيع)، وشعار (القرآن واضح). وخروج المرأة متبرجة تبرجًا مباشرًا أو غير مباشر (الحجاب المزركش)، واللهاث المسعور وراء العمل للحصول على المال، هذا يتم تحت شعار (حققي ذاتك)، وشعار (أنت لست

---

(١) الإسلام والرأسمالية ص٢٢.

(٢) ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾. طه ١٢٠.

خادمة). ورفض الشريعة نظامًا للحياة في تجلياتها المختلفة، السياسية والاقتصادية والتربوية وغير ذلك، هذا يتم تحت شعار (التطور الحضاري)، وشعار (القيم العالمية)، وشعار (حقوق الإنسان)، والكفر بالله والتمرد على الإيمان يتم تحت شعار (العلم)، وشعار (العقلانية)، وشعار (التحرر من الخرافة). وكل هذا من أجل تزييف وعي الشباب وسلخهم عن عقيدتهم وتنفيرهم من دينهم.

الحادي والعشرون: الآلة الإعلامية. تمكن المفسدون في الأرض من السيطرة على وسائل الإعلام المعاصر، وقد أتاحت لهم هذه السيطرة من إفساد النفوس وتزييف العقول، فهي ليست فقط وسائل لتزيين الرذائل والفواحش السلوكية، كالزنا والعلاقات الغرامية خارج الزواج، وصبغ النفس صبغة مادية عنيفة، وتفكيك الأسرة واعتبارها من مخلفات الماضي، بل هي أيضًا وسائل لتمرير الأفكار المنحرفة وغرس التصورات الخاطئة، وقلب الحقائق وتزييفها. وقد عرض الأستاذ محمد أحمد حسن في كتيبه المفيد «الميديا والإلحاد» كيف يستغل الملاحدة الميديا لصالح تمرير الأفكار والتصورات الإلحادية وغرس بذورها في المشاهدين والمتلقين، وهي: أولًا: استغلال ثغرات النفس والعقل والخيال! ثانيًا: الإغراق في عرض الشهوات والعري وتحبيب الزنا والخيانة! ثالثًا: تصوير الوجود والحياة بمظهر العبثية والعدمية واللاغائية! رابعًا: المغالاة في الخيال العلمي لتهميش قدرات الإله الخالق! خامسًا: استغلال لامعقوليات النصرانية والأديان المحرفة كذريعة للإلحاد! سادسًا: تمثيل الإله بصورة غير مباشرة لخلع الرؤى الإلحادية عليه! سابعًا: استغلال أكاذيب التطور كبوابة للإلحاد! ثامنًا: خلع صفة العقل على الذكاء الاصطناعي! ثم

أخذ في تفصيل كل نقطة من هذه النقاط الثمانية. وهو كتاب جدير بالقراءة خصوصًا من طرف الشباب ليعرفوا كيف يتم التلاعب بنفوسهم وعقولهم، وكيف يتم غرس الرؤية الإلحادية في لاشعورهم، فيكون الإلحاد ديانتهم الجديدة.

الثاني والعشرون. الفكر الغربي. معرفة اللغات الأجنبية والاطلاع على النتاج الفكري والفلسفي الغربي والأجنبي عمومًا. فجمهرة عريضة من الشباب اليوم قد تيسر لهم معرفة أو إتقان لغة أجنبية أو أكثر حتى دون العشرين من أعمارهم، هذه المعرفة باللغات الأجنبية ساعدتهم على الاطلاع المباشر على الأفكار الغربية، ومن لا يعرف اللغات يتمكن من هذا الاطلاع عبر الترجمة. وبلا شك، فإن شخصًا بلا حصانة شرعية ومعرفية يفتح دواوين الفكر الغربي بشتى شعبه، لابد أن يسقط في فخاخه، خصوصًا مع التضخيم الهائل والمتعمد لعظمة العقل الغربي وفكره وفلسفته وبحوثه، والنتيجة الحتمية لذلك هي التشبّع بفكرة النقد والتمرد ومعارضة الإسلام والإيمان، ولذلك قد قلت مرة بأنه ما من أحد أكثر النظر في الفكر الغربي دون حصانة شرعية متينة لابد أن يكون في قلب غلٌّ على الإسلام وأهله، كما قال ابن تيمية: «من تعود معارضة الشرع بالرأي لا يستقر في قلبه الإيمان».[١] ولهذا ما زال الغرب منذ احتلاله بلاد المسلمين حريصًا على نشر معاهد تعليم لغاته، لأنها تختصر عليه الكثير من الجهد في إفساد عقول الشباب وسلخهم عن عقيدتهم.

الثالث والعشرون. غياب الفكر النقدي. حين لا يملك المرء تفكيرًا نقديًا، بمعنى أنه يقبل الأفكار بلا دليل واضح ولا برهان ساطع، لا جرم أن تتسرب إليه

---

(١) درء تعارض العقل والنقل ج١ ص١٧٨.

مجموعة من الأفكار والتصورات حتى بلا وعي منه! وهذا يكون نتيجة للجهل وقلة الاطلاع، كما يكون نتيجة لعدم وجود معايير وأصول مرجعية يمكن محاكمة الأفكار إليها، ومن ثم تجد هذا الإنسان سريع التقلب في أفكاره، ولو من النقيض إلى النقيض، فهو يعيش في فوضى فكرية ونسبية معرفية كارثية. ولقد نبه الصحابي الجليل حذيفة بن اليمان ﵁ عن أن غياب الفكر النقدي من أشد الفتن التي يمكن أن تصيب المرء، فقد سئل: أي الفتن أشد؟ فقال: «أن يُعرض عليك الخير والشر، فلا تدري أيهما تركب». ومن مصائب الشباب في هذا العصر فقدانهم لهذا النمط من التفكير، ولذلك سهل على أهل الزيغ والإلحاد أن يمرروا إليهم الكثير من الأفكار الزائفة والتصورات المنحرفة في قوالب مزخرفة وتحت شعارات ضخمة، ويكفي أن نذكر هنا كثرة الشباب من الجنسين الذين يقعون في حيرة شديدة تؤدي ببعضهم إلى الإلحاد، لمجرد مشاهدة فيديو في يوتيوب أو قراءة بعض المنشورات في وسائل التواصل الاجتماعي! ولخطورة غياب التفكير النقدي، وجدنا أهل العلم يضعون منظومة من الأسس المعيارية لمعرفة الحق والباطل، والصواب والخطأ، سواء تعلق الأمر بالعقيدة أم بالشريعة أم بغير ذلك. أما هؤلاء الشباب، فيسلمون بكل ما يسمعونه أو يقرؤون بلا أدنى شك، لمجرد إعجابهم بشخصية المتكلم وتهويل كلماته![١]

---

(١) تأمل كلمة الغزالي: «من لم يشك لم ينظر، ومن لم ينظر لم يبصر، ومن لم يبصر بقي في العمى والضلال». ميزان العمل ص٤٠٩.

كانت تلك أهم وأبرز عوامل جنوح الشباب اليوم إلى الإلحاد. ثم جاء ما عُرف إعلاميًّا بـ(الربيع العربي)، أي انفجار موجة ثورات شعبية في بعض البلدان العربية، والتي بدأت في تونس نهاية عام (٢٠١٠م-١٤٣٢هـ)، وما نتج عن ذلك من الآثار الكبيرة على مستوى الوعي والعلاقات الفردية والاجتماعية. غير أنّ أهم المعالم لنتائج هذه الثورات بخصوص موضوعنا تجلّت في التالي:

أولًا.. تواطؤ العلمانيين مع الطغيان السياسي ضد الإصلاح والعودة إلى الشريعة كما تطالب الشعوب، ويكفي هذا التحالف القذر للإطاحة بأي حزب إعلانه أن مرجعيّته هي الإسلام، رغم التزامه بلعبة الانتخابات والأطر العلمانية وقصة الديموقراطية الموهومة!

ثانيًا.. تغير مواقف بعض المشايخ والدعاة بشكل مثير بخصوص ما يتعلّق بمطالب الشعوب المسلمة الثائرة، فأعلنوا تصريحًا وتلميحًا الاصطفاف بجانب السلطات الحاكمة، وراحوا يتجاهلون معاناة هذه الشعوب ومطالبها وثوراتها في منشوراتهم وتغريداتهم!

ثالثًا.. انتشار دعوات الثورة والتمرد على الثوابت الشرعية وتجاوز التراث الإسلامي بدعوى أنهما السبب الأكبر في هذا التخلف والضياع والتشرذم الذي تعيشه الشعوب المسلمة. فصار البديل هو الإلحاد أو العلمانية من أجل دخول عالم التقدم!

في ظل هذه الأجواء الضاغطة الخانقة من الطبيعي -ونحن نفسر ولا نبرر- أن يفكر المراهق والشاب باللحاق بركب الثورة المقدسة على كل شيء من خلال

إعلان الشك في كل شيء، والطعن في كل شيء، لأنّه الآن لم يعد يقبل أن يبيع عقله للأوهام والخرافات! ونحن وإن كنا نعترف بضغط هذه العوامل على عقلية الشباب ونفسيتهم، إلا أننا لا نبرر لهم أبدًا انتقالهم إلى الإلحاد، بل نحمّلهم المسؤولية كاملة عن ذلك،[١] فالحق ليس به خفاء، ومَن بحث عنه وجده، كما قال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾.[٢] قال ابن القيم: «أكمل الناس هداية أعظمهم جهادًا، وأفرض الجهاد جهاد النفس، وجهاد الهوى، وجهاد الشيطان، وجهاد الدنيا، فمن جاهد هذه الأربعة في الله، هداه الله سبل رضاه الموصلة إلى جنته، ومن ترك الجهاد فاته من الهدى بحسب ما عطّل من الجهاد».[٣] وقال عبد الرحمن المعلمي اليماني: «من كان في قلبه محبة للحق ورغبة فيه وإيثار له على ما سواه رزقه الله الإيمان لا محالة، ولهؤلاء درجات بحسب درجاتهم في المحبة والرغبة والإيثار، فمنهم مَن تقوى هذه الأمور عنده وتصفو فيصفو له اليقين بالفطرة وأدنى نظر، ومنهم مَن يكون دون ذلك فيحتاج إلى زيادة».[٤] وإنّ قرارًا وجوديًا كبيرًا تترتب عليه أمور خطيرة في حياة الإنسان وبعد مماته، كيف يمكن للعاقل أن يتهاون به ويندفع لاتخاذه وهو جاهل بلوازمه ومآلاته!

* * * *

---

(١) هذا لا ينفي تحمل كل الذين يدفعون بالشباب إلى الإلحاد المسؤولية أمام الله تعالى.

(٢) العنكبوت: ٦٩.

(٣) الفوائد ص٨٢.

(٤) القائد إلى تصحيح العقائد ص١٦٤.

(٣) تزيين الشبهات في النفوس

إن مما لا يدرك الشباب اليوم، عللًا لميلهم نحو التمرد والثورة والإلحاد، أن أعداء هذه الأمة يعملون بجد واجتهاد على تزيين الباطل في نفوسهم لكي تميل إليه تلقائيًّا، ولذلك كان أسلوب زعماء الإلحاد عاطفيًّا، ليس من العقل في شيء، من أجل أن هذا الأسلوب له تأثير عظيم على جمهور الناس، وبحكم أنّ النفس إذا أحبّت شخصًا أو شيئًا أو فكرة، حرصت على تضخيم كل مواضع الإثارة والإغراء فيه، وعملت على ابتكار فوائد ومنافع له، وذهبت في الإشادة بعظمته وقيمته كل مذهب، لكي تبرر لنفسها حبها له واختيارها له وإقبالها عليه! وقل الشيء نفسه إذا كرهت النفس شخصًا أو شيئًا أو فكرة، فإنها تحرص على تضخيم عيوبه وتقليل فوائده وإهدار قيمته والتركيز على مواطن القبح فيه! وإذا كانت مداخل النفس في صناعة الاختيارات الفكرية متشعبة وغامضة، ولا يكاد ينجو منها إلا الذين حفظهم الله تعالى وتولاهم بعنايته، بل من نجا من الجواذب المادية لاختياراته وقناعاته ومواقفه، كالمال والشهرة، فإنه لا يكاد يتحرر من الجواذب المعنوية، لأن «المطامع والشهوات المعنوية التي تؤثر في النفس، وتحرّف العقل عن الإنصاف، أشد على الإنسان وأخفى من المطامع والشهوات المادية، وكثير ممن يتوهمون تجرد عقولهم في تصرفاتهم هم في الحقيقة ينساقون إلى منافع معنوية تهواها نفوسهم وتطمع فيها، فيتأثر اختيار عقولهم تبعًا لذلك من حيث لا يشعرون».[١]

---

(١) الفصل بين النفس والعقل. عبد العزيز الطريفي ص٩٧.

ومن هنا، فالذي يحدث مع الشباب الذين أغرقوا أنفسهم في ظلمات الشبهات، هو أنهم لا يستطيعون التوقف عند حد معين، بل كلما قرأوا شبهة أو سمعوا بها، في منشور أو مقال أو فيديو، فتح لهم الشيطان باب شبهة أخرى، إيهامًا منه لهم بأن هذا الدين باطل، بدليل أن هناك شبهات أخرى من المهم أن تطلعوا عليها، ثم لا تزال أمواج الشبهات تتلاعب بهم وتتقاذفهم، حتى يصلوا إلى مرحلة الإدمان على قراءة وسماع الشبهات، والكراهة والنفور من سماع الحق وأدلته والرد على تلك الشبهات والمغالطالت، إذ كان ذلك يمنحهم شيئًا من الراحة النفسية لتبرير شكوكهم أو حتى خروجهم من الإسلام وارتدادهم عنه، مثل مدمن الخمر أو المخدرات، لا يزال يشربها ويتناولها ليجد فيها بعض النشوة والراحة، إلا أنه كلما فعل ذلك غاص أكثر في الإدمان وعسر عليه التحرر من قبضته!

حين تكلم العلامة ابن خلدون عن سلسلة عالم الوجود وترابط أفعال المخلوقات، بيّن بأن النظر في أسباب الموجودات وعللها، لا يزال يتسع ويتضاعف في التحليل والتعليل، إلى أن يصل العقل إلى مستوى يعجز فيه عن مواصلة التقدم، لشدة تشابكها واتساعها وغموضها، فلا يمكن الإحاطة بذلك كله إلا لمن له العلم المطلق والحكمة المحيطة، وهو الله سبحانه، ثم قال عن محاولة العقل استيعاب سلسلة الأسباب: «وربما انقطع في وقوفه عن الارتقاء إلى ما فوقه، فزلّت قدمه، وأصبح من الضالين الهالكين، ولا تحسَبَّن أن هذا الوقوف أو الرجوع عنه في قدرتك واختيارك، بل هو لون يحصل للنفس وصبغة تستحكم من الخوض في الأسباب على نسبة لا نعلمها، إذ لو علمناها لتحرزنا منها بقطع النظر عنها جملة. وأيضًا فَوَجْهُ تأثير

هذه الأسباب في الكثير من مسبباتها مجهول. ولا تثقنَّ بما يزعم لك الفكر من أنه مقتدر على الإحاطة بالكائنات وأسبابها، والوقوف على تفصيل الوجود كله، وسفّه رأيه في ذلك، وليس ذلك بقادح في العقل ومداركه، بل العقل ميزان صحيح، فأحكامه يقينية لا كذب فيها، غير أنك لا تطمع أن تزن به أمور التوحيد والآخرة وحقيقة النبوة وحقائق الصفات الإلهية وكل ما وراء طوره، فإن ذلك طمع في محال».(١) فتأمل هذا الكلام، فإنه كلام كبير جدًّا!

إذا انتبهت لهذا، فلك أن تتصور قيمة اختيار شاب لا يزال أسير رعونات الشباب، للإلحاد والتمرد والكفر، بدعوى العقل والعلم والتقدم والاجتهاد! ولهذا وجدنا بعض كبار الملاحدة الذين عادوا إلى شيء من الحق بعد أن تقدم بهم السن، وجدناهم يعلنون أن اختيارهم للإلحاد في مرحلة المراهقة كان طيشًا ساذجًا، وكان قرارًا خاضعًا لمجموعة من الضغوط الخارجية!

«أنتوني فلو» الذي كان يُلقب بـ«أشرس الملاحدة» قبل تحوله إلى الإيمان يقول: «لقد قلت في بعض كتاباتي الإلحادية المتأخرة، أنّني وصلت إلى نتيجة بشأن عدم وجود إله بصورة متعجّلة جدًّا، وبشكل سطحي جدًّا، والذي تبيّن لي فيما بعد أنّها كانت أسبابًا خاطئة».(٢) والشيء نفسه يحدثنا به الأكاديمي بول فيتز -عالم النفس- الذي قضى عشرين عامًا في الإلحاد، فيقول: «أحد الانعكاسات التي رأيتها أن أسبابي في أن أصبح ملحدًا شكاكًا وأحافظ على ذلك من عمر الثامنة عشرة حتى

---

(١) مقدمة ابن خلدون ج٣ ص٩٦٦. بتصرف يسير.

(٢) هناك إله. أنتوني فلو ص١٩.

أصبحت في الثامنة والثلاثين كانت سطحية بالكامل وتفتقر لأساس روحي وفكري جدي، وعلاوة على ذلك اقتنعت أن هذه الأسباب شائعة بين الأمريكان، خصوصًا في المجتمعات الفكرية والأكاديمية والفنية والإعلامية».[1] فاعتبر هذا الكلام بكلام الشباب الملحد من حولك وانظر ماذا تجد، وبماذا ترجع!

* * * *

(٤) انتفاء مبررات الإلحاد

ذكرتُ سابقًا بعض أهم العوامل التي ينشأ في إطارها قرار الإلحاد. وهنا أحب التنبيه على أنّ كل ما ذكرناه هناك -أو ما يمكن أن يُذكر مما غفلت عنه- لا نعني به أنه مبرر كاف وعذر مقبول وسبب معتبر للانتقال إلى الإلحاد وإعلان الردة واختيار الكفر! ومن هنا؛ فنحن حين نتحدث عن العوامل المهيّئة والعناصر الدافعة والمحفّزة لخيار الإلحاد -إذ كل قرار، صحيح أم خطأ، لابد أن ينشأ في إطار عوامل معيّنة ومثيرات معيّنة، بغض النظر عن مدى صحة الربط بينهما- فلسنا نرمي لتقديم التبرير وإنما نحاول التفسير.

وإذا كان الملحد اليوم يعرض مجموعة من المبررات لانتقاله إلى الإلحاد، بالرغم من أنّ أحد الأخطاء الكبرى التي يقع فيها الملحد بخصوص هذا الأمر، هي خلطه بين التوظيف لهذا العامل المعلن لتبرير إلحاده، وبين الحقيقة ولازم هذا العامل في واقع الأمر، بدليل أن هناك ملايين من المسلمين تعرّضوا لنفس ما تعرّض

---

(١) نفسية الإلحاد. بول فيتز ص٢١٣.

له الملحد من آلام وشرور وصعوبات وضغوط، كما أن هناك آلافًا من المسلمين حصلوا على شهادات علمية راقية، ومع ذلك لم يكن لا هذا ولا ذاك دافعًا لهم لترك الإسلام والانتقال إلى الإلحاد!

إذا كان هذا بيّنًا واضحًا؛ فمن الواجب الإشارة إلى بروز أصوات -بعضها من المشتغلين في موضوع الإلحاد!- تعمل من طرف خفي على تبرير قرار إلحاد الشباب في عالمنا العربي! فبالنسبة لهؤلاء، فإن اللوم كله ملقى على الخطاب الديني، وعلى الاستبداد السياسي، وعلى الظروف الاجتماعية، وعلى التخلف الحضاري، وعلى الصدمات النفسية، وغير ذلك! أما الملحد نفسه الذي آثر خيار الكفر ورأى في الانتقال إليه بديلًا أفضل، بل يؤكد على أن هذا الانتقال جاء نتيجة وعي واطلاع وذكاء، هذا الملحد لا يكاد يُذكر باللوم عند هؤلاء، إلا على أساس كونه مريضًا نفسيًا ومغلوبًا على أمره، ولذلك فهو يحتاج للاحتواء، ومن الأفضل عدم جرح مشاعره!

نعم، بلا شك أننا ندعو لعدم التعامل مع الشباب الملحد بمنطق واحد، بحكم أن دوافع إلحادهم مختلفة، بل يجب التعامل مع كل حالة بأسلوب خاص حسب طبيعتها، وبالمنهج الذي أمر الله تعالى به كما في قوله: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾ .[١] وهذا ما يبرز أهمية عنصر الاحتواء لهؤلاء الشباب المغرَّر بهم، خصوصًا حين يتعلّق الأمر بالأطفال والمراهقين، كما أننا ندعو لعدم التهاون بالأمر واعتباره مجرد موضة أو نزوة عابرة، كما يروج البعض، إذ إن ما يتعرّض له شبابنا اليوم من الشبهات والشكوك، حول الله

---

(١) النحل: ١٢٥.

والقـرآن والسـنة والسـيرة والتـاريخ والقـيم والتشـريع والحيـاة، شـيء رهيـب جـدًّا، خصوصًا وأن الجميع اليـوم لا يمكـن أن يكـون بمنـأى عـن الإنترنـت والـدخول إلى المواقع والمجموعات والفيديوهات، وخصوصًا أن الملاحدة اليوم حريصـون على الوصول إلى مختلف طبقات المجتمع، والتحدث بلغتهم الشعبية البسيطة!

إذا كنا نعترف بهذا وندعو إليه ونؤكد عليه -ونعتقـد أن كثيـرًا ممـن يشـتغلون في هذا المجال يوافقون على هذا المذهب وينادون به- فنحن نؤكـد رغـم ذلـك علـى أن كل ما يـبرر بـه الملحـد إلحـاده، ممـا ذكرنـاه أو مـا قـد يبتدعـه الملاحـدة مسـتقبلًا مـن المبررات، لا قيمة لـه، لا في ميـزان الله تعـالى ولا في ميـزان الحـق! ومـن ثـم، فـالحكم بـالكفر والإجـرام والضـلال يشـمل الجميـع. لأنّهـم جميعًـا أنكـروا أوضـح حقـائق الوجود، وركبوا متن التمرد والعناد على الخالق العظيم، وآثروا العماية والغواية على البصيرة والهداية، وضحوا بمنطق العقل وجوهر الفطرة وحقائق الحياة اتّباعًا للأهواء الجامحة والأوهام السانحة! إذ لا شك أنّ إنكار وجود الله تعالى والتمرد عليه أعظـم ظلم يمكن أن يقترفه الإنسـان، كمـا نبّه علـى ذلـك الله سـبحانه بقولـه: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾.[1] فهذا بخصوص الشرك، فما بالك بـدعوى الإنكـار المطلـق! ولهـذا كذلك؛ فإنّ كل من مـات مـنهم علـى الإلحـاد -رغـم اختلاف دوافـع قـرار ومـبررات الإلحاد لديهم- نحكم بأنّ مصيره إلى النار.

هذا ما يجب أن يقال للملحد ويواجَه به، أي أن يواجَـه بتهافـت قـراره وخيـاره، وأن تُكشف له الخلفية التي نشأ في بيئتها قرارُه، ويُصارَح بـأن خيـاره وانتقالـه للإلحـاد

(١) لقمان: ١٣.

لا صلة له بالعقل والمنطق ولا بالعلم والموضوعية، وأن يُواجَه بالآثار الخطيرة والعواقب الوخيمة لقراره، على المستوى المعرفي والسلوكي، كما على مستوى المصير الأبدي. ولا يعنينا في شيء أن يقبله أم يرفضه، فله الخيار في ذلك وهو حرٌّ في قراره، إلا أنّ عليه تحمل عواقب ونتائج هذا الخيار والقراره إن في الدنيا وإن في الآخرة. أما ما يقوم به البعض هنا وهناك من محاولة تبرير إلحاد الشباب، وتصوير الأمر على أنّهم مجرد ضحايا، ومن ثم إلقاء اللوم على هذا العامل أو ذاك![1] أقول: هذه المحاولات جريمة نكراء، وخيانة عظيمة لله تعالى وللإسلام وللحق، ولا يمكن أن يفهم منها المراهقون والشباب إلا تبرير انتقالهم للإلحاد تحت شعار (أنتم معذورون)! بل لا شك أن هذه الميوعة وهذا المجون الفكري خيانة للملحد نفسه. فالملحد عندما يسمع ويقرأ كيف يعمل هؤلاء على تبرير موقفه وانتقاله للإلحاد، هل تظن أنّه سيتحرك لمراجعة نفسه وقناعته!

كما أنّ من غرائب بعض أفراد هذه الفئة التي تحرص على تمييع العقيدة، أنهم صاروا يروجون لعدم وصف الملحد بالكفر، كما قالوا بخصوص النصارى واليهود وغيرهم، متهمين مَن يُعلن ذلك ويواجه به الملاحدة بالتشدد! ويذكّرونك بآيات الرحمة والتسامح، مع لَيٍّ لأعناق آيات وأحاديث قد تخدم قولهم، وتجاهل صارخ

---

(١) إذا التزمنا التبرير للآخر الذي وقع في الكفر، أليس إعذار النصارى واليهود وغيرهم، أولى وأحرى، فهم أيضاً من الناحية العمليّة ضحايا أئمتهم وقادتهم الدينيين، كما أنّ معهم أصل الإيمان بالخالق عكس الملاحدة الأقحاح! بل يجوز إعذار إبليس نفسه في كفره ومواجهة الله تعالى بالتمرد والرفض لأمره بالسجود لآدم عليه السلام!

لبعضها الآخر، وأنّ الحكم عليه بالكفر غير ممكن ما لم نعرض عليه الإسلام عرضًا كافيًا شافيًا، ونتأكد من أنه فهم واستوعب بشكل كامل، إلا أنه رفض عن إصرار وتعمد! أتصور أنه بقي أن يقولوا لا يُحكم عليه بالكفر ما لم ينزل عليه الوحي ثم يرفضه! ولست أدري ماذا يفعلون مع آيات تكفير النصارى واليهود والمشركين عمومًا، وهي ليست بالقليلة في ثنايا القرآن والسنة!

وضمن هذا السياق؛ أشير أيضًا إلى ما يلهج به بعض الكُتّاب والباحثين في هذا الموضوع، حول قلة الكتابات التي ترد على الإلحاد، وتشرح الحقائق للشباب، وتبيّن مغالطات الشبهات. وهذا لعمر الله، شيء عجبٌ! فيكفي التذكير بموسوعة «موسوعة محاسن الإسلام والرد على شبهات اللئام»، صدرت في ١٢ مجلدًا، ولدينا أيضًا موسوعة «بيان الإسلام: الرد على الافتراءات والشبهات»، صدرت في ٢٤ مجلدًا، كما أن لها موقعًا إلكترونيًا، وكلاهما قام عليهما مجموعة من المتخصصين، بالإضافة إلى عشرات الدراسات من كتب ومقالات وفيديوهات، حول الإلحاد مباشرة، وحول القرآن والسنة والفقه وأصول الفهم ومقاصد الشريعة والسيرة النبوية والتاريخ الإسلامي والمفاهيم الإسلامية، ومعركة الأفكار المعاصرة التي يشنها الغرب وأذنابهم على المجتمعات الإسلامية، بعضها متخصص وبعضها لعموم القرّاء، ومع ذلك تُتهم المكتبة الإسلامية بأنها فقيرة في الأجوبة على أسئلة الشباب، بل ويُتهم الخطاب الإسلامي بأنه السبب الأكبر في إلحاد الشباب! فهل كل هذه المصادر لا تكفي الملحد العربي ليقتنع؟! أم أنه هو الكسول الجهول الذي لا يحب القراءة والبحث والدراسة؟! وليت شعري أنّى لجاهل أن يقتنع بالأدلة والبراهين،

وهو أساسًا لا يقرأ في المجال الذي جعله سبب إلحاده! حتى إن من الملاحظات المثيرة، أن الفيديوهات في يوتيوب التي تنشر الشبهات وتطعن في الإسلام والإيمان بطرق مختلفة نسبة المشاهدة لها أعلى بكثير جدًّا من الفيديوهات التي ترد على تلك الشبهات!

هذه ليست دعوة لعدم مواصلة الكتابة من زوايا مختلفة، فكثرة الكتابة وتكرار مضامين الأفكار مهم جدًّا للانتصار في معركة الأفكار، وإنما المقصود ضرورة إلقاء اللائمة على الملحد نفسه، بسبب كسله وجهله ورفضه القراءة الجادة!

* * * *

(٥) رفض القرآن لتبرير الكفر

ولقد رد القرآن الكريم على هذه الدعوات بمختلف مظاهرها وتجلّياتها. فقد كشف الله سبحانه لنا عن فئام من الناس هم عمليًّا –حسب منطق الذين يميّعون ويزيّفون الحقيقة– كانوا ضحايا للمستكبرين والمفسدين في الأرض، ومع ذلك حكم عليهم بالكفر وقضى عليهم بالخلود في النار: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾.[١] فكما ترى، فهؤلاء الأتباع بمنطق الذين يبررون إلحاد الشباب ويميّعون الحقائق، هم ضحايا لتلك الفئة المجرمة المستكبرة. ومع ذلك لم يعذرهم الله سبحانه، بل حكم عليهم بالخلود في النار. لأن قضية الإيمان بالله تعالى، واتّباع الحق ورفض الباطل، ليست قضية هامشية في ميزان الله تعالى، فيُعذر الذين كفروا واتّبعوا الباطل، لأنهم ضحايا المفسدين في الأرض أو لأنهم لم يهتموا بالأمر ابتداءً، بل هي قضية أصيلة في الفطرة والكون والحياة، إذ هي غاية خلق الإنسان في هذا العالم، وعليها يتحدد مصيره الأبدي في الآخرة.

والذين يعذرون الملاحدة أو بعضهم بدعوى عجزهم عن معرفة الحقيقة، نُذكرهم بأن قوم شعيب عليه السلام اعتذروا بنفس الحجة ومع ذلك لم يقبل الله تعالى منهم ذلك، بل حكم عليهم بالكفر والعذاب في النار. ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ﴾.[٢]

---

(١) سبأ: ٣١-٣٣.

(٢) هود: ٨٩ – ٩٥.

والذين يبررون للشباب الملحد انتقاله للإلحاد تحت شعار (الصدمة النفسية) بفعل الاستبداد والطغيان السياسي والحكومي، كما انتشر ذلك في مصر والعراق وسوريا وليبيا واليمن وأفغانستان في هذا الوقت، أو بفعل الأحزاب والجماعات الإسلامية نُذكّرهم بجواب الرسول ﷺ لمن جاءه من الصحابة يشكو إليه ما لقوا من العذاب على أيدي كفار قريش: «فقُلتُ: يا رَسولَ اللهِ، أَلا تَدْعو اللهَ؟ **فقَعَدَ وهُوَ مُحمَّرٌ وَجهُه**، فَقال: **لَقدْ كان مَن قَبْلَكم لَيُمْشَطُ بِمِشاطِ الحَديدِ، ما دونَ عِظامِه مِن لَحْمٍ أو عَصَبٍ، ما يَصرِفُه ذلكَ عن دينِه، ويُوضَعُ المِنْشارُ على مَفرِقِ رَأسِه، فيُشَقُّ بِاثنَينِ ما يَصرِفُه ذلكَ عن دينِه**، ولَيُتِمَّنَّ اللهُ هذا الأمرَ حتَّى يَسيرَ الرَّاكبُ مِن صَنعاءَ إلى حَضْرَموتَ ما يَخافُ إلَّا اللهَ».(١)

وكذلك خلال التاريخ الإسلامي الطويل، تعرّض المسلمون لكثير من الحروب الداخلية والخارجية، وللتدمير والتخريب لأوطانهم، وللفقر والأوبئة الفتاكة، ولاغتصاب بناتهم ونسائهم، خصوصًا مع هجمات التتار والصليبيين التي امتدت عقودًا طويلة جدًا، ومع ذلك لا يُعرف تاريخيًّا ظهور موجات إلحادية بين صفوف المسلمين، ولا برّر علماء المسلمين وصلحاؤهم الانحرافات التي وقع فيها مَن وقع من المسلمين، بدعوى (الصدمة النفسية) و(ضغوط الواقع والظروف الطارئة)، فضلًا عن أن يبرروا الانسلاخ عن الدين والانتقال إلى دائرة الزندقة والإلحاد!

---

(١) صحيح البخاري.

والحقيقة أننا في هذا القول ننطلق في تحميل الملحد مسؤولية قراره من الناحية الشرعية والقيمية، من التالي:

أولًا: إقرار الملحد. فلستَ تجد ملحدًا إلا وهو يصر ويصرح ويعترف بأن قراره في الانتقال من الإسلام إلى الإلحاد جاء نتيجة تمعّن واقتناع وبحث، ومن ثم، فهو قرار واع وعن حرية وإرادة كاملة، وكما يقال الاعتراف سيد الأدلة.

ثانيًا: الإنسان مُكلّف. خلق الله تعالى الإنسان لمهمة العبودية، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.[1] أي للالتزام بمنهج الوحي في العقيدة والسلوك والشريعة. وقد حدّد الشارع زمن وضع المسؤولية على الفرد بسنّ البلوغ.

ثالثًا: الحرية والإرادة. منح الله تعالى الإنسان حرية الإرادة والقدرة على الاختيار، وأنزل إليه الوحي وفصّل الشرائع، كما أعانه بمنظومة مبادئ عقلية فطرية، وأيضًا بدلالات آيات الكون والحياة. كل هذا ليقطع عذره في اختيار طريق الضلال والكفر.

رابعًا: مجانية الأدلة. خلق الله تعالى الإنسان بالحق وللحق، وأتاح من الأدلة المتنوعة ما يقطع عذره، فلا جرم أن كان الإلحاد والكفر به بعد ذلك جريمة كبرى في حق الله تعالى. وجريمة بهذا الحجم ما كان يمكن أن يكون هناك عذر مقبول لاقترافها.

---

(١) الذاريات: ٥٦.

خامسًا: وضوح الوحي. أنزل الله سبحانه القرآن ليقيم به الحجة على العباد، فضمّنه كل ما يحتاجون إليه من المعارف العقدية والعبادية والأخلاقية والتشريعية، وجعل مبادئه وأصوله وبراهينه في متناول العقول على اختلافها، فمن أبى فلزيغ في قلبه واتّباع للهوى.

سادسًا: بداهة العقل. لم يخلق الله سبحانه الإنسان صفحة بيضاء ليترك التجارب والأحداث تكتب فيها ما تشاء، بل خلق سبحانه الروح الإنساني بما فيه من وعي وشعور على هيئة توجب عليه بمنظومة مبادئ ومعارف قبلية الإقرار بوجود الإله الخالق.

فمَن نظر في هذه المعطيات الستة حق النظر لزمه بلا شك ألا يعفي الملاحدة من مسؤولية قرار الانتقال إلى الكفر واختيار الضلال، أو سيكون موقفه في تبرير إلحاده الشباب وإعفائهم من المسؤولية يتضمن اتهامًا صريحًا لله سبحانه، وطعنًا صارخًا في الشريعة، وتعطيلًا مكشوفًا للوحي، وتفريغًا كاملًا للنبوات من مضامينها ومقاصدها، ومخالفة واضحة لما أجمعت عليه الأمة! وليت شعري هل أرسل الله تعالى الرسل وأنزل الشرائع إلا لبيان الحق من الباطل، والصواب من الخطأ، والتوحيد من الكفر، والاستقامة من الانحراف، لينقطع عذر كل أحد!

وأنت إذا ما تأملت هذه العناصر، ستجد هذا المعنى واضحًا في الصحابة الكرام الذين عاشوا في ظلال جاهليةٍ كالحة، إلا أنّهم لما واجههم الإسلام وكشف عن عقولهم تلك الظلمات استسلموا للحق واتّبعوا الهدى الذي جاء به. وكذلك

نجده في حالة الذين عادوا من الإلحاد إلى الإيمان، كالفيلسوف أنتوني فلو، الذي قضى عقودًا طويلة في الإلحاد مُنظِّرًا له ومناظرًا عنه، لكنه في النهاية تحرر من أوهام خيار الإلحاد وعاد إلى الإيمان، ونفس الشيء عن جون بول سارتر كبير الوجوديين الملحدين وهو على فراش الموت، وكذلك الروائي الروسي الشهير تولستوي الذي عاش في الإلحاد والمادية، ثم عاد إلى الإيمان، وكذلك عالم النفس بول فيتز الذي قضى عشرين عامًا في الإلحاد ثم عاد إلى الإيمان، وكذلك مصطفى محمود وعبد الوهاب المسيري وغيرهم. وأيضًا نجده في تلك المئات من مختلف الفئات العمرية في الغرب والشرق في هذا العصر ممن عاشوا في بيئة أسرية واجتماعية مادية إلى أبعد حدودها، مع كَمٍّ هائل من تزييف الوعي بخصوص الإسلام، ومع ذلك استطاعوا أن يتحرروا من كل ذلك ويدخلوا الإسلام بمحض إراداتهم، بل ومنهم من انطلق للدعوة إليه بين أفراد أقوامهم والمناظرة عنه بكل قوة وحماسة ضد كل الزيوف الباطلة حوله.

كل هذه المعطيات والحالات تكشف لنا وتؤكد على أنّ الإنسان لديه تمام الحرية والإرادة للتنقل بين خيار الإيمان والإلحاد. ولهذا كان القرآن الكريم واضحًا وصريحًا في أنّ كل إنسان مسؤول أمام الله تعالى ومحاسَب على مواقفه وقناعاته وتصرفاته واختياراته: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾.[1] ، وقال سبحانه: ﴿ كُلُّ ٱمْرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾.[2] بل لولا تمتع الإنسان بالحرية والإرادة، ولولا أنه مسؤول ومؤاخذ، ولولا

(١) المدثر: ٣٨.

(٢) الطور: ٢١.

أن العقل يتضمن مبادئ قبلية راسخة لما كان للنبوات معنى ولا للحساب والجزاء في الآخرة قيمة. بل إن الناس منذ قديم الدهر بينهم اتفاق وإجماع ضمني نابع من صميم شعورهم الفطري على أن الإنسان حرٌّ ومريد ومسؤول عن أقواله وتصرفاته، ولذلك أنشأوا النظم والقوانين، وأعلنوا الحروب والصراعات. ولأجل هذه الحقيقة الساطعة لم يعذر الله تعالى الأتباع المقلدين في الباطل والكفر والشرك، بل جمعهم مع ساداتهم وأئمتهم في عذاب الجحيم، إذ لا فرق بينهم سوى أن هؤلاء كفار مستبصرون وهؤلاء كفار مقلدون، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾.[1] ومن المؤكد أن هذه الطاعة للسادة والزعماء والكبراء لم تكن عن أدلة قطعية حسب شروط البرهان، إذ ليس ذلك في طاقة العامة، بل كان مجرد تقليد أعمى واتّباع للهوى وخضوع للتقاليد الاجتماعية والثقافة الغالبة!

والمقصود بيان أنّ القرآن الكريم لم يعمل على تبرير كُفر مَن كَفر من مختلف أصناف الكفار والمناوئين لله سبحانه، رغم اعترافه بالعوامل والظروف، النفسية والشخصية والاجتماعية التي نشأ فيها قرار الكفر والشرك، بل اعتمد منهج الكشف والفضح والبيان والمصارحة، بلا مراوغة ولا مداهنة. لأن هذه القضية، قضية الإيمان والكفر، لا تقبل أنصاف الحلول، ولا تقبل التنازل تحت شعار ضرورة

---

(١) الأحزاب: ٦٤ – ٦٨.

الاحتواء، وذريعة الوحدة الوطنية، بل يجب أن تكون واضحة بيّنة، من حيث الدوافع والمحفزات ومن حيث العواقب والآثار، ليختار المرء ما يختار فلا يكون له عذر بعد ذلك يوم يقوم الناس لرب العالمين. لأنّه لا يوجد سبب وجيه من الناحية الموضوعية لقرار الإلحاد، لأنّ أدلة الحق ساطعة سطوع الشمس، اللهم إلا حين تهيمن الرواسب النفسية والشخصية، ويخضع المرء لسلطة الثقافة السائدة التي تحفز فيه خيار الانحراف والإلحاد.

❋ ❋ ❋ ❋

(٦) تعامل القرآن مع قرار الكفر

ولنا في هذا السياق أن نحدد -باختصار شديد- معالم منهجية القرآن في التعامل مع قرار كفر وشرك الناس، لنرى مدى التزام هؤلاء الذين يرفضون جرح مشاعر الملحد تحت ذريعة الاعتدال والتسامح والاحتواء، بالمنهج القرآني في التعاطي مع خيار الإلحاد!

فالنظر في الآيات القرآنية بخصوص هذه المسألة يهدينا إلى ثلاثة معالم، وهي: التحليل، والتضليل، والحكم الأخروي، وهذا بيانها:

أولًا: التحليل. والمقصود به أنّ القرآن الكريم عمل على تحليل عوامل نشأة قرار الكفر والشرك والبيئة الداعمة له والمحفّزة عليه. في هذا المعلم، ذكر القرآن مجموعة من الخلفيات، نذكر منها (**البيئة الاجتماعية**)، كما في قوله: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت

تَعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ إِنَّهَا كَانَتۡ مِن قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ﴾.[١] و(**تقليد الآباء والأجداد**)، كما في قوله: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾.[٢] و(**اتباع الأهواء وتضخم الذات**)، كما في قوله: ﴿فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾.[٣] و(**الكبر والجحود في الرفض**)، كما في قوله: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗا﴾.[٤]

ثانيًا: التضليل. والمقصود به أنّ القرآن الكريم عمل على مواجهة المشركين بمختلف ألوانهم بحقيقة قرارهم وقناعتهم، وأنها بناء متهافت والتزام ساذج. في هذا المعلم، ذكر القرآن مجموعة من الأوصاف، منها (**العجز عن البرهان**)، كما في قوله: ﴿قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾.[٥] و(**الجهل المعرفي**)، كما في قوله: ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡحَقَّۖ فَهُم مُّعۡرِضُونَ﴾.[٦] و(**اتباع الظن**)، كما في قوله: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾.[٧] و(**تفاهة العقل**)، كما في قوله: ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾.[٨] و(**قساوة القلب**)، كما في قوله: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾.[٩]

---

(١) النمل: ٤٣.
(٢) الأعراف: ٧٠.
(٣) القصص: ٥٠.
(٤) النمل: ١٤.
(٥) النمل: ٦٤.
(٦) الأنبياء: ٢٤.
(٧) يونس: ٦٦.
(٨) البقرة: ١٧١.
(٩) الزمر: ٢٢.

ثالثًا: الحكم الأخروي. والمقصود أنّ القرآن الكريم لم يكتف بتحليل خلفيات قرار الكفر والشرك، كما لم يكتف بمواجهتهم بالتضليل والتسفيه، بل أضاف بيان المصير الأخروي، فذكر القرآن الكثير من مشاهد المصير الرهيب الذي ينتظر مَن كفر وأشرك وأعرض عن الوحي والنبوة، وأكثر من توعدهم بالعذاب الأليم بعد الموت مباشرة، كما في قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾.[1] وقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا ۙ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾.[2] وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾.[3]

والهدف من هذا التحليل والتضليل والحكم، هو القول للكافرين والمشركين بأنّكم مهما زخرفتم كلامكم وزيّنتم شعاراتكم، وأكثرتم من الجدال والضجيج، فأنتم في ضلال مبين، وآية ذلك أنكم عاجزون عن تقديم براهين موضوعية ومبررات صحيحة لخيار الكفر والشرك، وإنما تدعمون قراركم بالوهم والظن والتخرص والتقليد الأعمى، ولهذا ينتظركم العذاب الأليم في عالم الآخرة الأبدي.

هذا ما نريد أن يفهمه البعض، وهذا ما ندعو للتعامل به مع الملاحدة، أي أن نكشف للملحد خلفية إلحاده، وأن خياره مرتبط بعوامل نفسية شخصية، ومتأثر بمعطيات اجتماعية وإعلامية، وأن نبيّن له ضلاله في قراره، وأنّه ليس مبنيًا على

---

(١) الذاريات: ٦٠.

(٢) الأنفال: ٥٠.

(٣) الأحزاب: ٦٤-٦٥.

براهين صحيحة ولا نظرات مستقيمة، وأن نكشف له بأن انتقاله إلى الإلحاد لم يجلب له ما أوهم به نفسه، وأن نوضح له المصير الرهيب والمآل الكئيب الذي ينتظره بعد الموت. ثم كما قلنا سابقًا، له الخيار بعد ذلك، في أن يقبل أو يرفض، فذلك شأنه الخاص، كما قال الإمام الحسن البصري رضي الله عنه عن الداعية المسلم والمدافع عن حياض الشريعة: «ينشر حكمة الله ، فإن قبلت حمد الله، وإن ردت حمد الله».(١)

إن مما يجب التأكيد عليه وتكرار الإشارة إليه، هو أن زعماء الإلحاد المعاصر، الصرحاء والأخفياء يدركون جيّدًا أن لديهم مشروعًا ضخمًا ورسالة مقدسة يقومون بها، ولذلك لا يملون من الحركة والنشاط في سبيل تحقيق هذا المشروع. فهذا ريتشارد دوكنز -أحد فرسان الإلحاد المعاصر- دعا في بعض محاضراته بشكل واضح وصريح، جميع الملاحدة المتخفين للإفصاح عن إلحادهم والإعلان عنه بكل شجاعة وأن يهاجموا الدين والإيمان بقوة وأن يعلنوا مقتهم له وشراستهم ضده، وأن يعملوا على تشكيل أنفسهم وترتيب صفوفهم لاكتساب القوة ضد التيّار الديني، ومن ثم، حثّهم على ضرورة المساهمة المالية لإنشاء مؤسسات تمتلك القدرة على الدفاع عن الرؤية الإلحادية. يقول: «أتوقع أن نسبة لا بأس بها منكم تمقت الدين في الخفية تمامًا كما أمقته أنا في العلن، ولهؤلاء، أطلب منهم أن يتوقفوا عن المجاملة. كن صريحًا وأعلن عن مقتك هذا. وإذا كنت غنيًّا فكر قليلًا بالمساهمة بجزء من مالك كي تحدث فرقًا، لأن اللوبي المتدين في هذا البلد «يعني أمريكا» يموّل بشكل

---

(١) أخلاق العلماء. أبو بكر الآجري ص٥٨

كبير من قبيل مختلف المؤسسات، فضلًا عن تمتعه بمختلف الإعفاءات الضريبية. إننا بحاجة إلى إنشاء مؤسسات مناهضة لهذه المعتقدات».[١]

ويكشف محمد الكنعان عن أساليب الليبرالية العربية لدفع الشباب نحو الإلحاد والسقوط في الرؤى الغربية القائمة على العقيدة المادية، من باب المساهمة في تحقيق المشروع المنشود، فيقول: «هل يمكن أن نشهد موجة إلحاد في مجتمعنا العربي بما فيه السعودي؟ خاصة أن الليبراليين لدينا يمارسون أكبر كذبة فكرية لتضليل الناس من خلال اللعب على ثلاثة محاور، الأول، محاولتهم المستمرة في ربط التشدد الديني بالإلحاد. والمحور الآخر، تسويقهم الفلسفة الليبرالية بصلها عن سياقها التاريخي وحقائقها الفكرية وتلازمها الطبيعي بالتحرر العقلي. أما المحور الثالث، فهو تأكيدهم أحقية الأجيال حتى لو كانوا مراهقين في مناقشة ونقد كل الأفكار والآراء حتى المسلمات الدينية لأن العقل الشكي عندهم أفضل من العقل التسليمي». ويخلص إلى أن «الفلسفة الليبرالية في حقيقتها الأصلية تعارض الدين القويم، وتخالف الفطرة السوية، كونها تهيئ الأرضية الكاملة للإلحاد في إطار تحويل الإنسان إلى سلعة في سوق النخاسة المادية».[٢]

فهل يدرك الحريصون على هذه الأمة مدى الخطر الذي دهم الشباب المسلم في العصر الحديث، وما يراد بهم، والأهداف التي ينشد المفسدون في الأرض تحقيقها ضدهم!

---

(١) حوارات سيدني ص٦٦.

(٢) الوهم الليبرالي ص٥٢. بتصرف قليل

سمات الخطاب الإلحادي

(١) التدافع بين الحق والباطل

قضت حكمة الله تعالى أن يكون عالم الدنيا مطبوعًا بطابع صراع الحق والباطل، وصدام الإيمان والكفر، ومعركة الوحي والهوى. ولقد بدأت أولى فصول هذه الملحمة الخالدة منذ اللحظة التي أمر الله سبحانه الملائكة عليهم السلام بالسجود لأول مخلوق بشري، آدم عليه السلام، فسجد الملائكة كلهم أجمعون، استجابة لربهم وخضوعًا لأمره، إلا إبليس أبى واستكبر، فكان من العصاة الكافرين.

قال الحق تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾.[١]

وهكذا استمرت المعركة، واستمر الصراع، خلال تاريخ البشرية الطويل. لقد بقي جوهر المعركة هو نفسه لم يتغير، وبقي منطلق الصراع هو ذاته لم يتحول، وثبتت أهداف هذا الصدام هي عينها لم تتبدل، رغم اختلاف الأسماء، وتغير الشعارات، وتطور الوسائل! ولهذا نقول هنا قولًا واحدًا، وهو أن هذه المعركة ستظل كما هي، في منطلقاتها وأهدافها، رغم تغير الزمان والمكان، سيظل الأمر كذلك ما بقي هناك شيء اسمه الحق والباطل، وما دام هناك شيء اسمه الإيمان والكفر، وما دام هناك شيء اسمه الحقيقة والوهم!

---

(١) الحجر: ٢٨-٣٥.

يقول الشيخ الدكتور عبد الكريم زيدان: «التدافع بين الحق والباطل أي بين أصحابهما أمرٌ لابد منه وحتمي، لأنهما ضدان، والضدان لا يجتمعان، ولأن تطبيق أحدهما يستلزم مزاحمة الآخر وطرده ودفعه وإزالته، أو في الأقل إضعافه ومنعه من أن يكون له تأثير في واقع الحياة. فلا يُتصور إذن أن يعيش الحق والباطل في سلم من دون غلبة أحدهما على الآخر إلا لعلة كضعف أصحابهما أو جهلهم بمعاني الحق والباطل ومقتضيات ولوازم هذه المعاني أو ضعف تأثير هذه المعاني فيهم».[١]

نقول ذلك، ونحن على يقين منه، لأنّ القضية **أولًا** تعكس سنة ثابتة من سنن الله تعالى في حياة البشرية، وهي سنة الصراع بين الحق والباطل: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾.[٢] ولا يمكن أن تتعطل هذه السنة الإلهية إلا أن يتغير نظام الوجود كله! ولأنها **ثانيًا** وثيقة الصلة بالغاية الكبرى التي خُلق لها الإنسان، أي التكليف، كما قال الله سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.[٣] إذ كان أساس العبودية الابتلاء بحرية الاختيار بين الحق أو الباطل، بين الإيمان أو الكفر، بين الطاعة أو المعصية، وبين الاستقامة أو الانحراف.

وأعظم من هذا وذاك، هو أن وجود الله سبحانه راسخ في التكوين الفطري والوجداني والعقلي للإنسان، ولذلك مهما حاول الإنسان تجاوز هذا التكوين فلن يجد إلى ذلك سبيلًا، اللهم إلا الانتقال من الإله الحق إلى الآلهة الباطلة والمزيفة!

---

(١) السنن الإلهية في الأمم والجماعات ص٤٦.

(٢) آل عمران: ١٣٧.

(٣) الذاريات: ٥٦.

ولهذا لن يمسك الإنسان يومًا -مهما طالت الدنيا- عن الخوض في وجود الله تعالى، إثباتًا أو إنكارًا، قبولًا أو رفضًا، تصورًا حقًا أو تصورًا باطلًا، إذ أن حياة الإنسان -بمختلف مظاهرها ونشاطاتها- مرتبطة شديد الارتباط بعقيدة الإله، إثباتًا أو إنكارًا، تسليمًا أو تمرّدًا، صوابًا أو خطأ!

«نشرت «موسوعة بريتانيكا» سلسلة من خمسة وخمسين جزءًا بعنوان «كتب الغرب العظيمة»، وقد جمعت مفكري العالم الغربي البارزين، وما كتبوه عن أهم الأفكار التي خضعت للدراسة والاستقصاء عبر القرون، حول القانون والفلسفة والتاريخ واللاهوت والحب. وما يلفت نظر القارئ أن أطول مقالة كانت هي التي تتحدث عن الله! وعندما سئل مورتمر أدلر أحد محرري الموسوعة، عما جعل هذا الموضوع يحظى بهذه التغطية الكبرى؟ جاءت إجابته قاطعة: «الإقرار بوجود الله أو إنكاره هو المسألة الجوهرية التي يترتب عليها أكبر عدد من العواقب المتعلقة بحياة الإنسان وبفعله»»[(١)].

من أجل ذلك، لم يكن الإلحاد يومًا في تاريخ البشرية، قديمًا وحديثًا، وبمختلف أسمائه وأشكاله، وبشتّى شعاراته ووسائله، وبتعدد قناعاته ومنطلقاته، لم يكن قط -ولا يكون في المستقبل المنتظر والمقدّر للبشرية أن تبلغه- إلا تجلّيًا ساطعًا لمعركة الحق والباطل، ولمعركة الإيمان والكفر، ولمعركة التوحيد والشرك، ولمعركة الهدى والضلال، إذ لا خيار ولا طريق إلا خيار الوحي أو الهوى، وإلا طريق الله سبحانه أو طريق الشيطان لعنه الله، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر!

---

(١) الوجه الحقيقي للإلحاد. رافي زكراياس ص٢٢. بتصرف قليل.

نخرج من هذا إلى أنّ الإلحاد في حقيقة معناه وغاية منتهاه، انحراف شديد عن الحق الثابت في فطرة الإنسان وفطرة الحياة وفطرة الكون! هو اتّباع الأهواء الجامحة بعد أن تكون قد ملأت أقطار النفس فتضخمت جدًّا، حتى لم يعد في مقدورها بعدُ أن تستجيب للحق! هو رفض التسليم لله تعالى والخضوع له والتزام نظام شريعته في مجالات الحياة، تمامًا كما اتّبع إبليس من قبل هواه، فأبى واستكبر على الرب الإله!

إذن، معركة الإيمان والإلحاد، بشقيه الجزئي والشامل، معركة قديمة قدم البشرية وليست من مظاهر هذا العصر، كما يتصور البعض وكما يُروّج البعض، رغم اختلاف مدى الظاهرة وشدتها واتساع دائرتها، فلا شك أن الكفة تميل لهذا العصر! فما زالت الأهواء الجامحة والأوهام الشاردة تنفخ في بعض النفوس ما يغريها ويزيّن لها وهم إنكار وجود الله سبحانه (الإلحاد الشامل) أو الفصل بين الإيمان به وبين إنكار النبوات أو تفريغ الوحي من مضامينه أو إنكار الحياة بعد الموت (الإلحاد الجزئي)!

* * * *

(٢) القواسم بين الإلحاد القديم والمعاصر

وإذ كان الأمر كذلك، فبلا شك هناك قواسم مشتركة بين الإلحاد القديم والمعاصر، رغم اختلاف الأسماء والشعارات والوسائل. وسأقوم هنا بتلخيص هذه القواسم واختصارها في المعالم التالية:

أولًا.. وحدة المرتكزات. هناك اتفاق وإجماع راسخ بين الملاحدة في كل عصر وقطر حول بعض الأسس الكبرى. منها القول بعدم مخلوقية الكون، بل بأزليته أو صدفته![1] ومنها القول بأن الشرور في العالم برهان أكيد على عدم وجود الإله! ومنها القول بأن الحياة مسرحية عابثة، تافهة وبلا معنى! ومنها إعلاء شأن العقل وتعظيم العلم المادي!

ثانيًا.. إعلاء قيمة العقل. من الطبيعي جدًّا أن مَن ينكر الإله، تصريحًا أو تلميحًا، يجد نفسه مدفوعًا لإعلاء قيمة العقل وتسييده، وإناطة تدبير شؤونه به، فلا حق إلا ما يقرره العقل، ولا باطل إلا ما يبطله العقل، فالعقل أولًا وآخرًا! وإنما رفع هؤلاء قيمة العقل، لأنه لابد للإنسان من مرجعية ومصدر معياري للحق والباطل.[2]

ثالثًا.. الهجوم على النبوة. إذا أخذتَ الإلحاد في التاريخ الإسلامي وفي التاريخ الغربي، فلن تخطئ عينك اتفاق الملاحدة في كلا السياقين على شنّ الهجوم على النبوة. وسر ذلك، أن إسقاط النبوة يُسقط عمليًّا وفي المحصلة النهائية القولَ بوجود

---

(١) القول بالأزلية قول لا يزال شائعـًا وإن بنسبة قليلة، خصوصـًا بعد الكشوفات العلمية الحديثة التي وضعت الملاحدة وجهـًا لوجه مع ضرورة إسقاط القول بالأزلية، ومن ثم، لم يجد بعضهم سوى الفرار إلى القول مثلاً بأن كوننا هو نتيجة لأكوان سابقة، أو أن قوانين الفيزياء يمكن أن توجد الكون، وكل هذا مجرد تحايل للهروب من القول بمخلوقية الكون التي تستلزم القول بوجود الخالق.

(٢) يقول عبد الرحمن بدوي: «لقد كان الملاحدة يلجؤون جميعـًا إلى الإشادة بالعقل كيما يكون في مقابل النبي». من تاريخ الإلحاد في الإسلام ص٢٣٦. والعقل في سياق الفقرة مقصود به المعنى العام، باعتبار أن الإنسان مهما كانت مصادر معرفته لابد أن يرجع إلى عقله.

الإله الخالق، ولهذا تجد الحداثيين العرب حريصين على تفريغ النبوة المحمدية من مضامينها ومعانيها! [١]

رابعًا.. تعظيم شهوات الدنيا. واضح جدًّا أن إنكار الإله صراحة أو ضمنًا يلزم عنه بالضرورة تعظيم شأن الدنيا، والسعي لتحصيل شهواتها، لأن الملحد -الإلحاد هنا يشمل الشقين: الشامل والجزئي- لا يرى لنفسه فرصة إلا مدة عيشه، فطبيعي جدًّا أن يتمركز حول شهوات نفسه المختلفة، إذ عند ساعة الموت ينتهي بالنسبة إليه كل شيء!

خامسًا.. النظرة الاختزالية. عدم النظرة الشمولية للقضايا المختلفة، كالمعارف الدينية، والقدر، والكون، من أهم ما يطبع الشخصية الملحدة، في كل زمان ومكان، سواء كان صاحبها راعي غنم أم حامل شهادة دكتوراه! ولا شك أن أساس هذه النظرة القاصرة والاختزالية، هو الرغبة النفسية في تبرير القناعة الخاصة!

سادسًا.. اتهام الدين بالتناقض. لا يمكن أن يكون الملحد ملحدًا ما لم يعتقد أن المعرفة الدينية متناقضة، وإلا كان يكون إقراره بانسجامه حجة عليه وتحدّيًا له! ولذلك يحرص الملاحدة الصرحاء والأخفياء دائمًا على إظهار المعرفة الدينية في صورة متناقضة وقاصرة ومشوهة، أو على الأقل يروجون بأنها منتهية الصلاحية! [٢]

---

(١) لا يجب الاحتجاج بالمذهب الربوبي الذي يذهب إلى القول بوجود الرب الخالق ونفي النبوات والأديان، لأنه أولاً بالنسبة لنا مذهب كفري، وثانيًا لأنه يناقض مقتضى كمال الخالق سبحانه ورحمته وحكمته، فخلق البشر بلا نبوات هادية لمقاصد خلقهم عبث يتنزه عن الله سبحانه.

(٢) من المؤكد أننا نعترف أن المعرفة الدينية في اليهودية والنصرانية متناقضة، باعتراف كثير =

سـابعًا.. كثـرة المغالطـات. مـن يطـالع مقـالات الملاحـدة قـديمًا وحـديثًا، بمختلف اتجاهاتهم وخلفياتهم، لا يذهب عليه سيل المغالطات التي يغمر بها الملحد نفسه، ويحاول أن يغمر بها غيره! والمغالطات تكون نتاج الجهل، والهوى، والعناد، والاختزال، إلا أن مرجعها الأكبر في كثير من الأحيان هو الرغبة في تبرير القناعة الإلحادية![(١)]

ثامنًا.. الجزمية العمياء. طالع ما شئت من أخبار وأقوال الملاحدة، بمختلف أشكالهم ومرجعياتهم ومواقعهم، ستجد من السمات البارزة التي تشملهم جميعًا، سمة الجزم الأعمى، والدوغمائية الصلبة، والعناد الشديد! فمهما قُدّم لهم من الأدلة، وعُرض عليهم من البراهين، فإنهم يواجهون ذلك كله بالرفض الممتزج بالسخرية والاستعلاء!

تاسعًا.. إله عجيب. أحد مستندات الإلحاد في كل زمان ومكان، لتبرير نفسه وإضفاء المشروعية على وجوده، هو صناعة إله معين وتركيب صورته بشكل معين،

= من علمائهم وباحثيهم، قبل غيرهم. وهذا غير وارد على الإسلام بخصوص مصدريه الأصليين (القرآن والسنة)، وإن كان الملاحدة الصرحاء والأخفياء يقومون بعملية الإسقاط، فما حدث لليهودية والنصرانية ينطبق على الإسلام ولابد، لاشتراك الجميع في مسمى (الدين)!

(١) تحدث ابن الجوزي عن مجموعة من مغالطات ابن الريوندي وجهله، وهو من أبرز ملاحدة التاريخ الإسلامي، وقال: «وقد نظرت في كتاب الزمرد فرأيت فيه من الهذيان البارد الذي لا يتعلق بِشُبَهِهِ». المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ج١٣ص ١١٠. ونقل عن أبي علي الجبائي قوله: «قرأت كتاب الملحد الجاهل السفيه ابن الريوندي، فلم أجد فيه إلا السفه والكذب والافتراء» ج١٣ ص١١١.

تعكس البشاعة والتناقض والعجز والجهل والتفاهة، ثم مهاجمته وكيل الاتهامات له.[١] ولهذا لن تجد ملحدًا يناقش وجود الله كما عرضه الإسلام، بل كما يتصوره هو!

عاشرًا.. انتقاء الأقوال والأحداث. الملاحدة قاطبة لديهم هوس بانتقاء كل قول أو حدث يخدم قضية أن الدين شر محض! فتراهم دائمًا يستحضرون -أو يخترعون- بعض الأخطاء في الكلام أو المواقف والأحداث من زعماء وأتباع هذا الدين أو ذاك وانتقائها من بين آلاف الأقوال والمواقف الصحيحة، والنفخ فيها وتسليط الأضواء عليها![٢]

الحادي عشر.. تضخم الذات. من النادر جدًّا أن تجد ملحدًا محايدًا في بحثه عن الحقيقة! وسر ذلك هو تضخم الذات في الملحد! وهو أمر طبيعي، فالإنسان

---

(١) نحن لا ننكر أن اعتراضات الملاحدة على طبيعة وجود الإله في الطرح المسيحي مثلاً فيها الكثير من الصحة والصواب، لأن الكنيسة نفسها تعرض الإله بتلك الصورة المشوهة والمتناقضة بعد قرون من التحريف للدين الحق الذي جاء به نبي الله عيسى بن مريم عليه السلام، ويكفي أن تفتح الكتاب المقدس للنصارى بعهديه القديم والجديد، لترى العجب العجاب! لكن، الخطأ الذي وقع فيه هؤلاء الملاحدة، هو تعميمهم المطلق لتلك الصورة العجيبة لإله النصرانية على كل طرح يقدمه أي دين آخر، كما هو الحال في الإسلام!

(٢) يبدو هذا واضحاً في الاستغلال الكبير من الملاحدة لأحداث الـ١١/ ٠٩/ ٢٠٠١ بأمريكا، وكيف أنهم بعد ذلك انطلقوا بكل قوة وشراسة للطعن في الأديان والتحذير منها، والدعوة الصريحة لتجاوز الإله والأديان، خصوصاً دين الإسلام وإله الإسلام! وهذا المنهج يسلكه العلمانيون أيضاً تجاه العلماء والدعاة لتنفير المسلمين من الإسلام وتيئيسهم من إمكانية تحقيق النصر والنهضة انطلاقاً من الإسلام!

حين ينفصل عن الخالق، لا شك أن تتضخم فيه الأنا، لتكون مركزه ومقياسه ومرجعيته النهائية، ومن ثم، تجد الملحد يضع تحكمات أهوائية يحاكم إليها كل شيء![١]

الثاني عشر.. عدم احترام التخصص. من أبرز السمات المشتركة بين الملحدين كافة، أنهم لا يحترمون التخصص، فترى أحدهم يتكلم في العقيدة والشريعة، حريصًا على التشكيك والتخطئة والتشويش، رغم أنه غير متخصص في هذه العلوم، ورغم أنه يلهج دائمًا بضرورة احترام التخصص. وأكثر ما تبرز هذه السمة في عصرنا الحاضر![٢]

هذه القواسم من وجهة نظري مشتركة بين الملاحدة بمختلف أشكالهم، في كل زمان ومكان، وإن تباينت أساليب الطرح وصور العرض، وإن تباينت مستويات

---

(١) من أبرز مظاهر هذا التضخم، العنوان الذي وضعه الملحد الشهير ريتشارد دوكينز لكتابه الشهير، أعني (وهم الإله)، فهنا تجد أن دوكينز يعتبر أن مبدأ الإله وعقيدة الخالق التي ما زال العلماء والفلاسفة والمفكرون والأدباء والساسة والمصلحون يؤمنون بها ويعتقدون صوابها منذ كانت البشرية، يعتبر كل هؤلاء كانوا يعيشون في (الوهم)، أما الملحد -خصوصًا الملحد المعاصر- فهو وحده الذي انتبه للخديعة وتحرر من الخرافة وانعتق من الوهم!

(٢) خير مثال لهذه السمة هو الملحد البريطاني الشهير ريتشارد دوكينز، فتراه يخبط خبطًا فيما يتعلق بالأديان عمومًا وبالإسلام خصوصًا، بل اعترف بأنه لم يقرأ الإسلام، ومع ذلك بكل جرأة ووقاحة يتهجم عليه ويطعن فيه! وكذلك انظر لعوام الملاحدة في مواقع التواصل الاجتماعي المختلفة، تسمعهم فتظن أن كل فرد منهم بلغ درجة الإمام المطلق في العلوم الشرعية إلا أنه اكتشف تناقضات مركزية جعلته ينتقل إلى الإلحاد!

الترويج والتبشير، وإن تباينت آليات التشكيك في قيمة الإيمان، حسب السياق الاجتماعي والتاريخي في هذا المجتمع أو ذاك.

* * * *

(٣) الفروق بين الإلحاد القديم والمعاصر

لكن، رغم وحدة الأهداف والنتائج والمآلات بين الإلحاد قديمًا وحديثًا؛ إلا أن هناك فروقًا واضحة بينهما وسمات بارزة تطبع كلًا منهما بطابع خاص، من المهم الالتفات إليها، لتكون الرؤية واضحة. هذه الفروق يمكن تلخيصها في المعالم التالية:

أولًا.. قديمًا كان الإلحاد مجرد حالات شاذة هنا وهناك بين مختلف الأمم والحضارات بنِسب متفاوتة بين المجتمعات، أما اليوم في عصرنا الحاضر فهو أشبه بالظاهرة العالمية! ونقول بأن الإلحاد صار ظاهرة باعتبار الماضي، وإلا فالإحصائيات[١] بل والواقع يؤكدان على أن نسبة الملحدين ضئيلة جدًّا مقارنة بنسبة المؤمنين بوجود الخالق، بل لا يمكن أن يطغى الإلحاد الشامل إلا قُبيل قيام الساعة.[٢]

---

(١) الدراسات التي تقدم إحصائيات عن أعداد الملحدين لا يمكن الوثوق بها، إذ تتدخل فيها الدعاية المغرضة والأجندات الخفية والمعايير الفضفاضة، خصوصًا عندما يتعلق الأمر بالعالم الإسلامي بسبب خوف الملاحدة من التصريح والكشف عن أنفسهم، بالإضافة إلى هدف تضخيم أعداد الملحدين في البلدان الإسلامية للإيهام بأنّ الإلحاد فيها صار له شأن كبير!

(٢) تأمل قول الرسول ﷺ: «لا تقومُ السَّاعةُ حتَّى لا يقالَ في الأرضِ: اللهُ، اللهُ» صحيح مسلم. =

ثانيًا.. قديمًا كان الإلحاد أقرب إلى قناعة شخصية يعيشها صاحبها، وقد يسعى للترويج لها في المحيط الصغير الذي يعيش فيه، أما اليوم فالإلحاد صار يُقدّم -عبر خطط وآليات مدروسة- على أنّه البديل الأفضل للأديان عقليًّا وأخلاقيًّا وحضاريًّا. أي إنّ الإلحاد اليوم يتبنى فكرة الصدام المباشر والمتعمَّد مع الإيمان لإزاحته من الساحة لتحقيق أهدافه وغاياته وأجنداته، وطرح نفسه على أنه البديل الواجب والحتمي!

ثالثًا.. قديمًا لم يكن للإلحاد الكثير من الآليات والوسائل التي تساعده وتمكّن له من الانتشار والذيوع، إلا اللقاءات المباشرة أو التأليف والكتابة، أما في عصرنا الحاضر فالإلحاد يعيش عصره الذهبي بفعل الإمكانيات الهائلة والوسائل المتعددة كالإنترنت والمقالات والكتب والمنظمات والإعلام الذي أتاح له الانتشار والذيوع! ولهذا فبالنسبة للإلحاد المعاصر؛ فإنّ الوصول إلى الجمهور بمختلف شرائحه لم يعد مشكلة![1]

رابعًا.. قديمًا كان الإلحاد في لحظة الدفاع والتبرير يعتمد أكثر على الجدل الفلسفي، أما اليوم فالإلحاد لا يعتمد على الجدل الفلسفي بقدر ما يستغل الهوس

= وكذلك قول عليه الصلاة والسلام: «لا تقومُ السَّاعةُ إلَّا على شِرارِ الخَلْقِ هم شرٌّ مِن أهلِ الجاهليَّةِ» صحيح ابن حبان.

(١) يقول عبد الله العجيري: «العمل الإلحادي اليوم ليس عملاً عشوائيّاً يعتمد على الجهود الذاتية الفردية فقط، بل ثمة مؤسسات إلحادية معنية بالدعوة إلى الإلحاد، ورعاية الملحدين، ودعم المؤسسة العلمانية، وضمان مبدأ الفصل بين الدين والدولة . مليشيا الإلحاد ص٣٥، ثم ذكر أسماء بعض هذه المؤسسات.

المسعور بالعلم التجريبي لدى جمهور الناس لينال طابع المصادقة على صحته، خصوصًا وأنه يغطي قناعاته الإلحادية بالعلم المادي وثمراته المبهرة التي يلمسها الناس يوميًّا في هذا العصر، وعلى أساس أن كل مخرجات العلم التجريبي صحيحة، فمنكرها منكرٌ للعلم!

خامسًا.. قديمًا كان الإلحاد محصورًا بنسبة أكبر في دائرة ضيّقة جدًّا، هي دائرة المتعاطين للجدل والفلسفة، أي دائرة المثقفين والمتشبهين بهم، أما اليوم فبفعل عوامل متعددة أبرزها السعار المادي، والتخلف الحضاري، والأمية الشرعية، وبريق الازدهار الغربي، وانتشار وسائل الاتصال والتواصل، اتسعت دائرة الإلحاد لتشمل حتى المراهقين والأميين وأشباههم، وليس في المدن فقط بل حتى في القرى النائية!

سادسًا.. قديمًا كان الإلحاد ينطلق من دوافع شخصية يعتبرها دلائل وبراهين معتبرة، ومنفصلًا عن أية سياقات اجتماعية وحضارية، أما اليوم فلا يمكننا فصل الإلحاد في الفضاء الإسلامي عن سياق معركة الأفكار وحرب تغيير القناعات التي يمارسها الغرب والعلمانيون العرب (حكامًا ومثقفين وإعلاميين)[1] من حيث هي جزء من استراتيجية الهيمنة وإطالة أمد إخضاع العالم الإسلامي!

---

(١) من المهم أن نتذكر هنا أنه منذ سقوط الخلافة الإسلامية على يدي الملحد التركي كمال أتاتورك، وإلى يومنا هذا، يقوم الملاحدة الصرحاء والأخفياء –وقد أمسكوا بمقاليد الحكم والإدارة والتوجيه– بشن حرب ضروس –وإن بنسب مختلفة بين هذا البلد وذاك، مراعاة لبعض الضغوط والظروف– ضد كل ما هو إسلامي، وفي المقابل يقومون بغرس الرؤى الإلحادية الصريحة والملتوية في نفوس وعقول المسلمين بما أمكن من الوسائل، ولا يزال الأمر في اشتداد، خصوصاً بعد إعلان الغرب بقيادة أمريكا حرباً صليبية جديدة على المسلمين، بعد هجمات الحادي عشر من سبتمبر لعام ٢٠٠١.

سابعًا.. قديمًا لم يكن الإلحاد الشامل بمعنى إنكار وجود الخالق منتشرًا إلا بنسبة قليلة، بل كان معظم ضلالات الإنسان تدخل في خانة الشرك بالله سبحانه، كالذين عددوا الآلهة، أو اتخذوا الأصنام وسائط بينهم وبين الخالق أو إنكار النبوات أو اليوم الآخر. أما اليوم فلا شك أن الإلحاد بمعنى إنكار وجود الإله الخالق منتشر بنسبة أعلى بكثير مما كان عليه في الماضي، والتاريخ والواقع يشهدان على هذا.

ثامنًا.. قديمًا كانت أكثر محاجة الإلحاد وجدله الفلسفي ضد عموم الأديان. أما اليوم فلا يوجد دين يُهاجَم من مختلف الأطياف والجنسيات الملحدة كالإسلام. فلو أخذنا الإلحاد العربي والأمازيغي مثلًا، فمن النادر جدًّا أن تجده يهاجم المسيحيّة أو اليهودية، بل كل جهوده وتركيزه مُنصبٌّ على الإسلام والمسلمين، وفي هذا دلالة واضحة، وهو ما قلناه من الصلة الوثيقة بالأجندات الغربية![١]

تاسعًا.. قديمًا كان الإلحاد كما سبقت الإشارة مجرد قناعات شخصية لدى هذا الفرد أو ذاك، وقد ينطلق بعض الذين أخذوا بنصيب من المعرفة والفلسفة للمناضلة عن صحة هذه القناعة ضد المؤمنين بالخالق والنبوات، وكذلك عبر التأليف والكتابة. أما اليوم فقد صار الإلحاد حريصًا على اكتساب القوة والسلطة لحراسة الأسس الإلحادية، وصار يعمل على فرض قناعاته -كما في التطور ونفي التصميم الكوني- بقوة القانون![٢]

---

(١) أعرب الملحد كريستوفر هيتشنز عن حقده الكبير تجاه العالم الإسلامي، حيث طالب بنسف العالم الإسلامي بالقنبلة النووية، وأيضـًا أيّد عمليات القتل والاغتصاب التي قام بها الصرب ضد مسلمي البوسنة، والتحالف الأمريكي ضد مسلمي العراق. انظر: مناجزة الإلحاد ص١٨٧.

(٢) صخور الزمان: دور العلم والدين في اكتمال الحياة. ستيفن جاي جولد ص١٥٣.

عاشر.. قديمًا كان الإلحاد يتخذ الجدل الفلسفي والنظر عدته وسلاحه، ولا يعنيه كثيرًا الانتشار بين الطبقات البسيطة في تعليمها وثقافتها لنظرته الاحتقارية لها، أما اليوم فالإلحاد حريص على الابتعاد عن الجدل الفلسفي، والتركيز على خطاب بسيط غير معقد من أجل تحقيق شيوع أكبر بين الصغار والشباب والأميين، لأن هدفه إنشاء «طبقة الملاحدة» في المجتمع، وهذا لا يمكن إلا بالخطاب الشعبوي البسيط!

الحادي عشر.. قديمًا كان الإلحاد بلا جغرافيا محددة من حيث المنبع والأصل، بل كما سبقت الإشارة كان متناثرًا هنا وهناك بين شعوب مختلفة بنسب مختلفة. أما الإلحاد المعاصر المتدثر بالعلم الطبيعي والتجريبي فمنبعه وأصله ومنطلقه الغرب. وبفعل عوامل مختلفة خلال القرنين الأخيرين استطاع الغرب الانتشار في أقطار الأرض وإشاعة رؤيته العلمانية المادية التي تأسست على الفلسفة الإلحادية.[١]

الثاني عشر.. قديمًا كان الإلحاد واضحًا وصريحًا، بحيث يمكن التعرف عليه والتعامل معه بشكل مباشر. أما اليوم، فالإلحاد حريص على عدم إهمال جانب

---

(١) يقول بول فيتز: «يتفق المؤخرون بشكل عام على أن الإلحاد ظاهرة غربية حديثة ومتميّزة، وأنه لا وجود لثقافة أخرى قد جاهرت بمثل هذا الرفض العام الواسع الانتشار للألوهية». نفسية الإلحاد ص١٧. وتقول الموسوعة الفلسفية العربية: «شهد القرن التاسع عشر مولد مذهب كامل التكوين في الإلحاد، ينكر وجود الله دون قيد أو شرط. ويرتبط هذا المذهب بالاتجاهات الرئيسية في حياتنا العلمية والثقافية، حيث يقوم بتفسير مصادر الدين وأسباب ظهوره، وينتقد المعتقدات الدينية من وجهة النظر العلمية، النفسية والاجتماعية للكون، ويفصل في شرح الدور الاجتماعي للدين باعتباره وسيلة فعّالة من الحكام لإخضاع الشعوب» ج١ ص٨٩.

التخفي والدفع بالمتابعين والمتلقين بشكل ناعم وتحت شعارات برّاقة، نحو تبني الرؤى الإلحادية. وهذا ما يقوم به العلمانيون والحداثيون والليبراليون والنسويات العرب، وغيرهم من المنافقين الذين يرفعون شعار الاجتهاد والتجديد وتنقية التراث وإخاء الأديان وحقوق المرأة![١]

الثالث عشر.. قديمًا كان الإلحاد وأنشطته والترويج له مقصورًا على الذكور، ولا يكاد يُعرف في تاريخ الإلحاد القديم نساء كان لهن شأن بارز في ذلك كله. أما الإلحاد المعاصر فلم يستثن النساء من عملية الانتشار والترويج لأجنداته وأهدافه ورؤاه وأفكاره، ونجد ذلك أبرز ما يكون في الفكر النسوي، حيث تتم مهاجمة الأديان والإيمان بذريعة حقوق المرأة ومحاربة الذكورية، فغاية النسويات ترسيخ فكرة «الإله ظالم»!

كانت تلك أهم معالم الفروق -على الأقل من وجهة نظري الشخصية- بين الإلحاد القديم والمعاصر. وإذا اقتصرنا عليها وحدها دون أي شيء آخر، فإنّها ستكون مبررات كافية لتقديم مزيد من المعالجات للطرح الإلحادي، وتجديد

---

(١) هناك الكثير من أقطاب هذه الخطة، يستغلون وسائل التواصل الاجتماعي (البيئة المفضلة للمراهقين والشباب)، فضلاً عن الكتابة والتأليف والخطابة والفيديوهات والبرامج الإذاعية، لتكثيف التشكيك في نزاهة العلماء، والطعن في فهوم الفقهاء، مع تفريغ الإسلام من مضامينه بشكل كبير، وتمييع مبادئ العقيدة والولاء والبراء، وترسيخ فكرة أن الإسلام مجرد دين مثل باقي الأديان! ولهذا تجدهم جميعاً يرفضون دعوات تطبيق الشريعة! فتخيل مراهقاً وشاباً ليست له حصانة معرفية يتلقى يومياً عبر منشورات وفيديوهات هذه الأفكار، ماذا سيكون مآله!

أساليب العرض والبيان، لتكون محيطة بأوسع جوانب الظاهرة. فـ «إنما يقوى الباطل أن تُبصره وتُمسك عنه».[١] ولولا تكاسل أهل الحق لما قامت للباطل قائمة، وإن قامت فلن تدوم طويلًا!

يقول عائض الدوسري: «لقد كانت الشهوات -التي تُزيّنها وتدعو إليها أغلب القنوات الفضائيّة- هي الخطر الأعظم الذي كان يواجهه الشبابُ، وكان المشايخ والدعاة والوعاظ يُركّزون جهودهم عليها تحذيرًا ومعالجة؛ لكن موجة أخطر وأعظم -يهون عندها ذلك الخطر- وهي موجهة الانحراف الفكري، والخلل العقدي، أصبحت اليوم على وشك اقتحام عقول الشباب بشكل كبير؛ بفضل القنوات الفضائيّة، ومنتديات الإنترنت، والروايات. إنّها حرب عقائديّة وفكريّة، تستقطب كافة القدرات والعقليات؛ لزعزعة الثوابت العقائديّة، وخلخلة الأمن الفكري عند الشباب، وإنني أزعم -آسفًا- أن تلك الحرب نجحت نجاحًا كبيرًا في التسلل إلى شريحة من شبابنا، في ظل غفلتنا وتساهلنا».[٢]

أو لنقل: اليوم هناك عملية كبيرة جدًّا تقف وراءها مؤسسات ضخمة للغاية، هدفها الأكبر هو سلخ المسلم من إسلامه ليصير مخلوقًا مشوّهًا ليس له من الإسلام سوى شهادة الميلاد، دوافعها أحقاد وأطماع وأجندات متعلقة بالنظام العالمي الذين يدأبون لتحقيقه واقعًا ملموسًا. هذه العملية يمكن تلخيص وسائلها في ثلاثة عناصر:

---

(١) الاختلاف في اللفظ. ابن قتيبة الدينوري ص٦١.

(٢) عقولنا تحت القصف. في موقع صيد الفوائد على هذا الرابط:
http://www.saaid.net/arabic/٢٠٨.htm

أولًا. التجهيل المعرفي: هذه الجهات والمؤسسات تدعم المنافقين الجدد في البلاد الإسلاميّة ليقوموا بتجهيل المسلم بحقيقة إسلامه، وحقيقة هويّته، وحقيقة المعركة القائمة اليوم ضده. كل هذا تقوم به شخصيات أكاديمية وإعلامية وسياسية، بل ودعوية!

ثانيًا. التفسيق السلوكي: هذه الجهات والمؤسسات تدعم المنافقين الجدد في البلاد الإسلاميّة ليقوموا بتفسيق المسلم، عبر ربطه بالماديات والشهوات، وإنشاء حالة تطبيع لاشعوري بينه وبين التحرر من ضوابط الشريعة في السلوك والمعاملات!

ثالثًا. التحطيم النفسي: هذه الجهات تدعم المنافقين الجدد في البلاد الإسلامية ليقوموا بغرس بذور الهشاشة النفسية منذ الصغر، عبر التعليم والإعلام، ليكون الفرد قابلًا للتحطم عندما يواجه الواقع المزري للأمة، فيسهل تبنيه بأن السبب هو الإسلام!

والحقيقة أن هذه الخطة.. خطة التجهيل والتفسيق والتحطيم، ليست جديدة، بل هي أسلوب مارسه الطغاة الدهاة عبر التاريخ الطويل للبشرية. فتأمل ماذا قال الله سبحانه عن أسلوب تعامل فرعون مع شعبه: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ﴾.[1] يقول سيد قطب: «واستخفاف الطغاة للجماهير أمر لا غرابة فيه؛ فهم يعزلون الجماهير أولًا عن كل سبل المعرفة، ويحجبون عنهم الحقائق حتى ينسوها، ولا يعودوا يبحثون عنها؛ ويلقون في روعهم ما يشاءون من المؤثرات حتى

---

(١) الزخرف: ٥٤.

تنطبع نفوسهم بهذه المؤثرات المصطنعة. ومن ثم يسهل استخفافهم بعد ذلك، ويلين قيادهم، فيذهبون بهم ذات اليمين وذات الشمال مطمئنين!».[١] وواقعنا خير شاهد وأصدق دليل.

❊ ❊ ❊ ❊

(٤) سمات الخطاب الإلحادي المعاصر

وهنا نطرح سؤالًا مناسبًا لسياق بحث الثابت والمتغير بين الإلحاد والقديم، وهو: ما هي خصائص وسمات الخطاب الإلحادي؟ ونحن نطرح هذا السؤال، لأنّ كل خطاب يروم الشيوع والانتشار بين طبقات الناس، وينشد ترسيخ رؤيته الخاصة من حيث أصولها ومبادئها وأهدافها في عقولهم ونفوسهم، فله بالضرورة سمات معينة وملامح محددة؛ تتحدد في إطار دوافعه التي تُحركه، وغاياته التي تحفزه، والفئة المستهدفة منه. وما من شك في أن معرفة سمات خطاب الاتجاهات مهم جدًّا في عملية التحليل والتعاطي مع أطروحاتها ورموزها، ولهذا وجدنا القرآن الكريم يهتم بهذا الجانب خلال معالجته للمذاهب العقدية.

والإلحاد بما أن هذين الشرطين: «طلب الانتشار» و«رؤية بديلة»، متحققان فيه، فلا شك أن لخطابه سمات معينة وملامح خاصة، تعكس حقيقته وأبعاده. وفي تصوري؛ فإن السمات التي سأذكرها هي أحد أهم عوامل تحقيق الإلحاد المعاصر لما حققه من الانتشار اليوم بين المتلقين، فهي تمده باستمرار بأسباب البقاء

---

(١) في ظلال القرآن. سيد قطب ج٥ ص٣١٩٤

والمقاومة والشيوع، ولو أن الخطاب الإلحادي المعاصر تخلى عن هذه السمات لسقط سريعًا!

إذن يمكن تلخيص السمات والملامح العامة للخطاب الإلحادي المعاصر في التالي:

الإسقاط التاريخي: والمقصود بها أن الملحد يقوم بعملية إسقاط لما حدث في الغرب على الإسلام دون مراعاة السياق التاريخي. وهكذا يتم الترويج لصراع العلم ضد الإسلام، لأنه حدث في السياق الغربي صراع العلم ضد الكنيسة! ويتم الترويج لضرورة فصل الإسلام عن الحياة لتحقيق التطور، لأنه حدث في السياق الغربي فصل بين الكنيسة والحياة وتحقق التطور! ويتم الترويج لصورة إله عجيب على أنه طرح العقيدة الإسلامية لله تعالى، لأنه حدث في السياق الغربي أن هوجم إله الكنيسة العجيب!.. إلخ.

تشتيت الانتباه: والمقصود بها أن الملحد خصوصًا خلال المناظرة لا يتورع عن العمل على تشتيت انتباه مناظره أو المتابعين، عبر القفز إلى مسائل بعيدة عن جوهر الموضوع أو السؤال المطروح، أو -إن كان ذا تخصص علمي- عبر الخوض في مسائل متخصصة رغم علمه أن المتابعين ليسوا متخصصين، أو من خلال العمل على مواصلة طرح الشبهة والحرص على تصوير الآخر عاجزًا عن تقديم الجواب، أو عن طريق حشد كَمٍّ من المغالطات المختلفة للإيقاع بمحاوره، ومن ثم إيهام المتابعين بأن فكرة وجود الخالق أو الدين أو الإيمان .. إلخ، غير متماسكة!

المثالية الحالمة: والمقصود بها أن الملحد حريص للغاية على رفع شعارات من قبيل: تخيل عالمنا العربي بلا إسلام، ألسنا سنكون في مصاف الدول المتقدمة! تخيل أن البشرية بلا أديان، ألسنا سنعيش حياة سعيدة بلا حروب ولا صراعات! ومن ثم يروج لفكرة أن الإسلام خصوصًا يُسمم كل شيء، ويدمر الإنسان والمجتمعات والأخلاق، وينتقل إلى شعار أن الإلحاد سيحقق للبشرية الفردوس المفقود، حيث تسود الحريات والعلم والعقل، ولن يكون هناك مكان للخرافات والتحكم في الآخرين!

السخرية والتسخيف: والمقصود بها أن الملحد لديه هوس بالسخرية وتسخيف أطروحات المؤمن، وتصويره على أنه متناقض وخرافي وغير عقلاني، ولا يهم قوة طرح المسلم وتماسك بنائه الحجاجي وما يعرضه من الأدلة والبراهين. وهذه الخطة يمارسها الملحد من أجل إرباك محاوره المسلم ومتابعيه، خصوصًا وأنه مع متابعة السخرية والاستهزاء والاستفزاز، لا يجد المحاور المسلم الجاد إلا التوقف عن مواصلة الحوار، وهنا يعلن الملحد انتصاره الساحق على المسلم! وأن ذلك كان بسبب ضعف أدلة المسلم وعدم معقولية فكرة الإله والطرح الذي يدافع عنه![١]

---

(١) من هذا؛ أن أحد نشطاء الإلحاد في مواقع التواصل قام مؤخراً بإعلان رجوعه إلى الإسلام وتوبته من الإلحاد، ثم بعد حوالي ثلاثة أسابيع من التظاهر بنقد الإلحاد ونصرة الإسلام، أعلن عودته إلى الإلحاد وأنه كان فقط يمثل دور التائب والعائد إلى الإسلام ليسخر من المسلمين وعقولهم الساذجة!

الخطاب العدائي: والمقصود بها أن الملحد العربي يعمل على الهجوم الحاد على الإسلام خصوصًا والأديان عمومًا (رغم ندرة هجومه على الأديان الأخرى)، فالدين منبع الشرور والكوارث والتخلف والخرافة، كما لا يتردد الملحد في النقد اللاذع لفكرة وجود الله تعالى والنبوات والحياة بعد الموت، ولا يخفي الملحد تمنيه زوال الأديان عمومًا والإسلام خصوصًا. ولا يهم حتى تلك الفوائد التي أثبتها الواقع والعلم للدين وعقيدة الإله وفكرة الحياة بعد الموت، ودوره في غرس مكارم الأخلاق وجميل القيم، فزوال الأديان عمومًا والإسلام خصوصًا أهم من زوال الفقر والقضاء على الأمراض والاغتصاب![١]

العلم الطبيعي: والمقصود بها أن الملحد يشدد دائمًا ويلهج كثيرًا بأن العلم الطبيعي هو العصا السحرية لتجاوز كل الأوهام والخرافات والأساطير، ولتحقيق المعرفة الصحيحة بالإنسان والحياة والكون، ولإنشاء مجتمعات متماسكة وسعيدة، لأن العلم الطبيعي قادر على معرفة كل شيء عبر الزمن، كما أنه قادر على حل كل المشاكل الكونية والنفسية والاجتماعية. وهذا الغلو في العلم يبدو طبيعيًا بعد أن زعم

---

(١) سام هارس يقول مثلاً: «لو كان بإمكاني الحصول على عصا سحرية، واستطعت القضاء إما على الاغتصاب أو الدين، لما ترددت أبداً في القضاء على الدين». مليشيا الإلحاد ص٤٥. ونشر أحد الملاحدة في فيسبوك يقول: «لو كان حقدي على الإسلام وما فعله بي يصنع قنبلة، لكانت أشد هولاً من قنبلة هيروشيما». وسمعت أحد نشطاء الملاحدة في مواقع التواصل يقول ما معناه: «لو امتلكت السلطة يوماً لفعلت فيكم أيها المسلمون أضعاف ما فعل هتلر في اليهود، إن تطهير العالم من المسلم عمل إنساني». فتأمل!

الملحد ألا مصدر للمعرفة سوى الحس والتجربة، ولو لم يفعل لسقطت خرافة القدرات الخارقة للعلم الطبيعي!

التناقضات الحادة: والمقصود بها أن الملحد يقع في تناقضات مثيرة جدًّا دون أن يلقي لها بالًا، وحين يُنبّه عليها لا يتردد في ممارسة لعبته المفضلة من التشتيت الذهني وحشد المغالطات وتزيين الإلحاد وتسخيف الإسلام! فلا مانع عند الملحد من أن يقرر أن الإنسان مجرد وسخ مادي متطور، لكنه يرفع شعار الإنسانية والأخلاق! ولا مانع لديه في أن يرفع شعار أن العلم الطبيعي قادر على حل كل المشاكل وكشف كل الحقائق، لكنه لا يجد مشكلة في الاعتراف بقصور العلم الطبيعي!.. إلخ.

الحماسة التبشيرية: والمقصود بها أن الملحد لديه رغبة قوية جدًّا للدعوة إلى الإلحاد والتبشير بمضامينه بين الآخرين. هذه الحماسة العارمة للتبشير بالإلحاد تتجلى في كثرة الكتابات والفيديوهات المتعلقة به، والسعي لفرضه بالحديد والنار حين يمتلك السلطة.[١] ورغم كل التبريرات والشعارات التي يرفعها الملاحدة للتسابق المحموم في الدعوة والتبشير بالإلحاد، فنحن لا نغفل وجود عوامل نفسية وشخصية وتجارية تقف وراء ذلك كله. أما المفارقة هنا فهي سؤال (لماذا يدعو

---

(١) كما هو الحال في الاتحاد السوفيتي سابقًا. «كتبت جريدة «تركمنسكا اسكرا» الشيوعية التي تصدر في تركمانستان بالاتحاد السوفياتي ما يلي: إن نشر الإلحاد هو جزء من النظرية الشيوعية، والملاحظ أن تأثير علماء الدين على عقول الناس وقلوبهم ما زال قويًّا، وإنه لا يجوز أن نقف مكتوفي الأيدي، وننتظر أن يزول هذا التأثير بمحض إرادته». كواشف زيوف. عبد الرحمن الميداني، ص٨٩.

الملحد إلى الإلحاد؟) يتجاوز الملاحدة هذا السؤال عندما نطرحه عليهم ويفضلون التركيز على الترويج والتبشير.

التسطيح الساذج: والمقصود بها أن الملحد لديه نزوع شديد نحو تسطيح تعامله مع أسئلة الإيمان والقضايا الكبرى التي يطرحها. فهو لا يهتم بالأسئلة الكبرى التي يواجهه بها الإيمان، مثل ظهور الكون، ولماذا هو موجود أساسًا؟ وتفسير الحياة وتنوعها الهائل؟ وقوانين الفيزياء ولماذا هي كذلك؟ وتفسير التعقيد العظيم في تركيبة الإنسان؟ ولماذا وُجد الإنسان أصلًا؟ وتفسير هذه القدرات الخارقة للعقل البشري؟ إلى مئات الأسئلة المماثلة. بل يكتفي بطرح أسئلة سطحية وساذجة حول الأقدار والأديان!

الكذب والتزييف: والمقصود بها أن الخطاب الإلحادي يفضل الأسلوب الشعبوي العاطفي على الأسلوب المنهجي والموضوعي في تناول القضايا! ولا شك أن هذا الأسلوب مناسب جدًّا لعقلية الشباب، خصوصًا مع عملية التكرار. ولذلك لا يتورعون عن الكذب والتزييف والتحريف من أجل الترويج لأفكارهم وقناعاتهم وترسيخها في الأذهان والعقول. ومن يطالع الكتابات الإلحادية يدرك تمامًا هذه الحقيقة، ولسان حالهم يقول «إن كان مجد الإلحاد قد ازداد بكذبي وتحريفي لنصرته، فلماذا أُدان أنا بعُد كخاطئ!».

القناعة العنيدة: والمقصود بها أن الخطاب الإلحادي لا يعطي لنفسه فرصة مراجعة قناعته أو التفكر في طرح المؤمن ثم مواصلة البحث، بل يتخذ موقفًا العنيد الرافض بشكل مطلق وبدون أي نقاش للطرح الإيماني! ولذلك لا مانع لديه من

افتراض أكوان لا نهائية فرارًا من القول بكون واحد له بداية، لما يترتب على ذلك من ضرورة إثبات الإله الخالق. ولا مانع لديه من افتراض سلسلة التطور والعشوائية في الكون، فرارًا من القول بالنظم والتصميم الغائي، لأن ذلك يوجب الإقرار بوجود الإله الخالق!.. إلخ.

المقابلة بين الدين والعلم: والمقصود بها أن الخطاب الإلحادي يعمل دائمًا في كتاباته ومناظراته ومحافله على طرح فكرة وجود التقابل بين الإيمان والعلم، فإما أن تقبل العلم فأنت علمي وعقلاني ومنطقي، وإما أن تقبل الإيمان -وفي سياقنا الإسلام- فأنت خرافي ومتخلف وبدائي! لتحقيق هذا الهدف وترسيخه في ذهن المتلقي يستغل الملحد صراع الكنيسة ضد العلم والعلماء في التاريخ الغربي، كما أنه يحرص على استثمار بعض الأخطاء التي يقع فيها بعض المشتغلين بالإعجاز العلمي.

السلطة المتعالية: والمقصود بها أن الخطاب الإلحادي يعمل دائمًا على الظهور بمظهر المالك للسلطة المتعالية فوق النقد والمتجاوزة للطعن والتشكيك، لأنه يعتقد -ويريد منا أن يعتقد ذلك!- أن الأطروحات الإلحادية، سواء في جانب التأسيس والبناء للإلحاد أم في جانب النقد والطعن في الأديان، هي أطروحات صحيحة ويقينية وقطعية، ومن ثم لا يمكن التشكيك فيها، بل محاولة التشكيك فيها ونقدها وبيان عوارها يدل -وفق الخطاب الإلحادي- على معاداة العلم ومنافرة العقل، والانحياز للخرافة وأوهام الأديان!

المبالغة التضخيمية: والمقصود بها أن الخطاب الإلحادي يعمل بشكل مكثف على تضخيم أخطاء المسلمين القولية والسلوكية، وبعض المتشابهات العقدية والتشريعية مع إهمال تام للمنظومة الإسلامية ومبادئها وأسسها. كما يحرص على تهويل تخلف واقع المسلمين الراهن وتمجيد الحضارة الغربية وازدهارها مع إغفال تام للنهب والتدمير الذي لا يزال الغرب يمارسه ضد باقي الشعوب بأساليب مختلفة. وأيضًا تضخيم العنف الذي مورس باسم الدين، مع إهمال تام للعنف العلماني والماركسي والغربي.

التوسل بالغيب: والمقصود بها أن الخطاب الإلحادي رغم رفعه شعار العلم والعقل، وأن ما لا يمكن تجربته لا يمكن اعتباره والالتفات إليه، حتى جعل ذلك أحد وسائله في الهجوم على الإسلام خصوصًا والأديان عمومًا، بدعوى أنها غيبية وليست علمية! لكن؛ حين تقلب الصفحة، ستجد الملحد أشد الناس حرصًا على التوسل بالغيوب لدعم قناعاته، فلا مانع لديه أن يعتقد أن التطور حدث قبل ملايين السنين، ولا مانع لديه أن يفترض وجود ملايين الأكوان، ولا مانع لديه أن يعتقد أن المستقبل كفيل بكشف كل شيء!

استغلال أصول إيمانية: والمقصود بها أن الخطاب الإلحادي يعمل على جلب أصول إيمانية بارزة في المنظومة الدينية والمتاجرة بها! فأصل احترام الإنسان، قيمة الحياة، نُبل التضحية، مكارم الأخلاق، المحبة والتعاون، التفكر العقلي، التزكية الروحية، وغير ذلك، هذه كلها مبادئ جوهرية في المنظومة الدينية الربانية، وهي تتوافق معها ولها ما يبررها، أما الملاحدة فلا يوجد في قائمة الأسس الإلحادية ما

يبررون به التغني بتلك المبادئ والشعارات، بل كما قلنا مجرد استغلال ومتاجرة لخداع النفس والآخر!

الموقف الإقصائي: والمقصود بها أن الخطاب الإلحادي رغم شعار الحوار والبحث عن الحقيقة، ورغم احتفائه الزائف بالعقل والعلم والدليل، إلا أنه في جوهره يتخذ دائمًا من المسلم والمؤمن عمومًا، موقفًا إقصائيًا. فحين يواجهه المسلم والمؤمن عمومًا بالأدلة العلمية يبادر للقول (أنت لست متخصصًا في الفيزياء، البيولوجيا.. إلخ)، وحين يكون المسلم والمؤمن عمومًا من المتخصصين وأصحاب الشواهد العليا في فرع من فروع العلم الطبيعي يسارع الملحد لاتهامه بأنه ينطلق من منطلقات دينية إيمانية غيبية!

الجهل بالإسلام: والمقصود بها أن الخطاب الإلحادي المعاصر يعاني من جهل فاضح بأبجديات المنظومة الإسلامية، عقيدةً وشريعة، ولا تكاد تجد منهم من لديه معرفة أصيلة بالإسلام، بل أقصى ما معهم من المعرفة بالإسلام، قراءات مجتزأة ومطالعات مختزلة، ومعلومات متناثرة تجمّعت لديهم من هنا وهناك! ورغم هذا الجهل المكشوف والصارخ، فإن الملحد يحرص دائمًا على الظهور بمظهر المطلع الخبير بالإسلام، ولذلك لا يتردد حين الحديث عن الأديان أن يجمع بين الإسلام والنصرانية واليهودية وغيرها!

رفض اللوازم: والمقصود بها أن الخطاب الإلحادي يرفض رفضًا قاطعًا مناقشة اللوازم الفلسفية والنفسية والسلوكية والاجتماعية للأسس والأصول الإلحادية، ولذلك مهما أبدى محاوره المؤمن بعضًا من تلك اللوازم وألزمه

بها وطالبه بالرد عليها في إطار أسس الرؤية الإلحادية، فإنه ينزعج شديد الانزعاج، ولا يجد له مخرجًا سوى الاستغاثة بأسلوبه المفضل، أعني القفز هنا وهناك، والتركيز على مسائل هامشية وجزئية أو مهاجمة دين محاوره والأديان عمومًا، أو تشغيل أسطوانته المحبوبة: الإلحاد فردوس جميل والأديان كابوس مرعب!

الأسلوب الانفعالي: والمقصود بها أن الخطاب الإلحادي يحرص دائمًا على تصوير الإنسان والحضارة والحياة في صورة ضحايا للعنف الديني والتحيز الديني والطغيان الديني، ومن ثم يركز دائمًا على ذكر واستدعاء أي شيء يمكن أن يدين الأديان، من نصوص كتبها المقدسة أو من أطوارها التاريخية أو من أقوال ومواقف أتباعها وزعمائها. ويتوسل إلى ذلك بالأسلوب المشحون بالكلمات التي من شأنها إثارة انفعال المتلقي، ليجد نفسه لاشعوريًا متوجسًا من الدين بل ونافرًا منه، ومن ثم يتقبل الإلحاد بسهولة!

المغالطات المنطقية: والمقصود بها أن الخطاب الإلحادي لا يتورع عن ممارسة لعبة المغالطات المنطقية مع محاوره أو المستعين إليه أو قراءه، خصوصًا حين يعلم مسبقًا أن هذا الآخر ليس في مستوى التنبه لمكامن المغالطة، لأن غرض الملحد، رغم ادعائه البحث عن الحقيقة والتزام الموضوعية، ليس التوصل إلى الحق واتباع الدليل حيث يقود، بل الانتصار للذات والقناعة الإلحادية ولو على حساب منطق العقل وقداسة الحقيقة وقيمة الموضوعية. ولابد أن أشير إلى أن جمهور الملاحدة هم أنفسهم ضحايا مغالطاتهم المنطقية!

الدعاية الفجة: والمقصود بها أن الخطاب الإلحادي المعاصر خطاب دعائي بامتياز، غرضه الأكبر هو تعبئة المتلقي (الشباب خصوصًا) ضد الإيمان، من خلال مجموعة من الآليات كما نعرض لبعض منها! ومن الواضح أن الخطابات الدعائية لا يعنيها في شيء أبدًا صدق كلامها وتماسك عناصر شعاراتها وطبيعة مآلاتها في الفكر والسلوك والواقع، بل يكون همها الأكبر هو غرس مجموعة من الرؤى الكلية عبر تزييف وتحريف معطيات جزئية، ليستبطن المتلقي هذه الرؤى في عقله ووجدانه، ومن ثم يصوغ أفكاره وتصوراته وأحلامه وعلاقاته ونشاطاته، وفقها وفي إطارها، بشكل تلقائي.

التلحيد الناعم: والمقصود بها أن الخطاب الإلحادي المعاصر لا يغفل خطة التلحيد الناعم. فكثير من زعماء الإلحاد العربي لا يقدمون أنفسهم على أنهم ملاحدة، بل على أنهم علمانيون أو إنسانيون أو حداثيون، ومن ثم لا يهتمون بالنقاش حول أدلة وجود الله سبحانه، بل خطتهم -وينصحون بها عموم الملاحدة- هي التشكيك في القرآن، والسنة والسيرة، وصلاحية الإسلام لهذا العصر. كل ذلك تحت غطاء البحث والسؤال، لكي لا ينفر منهم الشباب. وهدف الخطة هي أن يصل المسلم إلى الإلحاد بنفسه أو على الأقل يتشكك في إسلامه، وهي نفس خطة النسويات عبر قضايا المرأة.[١]

---

(١) تقول رجاء بن سلامة: «علينا أن نطرح إشكالية التعارض بين الشريعة ومنظومة حقوق الإنسان، وأن نُخضع التجربة الدينية إلى معيارية حقوق الإنسان لا العكس، لأن العكس هو ما نشهده اليوم من تمسك بأبنية اللامساواة والهيمنة الذكورية باسم الثوابت الدينية والمقدسات». بنيان الفحولة ص

ردة الفعل: والمقصود بها أن الملحد المعاصر جاء إلحاده في شكل ردة الفعل، خصوصًا بعد شيوع الإنترنت وانتشار المنتديات ومواقع التواصل الاجتماعي، حيث صار الملحد ينتقل إلى الإلحاد باعتباره شعار التمرد وأمارة الرفض والاحتجاج على الأوضاع القائمة، اقتصاديًا وسياسيًا. ومن الواضح أن القناعة حين تتشكل في إطار ردة الفعل، فإنها تكون مصابة بخلل جوهري، على مستوى الشكل ومستوى المضمون، لأنها تكون ناتجة في سياق ظرفي ضاغط وخانق، يحول بين العقل وبين التبصّر الأصيل!

الطابع السجالي: والمقصود بها أن الخطاب الإلحادي المعاصر يتسم بالسجالية، وذلك نتيجة كونه ردة فعل أفقدته التوازن المعرفي والمعالجة الموضوعية لقضية قبول الإيمان أو رفضه، وما يترتّب عليهما من لوازم وآثار، معرفيًّا وسلوكيًّا وحضاريًّا. وحين يكون الخطاب مطبوعًا بطابع السجالية، فلا شك أنه لا يكون معنيًّا بالحقيقة، معرفةً والتزامًا وممارسة، بل يكون همه الأكبر هو الظهور بمظهر المنتصر في ساحة المعركة التي يخوضها ضد مناوئيه، بغض النظر عن المعايير والأساليب التي يتوسل بها في ذلك!

فقدان الأصالة: والمقصود بها أن الخطاب الإلحادي المعاصر يفتقد الأصالة في الطرح كما في الحلول، بحكم ارتباطه الوثيق، من حيث النشأة، بالإلحاد والنموذج الغربي، ومن ثم فهو يجد نفسه مدفوعًا لتسوّل الأطروحات، كما الحلول! ولا شك أن هذا من أبرز الأسباب التي تجعل الخطاب الإلحادي ضعيفًا ومهترئًا، لأنه بلا جذور، فهو ليس نابعًا من الذات، ولا من الهوية الثقافية والتاريخية للمجتمع الذي

يعيش فيه. ولست أدري كيف يكون حال الملحد لو تحرر من سلطة النموذج الغربي!

رفض الاحتمال: والمقصود بها أن الخطاب الإلحادي المعاصر رغم تبنّيه للعلم والعقل، فإن أحد أبرز مناقضته لهذا الشعار رفضه لمبدأ الاحتمال في قناعته الإلحادية، فهو يرفض بشكل قاطع وبصورة نهائية أن يضع احتمال أن يكون الإلحاد خطأً أو وهمًا، هذا رغم لهجه الدائم بنسبية الحقيقة إلا أنه لا يطبّق هذا المبدأ إلا إذا تعلق الأمر بالإيمان ووجود الخالق سبحانه، أما حين تطالبه بالتزامهما مع قناعته الإلحادية، إذ وارد جدًّا وممكن عقلًا ومحتمل للغاية أن يكون الإلحاد خطأً، فهنا يكفر بالمنهج العلمي ويلعن مبدأ النسبية!

الهجوم على الإله: والمقصود بها أن الخطاب الإلحادي المعاصر لديه هوس شديد بالهجوم على الله سبحانه، والهجوم هنا لا يعني طرح الأدلة وتقديم البراهين، أو مناقشة الأدلة والبراهين التي يعرضها المؤمن، بل يعني الهجوم لمجرد الهجوم ورفض أي حضور للإله، لأن الهدف هو إسقاط فكرة الإله الخالق، ولذلك لا يتورع -والأمر هنا لا يقتصر على الأتباع والعوام- عن الوقاحة والبذاءة، بل يحرص على التزام هذا الأسلوب من أجل توهين وتهوين عقيدة الإله في وعي ونفسية المتلقي أو المتابع المؤمن.[١]

---

(١) يقول بول فيتز -ملحد سابق-: «تُعد الإشارة الجدية إلى الله في الكتاب العلمية ضمن العالم الأكاديمي محظورة كليًّا، فضلاً عن استخدام مفاهيم مثل «العناية الإلهية»، أما المفاهيم العلمانية المجردة مثل «التقدم»، و«صراع الطبقات»، و«المجتمع الأبوي»، و«تحقيق =

وبعد، من المحتمل أن هناك سمات أخرى غفلت عنها، إلا أننّي أتصور أنّ ما ذكرته هو أبرز السمات العامة للخطاب الإلحادي، ومن ثم، فهذه السمات يمكن أن ترسم صورة واضحة بشكل كبير عن الإلحاد والملحدين. وما من شك في أن هذه السمات تؤدي بنا إلى نتيجة حتمية حول الإلحاد، وهي أنه ديانة هلامية أشبه بالتيه، ديانة سائلة أشبه بالسراب، بلا جذور ولا أصول ولا معايير تليق بكرامة الإنسان وقدسية الحياة ونبل الحقيقة!

ولسنا نحتاج لكثير تأمل لكي ندرك أن الأمر طبيعي للغاية، فالإلحاد ليس مؤسسًا -كما قلنا- على أركان ثابتة وركائز متماسكة، ولا يستند إلى أصول واضحة وحقائق رزينة، بل بما أنه مناقض لضرورة الفطرة ومبادئ العقل ومعطيات الكون والحياة لابد أن يكون بهذا الاهتراء والترهل والشظي والتناقض، حتى إن المرء ليعجب لهؤلاء الذين ارتدوا عن الإسلام ولم يجدوا سوى الانتقال إلى الإلحاد، لولا أنه يذكر أن الحماقة تفعل بصاحبها الأفاعيل العجيبة!

على أنني لست أزعم أن هذه السمات تطبع خطاب كل ملحد، فالملاحدة أصناف وأشكال، منهم الأمي الساذج، ومنهم المخدوع الشارد، ومنهم الشرس العنيد، ومنهم القارئ المطلع، ولذلك فتحديد سمات الخطاب لا يلزم عنه أننا نقول

= الذات»، وغيرها من المفاهيم الأثيرية «غير المادية» الأخرى المشابهة مثل «البقاء للأصلح» و«التطور»، فهي مفاهيم متعارف عليها ومقبولة، فالوضع ضمن الوسط الأكاديمي يكفي الإشارة إلى الله بأي طريقة لتضع منحة الشخص التعليمية محل التساؤل». نفسية الإلحاد ص١٧.

بأنها تجتمع كلها في كل ملحد لمجرد كونه ملحدًا، وإنما تكمن قيمة هذا التحديد لسمات الخطاب الإلحادي -كما لكل خطاب- في قدرته على رسم صورة واضحة المعالم عن طبيعة الإلحاد من حيث هو رؤية شمولية، وعن الطبيعة العامة للملحدين.

* * * *

(٥) شراسة الملحدين في نشر الإلحاد

إذا كان القاسم الثابت بين الإلحاد القديم والمعاصر، هو فصل الإنسان عن الإله الخالق، وهو ما يعني تفريغ حياته من القداسة والمعنى والقيمة والثبات، بعد استغراقه داخل عالم الطبيعة وحدود الحس، وتحويله إلى مادة استعمالية، أفقها الأعلى هو الشهوات، إذا كان هذا هو الثابت بشكل عام، فإننا نستطيع أن نرصد متغيرين جوهريين مرتبطين بالإلحاد المعاصر:

المتغير الأول: هو الوسائل والآليات لتحقيق متتاليات ذلك الثابت عمليًّا.

المتغير الثاني: هو الشراسة والعنف في تحقيق الفصل بين الإنسان والإله الخالق.

نحن نقرأ هذين المتغيرين في إطار الهيمنة الغربية التي يشهدها العالم كله منذ عقود. فبفعل ظروف وعوامل متشابكة للغاية، اندفع الإنسان الغربي بعيدًا عن الدين والإله، ولأنه كان لابد -وقد تحرر بشكل كبير من نموذج الرؤية الدينية كما عرضتها

الكنيسة- أن يتبنّى نموذجًا آخر، يكون المرجعية العليا التي يحتكم إليها في رؤاه وأفكاره وتصوراته، وفي قيمه ومبادئه وأخلاقه، وفي نظمه وقوانينه وتشريعاته، لأنّه كان لابد من ذلك، فقد كان هذا النموذج الجديد هو النموذج المادي، العلماني الليبرالي!

هذا النموذج الجديد عمل على ثنائية الانفصال والاتصال، الانفصال عن الإله بتضميناته المتمثّلة في القداسة والثبات والمعنى والثنائيات (ثنائية الخالق والمخلوق، الروح والجسد، العقل والمادة، الدنيا والآخرة)، والاتصال بالطبيعة بتضميناتها المتمثلة في النسبية والسيولة والاستهلاك والحتميات المادية. ثم مع عصر النهضة وتطوراته ومآلاته، بدأ الإنسان الغربي يرى نفسه المركزَ والمرجعية ونهاية التاريخ، ومن ثم أحقيته في احتلال العالم وإخضاع الآخر الذي رأى فيه معنى الهمجية والتخلف، بعد أن نزع عنه إنسانيّته وجرّده من كل قيمة، لتكون النتيجة الحتمية لذلك هي التعامل معه على أنه مجرد مادة استعمالية!

الذي حدث هو أن الغرب اكتشف بأن هذا الآخر ليس كما توهم، بل هو إنسان ذو جذور عميقة، وله ثقافة وعقيدة ومرجعية، وهي كلها تختلف في كثير من جوانبها عن رؤيته الخاصة ومرجعيته المعرفية، ومن ثم لا يمكن أن يقبل بمرجعيته ونهائيته. يقول عبد الوهاب المسيري: «الإنسان الغربي حينما جيّش جيوشه وانطلق في ربوع المعمورة، كان يحمل خريطة معرفية في وجدانه تجعل منه مركز الكون وذروة التقدم التاريخي، ولذا حينما كان يحل على أرض، كان لا يرى سكانها، أو إذا رآهم فإنهم كانوا يمثلون بالنسبة له مادة استعمالية. فإن قاوموه فهذا أكبر دليل على تخلفهم

ولاعقلانيتهم، لأنهم لا يرون العالَم من وجهة نظره».[1] فكان لابد من فصله -الآخر- عن جذوره وثقافته وماضيه وحضارته وعقيدته، ليتمكن من السيطرة عليه ضمن رؤيته المادية، النسبية، السائلة. ولذلك كانت هذه الشراسة في تلحيد الآخر وعلمنته وتطبيعه مع التصورات والأنماط الليبرالية، وإذابته في البوتقة المادية، عبر الإعلام والأفلام والثقافة وأنماط الحياة وتزييف الحقائق!

إذن؛ الشراسة الإلحادية المعاصرة في التبشير بالإلحاد والترويج له، والعمل المضني عبر آليات مختلفة لجعل أفكاره ثقافة ورؤى كامنة في العقول والنفوس بين مختلف طبقات المجتمع والشعوب، عكس ما كان عليه الإلحاد في العصور الغابرة، يمكن القول بأن هذا الحرص وهذه الشراسة وثيقة الصلة بالرأسمالية والإمبريالية الغربية والعلمانية المتغوّلة في العصر الحديث، بل لا يمكن أن ينفصل الإلحاد عن ذلك، بحكم أن العلمانية الغربية ترى نفسها المركز والمرجعية ونهاية التاريخ، ومن ثم تُجرّد الآخر من إنسانيته، فلا ترى فيه سوى أنه وسيلة لتحقيق طموحاتها الرأسمالية الجشعة، وهذا لا يمكن أن يتحقق إلا بإغراق هذا الآخر في أوحال الشهوات والتفاهة، أي بتصعيد متتال ودفع متواصل في طريق علمنته ولبرلته وتنميطه ماديًّا على مستوى أفكاره وتصوراته وأحلامه وأنماط حياته!

والواقع، أن هذا ما يحدث فعلًا، فإنك اليوم تجد في الغرب كما في بلدان العالم الإسلامي تحالفًا وتوافقًا بين الملاحدة والعلمانيين، لأن الهدف المشترك بينهم -وهم في الحقيقة وجهان لحقيقة واحدة- هو إبعاد الدين عن مجال الحياة الخاصة

---

(١) الإنسان والحضارة ص٢٣٣

والعامة، رغم شعار العلمانيين (الدين شأن خاص)، لأنه حتى الملحد قد لا يمانع أن تحتفظ بعقيدتك الإيمانية بينك وبين نفسك، وإنما يرفض رفضًا قاطعًا أن تتجاوز هذه العقيدة أعتاب حياتك الخاصة إلى مجال الحياة العامة، والتعامل مع الأشخاص والأفكار والمواقف والأحداث على وفق ما تتضمنه من أحكام ومفاهيم وآداب وقيم!

لقد بيّن ويرليمان في كتابه، كيف يتحالف الملحدون الجدد مع اليمين المسيحي والرأسماليين، وكيف يخدمون مشاريع الإمبرياليين الأمريكيين والصهاينة والغربيين عمومًا، عبر الترويج لخطاب الكراهة والإقصاء والتخويف والتحذير من الإسلام والمسلمين، والعمل على تجريدهم من كل قيمة ومعنى، بل والمطالبة بالتعامل معهم بكل عنف وقسوة، لأنهم إرهابيون ومتخلفون، ولأنهم يحرصون على تدمير الحضارة الغربية الفاضلة!

يقول مثلًا: «لقد كسب الملحدون الجدد الدعاية والاهتمام الخاص والزخم في وسائل الإعلام الأمريكية الرئيسية، لأنهم -كما يقول لو سافاج- يقدمون غطاء فكريًّا للإمبرالية الغربية».[١] ويؤكد ذلك بقوله: «الملحدون الجدد أصبحوا أصوليين علمانيين. ويبيعون إيمانهم لمصالح أمريكا -الدولة العلمانية-. إنهم يعانون مما أسماه الطبيب النفسي روبرت جاي ليفتون «متلازمة القوة العظمى»».[٢] فالملحد هنا لا يستطيع الاستمرار إلا بالتماهي مع أجندات الأطماع الإمبريالية!

---

(١) مهددات الإلحاد المعاصر ص١٣٢.

(٢) نفس المصدر ص١٦٦.

وهذا نفس ما وقع من قِبل العلمانيين والليبراليين إبّان الاحتلال الغربي، وحتى بعد خروجه، بل وإلى يومنا هذا. فيكفي أن نذكر أنهم «لم يكونوا معنيين -في تفكيرهم وممارستهم- بموضوع الاستعمار أو أخطاره الممكنة، بل إن كثيرًا منهم انساق إلى التفكير والجهر بأنه ضرورة حضارية في مسار التاريخ العربي المعاصر»، ومن ثم، «لم ينظر معظم الليبراليين العرب إذن إلى الظاهرة الاستعمارية -كتحد أولًا ثم كواقع ثانيًا- بصفتها موضوعًا ذا أولوية حاسمة للتفكير. لذلك تعايش الوعي الليبرالي معها محاولًا استثمار بعض نتائجها السياسية والفكرية».[١]

❊ ❊ ❊ ❊

(٦) علاقة العلمانية بالإلحاد

وهنا، نطرح سؤالًا مهمًا، وهو: ما هو مبرر تحالف العلمانية والإلحاد؟

يمكن الإجابة على هذا السؤال بالقول: العلمانية والإلحاد كلاهما يرفض رفضًا قاطعًا أن يكون للإله الخالق حضور في واقع الحياة العامة ونشاطاتها المختلفة. ولذلك نجد العلمانية والإلحاد لا يترددان حين يمتلكان السلطة في التضييق العنيف على مظاهر حضور الإله! يكفي أن نُذكّر هنا بما قام به الاتحاد السوفيتي حين أعلن الإلحاد ديانة للدولة، فقد قام بخنق ممنهج وعنيف للغاية للدين وعقيدة الإله في النفوس والعقول. كما يكفي أن نُذكّر هنا بما تقوم به فرنسا العلمانية -وباقي الدول الأوروبية وإن بنسب متفاوتة- من محاصرة للحجاب الإسلامي، بل وسنّ القوانين

(١) إشكالية المرجع في الفكر العربي المعاصر. عبد الإله بلقزيز ص٢٧-٢٨

التي تحظره وتجرّمه، لأن القضية ليس قطعة قماش تستر بها المسلمة شعرها، بل لأن الحجاب رمز ديني مليء بالدلالات، ورسالة تعكس مضامين رؤية مرجعية تناقض الرؤية العلمانية التي تتخذها فرنسا ديانة لها! وأيضًا يكفي أن نُذكّر بما تقوم به حاليًا الصين الشيوعية الملحدة تجاه المسلمين الإيغور، من تضييق ومحاصرة وتعذيب واغتصاب وتعبيد وإذلال، للرجال والنساء، الصغار والكبار!

لا جرم -إذن- أن يكون الإلحاد والعلمانية وجهين لعملة واحدة، غير أن الغاية واحدة، وهي تتمثل في محاصرة حضور الإله وصبغ الشخصية الفردية والاجتماعية بألوان المادية المنفصلة عن القيم والحياة بعد الموت. يقول محمد الهبيلي: «الإلحاد الجديد هو الوجه الأصولي البشع للعلمانية، فنفس الوجه الذي ظهر مع قيام الثورة الفرنسية وفي بدايات القرن العشرين، يعود للظهور من جديد، ولكن بشكل أوسع انتشارًا في عملية منظمة تنشر ثقافة العدائية والبلطجة والتحجر الفكري، وتصنع أتباعًا مختلين ذهنيًا وثقافيًا واجتماعيًا، بل وحتى إنسانيًا».(١)

إذا رجعنا إلى السياق العربي، سنجد أنه بعد هجمات الاحتلال الغربي على العالم الإسلامي، حرص الغرب للغاية على سلخ الأمة عن دينها، إذ كان عليمًا بأنه لن تقوم له قائمة بين المسلمين ما داموا ملتزمين بدينهم، عقيدة وشريعة. ثم بعد عقود طويلة من عملية العلمنة وترسيخها في كل مناحي الحياة ونشاطات الفكر وشعب المجتمع، وبعد مقاومة شديدة من تلك الجماعة المباركة التي بقيت جذوة العزة الإيمانية مشتعلة في قلوبها وعقولها، وفي إطار تغيرات دولية، اضطر الاحتلال

---

(١) طلاسم نجسة ص٣٨.

للخروج، لكن بعد أن قدّم مقاليد السلطة والحكم لفئة ما زال يربيها على عينه، فئة العلمانية العربية التي قامت بالدور المنوط بها في متابعة تجذير العلمنة في الأمة، بالخداع والتزييف تارة، وبالحديد والنار تارة أخرى!

توجهت العلمانية العربية، مباشرة لسلخ الأمة عن هويتها ودينها، وحاربت الإسلام، عقيدة وشريعة ولغة وتاريخًا، تارة بشكل واضح ومكشوف، وطورًا بشكل ملتو وماكر عبر الاحتواء لتفريغه من مضامينه. والواقع «يشهد بأن أولئك لا يتعاملون مع الوحي إلا بوصفه مشكلة يحتاج إلى التخلص منها بتحييد ما يناسب ذاك المزاج من المعاني عبر إخضاع الوحي للتحليل السيميائي الألسني، والمقاربات التاريخية السوسيولوجية، ومناهج التفكيك والنظرات المقاصدية».[١]

ولذلك تجدهم -بمختلف أشكالهم- يتواصون بضرورة تفجير الإسلام من الداخل، أي بالدخول إلى ساحة الدراسات المتعلقة بالإسلام لبثّ الشكوك وممارسة الهدم والتفكيك، تحت مبرر البحث عن الحقيقة واكتشافها، متوسلين في ذلك بالمناهج الغربية! علمًا أنها مناهج تشكّلت ضمن سياقات خاصة بالغرب، بكل رواسب التاريخ وأساطير الفكر، وأبرزها تنحية الإله عن مختلف مظاهر الفكر والحياة! وهم لا يترددون في التصريح بأن أزمة العقل العربي والمسلم اليوم وأزمة الأمة العربية والإسلامية سببها الأكبر هو الوحي والتراث، ولذلك لا يمكن تحقيق أية نهضة، ولا يمكن تحرير هذا العقل قبل فك ارتباطه بالوحي والتراث، وتجاوزهما، إلا بما يناسب الحداثة الغربية والواقع المعاصر!

---

(١) ينبوع الغواية الفكرية. عبد الله العجيري ص٢٤٧

فهذا أحد رؤوسهم -هاشم صالح- يقول: «أعتقد أني كنت وجهت ضربات موجعة لهذه اليقينيات الجماعية الكبرى من خلال ترجماتي لأعمال محمد أركون، وقمت بتعرية أشياء كثيرة كاشفًا عن وجهه البشري التاريخي، وهي التي تقدم نفسها وكأنها إلهية، منزلة، معصومة. وهذه هي الطريقة الوحيدة لتحرير الوعي العربي من تلك اليقينيات المعصومة التي تشربناها مع حليب الطفولة والتي تؤدي إلى هذا الإجرام كله»، ويقول: «أصبح واضحًا لكل من يرى ويسمع أن سبب الانسداد الحضاري الذي يعانيه العالم العربي والإسلامي ككل يعود إلى الانغلاق الكامل داخل يقينيات القرون الوسطى التي تتخذ صفة الحقيقة الإلهية المقدسة التي لا تناقش ولا تخضع للعقل بأي شكل. ومعلوم أن أوروبا لم تنطلق حضاريًا إلا بعد أن تحررت من أسر هذه اليقينيات التي تلتف حول الروح كالأخطبوط». ويقول: «كل شيء يدل على أن معركة الإسلام مع نفسه ومع الحداثة العالمية سوف تكون شرسة جدًا، وأن مصالحة الإسلام مع الحداثة لن تتم قبل خوض هذه المعركة التي قد تُكلّف مئات الآلاف أو ربما ملايين الضحايا. لأول مرة سوف تنبثق الحقائق المطموسة قبل ألف سنة وتحل محل اليقينيات القروسطية التي لم تعد مقنعة إلا للجماهير الجائعة».[(١)]

وفي مقابل محاربة العقيدة الربانية، ومحاصرة الشريعة الإلهية، والتضيق على المنهج الإسلامي، قام العلمانيون/ الحداثيون/ الليبراليون/ التنويريون/

---

(١) الانسداد التاريخي: لماذا فشل مشروع التنوير في العالم العربي ص١٤ و٢٦ و٢٧.

النسويات،[١] منذ ظهورهم مع مجيء الاحتلال بالترويج للأفكار الغربية، تلك الأفكار التي أساسها رفض الإله الخالق، وإلغاء شريعته، واعتبار أن الحياة مادة، وإعلان العلم التجريبي الإله الجديد الذي يجب الخضوع له، ولذلك لا معنى لأن نظل في عصر الحضارة والتقدم والتقنية مرتبطين بالله وشريعته، فكل الدلائل تؤكد على أن ذلك لن تكون له نتيجة سوى مزيد من التخلف وقمع الحريات! ومن هنا، «فالمثقف النهضوي «الليبرالي» لم ينفك يلح -وهو يستعرض محاسن أوروبا ومواطن السمو فيها- على أن لا سبيل إلى تحصيل الترقي إلا الأخذ بأسباب «التمدن الأوروباوي» أي الأخذ بقيم العقل والعلم وقواعد الحكم العصرية والضرب صفحًا عن كل النظم العقلية والمادية والسياسية الموروثة عن تاريخ يبدو كله انحطاط وتقهقر».[٢] ولهذا «كان الفكر الليبرالي العربي مشغولًا بالدفاع عن مبادئ الحرية ضد الاستبداد، والعقل والعلم ضد الدين، والدولة الوطنية ضد السلطنة، متقاطعًا -وعي ذلك أم لم يعه- مع بعض أهداف الأجنبي في تلك الفترة: تفكيك الذاتية».[٣]

يمكن استخلاص النتيجة الحتمية لذلك، وهي أن «أشد ما تكون عداوة العلمانيين للشريعة، فيما كان مضادًا لاتجاه الحضارة الغربية، وفلسفتها في التشريع، والنظر إلى الفرد والمجتمع، وذلك مثل: تحريم الربا في القانون المدني، أو تحريم الزنا والسكر في القانون الجنائي، أو تحديد الجزاء على الجرائم بعقوبات بدنية، مثل

---

(١) هذه الأسماء بالرغم من حرصهم على تعريفها تعريفات مختلفة، إلا أنها بالنسبة لنا (جاهلية واحدة)، وهي من باب (تعددت الأسماء والمسمى واحد)

(٢) إشكالية المرجع في الفكر العربي المعاصر. عبد الإله بلقزيز ص٢٦.

(٣) نفس المصدر ص٢٨.

الجلد والقطع ونحو ذلك».[1] ولهذا تحارب العلمانية العربية تحت شعارات شتّى وبمبررات مختلفة -خصوصًا بعد هجمات الحادي عشر بأمريكا، وبعد ما يسمى إعلاميًّا بالربيع العربي، وسقوط بعض الطغاة الجبابرة- المظاهر الإسلامية، وتعمل على تفريغ الباقي من كل مضمون!

أقول بأن الإلحاد والعلمانية وجهان لحقيقة واحدة، لأنه إذا كان الإلحاد الصريح يعني إنكار وجود الخالق ماديًّا، فإن العلمانية تعني إنكار وجود الخالق معنويًّا! رغم أنّ نهاية قول العلمانيين هي أنه ليس هناك إله، ولذلك فالعلمانية واقعًا هي إعلان موت الإله. يقرر مايكل ألين جيلسبي نفس هذا المعنى، فيقول: «إن الافتراض المضمر في أطروحة العلمنة هو أن الإله غير موجود وأن الدين مجرد صناعة بشرية».[2]

إن العلمانية لا تقول لك مباشرة أنه لا يوجد إله، وإنما تدفعك لأن تعيش حياتك بلا إله، فهي حريصة على محاصرة العقل والفطرة بكَمٍّ هائل من المؤثرات الساحرة وركام عظيم من الشعارات كالعلمية والموضوعية والتقدم التي تُرسّخ الرؤية المادية في الإدراك والوجدان، لكي يظل الإنسان مُنغمسًا في أوحالها، من خلال إعادة تشكيل الوعي الباطن، عبر الدراسة، الإعلام، القانون، الفنون والآداب، وغير ذلك، لتكون النتيجة أن هذا الإنسان العلماني يعيش حياته كأن الإله قد مات!

وخلال هذه المتتاليات الممنهجة، ينفصل الإنسان العلماني رغمًا عنه عن

---

(١) التطرف العلماني في مواجهة الإسلام. يوسف القرضاوي ص٤٥

(٢) الجذور اللاهوتية للحداثة ص٣٥٠.

خالقه، وعن دوره الذي خُلق له، وعن التفكير في عالم الخلود بعد الموت! وبهذا يحقق مشروع العلمانية أعلى مستويات التنميط الاجتماعي، أي ليكون أفراد الوطن بدون خصوصية ولا تمايز ولا معالم، فالكل نسخ متشابهة! لأن وجود أفراد مُنمّطين، ثقافيًا وقيميًا وسلوكيًا، هو الضمانة الوحيدة لبقائها واستمرارها. ومن هنا، فدعوى حيادية العلمانية تجاه مختلف المذاهب والأديان، دعوى ماكرة، لأن العلمانية بطبيعتها يستحيل إلى أقصى درجات الاستحالة أن تكون محايدة، وأن تقف من الجميع على مسافة واحدة. لأن الحياد المزعوم ينقض جوهر العلمانية ويدمر مشروعها النهائي المتعلق بتنميط المجتمع الذي يتأسس على سلخ الفرد من العقيدة الإيمانية بالله تعالى والآخرة. ولهذا، ففي اللحظة التي يحاول الآخر ذو الرؤية الوجودية المختلفة عن الرؤية العلمانية ممارسة بعض حريّاته النابعة من جوهر رؤيته الوجودية الخاصة، تنتفض العلمانية وتطرح مقولة الحرية جانبًا لتمارس إرهابًا ناعمًا أو عنيفًا ضد هذه المحاولة المهدِّدَة للنمط العلماني المرغوب!

بالنسبة للعلماني، الإسلام فيروس يجب محاصرته، وقاصر ينبغي الحجر عليه، لأنه خطر يهدد التسامح والمحبة والحريات والحياة والازدهار! والعلماني لا يُظهر هذه العقيدة إلا عندما يمتلك السلطة الحاكمة والقوة الضاربة! إنه يتعامل مع الإسلام بمنهجية إبليس المفضلة (أسلوب الخطوات)[1]، التشويش والتضييق على الأشياء الصغيرة، ثم الانتقال إلى الأسس والمبادئ الكبيرة! تفكيك القناعات

---

(١) قال الرب سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾ النور: ٢١.

والمبادئ والأفكار، ثم الانتقال إلى السلوك والعلاقات والنشاطات! ذلك لأن العلمانية تعتبر نفسها عقيدة متكاملة الأركان، حول الإله والإنسان والحياة والقيم، والعقائد، ولهذا تسعى للسيطرة على الواقع في إطار قيمها، ولتشكيل الإنسان وفق تصوراتها، ولتدبير الحياة انطلاقًا من رؤيتها الوجودية.

يقرر عبد الوهاب المسيري هذه الحقيقة فيقول: «لاحظنا في دراستنا للعلمانية الشاملة، أنه في أثناء عملية علمنة المجتمع، تتم علمنة الأفكار والرغبات والأحلام في بداية الأمر، ثم تتصاعد الرغبات وتزداد حدتها، ولكن لا يتم علمنة سلوك أعضاء المجتمع بنفس السرعة أو بنفس القدر، لأنها مسألة أكثر صعوبة».(١)

انظر إلى تاريخ تركيا الحديث، وكذلك مصر وتونس.. إلخ، لترى عمليًا، كيف أن العلمانية بمجرد أن تمتلك السلطة تكشّر عن أنيابها ضد عدوها اللدود الإسلام! ولهذا دائمًا أقول بأن العلمانية إلحاد متخف، فهي واقعًا -كما قلت آنفًا- نفي وإنكار لوجود الله معنويًا أي لا تقبل بتدخله في شؤون الحياة، لأنه بالنسبة لها، ذلك ليس من حقه!

إن الجهود الجبارة التي ما فتئ العلمانيون والليبراليون العرب يبذلونها في علمنة ولبرلة المجتمعات الإسلامية، تبدو مفهومة حين نتذكر أسلوب (لا أفضل في هدم المجتمعات من أن يقوم بذلك بعض أبنائها). وهذا ما حرص عليه الغرب وظلت مراكز البحوث والدراسات فيه تؤكد عليه وتدعو إليه. يقول صالح الغامدي في تحليل تقرير راند لعام ٢٠٠٣: «إن تقرير مؤسسة «راند» كان واضحًا وصريحًا منذ

(١) دفاع عن الإنسان ص١٩.

بدايته في تبيين أن الوصول إلى الإسلام الذي يفضله الغرب لابد وأن يُنسج في داخل العالم الإسلامي وبأيد إسلامية، فقال في ذلك: «يبدو حكيمًا في هذه الحالة أن تُشجّع عناصر هذا المزيج الإسلامي الأكثر تماشيًا مع السلام العالمي والمجتمع الدولي والتي تقبل الديموقراطية والتمدن»».[1]

* * * *

(٧) شمولية المنهج الإسلامي

إنّنا ننطلق في هذا البيان من حقيقة مركزيّة في النظام العقائدي للإسلام. فالإسلام يُقدم الله تعالى على أنّ له الخلق والأمر: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾،[2] أي هو الذي خلق الوجود بما فيه من أشخاص وأشياء، وهو الذي له حق تدبير أمر الوجود بمنهج وشرع معيّن، لأنّه «رَبُّ الْعَالَمِينَ». وسمة تلازم «الخلق» و«الأمر» في الإسلام، طبيعيّة جدًّا ومنطقيّة للغاية، فواضح جدًّا أنّ مَن صنع صنعة يكون أعلم بها، سواء من حيث تركيبتها أم من حيث غاية اختراعها أم من حيث آليات اشتغالها. فإذا صحت هذه الحقيقة المنطقيّة والمشهودة بين البشر، فإنّها بالأولى تصح في حق الخالق العظيم الذي خلق الإنسانَ.

من أجل ذلك يربط الله تعالى كثيرًا بين «خالقيّته» للإنسان وأحقيّته وحده لا شريك له في «الأمر والحكم» ، أي في وضع منهج الحياة ودستور الحكم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا

---

(١) الإسلام الذي يريده الغرب ص١٤٠. راند: مؤسسة بحثية أمريكية.

(٢) الأعراف: ٥٤.

ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ﴾.[١] هذه الحقيقة الجوهريّة في المنظومة الإسلاميّة.. حقيقة أنّ الله تعالى له حق الحاكميّة التشريعيّة كما له حق الخالقيّة، مرتبطة بالغاية التي لأجلها خلق الله تعالى الإنسانَ: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾.[٢] والعبادة لها ثلاث شعب مترابطة وعليها سيكون الحساب يوم لقائه:

الشعبة الأولى: الإيمان، وهو حق الربوبية.

الشعبة الثانيّة: السلوك، وهو حق الألوهيّة.

الشعبة الثالثة: الحكم، وهو حق الحاكمية.

كما أنّ هذه الغاية والوظيفة التي خُلق لأجلها الإنسان في عالم الدنيا مرتبطة بحقيقة فائقة وهي أنّه كائن أبدي، أي كائن مخلوق للخلود بعد الموت: ﴿ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴾.[٣]

فإذا كان الملحد ينفي صراحة الحياة بعد الموت، فالعلماني الذي يحرص على خداعنا بأنّه مؤمن بالله الخالق، لكنّه ينفي وينكر أحقيّته في الحكم والتشريع، سيواجه إشكاليّة عويصة ومأزقًا حرجًا، وذلك هو سؤال: ما غاية خلق الله تعالى للإنسان؟ هنا العلماني لن يستطيع أن يقدم لنا إجابة موضوعيّة عن السؤال، لأنّه ببساطة لا يملك مرجعيّة معياريّة تساعده على بيان غاية الله تعالى -الذي يدعي الإيمان به- في خلقه للإنسان!!

---

(١) البقرة:٢١.

(٢) الذاريات: ٥٦.

(٣) النور: ٤٢.

إذن هذا التلازم الجوهريّ بين هذه المعطيات المختلفة هو مقتضى إيمان المسلم بكمال الله تعالى اللانهائي في ذاته وصفاته. هذه الحقيقة الإسلامية بالنسبة للعلماني والملحد كلاهما لا يمكنه أن يؤمن بها، فكيف يمكن المصادقة على قول جاهلٍ (أنا مسلم علماني)؟! وإن شئتَ، فانظر لمقولات الملحد والعلماني حول حقائق الوجود الكبرى: أصل الإنسان ومهمّته في الحياة، طبيعة الحياة الدنيا، مصدر القيم الأخلاقيّة، مصير الإنسان بعد الموت. ستجدها نفسها مع بعض الاختلاف الخفيف بسبب صراحة الملحد وجبن العلماني!

يقول ناصر العقل: «قد شككت العقلية الحديثة في الوحي والدين وأصول العقيدة، واعتبرت الشريعة بمثابة الوصاية على الإنسان والحجر على حريته، وأن الإنسان يجب أن يشرّع لنفسه، وأن العقل قادر على إدراك كل شيء في الحياة، ورفعت لواء الديموقراطية، أي حكم الشعب، والحكم بغير ما أنزل الله. ودعت أيضًا إلى الانفلات من الأخلاق بالدعوة إلى الاختلاط ورفع الحجاب وهتك الستر والحشمة عن المرأة، وإقامة علاقات غير شرعية بين الرجل والمرأة، واعتبار الأحكام الشرعية في ذلك من التزمت والعنت».[١]

من أجل ذلك نقول: كل علماني يلتزم بصدق مقولات العلمانية يصير ملحدًا شاء أم أبى!! ويتبيّن هذا في تحليل موقف العلماني أي نفيه وإنكاره ورفضه أن تكون هناك منظومة تشريعيّة وضعها الإله الخالق ليُسيّر ويدبّر الإنسان المسلم حياته في

(١) الاتجاهات العقلية الحديثة ص١٠٦.

إطارها، سنكتشف بأنّ الأمر يرجع إلى طبيعة تصوّره الشخصي للإله الخالق!! وهو تصور سمته الكبرى أنّ الله سبحانه إله غير متصف بصفات الكمال المطلق في الذات والصفات، أي إنّ العلماني يعتقد ضمنيًّا في إطار علمانيّته أنّ الله -سبحانه- ناقص، ظالم، عابث، جاهل!! وليت شعري كيف تنسجم هذه الصورة المدَركة للإله الخالق في العلمانيّة مع الصورة التي يقدمها الإسلام عن الله تبارك شأنه؟!

أعتقد أنّه لا يمكن نفي التلازم بين العلمانية والإلحاد. فكلاهما ينشد تحييد وإبعاد الخالق سبحانه عن الإنسان والحياة، والفرق بينهما كالفرق بين المقدمة والخاتمة أو السبب والنتيجة. وهذا ما تنبّه له كثير من الباحثين الغربيين أنفسهم فضلًا عن الباحثين المسلمين. يقول سعد الطريفي: «جاء الحديث عن العلمانية في كثير من المعاجم الغربية ضمن حديثها عن الإلحاد، حيث جعلت المذهب العلماني لونًا من ألوان الإلحاد المضاد للدين».[1] ثم نقل بعض النصوص الغربية حول هذا المعنى.

إذن الخلاصة لهذا البيان المختصر هي: العلماني منكرٌ للإله الخالق الذي نؤمن به نحن المسلمون، فنحن نؤمن بأن الله تعالى إله كامل، والعلماني يؤمن أنّه إله ناقص، فمن هذه الحيثيّة فالعلماني ملحد!! وعندما يرفض العلماني هذه الحقيقة، فإنّه سيكون مثل النصراني الذي يعيش تناقضًا حادًّا وانفصامًا عنيفًا، بين اعتقاده أن إلهه يحبه حتّى إنّه مات على الصليب لأجله، لكن في المقابل تركه هملًا بلا منهج واضح ومتكامل للحياة!!

---

(١) الزنادقة: عقائدهم وفرقهم وموقف أئمة المسلمين منهم ج١ ص٤٠٤.

وعلى أيّ، فليس الغرض هنا بحث مضامين العلمانية/ الحداثة/ الليبرالية/ النسوية، فقد بحثها كثير من الدراسين، ومن زوايا مختلفة، وإنما الغرض التنبيه على الفكرة فقط.

وما من شك عندي في أن التركيز على حصر مفهوم الإلحاد في معنى إنكار وجود الإله الخالق، قد أتاح الفرصة بشكل واسع للملاحدة الأخفياء والمنافقين المستترين (علمانيين، ليبراليين، حداثيين، ماركسيين، نسويات)، لتمرير مختلف أفكارهم الهدامة والتشكيك في أصول ومبادئ النبوة المحمدية، دون أن تلحق بهم تهمة الزندقة والكفر والإلحاد، وبذلك تمكنوا من غرس ما يريدون في عقول الناشئة ليكون مآلهم إما الإلحاد الصريح، وإما الحيرة والشكوك والانسلاخ من عقيدتهم! ولهذا أنا أدعو دائمًا لوضع الأمور في نصابها، وعدم التهاون مع هؤلاء الملاحدة الأخفياء، بل يجب كشفهم وفضحهم أمام الشباب ليعرفوا حقيقتهم، وأنهم في المحصلة النهائية إنما يعملون على تزييف وعيهم وتخدير عقولهم وتفريغ الإسلام من مضامينه وحقائقه، ليسقطوا تلقائيًا في أوحال الحيرة ثم الإلحاد!

* * * *

(٨) مبررات الدعوة إلى الإلحاد

إذا كان من أهم الفروق بين الإلحاد القديم والإلحاد الجديد، هو الجهود الهائلة التي يبذلها الإلحاد الجديد في الدعوة إلى نفسه، بين مختلف أصناف الناس، وبشتّى الوسائل والأساليب، والتي تصل حين يمتلك السلطة الحاكمة والقوة

الضاربة إلى استعمال الحديد والنار، والسجون والملاحقة، والتضييق والمحاصرة، والتشويه والإسقاط! فالسؤال المهم هنا، هو: ما هي المبررات والأسس الفلسفية -وفق المبادئ الإلحادية- للدعوة إلى الإلحاد والعمل على ترسيخ الأفكار الإلحادية في عقول الأطفال والمراهقين والشباب، وإنفاق الجهود والأوقات والأموال في سبيل ذلك؟

نحن نطرح هنا مسألة أن الملحد المعاصر تحول إلى داعية، لأنه لا يستطيع أن ينفي قيامه بذلك، أو نفي محاولة استغلال مختلف الوسائل الممكنة لتحقيق أفضل النتائج! فمنذ القديم والملاحدة والزنادقة يتخذون الكتابة والتأليف وسيلة لنشر أفكارهم والترويج لمبادئهم. أما في العصر الحديث، فيتجلى ذلك في إنشاء عشرات الحسابات والمجموعات في وسائل التواصل الاجتماعي، وفي إنشاء عشرات المواقع والمنتديات، وكذا القنوات في يوتيوب، فضلًا عن الكتب والمؤلفات واللقاءات والندوات، فضلًا عن مراكز البحوث والدراسات بالنسبة للإلحاد المتخفي! وبالتالي فشواهد الواقع ومعطياته تمنع الملحد من محاولة الإنكار والتملص من حرصه الدؤوب على الدعوة إلى الإلحاد!

نحن ندرك بأنّ هذه الجهود المبذولة للدعوة إلى الإلحاد المباشر وغير المباشر، وإشاعة مبادئه وشعاراته بين الناس، لم تأت من فراغ ولا تحدث بلا دوافع ولا غايات. فإذا تجاوزنا المصالح الشخصية (المال، الشهرة) باعتبارها محركًا قويًا للإنسان ولو على حساب الحقيقة والقيم.. إذا تجاوزنا هذا الجانب، فلابد من الإشارة إلى جانب آخر لا يقل أهمية عن الجانب المذكور.

إن الإنسان فكرة، والأفكار بطبيعتها تسعى دائمًا للتجسّد في الواقع، بغض النظر عن قيمتها، حقًا أو باطلًا، صوابًا أو خطًا. ولذلك عندما لا يجد الإنسان مجالًا لممارسة أفكاره وقناعاته يشعر بالضيق والاختناق وبالتأزم وعدم المعنى، كما أنه يجد في نفسه رغبة عارمة للثورة والتمرد وكسر القيود واختراق الحواجز. ومن هنا يبدو سعي الملحد المحموم لنشر أفكاره ورؤاه الإلحادية مفهومًا من الناحية النفسية، خصوصًا إذا تذكرنا بأن الإنسان بفطرته يميل للعيش في وسط متماثل مع قناعاته الشخصية بمختلف امتداداتها في الواقع والحياة، إذ كان ذلك يُشعره بالتقدير النفسي، كما يُشعره بالقيمة لقناعاته الشخصية.

ولقد أشار الله سبحانه إلى هذا المعنى حين ذكر علة دعوة قوم لوط ﷺ لإخراجه وأتباعه من بين أظهرهم: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾.[1] فهؤلاء القوم شعروا بالتحدي لقناعتهم وسلوكهم، وأحسوا بالحط من قيمتهم وكرامتهم، ومن ثم قرروا إخراج لوط عليه السلام وأتباعه من بين أظهرهم، لأن بقاءهم معهم مع مخالفتهم لهم وإزرائهم عليهم يُذّكرهم في كل لحظة بسوء صنيعهم وقباحة سلوكهم. ولهذا، يمكن أن نقول بأن الدافع للرفض والإخراج نفسي في المقام الأول!

وأيضًا، لما كانت الهيمنة الكبرى عالميًا لهذا العصر للغرب، على المستوى الثقافي والاقتصادي والتقني، وكان الغرب منذ عقود طويلة جدًّا حريصًا على نشر

---

(١) الأعراف: ٨٢.

وترسيخ فكرة أنه مركز العالم، ومرجعية الحق والصواب، والأفق النهائي للتطور والحضارة، ومن المعلوم أن الثقافة الغربية وأنماط الحياة الغربية مادية بامتياز، كما أن الغرب يربط تطوره وحضارته بتبنيه للرؤية المادية واختزل الإنسان في البُعد الاقتصادي الشهواني.. في إطار هذا السياق، يبدو مفهومًا أن الدعوة المكثفة للإلحاد الصريح والمتخفي (العلمانية والحداثة والنسوية) تتماشى مع السياق العالمي ذي الثقافة والرؤية المادية، ومن ثم، لابد من علمنة ولبرلة وتلحيد ونسونة[١] المجتمعات المجتمعات الإسلامية لتلحق بركب الاستنارة والحضارة الغربية المادية التي فكت ارتباطها بالدين والإله!

إذ قد فهمنا دوافع الملحد لممارسة الدعوة، وهي كما قلنا، دوافع نفسية ومصالح شخصية وسياقات عالمية، ينبغي أن نشير إلى أنّ ما يبذله الملاحدة من الجهود الجبارة (أموال، أوقات، طاقات.. إلخ) للترويج للديانة الإلحادية، هذا الموقف والمنطلق يناقض أسس الرؤية الإلحادية تمام المناقضة ويسير معها في اتجاه معاكس وخط متواز!

لو رجعنا إلى البنود الكبرى للإلحاد؛ سنجد من أبرزها التالي: بند (الإنسان كومة مادية متطورة لا قيمة له)، وبند (الحياة مسرحية عبثية تافهة بلا غاية)، وبند (الحقيقة معطى نسبي سائل بلا ثبات)، وبند (المصير المحتوم للإنسان هو الفناء المطلق)، وبند (الكون منظومة عشوائية بلا معنى).

---

(١) لبرلة، أي إدخال المجتمع في الرؤية الليبرالية. علمنة، أي ربط المجتمع بنظام العلمانية، نسونة، أي نشر الأفكار النسوية. تلحيد، أي إشاعة التصورات الإلحادية.

وفق هذه البنود تبدو تلك الجهود الجبارة للترويج للإلحاد ولرسالته المقدسة ولإمكانية احتلاله مكانة الأديان، مشكوكًا في نزاهتها وأنها تخفي وراءها أغراضًا وأهدافًا مشبوهة، لا صلة لها بالتنوير الإلحادي الذي يبشر به زعماء الإلحاد وأتباعهم!

أيضًا؛ إذا كان الانتخاب الطبيعي صحيحًا، وأن مساره متجه دائمًا نحو تحقيق الأفضل كما يزعم الملاحدة؛ فلماذا يدأب هؤلاء الملاحدة في تلحيد المؤمنين والعمل على إخراجهم من دائرة الإيمان؟! أليس من الأفضل توفير الجهود والأوقات والأموال لاستغلالها في اللذات التي ستنتهي بالموت على حين غرّة، وترك الانتخاب الطبيعي يقوم بعمله في تغيير العقليات والقناعات والارتقاء بالمؤمنين من حضيض خرافة والإيمان إلى أفق استنارة الإلحاد! أو على الأقل أليس من باب الإنسانية التي يتغنى بها الملاحدة دائمًا وطويلًا، توفير تلك الأموال والجهود لمساعدة الفقراء والمساكين والأيتام والمنكوبين واللاجئين! ولهذا نقول بأن قيام الملحد للدعوة إلى الإلحاد ينقض الإلحاد نفسه!

وكذلك؛ إذا كان الإلحاد ينفي وجود إرادة حرة في الإنسان،[١] وأنه مجرد كومة مادية متطورة خاضعة لآليات مادية حتمية لا يمكن أن يفلت الإنسان من قبضتها وجبروتها، فلماذا إذن كل هذه الجهود في تلحيد الناس؟ فللمؤمنين أن يقولوا (نحن مجبرون على الإيمان ولا نستطيع الانفكاك عنه والتحرر منه)، ولا يمكن للملحد

---

(١) ستيفن هوكينج –فيزيائي ملحد–: «يبدو أننا لسنا أكثر من آلات بيولوجية، وأن الإرادة الحرة مجرد وهم». التصميم العظيم ص٤٤.

تجاه هذا الجواب أن يقنعهم بقدرتهم على التحرر من الإيمان وهو أساسًا ينفي وجود شيء اسمه الحرية والإرادة وفق تصوره المادي الآلي! ولهذا كان نفي الملحد للإرادة الحرة مع قيامه بالتبشير بالإلحاد وإغراء الآخر بالانضمام إلى ركب الإلحاد، تناقضًا صارخًا! ولكن لا عجب، فعقل الملحد «كوكتيل» تناقضات!

إنّ قيام أي إنسان بدعوة الآخر إلى تبني رؤيته المعرفية والقيمية، تكتسب معناها وقيمتها من مجموعة افتراضات مسبقة، وهي:

(**أولًا**) وجود ثوابت مرجعيّة تكشف الحقيقة والآخر محروم منها.

(**ثانيًا**) العقل يتضمن قابلية الوعي بالحقيقة والتفريق بينها وبين الوهم.

(**ثالثًا**) الخرافة التي يعيش فيها الآخر لا تليق بقيمته الوجودية النبيلة.

(**رابعًا**) الحياة معنى مقدس من الخطأ أن يعيشها الإنسان في الخرافة.

(**خامسًا**) وجود الإنسان ليس محدودًا في هذا العالم بل لا انتهاء له.

(**سادسًا**) الشعور بالمسؤولية الكبيرة تجاه الآخر، وضرورة مساعدته.

فهذه الافتراضات الستة كامنة وملازمة لكل دعوة يمارسها صاحبها مع الآخر. فكيف يمكن للملحد أن يتخلص من هذا الإشكال وهذا المأزق الحرج! من الواضح أنه لن يستطيع ذلك ما لم يعترف بـ«القيمة فوق مادية» في الإنسان والكون والحياة، وهذا بلا شك مناقض تمام المناقضة للأسس الإلحادية النظرية!

إننا نطرح هذا الإشكال ونكشف هذا المأزق بخصوص الرؤية الإلحادية، لأنّ الدعوة بما أنها تحمل دلالة (عملية إنقاذ الآخر)، فهي تتضمن (أنا على حق) و(أنت

على باطل)! فهل يستطيع الإلحاد تبرير حرصه على إنقاذ الآخر من الإيمان وتخليصه من أوهامه وخرافاته كما يعتقد؟ وعلى أي أساس أصلًا يمكنه ذلك؟ ولماذا أساسًا يحاول ذلك؟ أليس يعتقد أن الإنسان مجرد وسخ مادي، وأن الحياة مسرحية عابثة، وأن الحقيقة سائلة، وأنه لا يوجد معيار للخير والشر، وأن الموت نهاية الرحلة!

إنها مفارقة عجيبة ومثيرة للسخرية، لا يكون للدعوة إلى الإلحاد أي معنى ولا أية قيمة ما لم ينقض الملحد بعض أهم ركائز الرؤية الإلحادية النافية للقيمة والمعنى والغاية! أليس هذا دليل واضح لكل ذي عقل على أن الإلحاد رؤية تعج بالتناقضات الصارخة!

* * * *

(٩) مبررات الدعوة إلى الإسلام

أما نحن في الإسلام، فإن مستنداتنا للقيام بالدعوة إلى الله تعالى، والمناضلة عن الحق والحقيقة ضد الباطل وأتباع الضلال، فترجع إلى العناصر التالية:

أولًا: الإنسان مخلوق لعبادة الله تعالى.

كان الله سبحانه ولم يكن شيء قبله، ولم يكن شيء معه، ثم خلق الخلق لما شاء من الحكمة والمقاصد العظيمة. وقد أخبر الله سبحانه عبر الأنبياء عليهم السلام أنه خلق الإنسان لعبادته، أي للالتزام بالوحي في العقيدة والتصور، وفي العمل

والسلوك، وفي القيم والأخلاق، وفي العبادة والشعائر، وفي القوانين والتشريعات. فكانت الدعوة إلى الله سبحانه من هذه الجهة سعيًا في تحقيق هذه الغاية الربانية المقدسة من خلق الإنسان والتمكين لها وتوفير أسباب علو شأنها وانتشارها.

ثانيًا: المصير الأبدي مرتبط بحقوق العبودية.

شاء الله سبحانه أن يخلق الإنسان لعالم البقاء لا لعالم الفناء، إلا أنه سبحانه قدّر أن يمر -أي الإنسان- عبر دار الدنيا الفانية أولًا، مكلَّفًا بالعبادة والطاعة والتوحيد، في إطار ما وهب له من الإرادة والحرية والقدرة على الاختيار والفعل. ومن هنا، كان مصير كل إنسان في عالم البقاء مرتبطًا بموقفه من الإيمان والطاعة في عالم الفناء. فكانت الدعوة بهذا الاعتبار سعيًا في مساعدة الإنسان على معرفة والتزام ما يحقق له السعادة والفلاح في عالم الآخرة السرمدي.

ثالثًا: حرص المبطلين على نشر الباطل.

الأفكار والمعتقدات والأيديولوجيات بطبيعتها تطلب الانتشار والسلطة المعنوية على الأفراد، ولذلك يحرص أصحاب كل نحلة وأتباع كل مذهب ومعتنقو كل فلسفة على الترويج لما يتبنونه من الرؤى والقناعات، والتنظير لها والمناظرة عنها، وبذل المجهود لتزيينها للعقول والنفوس. والدعوة إلى الله سبحانه من هذه الجهة سعي لمدافعة العقائد الكفرية والقناعات المنحرفة والأفكار الهدامة، فالصراع بين الحق والباطل سنة ثابتة، لن يهدأ أبدًا إلى يوم القيامة.

رابعًا: الإنسان يستحق أن يعرف الحق.

في الرؤية الإسلامية، الإنسان مخلوق بالحق وللحق، أي مخلوق لله تعالى ومكلّف من قِبَله بمهمة العبودية له سبحانه، بمفهومها الشامل لمناحي الفكر والسلوك والحياة. وإذ كان الأمر كذلك، فالإنسان إذن يستحق أن يعرف الحق والحقيقة، فالله سبحانه قد وهب له من القدرات العقلية والنفسية، وسخر له من طاقات الكون وذخائره، ما يساعده مساعدة فعّالة على معرفة الحق والحقيقة واستيعابه والالتزام به. فكانت الدعوة بهذا الاعتبار موقف تقديري لقيمة الإنسان.

إن هذه المستندات الأربعة تحمل المسلم على أن ينزل إلى ساحة معركة الأفكار ليصارع المفسدين في العقول والنفوس، ويكشف زيوفهم، ويدحض شبهاتهم، انتصارًا للحق وبيانًا للتوحيد وتقديرًا لإنسانية الإنسان.

في هذا الإطار هناك مسألة من الواجب الإشارة إليها، وهي أنّه في ظل شيوع الشبهات والشهوات وتمكن المفسدين في الأرض من الإمكانيات الهائلة لنشر الفتن الفكرية والسلوكية، يتساءل البعض كيف يمكن للدعوة أن تحقق أهدافها وتؤتي أكلها! أعتقد بأن أفضل رد على هذا اليأس والتشاؤم والإحباط، هو بيان مضامين الدعوة الإسلامية:

أولًا: الدعوة إلى الله تعالى غير محصورة في الدفاع والنقض ورد الشبهات، بل تشمل أيضًا التذكير بنِعَم الله تعالى، والموعظة الموقظة، وتعزيز اليقين، وبيان أحكام الشريعة وآدابها، إذ كما يجب الحفاظ على مقصد الله تعالى من خلق الإنسان، من

جهة درء مفسداته كالشبهات والشكوك، كذلك يجب الحفاظ عليه بتعزيز اليقين وتقوية الإيمان وترسيخ العقيدة والارتباط بالخالق سبحانه.

ثانيًا: الدعوة إلى الله تعالى عمل صالح بغض النظر عن أي اعتبار آخر، من جهة تضمنها للنية الصادقة والسعي الدائب في نشر مراد الله تعالى ورضوانه وأنواره وحيه، وأساس قبول الأعمال عند الله سبحانه النية الخالصة وموافقة السنة، وقد اجتمع هذان الشرطان في الدعوة. قال الله سبحانه: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ﴾.[1]

ثالثًا: الدعوة إلى الله تعالى عنصر فعّال في تهذيب الأخلاق وتزكية النفس وترقية الروح، ذلك لأنّ معالجة فساد الأفكار والمعتقدات وانحرافاتها عن سبيل الحق ورسوخها في جذر النفوس، ليست بالعملية السهلة كما يتصور كثيرون، بل تستلزم الكثير من الصبر والأناة والحكمة وطول النَّفَس، فالإنسان كائن مركب وفي غاية التعقيد، ولهذا كان أجر الأنبياء عظيمًا.

رابعًا: الدعوة إلى الله تعالى لا تتوقف على قبول الآخر لها واستجابته لها، فذلك شيء لا شأن للداعية المسلم به، إذ إن مسألة القبول أو الرفض تتدخل فيهما عوامل مختلفة، قال الإمام ابن تيمية: «لو فُرض أنّا علمنا أنّ الناس لا يتركون المنكر، ولا يعترفون بأنّه منكر، لم يكن ذلك مانعًا من إبلاغ الرسالة وبيان العلم، بل ذلك لا يُسقط وجوب الإبلاغ».[2]

---

(١) الأنعام: ٩٠.

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم ج١ ص١٧٢

خامسًا: الدعوة إلى الله تعالى غير مرتبطة بمدى ما تحققه من النجاح بين الفئة المستهدفة، لأنّ الواجب على المسلم هو القيام بالواجب، أما ثمراته فهو غير مسؤول عنها ولا مطالب به، والأمر كما قال رسول الله ﷺ: «لَأن يُهدى بك رجلٌ واحدٌ خير لك من حُمر النَّعم».[١] ومن المؤكد أن هذا لا يعني عدم العناية بما يحقق أكبر قدر من النجاح في الدعوة، من حيث الأساليب والوسائل.

سادسًا: الدعوة إلى الله تعالى تتضمن معنى الاقتداء بالأنبياء، وقد سبق القول بأن الدعوة إلى الله تعالى من أخلاق النبوة وأركانها، والمسلم ينبغي أن يقتدي بالأنبياء ما أمكنه، كما أشار إلى ذلك الحق سبحانه بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾.[٢] وقال سبحانه: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾.[٣]

سابعًا: الدعوة إلى الله تعالى تدخل في إطار سنة صراع الحق والباطل، الإيمان والكفر، التوحيد والشرك. وهذه السنة الربانية شاء الله تعالى أن تكون حاكمة ومصاحبة لحياة البشرية، فلا ترتفع إلى يوم القيامة. ومن هنا، فالداعية هو في واقع الأمر مساهم فعّال في تحقيق هذه السنة في جانبها الإيجابي، أعني في نصرة الحق والإيمان والتوحيد، من جهة الوجود والعدم، كما ذكرنا آنفًا.

---

(١) صحيح البخاري. أي أن تكون سبباً في هداية رجل خير من أن تتصدق بعدد كبير من الإبل الجيدة.

(٢) الأنعام: ٩٠.

(٣) الأحزاب: ٢١.

ثامنًا: نحن لا نسلم بأن الدعوة إلى الحق والتوحيد والإسلام في عصر تفوق مناوئ الإسلام ومروجي الأفكار الهدامة وناشري الشبهات والمغالطات، من ناحية الوسائل والإمكانيات، نحن لا نسلم -رغم الاعتراف بهذه الحقيقة- أن الدعوة لم تؤت ثمارها، بل قد تحقق الكثير ليس فقط بين المسلمين بل حتى بين أفراد الشعوب الأخرى. وإنما يجب على المسلم القيام بما يستطيع.

انطلاقًا من هذه المضامين الثمانية في الدعوة إلى الله سبحانه ونصرة الإسلام، تبرز لنا أهمية القيام بالدعوة وضرورة التفكير الجاد فيها، والعمل على توفير أفضل الوسائل والأساليب لأجلها، خصوصًا حين نتذكر ما يقوم به المفسدون في الأرض والمناوئون للإسلام والمنكرون لوجود الله تعالى وللقيم والمقدسات، من جهود عظيمة، وما يبذلونه من أموال طائلة، وما يقدمون من أوقات كبيرة، لنصرة معتقداتهم وتحقيق أهدافهم والترويج لقناعاتهم! خصوصًا وأن المؤشرات الراهنة تشير إلى أن ظاهرة الشك والحيرة والإلحاد ستزداد انتشارًا في عالمنا الإسلامي -كما في العالم أجمع- في المرحلة القادمة، ذلك لأنّ موجة الإلحاد بشقيه في عصرنا الحاضر تستند إلى مجموع عوامل داخليّة متشابكة ومعقدة، ذاتية فردية وموضوعية خارجية، كل هذه الروافد تنفخ فيه أرواحًا جديدة للبقاء والاستمرار! بل أكثر من هذا، أن الحضارة المهيمنة اليوم هي الحضارة الغربية، برؤاها وثقافتها وأنماط حياتها، وهي لم تؤسس إلا على أصول مادية إلحادية، فاستمرارية تفشي الظاهرة الإلحادية يعتمد بشكل كبير على استمرار الحضارة الغربية المهيمنة، وإذا كان لا يمكن أن تظل الحضارة الغربية

المادية مسيطرة عالميًا إلا بما تأسست عليه، فإن سقوط الإلحاد غير ممكن قبل سقوط الداعم الأكبر له!

يقول الأستاذ محمد قطب: «إن هذه الموجة العاتية من الإلحاد، التي تسود أوروبا، شرقها وغربها، وتنتقل بالعدوى إلى بقية أرجاء الأرض، قد خلّفت من الفساد في الحياة البشرية ما لا مثيل له من قبل، لأن العالم اليوم قد تداخلت قضاياه وتشابكت، وصار ما يحدث في أي جزء منه يؤثر بالضرورة في بقية الأجزاء، فكيف إذا كان الأمر بهذه الخطورة وعلى هذه الدرجة من التأثير».[١]

ولقد أخبرنا رسول الله ﷺ عن انفجار موجات الفتن بين يدي الساعة، حيث تكثر الشبهات الملتبسة، وتنتشر الأهواء المنفلتة، ويخيّم الطغيان والعدوان، واللهاث المسعور وراء سراب الدنيا، ويرق الدين والإيمان، كما أشار إلى ظاهرة الانتقال السريع بين الإيمان والكفر، وهو دلالة على أن الانتقال تقف وراءه عوامل الأهواء والجهل والسذاجة واللامبالاة. قال رسول الله ﷺ: «تَكون بين يدَيِ الساعةِ فتنًا كقِطْعِ الليلِ المُظلمِ، **يصبحُ الرجلُ فيها مؤمنًا ويُمسي كافرًا، ويُمسي مؤمنًا ويصبحُ كافرًا**، يبيعُ أقوامٌ دينهم بعرضٍ منَ الدنيا».[٢] وخير بيان لهذا الحديث هو هذا العصر، نسأل الله العافية والثبات.



(١) ركائز الإيمان ص١٥٦

(٢) سنن الترمذي



نشأة الشبهات

(١) رواج الشبهات

الإنسان مُعرّضٌ للشبهات، سواء ما يلقيه الهوى والشيطان في نفسه أم ما يسمعه ويقرأه هنا وهناك. وما يتعرض له العبد من ذلك هو من باب الابتلاء الذي طبع الله سبحانه عليه الدنيا، كما قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾.[١] وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾.[٢] وقال جل شأنه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.[٣]

واليوم صار لكلمة «شبهات» رواج واسع بين الشباب المعاصرين، فقد كثر حديثهم عنها ولهجهم بها وخوضهم فيها، فصرتَ تسمع كل مَن هبّ ودب يقول لك، عبر المنشورات أو التعليقات أو حتى عبر الرسائل الخاصة: (عندي شبهات) حول وجود الله تعالى، أو الأحكام التشريعيّة، أو تفاصيل الأقدار، أو السيرة النبوية، وغير ذلك! حتى إنك ليُخيّل إليك بأن بعض الشباب اليوم يبحثون عن الشبهات ويفتشون عنها ويفكرون فيها للظهور أمام أنفسهم وأمام الآخرين بمظهر الذكي اليقظ، والباحث المطلع!

---

(١) الملك: ٢.

(٢) هود: ٧.

(٣) الأنعام: ١٦٥.

هذه الحالة التي وصل إليها هؤلاء لم تأت من فراغ، ولم تنشأ من عدم، بل هناك عوامل وأسباب تقف وراء ذلك، فالأحوال الفكرية والنفسية -مثل الأحوال المادية- لابد لها من أسباب تسهم في نشأتها وشيوعها ورسوخها، فقد قضى الحق تبارك شأنه أن تكون شؤون عالم الدنيا -بكل ما فيه من أشخاص وأحداث- قائمة على قانون الأسباب.

ولقد فصلت تلك الأسباب في الفصل الأول (موجة الإلحاد)، وكذلك يمكن النظر في الفصل الخامس (موانع الاقتناع)، إلا أني سألخص لك هنا أبرز هذه الأسباب:

هناك **أولًا**؛ حالة التخلف التي مرّ بها العالم الإسلامي في القرون الأخيرة قبل السقوط النهائي. فبفعل عوامل مختلفة، انتشر الجهل وعمّ الانحراف وشاعت البدع، حتى صار الإسلام غريبًا بين أهله، لا يعرفون منه سوى القشور والدروشة الميّتة!

وهناك **ثانيًا**؛ المكر الاستشراقي الذي ما فتئ يضخ كميات هائلة من المغالطات والشبهات حول كل شيء يتعلق بالإسلام، من عقيدة وشريعة وقرآن وسنة وسيرة ولغة وتاريخ، أحيانًا بأساليب مكشوفة، وأطوارًا بأساليب في غاية المكر والالتواء!

وهناك **ثالثًا**؛ قيام العلمانيين العرب بمتابعة تنفيذ خطط الاحتلال الغربي الرامية لتحقيق التجهيل الفكري والتفسيق النفسي للمجتمعات المسلمة، وذلك من خلال الإعلام والصحافة والتعليم والقوانين. ولا يزال هؤلاء يتابعون تنفيذ المهمة بهمة ونشاط!

وهناك **رابعًا**؛ الانغماس في فضاءات الإنترنت. فبسبب حالة الإحباط الشديد وضعف الهمم، صار الشباب يرون السياحة في العوالم الافتراضية أفضل حلّ لتفريغ شحنات نفوسهم المتأزمة، وهذا ما يستنفذ أوقاتهم ويلهيهم عن معرفة الحق!

وهناك **خامسًا**؛ النظرة الاحتقارية للعلوم الشرعية؛ فقد عمل المنافقون الصرحاء والمتخفّون، على غرس احتقار العلم الشرعي في عقول الشباب المسلم، تارة بالقول بأنّه أداة تخلّف وضياع الأمة، وتارة بالقول بأنه لم يعد صالحًا لهذا العصر!

وهناك **سادسًا**؛ انصراف الأهل عن حثِّ الأبناء على تعلّم مهمات الإسلام العقدية والأخلاقية والفقهية، بل كثير منهم ليس لهم هَمٌّ إلا حصول الأبناء على وظيفة جيّدة بعد التخرج، بل هناك مَن يخيف أبناءه من العلم الشرعي لأنه يُولّد التطرف!

وهناك **سابعًا**؛ استغلال المناوئون للإسلام، من ملاحدة وعلمانيين وماركسيين ونسويات وصليبيين، لوسائل التواصل الاجتماعي المختلفة، لبثِّ سمومهم الفكرية في قوالب تخلب عقول الشباب الذين ليس عندهم أسس متينة، شرعيًا ومعرفيًا!

وهناك **ثامنًا**؛ الإعجاب بالنفس، فهناك أشخاص كلما تقدموا في مسار القراءة والمطالعة ارتفع عندهم منسوب العجب بالذات، والإنسان عندما يزهو بذكائه فإنه لاشعوريًا يحرص على الغلو في النظر في مسائل إما تكون فوق مستوى علمه أو خارج متناول العقل!

وهناك **تاسعًا**؛ تعرّض المسلم لضغوط مختلفة، من الإعلام العلماني، إلى موجات الشبهات، إلى الظروف الاقتصادية والاجتماعية الخانقة، وغير ذلك. ولا شك أن الوقوع تحت الضغط يُفقد الشخص مقاومة التأثر بها، قليلًا أو كثيرًا![١]

وهناك **عاشرًا**؛ تعظيم النزعة الشكية، فاليوم لم نعد نجد أهل الباطل والضلال، من مفكرين وفلاسفة، هم وحدهم مَن يعظم الشك ويرفع من شأنه، بل حتى بعض المحسوبين على الإسلام والدعوة! [٢] ولا شك أن تبني المرء لهذه النزعة يدفعه دفعًا لتطبيقها عمليًا!

هذه الأسباب التسعة تظافرت على الدفع بالشباب إلى ما هم عليهم، ومن ثم أنشأت فيهم قابلية كبيرة وبيئة خصبة للتأثر بالخطاب المنحرف، سواء سواء في نسخته العلمانية تمهيدًا أم في نسخته الإلحادية هدفًا! ولهذا يجب إشاعة الثقافة والمفاهيم الإسلامية بين الصغار والشباب، بما يناسب العقلية المعاصرة،

* * * *

---

(١) يقول الشيخ سليمان العبودي: «ظللت موقنـًا أن بسط الشبهات على حصير القلب سيترك أثره -إلا ما شاء الله- حتى في قلوب أولئك الذي يتوهمون أنهم أبعد الناس عن الانفعال والتأثر بها». المرقاة ص٦٣.

(٢) يقول الشيخ أبو العباس ابن تيمية: «لم يمدح الحيرة أحدٌ من أهل العلم والإيمان، ولكن مدحها طائفة من الملاحدة الذين هم حيارى، فمدحوا الحيرة وجعلوها افضل من الاستقامة». مجموع الفتاوى ج١١ ص٢١٠.

(٢) معنى الشبهات

عندما نعود إلى معاجم وقواميس اللغة العربية؛ نجد أن أصل كلمة «شبهات» الذي يعود إلى الجذري اللغوي (شبه) يرجع إلى معنى (التشابه والتماثل والالتباس) بين شيئين أو أشياء. نقول (فلان شبه فلان) أي مثله. ونقول (اشتبه الأمر عليّ) أي التبس واختلط. ونقول (أمور مشتبهة) أي مشكَلة وملتبسة.[١] فمعنى الشبهة، هو أن المتلقي لها يفهمها على غير حقيقتها، أو يتردد في استيعاب معناها، لما يتوهم فيها أو يجد فيها من التناقض والغموض والإبهام! قال الحلبي: «الشبهة ما يُخيّل للإنسان حقيقةُ شيء والأمر بخلافها. قال الراغب: والشبهة أن لا يتميّز أحد الشيئين عن الآخر لما بينهما من التشابه».[٢]

عند التأمل في هذه الدلالات؛ يمكن أن نفهم بأن الشبهة لا تكون ذات قيمة معرفيّة إلا بوجود معطيات ومعلومات مسبقة عند الشخص حول القضية المشتبَهة لديه، وفي إطار تلك المعطيات والمعلومات يجد أو يتوهم شيئًا من الغموض والاختلاط والالتباس أو حتى التناقض بينها وبين معلوماته القبلية! ولهذا، فبدون معلومات مسبقة حول الموضوع لا يكون للشبهة أدنى قيمة، لأنها لا تكون ناتجة عن علم بل عن جهل! بل، ولا يكفي المعلومات المسبقة ليكون لطرح الشبهة معنى وقيمة، بل لابد من وجود مرجعية عليا يحاكم إليها المرء صاحب الشبهة شبهته، وإلا صار الأمر عبثًا!

---

(١) معجم مقاييس اللغة. أبو الحسين ابن فارس ص٥٢٦.

(٢) عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ ج٢ ص٢٥٠.

وأبادر للقول هنا بأنه داخل المرتكزات الإلحادية، لا يحق للملحد أن يطرح أدنى شبهة، بل ولا يصح أن يتخذ من شبهاته أدلة على صحة موقفه وقناعته الإلحادية، وذلك بسبب عدم وجود مرجعية في الإلحاد، بل ليس هناك -كما يعتقد الملحد- إلا الحقيقة الهلامية بلا ثبات ولا أصول ولا معنى، وليس هناك إلا المادة الصماء بلا هدف ولا غاية، ولا خير ولا شر، ولا صواب ولا خطأ. ولهذا قال الدكتور هيثم طلعت: «وجود الشبهات في الأساس يعني خطأ الإلحاد».[١] ولهذا نقول بأن الملحد بمجرد أن يفكر في وجود شبهة ما، يكون ضمنيًا قد تخلى عن قناعته الإلحادية!

ومن هنا فإن ما يلهج به كثير من الشباب اليوم أو الملاحدة عمومًا، بقولهم (عندي شبهة أو عندي شبهات)، ليس في واقع الأمر شبهة، بل هو فقط جهل منهم بالأحكام الشرعية أو القدرية أو غيرها في مبادئها ومنطلقاتها ومقاصدها وغاياتها. ومعلوم أن هؤلاء الشباب أو الملاحدة لما كانوا جهلة بموارد الشرع والقدر، التبست عليهم الأمور واختلطت عليهم المعطيات، فظنوا أن الأمر كذلك في نفسه، ثم تراهم يبحثون عن مزيد من الفروع والجزئيات والصور لهذه الشبهات، وذلك ما يزيد الفكرة رسوخًا في أذهانهم، فتتشكل نفوسهم وعقولهم في قوالب الشبهات، فلا تزال تتولد شيئًا بعد شيء بلا حد ولا نهاية، لأنّ «العقل إذا اهتم بأمر علقت به الشواهد المؤيدة لأمره كما يتعلق الشوك في الصوف، فتثقل كفة أمره الذي اهتم به وتقوى، وتخف كفة بقية الأمور الأخرى».[٢]

---

(١) الإلحاد يسمم كل شيء ص١٨٤.

(٢) العقلية الليبرالية. عبد العزيز الطريفي ص١٧٥

ولهذا نقول: إن الشبهة معرفيًا لا قيمة لها إلا إذا صدرت عن شخص له علم وفهم، لكن لحيثيات معينة غمضت المسألة عنده والتبس فيها لديه الحق بالباطل. وأما الجاهل فكما قلنا لا قيمة لما يختلط عليه ويلتبس لديه لأنه جاهل، ألا ترى كيف قال سبحانه: ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾[١] فوضع المتشابه مقابل المحكم، أي مقابل معطيات واضحة وثابتة. فعندما يقول الشاب أو الملحد (عندي شبهة أو عندي شبهات) ينبغي أن نرد عليه بالقول: لا تقل عندي شبهة، بل قل أنا جاهل بهذه المسألة، فما تفسيرها وبيانها. وإنما نقول له ذلك، لأنّ وجود الشبهة في الأحكام الشرعية أو القدرية ليس لأن المسألة في نفسها من شأنها أن تثير الشبهة، إذ إن الله تعالى بما أنه الحق، فأحكامه التشريعية والقدرية يستحيل عليها الاختلاف والتناقض، ولذلك وصف الله سبحانه القرآنَ في الكثير من الآيات، بأنه نور، هدى، فرقان، رحمة، شفاء، برهان، كما وصف الإسلام بأنه الدين القيّم وأنه يهدي إلى الاستقامة والحق والعدل والصدق، كما في قوله سبحانه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا قَيِّمًا﴾،[٢] وقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾،[٣] وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾،[٤] إلى الكثير من الآيات الكاشفة عن هذا المعنى. وإنما تكون المسألة مشتبهة ومشكَلة في عقل المتلقي لها،[٥] وهذا يكون مرتبطًا بسعة

---

(١) آل عمران: ٧.

(٢) الكهف: ١.

(٣) الإسراء: ٩.

(٤) يونس: ٥٧.

(٥) نحن هنا نتحدث عما يخص الإسلام فقط، في عقيدته وشريعته، ولا يعنينا في شيء ما يتعلق بالأديان الأخرى، كالنصرانية أو اليهودية.

العلـم وحسـن الفهـم وطهـارة القلـب والبعـد عـن الأهـواء والشـهوات والتسـليم لله ولرسـوله، إذ لا شـك أن كـل هـذه العناصـر -وغيرهـا- تـؤثر تـأثيرًا قويًـا في المسـألة، ولكن للأسف، فإن كثيرين يغفلون عن هذه الحقيقة!

* * * *

(٣) فوائد الشبهات

ولسائل أن يسأل، وهو سؤال يطرحه بعض الشباب الحائر أو الملحد: ما فائـدة وجود ما يثير الشبهات في العقول، في العقيدة والتشريع والقدر، بما أن الإسـلام -كمـا تقولون- هو دين الحق المنزل مـن عنـد الله تعـالى، وأنـه موافـق للعقـل ومنسـجم مـع الحق؟!

نقول مع الراغب الأصفهاني: «وأما شبهة مَن قـال: لـو كـان لله ديـن لكـان بـاهرًا للعقول والأسماع والأبصـار. فجوابـه: إن ذلـك بـاهر، ولكـن لمـن لـم يضـيّع نـور الله الذي به يبصر، ولم يفسد بصيرته التي بها يدرك. وأمـا مـن ضـيّع ذلـك فقـد صـار بمـن وصـف الله تعـالى بقولـه: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾. ومـا أشـبه قائـل هـذا فيمـا يقوله برجل قال لشاعر: لم لا تقول ما نفهم؟ فقال: وأنت لم لا تفهم ما يقال. ويجـب أن يُعلم أن الله تعالى ركز في عقـل كـل ذي عقـل مـرآة فكـر، فـإذا زكاهـا وجلاهـا تبـيّن الحق من الباطل، والكذب من الصدق، والقبيح من الجميل».[١]

ولهذا نقول: وجود تلك الآيات المتعارضـة ظاهريًّا (المتشـابهات) هـي نفسـها

---

(١) الاعتقادات ص١١١.

برهان ساطع على صحة النبوة المحمدية، ومن ثم دليل على صحة أن القرآن كلام الله تعالى العظيم وأنه الحق المبين. وذلك لأنّ البحث الموضوعي في آيات القرآن في مختلف المجالات يكشف عن دقة التناغم والتناسق بينها، وهو دليل على أن مصدره له الكمال المحيط. وإنما يجد بعض الناس التعارض والتناقض فيه على سبيل الوهم والقصور في العلم والإدراك. ويعضد هذا المعنى أن العرب الذين نزل فيهم القرآن، عجزوا عن أن يجدوا فيه أدنى ثغرة، رغم أنهم كانوا فرسان البلاغة، وكانت عقولهم في الطبقة العليا من السلامة الفطرية، ورغم حرصهم على معارضته والتنفير عنه!

وأما وجود بعض ما تعجز العقول عن إدراكه وفهم حقيقته في العقيدة والتشريع الذي جاء به الوحي، فذلك لا يطعن في النظم القرآني وأنه في منتهى الدقة في معطياته، لأن هذا العجز نفسه دليل على أنه كلام الخالق العظيم، لأن الخالق له الكمال المطلق، أما المخلوق فهو محدود الإدراك بحكم مخلوقيته. وهذه هي طبيعة النبوات دائمًا، فإن «الرسل لا يخبرون بمحالات العقول بل بمحارات العقول، فلا يُخبرون بما يعلم العقل انتفاءه، بل يخبرون بما يعجز العقل عن معرفته».[(١)]

وقد وجدت الإمام ابن الوزير يشير إلى شيء شبيه بهذا المعنى، وذلك في قوله: «لما كان التفاوت بين علم المخلوقين وعلم خالقهم عز وجل، لا يُقدّر بمقدار، ولا يُتوهم بقياس، وجب أن يكون بينهم في التحسين والتقبيح لتفاصيل الأحكام أعظم من الاختلاف وجوبًا عاديًا يستحيل خلافه، حتى لو قدّرنا ما لا يتقدر من موافقتهم لجميع أحكام الله تعالى على جهة التفصيل لكان هذا محاورة عظمى لعقول جميع

---

(١) درء تعارض العقل والنقل. ابن تيمية ج١ ص١٤٦.

العقلاء والأذكياء، بل محالًا ممتنعًا في معارف الفطناء والعلماء، ولكان ذلك الاتفاق أعظم شبهة قادحة في زيادة علم الله تعالى عليهم، ومن أدق المتشابه المحيّر لفطنائهم. فلما جاء السمع بالمتشابه عليهم جاء على القاعدة المألوفة والعادة المعروفة في أن الأعلم إذا تميّز شيئًا قليلًا عن أجناسه وأشباهه لم يكن بُدٌّ من أن يأتي بما لا يعرفون، ويفعل ما لا يألفون، ويستحسن بعض ما يستقبحون، حتى قيلت في هذا الأشعار وضُربت به الأمثال، وحتى قيل إن الاجتماع في الخفيات محال مثلما أن الاختلاف في الجليات محال».[١]

خلاصة هذا الكلام: بما أن علم المخلوق لا يساوي علم الخالق، فطبيعي أن يكون بين الخالق والمخلوق فروقًا واسعة في اعتبارات الحِكَم وموارد التحسين والتقبيح، ولو تساوى علم المخلوق في ذلك بعلم الخالق، لكان ذلك أمارة تثير الحيرة الشديدة عند العقلاء والعلماء، إذ الخالق يجب أن يكون علمه أعلى وأوسع من علم المخلوق. فلما جاء الوحي على قاعدة معروفة للعقلاء وهي أن كل مَن تميز بعلم فوق أقرانه من العادي جدًا أن يعرف ما لا يعرفون ويستحسن ما لا يستحسنون ويستقبح ما لا يستقبحون، كان وجود ما لا يدرك العقلاء كنهه في القرآن أمرًا عاديًّا، لأنه كلام الخالق الدال على سعة علمه وحكمته.

ولهذا، أحب أن أقول للشباب المسلم: من المفيد لكم من أية ناحية نظرنا، أن تعرفوا أقداركم، فالإنسان مهما اتّسع في المعرفة فما يغيب عنه أكثر بكثير جدًّا مما يطلع عليه ويدركه بعقله وعلمه، ولهذا لن يبلغ الإحاطة بعلم الله وحكمته. وأيضًا،

---

(١) إيثار الحق على الخلق ج٢ ص١٧٤.

فإن مقتضى الإيمان والانتساب إلى الإسلام يوجب على المسلم أن يكون يقينه بحكمة الله وعلمه وعدله ورحمته أعظم من أن تشككه خاطرة عابرة أو شبهة سائرة أو حتى مجلدات كلها شبهات ومغالطات، فالإيمان يعني أنك تؤمن أن الله سبحانه له الكمال المطلق والعظمة اللانهائية في ذاته وأسمائه وصفاته، كالعلم والحكمة والعدل والرحمة. وكذلك من المهم الواجب، نتيجة لهذين المعنيين المذكورين، أن تفهموا أن التوغل والتدقيق في غوامض الحكمة الإلهية التشريعية والقدرية مورده وخيم ومآله وبيل، ولهذا ما زال أهل العلم الربانيون يحذرون شديد التحذير من الانزلاق إلى تعليل الأحكام الشرعية والتدبيرات القدرية، ورحم الله مَن عرف قدره ولم يحاول تجاوز طوره.

بعد هذه الإشارة، يمكننا تلخيص جواب السؤال المطروح في النقاط التالية:

أولًا: الحرص على طلب العلم الصحيح. لأنّ العبد كلما اتسعت دائرة علمه بالقرآن والسنة وأقوال أهل العلم من الصحابة والتابعين وغيرهم، وتبصّر في معاني الحكمة الإلهية في الكون والحياة والتاريخ، وأسرار العلاقة الرابطة بين الدنيا الآخرة كان أبعد من الوقوع في الشبهات. ولهذا ما زال الله تعالى ورسوله الأكرم عليه الصلاة والسلام يحثّان المسلم على طلب العلم وتحصيل المعرفة واكتساب الحكمة، وتحقيق حسن الفهم لآيات القرآن وأحاديث السنة، وتقليب النظر في ملكوت الكون.

ثانيًا: التسليم لله ولرسوله في الأحكام والأخبار. فإن مقام التسليم العقلي والنفسي مقام عظيم، ولا يرتقي إليه ولا يرسخ فيه إلا ذو المعرفة الثابتة الواضحة واليقينيّة. وذلك لأن الله تعالى خلق الإنسان في هذا العالم الدنيوي ليحقق الكمال

الممكن له استعدادًا لعالم الأبدية بعد الموت، وهذا قضت حكمة الله تعالى أن يكون مرتبطًا بالابتلاء، وهو أنواع ومراتب، وأعلاه وأسناه ما تعلّق بالأبعاد الكبرى في التشريع والقدر والكون.

ثالثًا: إقامة الحجة على المخالفين والمناوئين. لأن الله سبحانه أنزل هذا الدين لإقامة الحجة على العباد، لقطع أعذارهم في الكفر والإلحاد. ولما كانت كثير من العقول والنفوس تهوى الباطل لخفته عليها، وترفض اتباع الحق لثقله عليها، فتحرص على تبرير باطلها ودحض الحق من خالقها، عبر طرح الشبهات والاعتراضات والمغالطات، في الأحكام التشريعية والتصاريف القدرية، لزم المسلم بمقتضى الإيمان أن ينبري لبيان الحق وكشف الباطل، من أجل قطع عذر المبطلين.

رابعًا: تحقيق التمايز بين الناس. وذلك لأنّ الله سبحانه قد خلق الإنسان في هذه الدنيا إعدادًا له للآخرة الأبدية، ولما كان سبحانه قد وهب الإنسان الحرية والإرادة، فإن شاء آمن واستقام وإن شاء كفر وانحرف، كان لابد من التمييز بين هؤلاء وهؤلاء عبر آلية الابتلاء، وهي تنقسم إلى شهوات وشبهات، فكما أن الإنسان مطالب بضبط شهواته العملية وفق منهج الله سبحانه وإلا ضل وهلك، فكذلك بخصوص الشبهات العلمية هو مطالب بضبطها بالشرع، فيهتدي أو يرفض ويتّبع الهوى فيضل.

خامسًا: تجديد الإسلام في النفوس. لأنّ أعداء الله تعالى بمختلف أشكالهم ومرجعياتهم حريصون شديد الحرص على محاربة دين الله سبحانه، وتشويه العقيدة وتقبيح الشريعة. والإسلام بما أنه دين مرتبط بالإنسان وحياته ومصيره، والإنسان لا يمكن أن يظل سائرًا في الطريق، قويًّا ثابتًا، بل قد يضعف وقد يتعثر، فكان ضغط

هؤلاء الأعداء وهجومهم المستمر على العقيدة والشريعة بأساليب شتى مستغلين عوامل مختلفة، من أعظم أسباب يقظة المسلمين وتنبّههم لطبيعة المعركة التي يشنّها الأعداء.

قال محمد قطب: «إن الهجوم المستمر على الإسلام: قيمه ومبادئه وتاريخه ورجالاته وإنجازاته، قد أيقظ المسلمين إلى جوانب من عظمة الإسلام كانت -في فترة الركود- قد نسيت أو انطفأ بريقها وفقدت إشعاعها. فإن الهجوم المستشرقين وأشياعهم من التنويريين الذين يترجمون أفكار المستشرقين وينشرونها بأسمائهم أو أسماء أصحابها الأصليين أحدثت رد فعل فيما يسمى حركة «الدفاع عن الإسلام»»(١).

إن تأمل هذه المقاصد ووضعها تحت موازين الشريعة والحكمة، يهدي إلى حقيقة مهمة، وهي أن العبد المسلم ينال بها الثواب العظيم والمنزلة السامية والمقام الراسخ، وذلك لأنها كلها تدخل في إطار قاعدة الابتلاء كما ذكرت لك، وهي القاعدة التي بُنيت عليها الدنيا وأُقيم لها الحساب يوم القيامة، كما قال الله سبحانه: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾.(٢) وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾.(٣)

---

(١) قضية التنوير في العالم الإسلامي ص٩٨.

(٢) هود: ٧.

(٣) الملك: ٢.

ولهذا، فحين يأتي الملاحدة ويقولون: المسلمون لديهم هوس بالشبهات، بدليل أنك إذا كتبت كلمة شبهة في أحد محركات البحث في الإنترنت، ستخرج لك مئات ومئات منها، وذلك دليل على أن دينهم كله شبهات وليس فيه أي شيء واضح وحق وصحيح! حين يقال هذا، فهو دليل على الجهل المفرط أو العبث الماجن أو الخبث الماكر أو ثلاثتها، وذلك لأنّ كثرة ردود المسلمين على الشبهات المختلفة دليل صادق وبرهان ساطع وآية متلألئة على أن دينهم هو الحق المبين الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وأمارة ذلك أنهم قادرون على الرد على كل شبهات وأوهام الملاحدة والنصارى والعلمانيين والنسويات وغيرهم من أهل الباطل والضلال، حتى وإن كانت في منتهى السخف والعبث، كما أنها أمارة على أن هؤلاء جميعًا ليس معهم سوى الباطل والوهم والجهل والزيف، وأنهم لا يقصدون الحق ولا يبحثون عنه، بل أقصى ما لديهم هو الاعتراض لمجرد الاعتراض، لينخدع بهم أهل الغفلة فيظنون أنهم على شيء! لكن، من مشاكل الملحد أنه لا يريد أن يفهم هذه الحقيقة، بل تراه يركب رأسه ويُتبع نفسَه هواها بلا أي دليل ولا أي منهج، ثم لا يتردد في إطلاق العنان للسانه!

ولهذا يجب على المسلم في هذا العصر ألا تهوله الشبهات التي يثيرها هؤلاء المفسدون في الأرض، بل عليه أن يفخر بانتمائه للإسلام وأن يعتز بذلك، وأن يتذكر دائمًا بأن معركة الحق والباطل ما زالت منذ كان في الأرض حق وباطل، ولن تنتهي أبدًا. فهذا الدين تنزيل من رب العالمين، وصراط الأنبياء والمرسلين، ومنهاج الحكماء والصالحين، لن يجد فيه ذو العقل والإنصاف والحكمة والعدل ثغرة

واحدة يمكن أن تكون سببًا في الشك فيه، لأنه تفصيل الذي يعلم سر الإنسان ومداخل عقله ومسارب نفسه وخفايا باطنه ومآلات الأمور الاجتماعية في مستقبلها القريب والبعيد. ومن شك أو احتار فذلك لجهله وتقصيره أو لخبث طويته وسوء غايته.

وما أحرى المسلم أن يتأمل مقالة ابن الوزير اليماني وهي مناسبة جدًّا لهذا السياق: «لا ينبغي أن يستوحش الظافر بالحق من كثرة المخالفين له، كما لا يستوحش الزاهد من كثرة الراغبين، ولا المتقي من كثرة العاصين، ولا الذاكر من كثرة الغافلين، بل ينبغي منه أن يستعظم المنة باختصاصه بذلك مع كثرة الجاهلين له الغافلين عنه، وليوطّن نفسه على ذلك، فقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: إن هذا الدين بدأ غريبًا، وسيعود غريبًا كما بدأ، فطوبى للغرباء».[1]

ويجب التنبيه إلى أن أحد أهم مقاصد الملحدين، خصوصًا المتخفين منهم، كالعلمانيين والليبراليين والنسويات، هو إضعاف النزعة الانتمائية إلى الإسلام في عقل ووجدان المسلم، لأن ضعف هذه النزعة يؤدي إلى اعتبار أن الإسلام مثله مثل أي دين أو توجه أو مذهب، وهذا يؤدي بالضرورة لعدم الفخر والاعتزاز به، وهذا يجعله ممكن المراجعة والتشكيك والنقد، فإذا وصل الشاب إلى هذا الحد، ولو بشكل ضمني، يكون قد وضع قدمه على طريق الإلحاد الصريح!

* * * *

---

(١) إيثار الحق على الخلق ج١ ص٤٠١.

(٤) ثبات المحكمات

وها هنا إشارة مفيدة إن شاء الله، وهي أن الله سبحانه كما أنه وإن كان قد جعل في النفس مجموعة من الغرائز والشهوات، فقد يسر للإنسان إشباعها وسهّل له طرق تصريفها، كما في شهوة الجنس، فقد حرم عليه تلبيتها وإشباعها بالزنا وغير ذلك، وفي المقابل أباح له الزواج وجعله مصرفه الوحيد لهذه الشهوة الضاغطة. فكذلك في مسألة الشبهات، فإن الله سبحانه وإن كان قد جعل في أحكامه التشريعية وأحكامه القدرية أمورًا فوق مستوى مدارك العقول من حيث كيفيتها وحقيقتها، لتحقيق العبودية العقلية والنفسية له سبحانه، إلا أنه قد يسر من الحقائق الكبرى والمعاني السامية ما يشبع نهمة المعرفة وحب الاطلاع، ونصب من الدلائل والآيات والبراهين ما يكون معالم هادية في الطريق وأمارات منيرة لتمييز الحق من الباطل، والصواب من الخطأ.

وسر ذلك أنّ النبوات إذا جاءت بمسألة في العقيدة أو الشريعة لابد أن تنصب عليها من الدليل ما يكفي ويشفي للمتلقي، كما أنها لا يمكن ألا تأتي في العقيدة والشريعة بما يحقق للعبد كمال معرفته وعبوديته للخالق سبحانه، وما فيه خيره وصلاحه في الدنيا والآخرة، إذ كان المقصد الأعلى لها هو تعريف العباد بخالقهم وبيان الطرق الموصلة إليه، والهداية إلى السعادة الدنيوية والأخروية، كما قال الصحابي الجليل عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «إن الله عز وجل لم يأمر عباده إلا بما ينفعهم، ولم ينههم إلا عما يضرهم».[١] وقال الإمام ابن تيمية: «كل ما يحتاج

---

(١) الشرح والإبانة على أصول السنة والديانة. ابن بطة العكبري ص١٣٨.

الناس إلى معرفته واعتقاده والتصديق به من هذه المسائل فقد بيّنه الله ورسوله بيانًا شافيًا قاطعًا للعذر، إذ هذا من أعظم ما بلّغه الرسول البلاغ المبين، وبيّنه للناس، وهو من أعظم ما أقام الله الحجة على عباده فيه بالرسل الذي بيّنوه وبلغوه».[١]

ولهذا هناك دائمًا، سواء في معطيات الشريعة أو الأحكام القدرية، محكمات ومتشابهات، وبديهة العقل ومنطق الفطرة قبل دعوة الوحي، يفرضان على العاقل أن يرد المتشابهات إلى المحكمات، والجزئيات إلى الكليات، والتفاصيل المتشابكة إلى الأصول الواضحة. وإنما يتفاضل الحكماء والعلماء في هذا الذي ذكرت لك. فالشبهات هي الابتلاء العقلي، كما أن الشهوات هي الابتلاء النفسي، والعبد مطالب بضبط هذه وهذه وفق منهج الله تعالى، ليكون عبدًا خالصًا لله تعالى، فيتحقق له الكمال في الدنيا والآخرة، إذ هذا مقصد النبوات. قال الإمام الشاطبي: «المقصد الشرعي من وضع الشريعة إخراج المكلف عن داعية هواه، حتى يكون عبدا لله اختيارًا، كما هو عبد لله اضطرارًا».[٢] وأما من أبى وعاند وأعجبه عقله وتجاوز طوره، فمصيره الحيرة والشكوك والضلال، كما أن من أتبع نفسَه هواها وسار في طريق شهواتها، فمصيره الأمراض والأزمات الجسدية والنفسية!

ولك أن تُقلّب النظر شرقًا وغربًا وما شئت، فلست تجد إلا ما قلت لك، من الحيرة والشكوك في جانب شبهات الفكر، والأمراض والمآسي في جانب شهوات النفس. وليس ذلك إلا أمارة على العبث والمجون المنهجي الذي يتردى فيه أهل

---

(١) درء تعارض العقل والنقل ج١ ص٢٧.

(٢) الموافقات ج٢ ص٢٨٩.

الإلحاد والباطل عمومًا، ثم يحاولون إلباسه لباس العقل والعلم والحضارة والتقدم! بل لك عبرة بالمتكلمين في التاريخ الإسلامي، فإنهم لما تجاوزوا بالعقل طوره ولم يبالوا بحدود الوحي المعصوم، غرقوا في ظلمات الحيرة والشكوك!

وأهل العلم والحكمة من قديم الدهر يوصون ويوجّهون إلى هذه المنهجية، أعني عدم اتّباع المتشابه والشاذ والغامض، ففي الحق الواضح غُنية عن كل ذلك لمن نصح لنفسه. قال الإمام الدارمي: «إن الذي يريد الشذوذ عن الحق يتّبع الشاذ من قول العلماء، ويتعلّق بزلاتهم، والذي يؤم الحق في نفسه، يتبع المشهور من قول جماعتهم، وينقلب مع جمهورهم، فهما آيتان بينتان يُستدل بهما على اتّباع الرجل وعلى ابتداعه».(١)

والمقصود بيان أن الابتلاء الرباني للعبد لا ينحصر في شيء دون شيء، بل هو شامل لكينونة الإنسان كلها، ومحيط بعمره كله، فلا يتوقف الابتلاء لحظة واحدة، وهو أنواع:

الأول: الابتلاء البدني، والمقصود به، ما يُبتلى به العبد في جسده، كالأمراض، والعيوب الخلقية، وما شابه ذلك. وهل يستعمل جسده في الطاعة أم في المعصية.

الثاني: الابتلاء القلبي، والمقصود به، ما يُبتلى به العبد في قلبه، كالمنجيات من قبيل حب الله، التوكل عليه، الإخلاص، وكالمهلكات من قبيل الرياء والغرور.

الثالث: الابتلاء العقلي، والمقصود به، ما يُبتلى به العبد في عقله، كالشكوك

---

(١) الرد على الجهمية ص١٢٩.

والشبهات وما يجهل معناه من الأحكام الشرعية والأقدار الإلهية، هل يُسلّم لله أم يعترض.

والنوع الثاني (الابتلاء القلبي) الغفلة عنه أكثر من النوع الأول (الابتلاء البدني)، أما النوع الثالث (الابتلاء العقلي) فهو أكثر ما يُغفل عنه، فكثيرون يعترضون على بعض مسائل الأحكام، وبعض مسائل العقيدة، وبعض مسائل الأقدار، بذرائع شتى ومبررات مختلفة وشعارات متباينة، تكون وثيقة الصلة بالهوى الخفي والعصبية للمذهب والانتصار للرأي والأيديولوجيا، بحسب ما لديهم من الإيمان واليقين والعقل، كما تراه في المذاهب والفرق والاتجاهات قديمًا وحديثًا. ولهذا كان مقام الصحابة رضوان الله عليهم -رغم اختلاف مراتبهم- أعلى ممن يأتي بعدهم لما رسخ في عقولهم وقلوبهم من التسليم العظيم لله ولرسوله، ليس لمجرد الإيمان، بل لصحة أصولهم التي اكتسبوها من مشكاة النبوة المحمدية. ولهذا كانوا يقولون: «الاقتصاد في السنة خير من الاجتهاد في البدعة»،[1] لأن اتّباع السنة له صلة بالابتلاء العقلي والنفسي.

ولما كان كثير من الشباب يجهلون الابتلاء العقلي، وأنه مقصود قدرًا وشرعًا، لمناسبته الوثيقة بغاية خلق الإنسان في الدنيا وترتّب مصيره الأخروي على هذه الغاية، كان ذلك من أعظم أسباب سقوط كثير منهم في فخاخ الشبهات والشكوك التي ينشرها المفسدون في الأرض، كالملاحدة الأقحاح والعلمانيين والنسويات. والله المستعان.

---

(١) الأمر بالإتباع والنهي عن الابتداع. جلال الدين السيوطي ص٤٨.

(٥) أهمية الأصول المعرفية

والحقيقة أنّه لا يمكن -بعد عصمة الله تعالى وتوفيقه- أن ينجو العبد من الشبهات، خصوصًا في مثل عصرنا، حيث يتم ضخ الكثير جدًّا منها وقصف عقول الشباب بها، لا يمكن النجاة ما لم تكن للمسلم أسس وقواعد يستطيع الاعتصام بها من فتن الشبهات التي يطرحها الملاحدة والنصارى وغيرهم، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «لابد أن يكون مع الإنسان أصول كلية يرد إليها الجزئيات ليتكلم بعلم وعدل، ثم يعرف الجزئيات كيف وقعت، وإلا فيبقى في كذب وجهل في الجزئيات وجهل وظلم في الكليات، فيتولّد فساد عظيم».[1] ولذلك أحب التنبيه على مجموعة من تلك الركائز التي ينبغي أن يستوعبها المسلم وأن تكون واضحة في عقله، وهي إن شاء الله، كفيلة بحراسة عقله وقلبه من الخضوع لمغالطات الملاحدة وتلبيسات شبهاتهم، وهي:

أولًا: الكمال الإلهي. والمقصود به، أن يعلم المسلم أن الله سبحانه متصف بالكمال اللانهائي، كان بكماله وعظمته وغناه قبل خلق الخلق وهو كذلك بعد خلق الخلق، ولم يزده خلق الخلق كمالًا لم يكن له قبل خلقهم.[2] ولهذا يستحيل استحالة مطلقة أن يكون في كلامه التشريعي أو تصاريفه القدرية، أدنى تناقض أو ظلم أو عبث.

---

(١) منهاج السنة النبوية ج٥ ص٨٣.

(٢) قال ابن القطان: «أجمعوا أنه تعالى لم يزل قبل أن يخلقه -يقصد الوجود- واحداً حيّاً عالماً قادراً مريداً سميعاً بصيراً، له الأسماء الحسنى والصفات العلى». الإقناع في مسائل الإجماع ج١ ص٣٥.

ثانيًا: القصور الإدراكي. والمقصود به، أن يعلم المسلم أن المدارك العقلية محدودة وقاصرة وعاجزة عن الإحاطة الشموليّة بكل شيء. فالإنسان مخلوق، والمخلوق لابد أن يكون محدودًا في كل شيء، وبحكم محدوديته الإدراكية يستحيل أن يحيط علمًا بالأبعاد والمقاصد النهائية للحكمة الإلهي، سواء الشرعية أو القدرية، ونحن البشر «إنما أعطينا العقل لإقامة العبودية لا لإدراك الربوبية».[١]

ثالثًا: طبيعة عالم الدنيا. والمقصود به، أن يعلم المسلم أنّ الدنيا دار ممر، شاء الله سبحانه أن تكون مسرح التكليف الإلهي للإنسان للقيام بحقوق الألوهية وواجبات العبودية، وأساس التكليف هو الابتلاء، فكل عبد مبتلى بضروب من الابتلاء، وما دام العبد في الدنيا فالابتلاء لازم له، ولا هناء إلا لمن فاز بالجنة، جعلنا الله من أهلها.

رابعًا: مسؤولية الإنسان. والمقصود به، أن يعلم المسلم أنّ الله سبحانه وهب الإنسان الحرية والإرادة، ليقيم الحجة عليه. فالإنسان له كامل الحرية للاختيار بين الإيمان/ الكفر، الاستقامة/ الانحراف، الطاعة/ المعصية. وشعور الإنسان بالحرية والإرادة في حياته اليومية ونشاطاته المختلفة برهان ساطع على أنه مكلف.[٢]

---

(١) الحجة في بيان المحجة. أبو القاسم الأصبهاني ج١ ص٣١٩.

(٢) قال الأصفهاني: «الذي يدل أن لا جبر: أن القول بذلك يُبطل فائدة العقل من الفكر والروية التي خص الله تعالى بها الإنسان، ليميز بين الحق والباطل في الاعتقاد، والصدق والكذب في المقال، والجميل والقبيح في الفعال، لكي يتحرّى الحق دون الباطل، والصدق دون الكذب، والجميل دون القبيح». الاعتقادات ص٢٨٢.

خامسًا: حجة الوحي الإلهي. والمقصود به، أن يعلم المسلم أن الله سبحانه قد قطع عذر الإنسان بإنزال الوحي، فهو منظومة شاملة ومتكاملة لمعرفة الحق. كما غرس فيه مبادئ العقل التي توجب عليه الإيمان وطلب الحق، فهما نور على نور. فللإنسان أن يفعل ما يشاء، لكن الحساب بعد الموت، إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر.

سادسًا: الهدف الوجودي. والمقصود به، أن يعلم المسلم أن الخالق سبحانه قد خلق الإنسان لهدف معين ولغاية مقدسة، هي تلك «العبوديّة» بمفهومها الشامل لمختلف نشاطات الحياة: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾،[(١)] وأنه على هذه المهمة والوظيفة سيكون الحساب يوم القيامة، ثوابًا لمن آمن وأطاع، وعقابًا لمن كفر وعصى.

سابعًا: اليقين لا يزول بالشك. والمقصود به، أن يعلم المسلم أن كل ما يُطرح من الشبهات والتشكيكات والمغالطات، وما قد يصادفه العبد من الهواجس والوساوس من الهوى والشيطان حول الوحي والقدر والواقع، شكوك يجب قطعها باليقين، الذي هو أن الله له الكمال المطلق والإنسان محدود الإدراك.

ثامنًا: الحياة الأبدية بعد الموت. والمقصود به، أن يعلم المسلم أنّ الإنسان مخلوق للأبدية، وقد رتّب الله سبحانه مصيره في الجنة أبدًا أو النار أبدًا على مدى قيامه بحقوق الألوهية وواجبات العبودية، والحساب الكامل (ثوابًا وعقابًا) إنما

---

(١) الذاريات: ٥٦.

يكـون في الآخـرة، كما قـال تعـالى: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾.[١]

تاسعًا: الجهل المفصل لا ينفي العلم المجمل. والمقصود به، أن يعلم المسلم أنّ كون الإنسان يجهل تفاصيل الشريعة ومقاصدها وأسسها، ويجهل أسرار القدر وتصاريفه وحِكَمه، وعلاقته بفعل الإنسان وحركة المجتمع، لا ينبغي أن ينفي علمه المجمل بعدل الله وحكمته، وبحرية الإنسان ومسؤوليته.

عاشرًا: الصراع الفكري والثقافي. والمقصود به، أن يعلم المسلم أن الصراع بين الحق والباطل، بين التوحيد والجاهلية، بين الإيمان والكفر، سنة من سنن الله تعالى في حياة البشريّة. واليوم يحرص المفسدون في الأرض على مصارعة الحق والتوحيد والإيمان، تحركهم لذلك أحقاد وأطماع وأهواء.

الحادي عشر: الاستشكال لا يدل على البطلان. والمقصود به، أن يفهم المسلم أن ما قد يستشكله في القرآن والسنة والقدر أو في الحياة والطبيعة والكون، لا يلزم عنه البطلان، لأن الاستشكال قد يكون بسبب الجهل، أو العناد، أو الهوى.. إلخ، ولو ذهبنا نُبطل كل ما استشكلنا لتعذرت المعرفة والحياة ولما تقدم العلم خطوة واحدة.

الثاني عشر: سؤال أهل العلم المتخصصين. والمقصود به، أن بديهة العقل والفطرة السليمة يؤكدان على حقيقة جوهرية، وهي أن الجهل بشيء ما يفرض علينا

---

(١) آل عمران: ١٨٥.

سؤال المتخصصين الثقات في ذلك المجال، ومن الحماقة والسفاهة سؤال غيرهم، وهذا مبدأ قرآني أصيل: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.[1]

الثالث عشر: المحكم والمتشابه. والمقصود به، أن يعلم المسلم أن طبيعة الدنيا ومقصود التكليف تقتضي أن تكون محكمات ومتشابهات. ففي كل مجال من المجالات الدينية والفكرية والعلمية والبحثية، هناك أصول محكمة وهناك أمور متشابهة، ومنهج أرباب هذه المجالات يردون المتشابهات إلى تلك المحكمات.

الرابع عشر: الحق لا يتبدل. والمقصود به، أن يعلم المسلم أن الحق حق حتى وإن تمت زخرفة الباطل وتزيينه، وحتى إن تبّناه المشاهير وروجوا له، وحتى إن ضخمه الإعلام ونفخ فيه لتتقبّله النفوس وتتشرّبه العقول. وذلك لأن الحق قيمة مطلقة لم ينشئها الإنسان وليس هو من قرر تبنّيها، بل هي جزء من تكوين الفطرة والوجود.

الخامس عشر: اللب قبل القشور. والمقصود به، ألا ينخدع المسلم وألا تهوله كثرة تشقيق الملاحدة للكلمات ورفعهم الدائم لشعارات براقة، مثل عقل، دليل، علم، لقد درسنا وبحثنا، وعلماء العالم كلهم متفقون على كذا. فهم بهذا ينشدون إحداث الصدمة النفسيّة عند المتلقي المسلم، لكي يعجز عقله عن التفكير ومن ثم يتشرّب أطروحاتهم وشبهاتهم. أي أنهم عمليًا يمارسون إرهابًا نفسيًّا.[2]

---

(١) النحل: ٤٣.

(٢) هذه الخطة قديمة، فقد مارسها اليهود قديمًا مع المسلمين، لكي يشككوهم في الإسلام. ولهذا خلّد الله تعالى هذا الموقف في القرآن لكي يعتبر به المؤمن، فقال حكاية عنهم: =

السادس عشر: توافق العقل والوحي. والمقصود به، أن يكون المسلم على يقين تام بأن الوحي يستحيل أن يناقض عقلًا صريحًا أو علمًا ثابتًا. فالوحي كلام الله، والعقل والكون خلق الله، ولا يمكن أن يتناقض كلام الله مع خلقه. وإذا صادف ما يوهم بالتناقض، فذلك يرجع إلى أن الوحي محتمل، أو أن النظر العقلي ليس صحيحًا في مقدماته، أو أن المعطى العلمي إذا كان له تعلق بمعطى الوحي ليس حقيقة علمية نهائية.

السابع عشر: أصالة المصادر. والمقصود به، ألا يغتر المسلم بالمصادر التي يذكرها الملحد، ولا بالاقتباسات التي يعرضها، فالملاحدة قوم بهت، يفترون الكذب وهم يعلمون، وبعضهم كحاطب ليل، فلا يهتمون بأصالة المصدر، هل هو معتمد عند المسلمين في الدليل أم لا؟ كما أنهم يمارسون لعبة الانتقاء، سواء في القرآن أم الحديث أم أقوال العلماء، لأن غرضهم تضخيم كلامهم للإيحاء بأنهم يعرفون الإسلام حق المعرفة ولذلك ألحدوا.

الثامن عشر: منهجية التسليم. والمقصود به، أن يتفطن المسلم إلى أن من خُدع الملحد الماكرة أنّه يتعمد طرح أسئلة هي في أساسها مبنيّة على أصول أخرى، وبدون التسليم بتلك الأصول والاقتناع بها، فإن تلك الأسئلة الملغومة تجر المسؤول إلى بلبلة فكريّة واضطراب معرفي مثل قولهم مثلًا: لماذا خلقنا الله بدون أن يأخذ رأينا؟ (أنت كنت عدمًا فكيف يأخذ رأيك؟).

= ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ آل عمران:٧٢.

التاسع عشر: لا تبرر دينك. والمقصود به، أن يفهم المسلم بأنه غير ملزم بتبرير عقيدته وشريعته، بل دوره أن يبلغ رسالة الوحي إلى الملحد، ثم له الخيار في القبول أو الرفض. بل يجب على المسلم أن يقلب على الملحد كلامه بمطالبته بتبرير طرح ما يسميه شبهات، لأنه وفق المرتكزات الإلحادية لا يوجد أدنى مبرر لهذه الاعتراضات.

العشرون: هذا الدين علم. والمقصود به، أن يفهم المسلم بأن الإسلام في عقيدته وأحكامه، علمٌ له أصول وقواعد وضوابط، وبدون الالتزام بها في عملية الفهم لابد أن يضل العقل وتلتبس عليه المعطيات. ولهذا لا توجد أمة في تاريخ البشرية قديمًا وحديثًا وضعت ضوابط وقواعد لفهم دينها كما فعل المسلمون لتفسير نصوص دينهم وفهمها بشكل صحيح. ولهذا، لن تجد اعتراضًا من اعتراضات المناوئين للإسلام إلا وتجده غير منضبط بضوابط الفهم وقواعد العلم الشرعي.

إن استيعاب هذه المنطلقات تحمي المسلم -إن شاء الله- من التأثر بالأباطيل الرائجة والشبهات الشائعة والوساوس الطارئة. بل حتى وإن لم يفهم مكامن المغالطة فيها، فلن يهتز إيمانه ويقينه وثباته، بحكم علمه الواضح والعميق بهذه الأصول العامة، ومن ثم، سيبادر لسؤال أهل الاختصاص أو البحث بنفسه، ليعرف أولًا مكامن المغالطة في طرح الملحد والمناوئ للإسلام عمومًا، وليعرف ثانيًا أصول المسألة في معناها الشرعي، ولماذا كانت كذلك وأي غاية تقصد.

❊ ❊ ❊ ❊

(٦) منهج التعامل مع الشبهة

ومن رحمة الله سبحانه أن وضع للمسلم منهج التعامل مع الشبهات المعروضة عليه، يقول جل شأنه: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾.[1] فهذه الآية تنص على أن هناك أصولًا محكمة وثابتة وواضحة في المعطيات القرآنية، وفي المقابل هناك آيات متشابهة إلا أن نسبتها قليلة. ثم ذكرت الآية أن الناس في التعاطي مع القرآن، فهناك الذين يبتغون الفتنة لإضلال غيرهم، وذلك بضرب الآيات بعضها ببعض. وهناك أهل العلم والصلاح الذين يؤمنون بأن القرآن كلام الله، وكلام الله لا يمكن أن يأتيه التناقض والاختلاف من أية جهة نظرنا إليها.

فخرج من هذا، أن الاشتباه الذي قد يحدث عند بعض الناس، يكون سببه:

أولًا، الغفلة عن كمال الله سبحانه ينفي أن يكون في كلامه أدنى اختلاف أو تناقض، فالواجب اتهام النفس بالجهل والتقصير.

ثانيًا، عدم النظرة الشمولية للآيات التي تتعلق بهذا الموضوع أو ذاك مع ربطها بالمرتكزات العامة للقرآن كله.

واعلم أن سر وجود الآيات المتشابهة في القرآن يرجع إلى أمور، منها:

---

(١) آل عمران: ٧.

أولًا، الكلام الإلهي في سياقاته له اعتبارات مختلفة، لأن القرآن ليس يشبه نمط الخطاب البشري، بل هو نمط متفرّد، سواء من حيث التركيب اللغوي أم من حيث الدلالة المعنوية، ولذلك فآياته غير منفصلة عن غيرها، بل متشابكة بنظامه كله.

ثانيًا، فسح المجال لأهل العلم للتنافس في تحقيق معانيه واستنباط أبعاده. وذلك لأن القرآن نزل ليكون دستور الإنسانية إلى منتهى وجودها، سواء في مجالها المعرفي أم في مجالها السلوكي أم في مجالها التنظيمي، فيتنافس علماء كل زمان لاستخراج درره.

ثالثًا، الابتلاء العقلي والنفسي للمسلم، فلما كان المقصد الأعلى للنبوات هو أن يكون العبد عبدًا لله اختيارًا كما هو عبد له اضطرارًا، لا جرم أن كان في القرآن ما لا يدرك بأول النظر، فيحقق المسلم التسليم لله تعالى فيما لم تبلغه مداركه ومعارفه.

نخلص من هذا إلى أن منهج المسلم هو أن يرد ما تشابه عليه إلى المحكمات، لأن المحكمات هي الأصل والأساس، أما المتشابه فهو أمر طارئ يعرض للمتلقي، أما كلام الله تعالى نفسه فلا اختلاف فيه ولا تفاوت، بل هو محكم غاية الإحكام، كما قال سبحانه: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾.[1] وقال تعالى: ﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَ﴾.[2] ولذلك ما زال سبحانه يصف القرآن بأنه نور، هدى، شفاء، رحمة، برهان، فرقان، وما زال يأمرنا ويحثّنا على التدبر والتفكر في معطيات الوحي المختلفة، كما قال سبحانه: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ

---

(١) هود: ١.

(٢) الإسراء: ١٠٥.

وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.[١] وقال سبحانه: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾.[٢] ففهمنا من ذلك كله أن التناقض أو الاختلاف والاضطراب إنما يكون في تصور المتلقي للوحي لقصور فهمه وعجزه عن الإحاطة بالمعنى. ولو كان يمكن أن يكون في القرآن شيء من التناقض أو الاختلاف لما كان للأمر بالتفكر في معاني والنظر في دلالاته أي معنى. ولذلك أثبت إيمان الراسخين في العلم بانسجام الآيات القرآنيّة وانتظامها في ميزان الحكمة العقليّة، إذ كان قد ثبت لديهم أصل كلي، هو أن الله تعالى متصف بالكمال المطلق، سواء في ذاته أم في أسمائه وصفاته، والقرآن كلامه تبارك شأنه، وكلامه صفة من صفاته، وبما أن صفاته موسومة بالكمال اللانهائي، إذن فكلامه لا يمكن أن يتناقض أبدًا.

ولهذا كما ذكرت سابقًا، فإن قضية الأصول الكلية مهمة جدًّا. فالإمام ابن الجوزي إلى مسألة القدر والحكمة، وتصاريف القضاء الإلهي في حياة الإنسان وحياة البشرية، فيضع لنا ضابطًا كليًّا، فيقول: «العقل قد عرف حكمة الخالق سبحانه وتعالى، وأنه لا خلل فيها ولا نقص، فأوجبت عليه هذه المعرفة التسليم لما خفي عنه. ومتى اشتبه علينا أمر في فرع لم يجز أن نحكم على الأصل بالبطلان».[٣] وهذا الأصل هو فرع لأصل كلي وهو: المخلوق لا يحيط علمًا بالخالق، لأن المخلوق محدود في علمه وإدراكه، أما الخالق فهو مطلق الكمال ولانهائي العظمة، فكيف يحيط المحدود باللامحدود؟ عقليًا هذا غير ممكن.

---

(١) النحل: ٤٤.

(٢) ص: ٢٩.

(٣) تلبيس إبليس ص٦٦.

كذلك نجد الإشارة إلى أهمية الضابط الكلي، في قصة أبي الهذيل العلاف مع رجل جاء حائرًا تائهًا يطلب جوابًا لحيرته وشكوكه. فقال له: أُشكِلَ عليّ أشياء من القرآن، فقصدت هذا البلد، فلم أجد عند أحد ممن سألته شفاء لما أردته، فلما خرجت في هذا الوقت قال لي قائل: إن بغيتك عند هذا الرجل، فاتق الله وأفدني. فقال أبو الهذيل: فماذا أُشكل عليك؟ قال: آيات من القرآن توهمني أنها متناقضة، وآيات توهمني أنها ملحونة، قال: فماذا أحبُّ إليك، أجيبك بالجملة أو تسألني عن آية آية؟ قال: بل تجيبني بالجملة، فقال أبو الهذيل: هل تعلم أن محمدًا كان من أوسط العرب وغير مطعون عليه في لغته، وأنه كان عند قومه من أعقل العرب فلم يكن مطعونًا عليه؟ قال: اللهم نعم. قال أبو الهذيل: فهل تعلم أن العرب كانوا أهل جدل؟ قال: اللهم نعم. قال أبو الهذيل: فهل اجتهدوا في تكذيبه؟ قال: اللهم نعم. قال: فهل تعلم أنهم عابوا عليه بالمناقضة أو باللحن؟ قال: اللهم لا؟ قال أبو الهذيل: فتدع قولهم مع علمهم باللغة وتأخذ بقول رجل من الأوساط؟! قال: فأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، قال: كفاني هذا وانصرف وتفقه في الدين.[١]

وهذا القول نجده حتى في تفاصيل المعطيات اليومية. فمثلًا: جهلنا بتفاصيل وأسرار تحول الغذاء إلى طاقة لأجسامنا، لا يجعلنا نتوقف لحظة واحدة في تناول الطعام حين الإحساس بالجوع. وجهلنا بأسرار الأدوية ومقاديرها، لا يجعلنا نطعن في علم الطبيب حين يحدد لنا تناول كذا صباحًا وكذا مساء وكذا من الأيام، لأن لدينا أصلًا كليًا يقول (الطبيب درس الطب، فهو عالم بأسرار وتفاصيل ما يناسب هذا المرض أو ذاك بنسبة كبيرة جدًا).

---

(١) طبقات المعتزلة. أحمد بن يحيى المرتضى ص٤٥.

ومن هنا نقول: العقل الإنساني مطبوع على العلم المُجمل ولا يمكنه أن يلج أبعاد العلم المفصل بشكل نهائي، وهذا بخصوص الماديات بين يديه (الجسم، الدماغ، الكون.. وغير ذلك) فكيف بأسرار وتفاصيل حكمة الخالق في تشريعاته وتصاريف أقداره؟ من أجل ذلك قال رب العزة: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾،[1] تنبيهًا لذوي الألباب إلى أن التصاريف الإلهية في الشؤون الوجودية فوق مدارك العقول وخارج مطامح الأنظار الموسومة بالعجز والقصور.

فهذا هو موقف المسلم العاقل الواعي، الذي يؤمن أن الوحي حق. وأما الذين في قلوبهم مرض، أي الذين يرغبون في إضلال غيرهم كما ضلوا هم عن سبيل الحق، فيحرصون على الإعراض عن المحكمات البيّنات الواضحات، والأصول الثابتة والأسس الراسخة، ليتجهوا نحو الآيات التي من الممكن أن تشتبه على المسلم غير الخبير بدلالات الآيات، لكي يزرعوا في عقله ونفسه الشك في نظام القرآن، فإذا لابسه الشك ولو من بعيد، أمكن للشيطان أن يقوم بدوره، وذلك بنقله إلى مجال أوسع، ثم لا يزال به من شيء إلى شيء حتى يزرع فيه الشك في كون القرآن كلام الله تعالى أو هل سلم من التحريف والتزوير!

والحقيقة أن هذا الأسلوب يمارسه الملاحدة كثيرًا مع الصغار والشباب الذين لا علم لهم بحقائق الإسلام ومعاني الحكمة الإلهية في تصاريف الأقدار! والله وحده يعلم كم من مسلم ومسلمة من الصغار والشباب إنما كان بدء ضلاله وانزلاقه إلى الإلحاد هو قراءته لشبهات ومغالطات حول مسائل في الأحكام الشرعية أو

---

(١) الأنبياء: ٢٣.

التصاريف القدرية، في مجموعات وسائل التواصل الاجتماعي أو سماعه لها في قنوات اليوتيوب! خصوصًا أن كثيرًا منهم يدخلون هذه المجموعات والقنوات من باب حب الاطلاع، كأنهم يتوهمون أن هناك حقائق مغيّبة، أو يستخفون بخطورة الشبهات على العقول الخالية من العلم!

* * * *

(٧) دلالة تكثيف الشبهات

وهنا، أرى من المفيد الإشارة إلى الدلالة الكامنة في الطرح والتكثيف للشبهات، خصوصًا أن الملاحدة يربطون إلحادهم بها ويجعلونها سببًا كافيًّا لخروجهم من دائرة الإيمان ودخولهم في دائرة الإلحاد! فأقول وبالله التوفيق:

يرتبط مفهوم الشبهة عند الملحد، سواء الشبهات الشرعيّة أم الشبهات القدريّة، بفكرة كامنة لديه وهي فكرة (الكمال الإلهي). فالملحد ينطلق من افتراض أن الخالق لو كان موجودًا لكان كاملًا، وإذا كان كاملًا فلابد أن تكون أحكامه التشريعية وتصاريفه القدرية كاملة. وبما أن هناك نقائص وعيوبًا وشرورًا -كما يتوهم!- في الدين والحياة والكون، فهي إذن دلالة واضحة وأمارة ساطعة على عدم وجود الخالق! ولهذا أنا أزعم أن أحد أسس الإشكال في القول الإلحادي هو فكرة الكمال! فكل اعتراضات الإلحاد وأدلته ترجع في التحليل الأخير إلى تلك الفكرة، بحيث يمكن القول أنه لم يلحد ملحد -على الأقل من الناحية النظرية- إلا لسوء فهمه واهتراء تصوره لفكرة الكمال! فمن قضية الشر، إلى عشوائية الكون إلى عبثية

الحياة إلى نسبية القيم إلى سيولة الحقيقة إلى أحكام الشريعة، كل هذه مبنية في أساسها على ضعف شديد في فهم فكرة الكمال الإلهي!

وإذا كنتَ تعجب لهذا التفكير السطحي والنظرة القاصرة الكامنة في دلالة احتجاج الملحد بالشبهات، فلك أن تسأل أي ملحد شئتَ عن سبب ربطه عدم وجود الخالق بوجود الشرور أو عيوب في التشريع! فإنك لن تجد عنده جوابًا سوى (أنتم تزعمون أن الخالق متصف بالكمال وما يرتبط بذلك من العدل والرحمة والقدرة وغيرها، فأين هذا الكمال المزعوم من وجود الشرور المختلفة والتشريعات التي لا تحترم كرامة الإنسان وحرية المخالف؟) الإشكال الذي يغفل عنه الملحد هنا أو يجهله؛ هو أنه لا علاقة منطقيّة بين وجود ثغرات شرعية وقدرية -كما يتوهم!- وبين نفي وجود الخالق وإنكاره! فأنت إذا زرتَ بلدًا لأول مرة، ووجدت بنية تحتية مهترئة، واكتشفت وجود فوضى عارمة في المجتمع، وعلمت بوجود ظلم بالغ في الإدارات، واستبداد رهيب من المسؤولين، كل هذا لن يحملك على تصور عدم وجود حكومة قائمة في البلد وأن هناك ملكًا أو رئيسًا، بل ستقول بأن الحكومة غير مبالية بالأمر تمامًا، وأن الملك أو الرئيس مهتم فقط بمصالحه الخاصة وتثبيت عرشه وحكمه! أي إنك مع وجود كل تلك الثغرات والعيوب في الدولة وصفوف المجتمع، لن تنفي وجود الحكومة والملك أو الرئيس. فكذلك الأمر في قضيتنا! وهذا مثّلنا به من باب الإلزام للملحد فقط. فلو كان الملحد صادقًا مع نفسه، إذن لذهب مع منطق العقل إلى نهايته الحتمية، وهي أن الشبهات، أي وجود العيوب والنقائص، لا تدل على عدم وجود الإله، بل هي فقط تتعلق بصفاته!

ولهذا نجد الإيمان الإسلامي عالج فكرة الكمال معالجة دقيقة وواضحة، فقد عالجها من منطلق ثنائية الخالق والمخلوق، فالله في الإسلام له وجود حقيقي ومستقل، وله الكمال والعظمة اللانهائية، وصفاته كذلك إذ هي تبع لذاته تبارك شأنه. والإنسان في الإسلام مخلوق محدود قاصر، لا كمال له في ذاته وصفاته إلا ما منحه له خالقه منه. ومن هنا، نفهم بأن أحد أسس فهم المسلم لمختلف القضايا التي اتخذها الملحد مبررات لإلحاده، هو أن الجهل المفصل لا ينفي العلم المجمل أو عدم العلم ليس علما بالعدم، والنتيجة الضرورية لهذا هي أن المسلم يقرأ تلك القضايا في إطار متعدد الأبعاد، فرؤيته تركيبية، عكس الملحد الذي يقرأها في إطار أحادي البُعد، بحكم أن رؤيته اختزالية!

وهناك شيء آخر مهم في هذا الإطار، وذلك أن الملحد وفق أسس الإلحاد ومرتكزاته لن يجد أدنى مبرر إلحادي للاعتراض على هذه الثغرات والعيوب المتوهَمة! ولذلك، نقرر هنا بأن احتجاج الملحد بالشبهات ينقض عليه صرح عقيدته الإلحادية وما تحمله من مبادئ وشعارات.[١] لأننا لو رجعنا إلى المنطلق الكامن في طرح الشبهات، وهو الكمال الإلهي كما ذكرت، فالملحد مطالَب قبل أي شيء آخر بتبرير استيعابه لفكرة الكمال، وأنّى له ذلك في إطار عقيدة (كل شيء مادة، والعقل

---

(١) نحن هنا نتحدث عن الإسلام فقط، أعني المنظومة العقدية والتشريعية، ولا شأن لنا بالأديان الأخرى، رغم اعترافنا وإقرارنا أنها تحتوي على الكثير جدّاً من العيوب والثغرات. وهذا ما أشدد عليه دائماً وأنبّه عليه الإخوة، وهو أن يحاوروا الملحد بخصوص الإسلام فقط، وليس بمطلق الدين.

مادة، والحقيقة نسبية)! إذ لا يمكن استيعاب مبدأ الكمال ما لم يكن هناك اعتراف مسبق بأن مصدر إدراكه ليس ماديًّا، ومن ثم فإن مصدر الكمال نفسه لا يمكن أن يكون من هذا العالم المادي، بل هو بالضرورة متجاوز للزمان والمادة والكون والإنسان!

بالإضافة إلى هذا المعنى؛ فإن موقف الملحد من الشبهات واتخاذه لها شمّاعة يعلّق عليها إلحاده وصحته وصوابه ومعقوليته، هذا الموقف يتضمن أيضًا بُعدًا أخلاقيًّا، أي إن الملحد له نظرة أخلاقية كامنة للمنظومة التشريعية والقدرية، وهو لم يتذرع بالشبهات لإعلاء قيمة الإلحاد وتحقير قيمة الإيمان إلا لأن تلك المنظومة التشريعية والقدرية تتنافى مع المعيار الأخلاقي! وهنا سيقع الملحد في إشكالية حرجة، إذ إنه سيكون مطالبًا بتبرير الرؤية الأخلاقية في تعامله مع الطرح التشريعي والقدري، انطلاقًا من الأسس الإلحادية المادية ومبادئها وتصوراتها، وأنّى له ذلك! ومهما جادل الملحد هنا، فإن هذه العيوب والثغرات التي يتوهمها بخياله، هي أولًا نتاج جهل وعناد، وثانيًّا -وهذا هو الأهم- هي أهون بمراحل من ثغرات وعيوب الرؤية الإلحادية للإنسان والكون والحياة والقيم!

وقد يقول الملحد هنا: أنا أعترض وأحتج ليس من منطلقاتي وقناعتي الإلحادية، بل من منطلقاتكم وقناعتكم الإيمانية، فأنتم تعتقدون الكمال الإلهي، والواقع يدل على وجود عيوب وثغرات خطيرة في الوحي والفعل الإلهي، إذن أنتم تؤمنون بالتناقض!

ونحن نرد على هذا الاعتراض بالقول: بأن هذه مغالطة وهروب من لوازم المشكلة، **فأولًا**، من الواضح أن أي حكم أو موقف يرفضه الإنسان، لابد -من الناحية المنهجية- أن يكون مستنده في ذلك معيارًا عقليًّا أو أخلاقيًّا، ناتجًا عن رؤيته الشمولية الكامنة للذات والعالم والحياة والقيم، وإذا كان يرفض أصلًا ثبات المعيار العقلي والأخلاقي، فكيف إذن سيستقيم له الاعتراض والاحتجاج على هذا الطرح أو الموقف!

ثانيًا، بما أن الأمر صار اعتراضًا من منطلق الأسس الإيمانية وادعاء تناقضها مع الواقع، فالأمر في الحقيقة إنما يكشف عن جهل بالغ بهذه الأسس وقواعدها ومبادئها. فنحن سواء في باب التشريع أم في باب القدر أم في باب الخلق، نقرأ كل المعطيات الخاصة بهما في إطار (الكمال الإلهي المطلق)، و(استحالة إدراك المخلوق للحكمة النهائية لله سبحانه)، و(طبيعة عالم الدنيا والتكليف الإلهي للإنسان)، و(المصير الإنساني في عالم الخلود بعد الموت). ولهذا يجب على الملحد أن يبرهن على كلامه من منطلق المبادئ العقلية والأخلاقية والوجودية، وإلا صار اعتراضه كلامًا إنشائيًا باردًا بلا معنى!

إن الملحد إذا كان يعترض بالقاعدة الإيمانية التي تقرر أن (الإله كامل) لإكساب اعتراضه قيمة علمية، فقد وقع عمليًّا في تناقض صارخ، فمن الواضح أن الإله بما أنه كامل كمالًا نهائيًا إذن لا يمكن للإدراك البشري أن يحيط علمًا بأبعاد أحكامه في تشريعاته وأقداره، بحكم أن الإنسان كائن المخلوق، وكل مخلوق ناقص قاصر ومحدود.

(٨) أسباب تكثيف الشبهات

إن كثيرين من الشباب اليوم يغفلون عن أنهم يتعرّضون لقصف عنيف على مستوى الأفكار والقناعات والرؤى والأهداف ونمط الحياة، كما يتجلى ذلك، في العلمانية والإلحاد والنسوية وتزييف مضامين الإسلام وتشويه التراث الإسلامي! والهدف هو سلخهم عن عقيدتهم ودينهم، وفصلهم عن هويتهم الإسلامية، مع ربطهم بالثقافة الجاهلية المعاصرة أي الثقافة الغربية. إنهم لا يدركون أنها حرب فكرية ونفسية وأخلاقية شرسة، تحركها أحقاد وأطماع! كما أشار إليه سبحانه بقوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْ﴾.[١] ومن بين خططهم للانتصار في المعركة ضد المسلم خطة بثُّ كَمٍّ هائل من الشبهات والأباطيل ليتشكك في إسلامه، فيفقد بذلك أهم أسلحته الوجوديّة!

ولو أن الشباب يدركون هذه الحقيقة (وهي حقيقة مرعبة لمن له اطلاع)، فلا شك أنهم سيكونون بمنأى وبشكل كبير جدًا، عن التأثر بالخطاب الإلحادي بمختلف تجلياته، حتى وإن لم تكن لديهم المهارة المعرفية لإدراك مواطن الخلل والزيف والخداع في تلك الأطروحات، والرد عليهم بشكل مفصل وقاطع. ولكن، للأسف، كثيرون ينخدعون بالشعارات البرّاقة والكلام الفضفاض، ويثقون بهؤلاء الرُّويبضات والدجاجلة الذين يُظهرون أنفسهم ويقدمهم الإعلام على أنهم باحثون ومفكرون، ومجتهدون ومجددون!

---

(١) البقرة: ٢١٧.

وإنما يجهل الشباب اليوم الباطل في كلام المبطلين، بمختلف أشكالهم واتجاهاتهم، لجهلهم بالحق، إذ لو عرفوا الحق لعرفوا الباطل وأهله ودعاته، كما سيعرفون الحق وأهله ودعاته. ولهذا كان من أهم مقاصد النبوات بيان الحق وأصوله وأهله، وبيان الباطل وأصوله وأهله، من أجل التفريق بين فسطاط الإيمان والطاعة والاستقامة، وفسطاط الكفر والنفاق والضلال، كما قال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.[١] أي أن الله سبحانه يقصد قصدًا لكشف الباطل وأصوله وآثاره ودوافعه، لماذا؟ لكي تنجلي حقيقة المجرمين المبطلين أمام أهل الحق وأتباعه. ولذلك ما زال القرآن يجادل أهل الكفر والنفاق والشرك والإلحاد، ويكشف دوافعهم وخبثهم، ويبرهن على ضلالهم وسفه عقولهم، ويتوعدهم بالمصير الوبيل بعد الموت في عالم الخلود، لأن الأمر جدٌّ ليس بالهزل، وحق لا يحتمل العبث والمجون كما يريد أن يعيش فيه الذين لا يعقلون!

والمقصود بيان أن على المسلم ألا يلعب بدينه وعقيدته، فإن الأمر جدٌّ ليس بالهزل، وقد رأينا الناس لا يخاطرون بالشيء التافه من حطام الدنيا، فكيف يستقيم في ميزان العقل أن يخاطر المرء بمستقبله الأبدي! خصوصًا وأن الأمر ليس بالصعب المتعسر ولا بالغامض المتعذر، بل يكفي أن يخلص المرء نيته في طلب الحق، ثم يشمّر عن ساق الجد في البحث والسؤال والتحصيل، وما كان الله سبحانه ليرد طالب الحق بالحق أبدًا.

---

(١) الأنعام: ٥٥.

غيـر أنّـه يجـب التنبيـه إلـى أنّ الملحـد يحـرص دائمًـا علـى تتبـع الشـبهات والاعتراضات، ويفتح لها أبـواب نفسـه وقلبـه، لإقنـاع عقلـه البـاطن بـأن إلحـاده قـائم فعلًا على أدلة صحيحة، وأن وجود إله خالق عليـه علامـات اسـتفهام قويـة! وفي هـذه الغمرة والسكرة والانفعال العاطفي ينسى بأن القضية ليست عدم وجود أدلـة أو عـدم كفايتها، بل كـل مـا في الأمـر أنـه هـو شخصـيًا لا يريـد أن يقتنـع، وأن تشـرّبه للشـبهات والمغالطـات، بالإضـافة إلـى انغماسـه في أوحـال المعاصـي والشـهوات أبـرز أسـباب مشكلته، كما قال رسول الله ﷺ: «تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُـودًا عُـودًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَـاءُ، حَتَّـى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ: عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتْ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَالْآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ». [١]

القضية -إذن- ليس عدم وجـود أدلـة أو عـدم كفايتهـا، بـل بفعـل الانغمـاس في أوحال المعاصي وتشرّب النفس للشبهات تتشكل على عـين العقـل والقلـب غمامـة سوداء، فلا يعود يرى الحق حقًا ولا الباطل باطلًا، بل يرى الباطل حقًا والحق بـاطلًا، ومن ثم لا تستطيع روحه أن تتلقى إيحاءات ودلالات الكون والحيـاة، ولا يقـدر بعـدُ على تذوق الجمال في مسارح الأرض وآفاق السماء. وهذا يرجع إلى العلاقـة الوثيقـة بين باطن الإنسان وظاهره، بين فكره وقناعاته وسلوكاته ونشاطاته، فـ «البـاطن أصـل

---

(١) النساء: ٦٥.

الاستقامة ومنبع الصلاح والفساد لجميع الأعمال».[١] ولهذا تجد جمهور مفكري وفلاسفة الغرب منحرفين في سلوكاتهم بسبب انحراف أفكارهم وعقائدهم وتصوراتهم، قال نايجل رود جرز : «إن تصرفات الفلاسفة الخاصة السيئة حينًا والمحزنة حينًا آخر، والمجنونة في أحيان أخرى، ربما لا تكون تمامًا «مجموعة من الذكريات الشخصية اللاإرادية»، لكنها من النادر أن تكون مفصولة تمامًا عن تفكيرهم. إن حياتهم تؤثر وتساهم بتشكيل أفكارهم بشكل مباشر أحيانًا».[٢] ولهذا دعا مؤرخ الفلسفة وليم كلي رايت إلى ضرورة مراعاة الجانب الشخصي والسياق الاجتماعي الذي يعيش فيه في تحليل فلسفة كل فيلسوف، فقال: «يجب أن ننتظر إلى كل فيلسوف على أنه مفسر للزمان والمكان الذي عاش فيه، فأفكاره تعبير بطريقة ما عن نظرة عصره العلمية والدينية والأخلاقية والاقتصادية.. لابد أن توضع الحياة الخاصة لكل فيلسوف وشخصيته في الاعتبار.. إن فلسفة كل فيلسوف عظيم هي الجزء الأكثر أهمية من سيرة حياته، فكل ما يكون عليه بالطبيعة والتربية وكل ما يخبره، يثري فهمه للإنسان والكون، لأن فلسفته هي تفسير لحياته، كما أنها تكشف عن أي نوع من الإنسان يكون».[٣] بل حتى في التاريخ الإسلامي وقع كثير من المتكلمين والفلاسفة والصوفية في الانحرافات العملية لما انحرفت بواطنهم بمعارضة الوحي والتعالي عليه وعدم استقرار الإيمان في قلوبهم. قال شيخ الإسلام

---

(١) شفاء السائل. عبد الرحمن ابن خلدون ص٤٠.

(٢) جنون الفلاسفة ص١٨.

(٣) تاريخ الفلسفة الحديثة ص٣٣.

ابن تيمية: «ولهذا تجد كثيرًا من هؤلاء لما لم يتبيّن له الهدى في طريقه، نكص على عقبيه، فاشتغل باتّباع شهوات الغي في بطنه وفرجه أو رياسته وماله ونحو ذلك، لعدم العلم واليقين الذي يطمئن إليه قلبه، وينشرح له صدره».[1] وقال الإمام أبو القاسم الأصبهاني: «وهل رأى أحد متكلمًا أدّاه نظره وكلامه إلى تقوى في الدين، أو ورع في المعاملات، أو سداد في الطريقة، أو زهد في الدنيا، أو إمساك عن حرام وشبهة، أو خشوع في عبادة، أو ازدياد في طاعة إلا الشاذ النادر. قل: لو قلبت القصة كنت صادقًا، تراهم أبدًا متهمكين في كل فاحشة ملتبسين بكل قاذورة لا يرعوون عن قبيح ولا يرتدعون من باطل إلا من عصمه الله».[2] والغرض الإشارة أن السلوكيات والأفكار تتفاعل فيما بينها، خيرًا أو شرًّا، استقامة أو انحرافًا، ومن هنا وجوب مراعاة هذا المعطى والتعامل معه بالجدية التي يستحق.

غير أنني لا أعتقد أنه يلزم كل مسلم معرفة تفاصيل الردود على الشبهات المختلفة، التي يروجها المناوئون للإسلام، من ملاحدة وعلمانيين ونصارى ونسويات وغيرهم، لأن ذلك يقتضي العلم المفصل بالشريعة ومعطيات الوحيين (القرآن والسنة)، وهذا أمر يحتاج لفراغ وهمة وزمان، ومعلوم أن ذلك ليس متاحًا لكل مسلم، خصوصًا في عصرنا الحاضر. ولذلك كان معرفة ما جاء به الرسول ﷺ في العقيدة والأحكام مفصلًا فرضًا على الكفاية، أما عموم المسلمين فهم مأمورون بالعلم المجمل الذي يقيمون به دينهم، لكي لا يقعوا في نواقض الإيمان وأوحال

---

(١) درء تعارض العقل والنقل ج١ ص١٦٥.

(٢) الحجة في بيان المحجة ج٢ ص١٢١.

البدع، ولكي يعبدوا الله تعالى على نور وبصيرة وبما جاءت به السنة، كما قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾.(١)

وهذا لا ينفي ضرورة وأهمية أن يحرص المسلم على اكتساب أصول معرفيّة كلية، يستعين بها على رد الأباطيل والشبهات ردًا مجملًا. إذ ليس يُعقل ولا يُقبل من المسلم أن يجعل عقله وقلبه مثل الإسفنجة التي تتشرّب كل ما يقع عليها من السوائل، صالحة أو فاسدة، مفيدة أو ضارة، فهذا يدل على الغفلة واللامبالاة، وأكثر الناس ضلوا عن الحق ووقعوا في الباطل، ليس لعجزهم عن معرفة الحق والباطل، بل لعدم مبالاتهم أصلًا وانصرافهم إلى اتباع أهوائهم وشهواتهم، كما قال الإمام ابن الوزير اليماني: «علمت بالتجربة الضرورية في نفسي وغيري، أن أكثر جهل الحقائق إنما سببه عدم الاهتمام بتعرفها على الإنصاف لا عدم الفهم، فإن الله -وله الحمد- قد أكمل الحجة بالتمكن من الفهم، وإنما أُتي الأكثر من التقصير في الاهتمام».(٢)

ومن المؤسف جدًّا أن نعترف بأن شريحة واسعة من الشباب المسلم اليوم هم كذلك، ولديهم استعداد للتأثر بشكل سريع ومفاجئ بكل ما يُطرح من الأباطيل والتلبيسات! وإنك مهما قلّبت وجوه الرأي في هذه القضية فإنّك لا محالة تجد صعوبة في استيعابها، إذ كيف يمكن للمرء أن يتخلى عن إيمانه وينتقل إلى الضفة الأخرى بسرعة لمجرد قراءة مجموعة من المنشورات أو مشاهدة مجموعة من

---

(١) الأنعام: ٥٥.

(٢) إيثار الحق على الخلق ج١ ص٣٩٩.

الفيديوهات أو التعرّض لبعض المواقف دون التأمل والبحث ليؤسس لقناعته الجديدة تأسيسًا متينًا! لولا أنك تتذكر أن نفسية هذا الشخص تكون مهيّأة فعلًا للسقوط قبل السقوط! كما أشارت الآية في معرض دفاع إبليس لعنه الله عن نفسه ضد أتباعه: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم ﴾.[1] فهو يخبر أنه لم يجبر أحدًا على الكفر والضلال، ولم يكن له أصلًا سلطان ذلك، وإنما فقط دعا إلى الكفر والضلال بفنون من القول والزخرفة والتزيين والشعارات، فاستجاب له مَن هو مستعد لتقبل ذلك منه!

ولهذا دائمًا أحذر الشباب من التعرّض للفتن الفكرية والشبهات العقدية التي يدأب الملاحدة والمفسدون في الأرض في نشرها وإشاعتها وترويجها بمختلف الوسائل والأساليب، في وسائل التواصل وقنوات اليوتيوب، فضلًا عن البرامج والوثائقيات والأفلام، وكذلك كتابات الملاحدة المتخفين. فقد رأينا شبابًا من الجنسين كانوا على خير، ثم استزلّهم الشيطان فدخلوا مجموعات وصفحات وقنوات إلحادية، أو قرأوا لبعض رؤوس الإلحاد المتخفي بداعي معرفة ما عند الآخر، أو بدافع حب هداية الآخر، فإذا بهم يسقطون في الفخ الذي نصبه الشيطان لهم، فبدأت الشكوك تغزو عقولهم ونفوسهم، ثم كانت خاتمة القصة أنهم ارتدوا عن الإسلام وتحولوا إلى الإلحاد والكفر، أو في أحسن الأحوال لم يستطيعوا التحرر من ضغط الشكوك والتلبيسات التي تطاردهم من كل جانب!

---

(١) إبراهيم: ٢٢.

(٩) ضرورة تعزيز اليقين

ولأجل ذلك، من المؤكد أن المؤمن ليس يحتاج في أزمنة الفتن وشيوع الشبهات، مثل عصرنا الحاضر، ما يحتاج لتقوية اليقين وتعزيزه وترسيخه. فمن الناس مَن يرى نفسَه قوي اليقين، فإذا ضغطته بعض الضغوط، كمرض طويل أو فقدان وظيفة أو موت عزيز، وما كان بسبيل هذا، اهتز يقينه وتضعضع إيمانه! ومنهم من يرى نفسَه راسخ اليقين، حتى إنه يتوهم أنه لو أقسم على الله لأبرّه، فإذا عُرضت عليه شبهات وتلبيسات، دهش واحتار، واهتز واضطرب، ثم أسلم مقاد نفسه للشكوك، فلا يزال الشيطان يتلاعب به تلاعب الصبيان بالكرة حتى يخنقه في أوحال الكفر والإلحاد!

ولقد بيّن الله تعالى في القرآن الكريم، أن الإنسان قد يبدو أنه مؤمن بالله تعالى وملتزم طريق الحق والاستقامة، ولكن بمجرد أن ينزل به قدر غالب أو يقع له حدث ضاغط أو تعرض له شبهات خالبة، يأخذ الشك بخناقه وتضربه الحيرة بسياطها، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾.[1] أي من الناس مَن هو ضعيف اليقين قليل الإيمان لا يصله بالله تعالى إلا خيط رقيق، يدّعي العبودية لله تعالى ما دامت شؤونه الدنيوية صالحة كما يريد، أما إن أصابته فتنة من المكاره المختلفة أو شبهة من الشبهات، انخلع من ربقة الإيمان فخسر الدنيا والآخرة!

---

(١) الحج: ١١.

ولهذا نجد أن قراءة الفاتحة واجبة في الصلوات الخمس؛ لأنّ من أعظم ما تتضمنه هو طلب الهداية والثبات على خط الاستقامة: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾.(١) والهداية المقصودة هنا قسمان، هداية البيان والتفهيم، وهداية التثبيت والتأييد، فكلاهما ضروري للعبد مادامت روحه في جسده، إذ لولا هداية التفهيم لسقط في الابتداع بدون أن يشعر، ولولا هداية التثبيت والحفظ لزلّت قدمه وضل سواء السبيل.

إذن لابد أن يعتني المسلم المعاصر بتعزيز اليقين في عقله وقلبه، ليحفظ على نفسه دينه وعقيدته وعلاقته بخالقه سبحانه، إذ إن زوال اليقين من العقل والقلب له أضرار ونتائج وخيمة، وليتها كانت تقتصر على الدنيا، إذن لهان الأمر، بل إنها تمتد لتشمل مصير العبد في عالم الآخرة الأبدي! من أجل ذلك كان اليقين مطلبًا شرعيًا أصيلًا. فإذا نظرنا في تعاليم البيان القرآني والنبوي، وفي تفاصيل الإبداع التكويني في الوجود، سنكتشف أنّ من أبرز المقاصد المنشودة من ذلك، هي ترسيخ اليقين في كيان المسلم، إدراكًا وشعورًا. يقول الحق تبارك شأنه: ﴿قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴾.(٢) ﴿ وَفِي خَلۡقِكُمۡ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾.(٣) بل إنّ الله تعالى كشف لإبراهيم ﷺ أسرار الملكوت السموات للترقي في مراتب اليقين: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴾.(٤)

---

(١) الفاتحة: ٦–٧.

(٢) البقرة: ١١٨.

(٣) الجاثية: ٤.

(٤) الأنعام: ٧٥.

ولا يمكن للمسلم تعزيز اليقين قبل أن يعرف طرق تحصيله لحماية عقيدته وحراسة إيمانه من الضعف والترهل والتلاشي، خصوصًا في هذا العصر حيث انفجرت الشبهات والشهوات. وإذا كان حفظ الدين أحد المقاصد الكبرى للشرائع والنبوات، كما هو معلوم في درس أصول الفقه ومقاصد الشريعة، فيجب أن يكون الأمر كذلك في حس المسلم.

وطرق تعزيز اليقين متنوعة نجملها باختصار في التالي:

أولًا.. الإكثار من تقليب النظر والفكر في ملكوت الكون والحياة مباشرة أو عبر مشاهدة البرامج الخاصة بذلك أو القراءة في الكتب، ولذلك أمرنا الله تعالى بالنظر في بدائع الخلق: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾.[١]

ثانيًا.. الإكثار من المطالعة والتّبصر في البيان القرآني والنبوي، ولذلك أمرنا الله تعالى بالتفكر في معاني الشريعة وأسرارها وحكمتها: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.[٢] إذ هذا التبصر جدير أن يؤكد على أن هذا الدين هو دين الحق.

ثالثًا.. الحرص على الاستقامة بالتزام الفرائض والسنن والنوافل، والسير في درب الصالحين، وهذا أحد أسرار اقتران الإيمان بالصالحات في البيان القرآني: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ﴾.[٣] لأن للمعاصي ظلمة في العقل والقلب.

---

(١) يونس: ١٠١.

(٢) النحل: ٤٤.

(٣) البقرة: ٨٢.

رابعًا.. الحرص على مطالعة تاريخ الإنسانيّة لمشاهد تصاريف الأقدار الإلهيّة، فمن نظر في التاريخ نظر اعتبار حصّل يقينًا عظيمًا، ولذلك أمر الله تعالى به: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا ﴾.[1] لأن التاريخ مسرح تجلّيات الأسماء والصفات.

خامسًا.. التفكر في نعم الله تعالى المختلفة على العبد خاصة والناس عامة، سواء ما تعلق بالنعم المادية أم النعم المعنوية، وفي تصاريف الحياة اليومية. فهذا التفكر يمنح معرفة واسعة برحمة الله وفضله وقدرته. ولهذا يلفت الله تعالى نظر المسلم إلى كثير من النعم.

فكما ترى، فإن مغذّيات اليقين ومقوّياته لا تقتصر على شيء واحد ولا تنحصر في شيء واحد، بل هي مجموعة من العناصر التي تتفاعل فيما بينها، بحسب تنوعها وثرائها وعمقها ومداها، لتدعم اليقين في العقل والقلب، وتحفظه من هجمات الشكوك والشبهات.

والحقيقة أن هذه هي غاية اليقين وثمراته، أي **(الترقي في معرفة الخالق سبحانه)**. و**(الثبات على خط الاستقامة)**. و**(الاعتصام من زيوف الشبهات)**. ولهذا لما أرى الله سبحانه سيدنا الخليل إبراهيم ﷺ عجائب ملكوت الكون، علّل ذلك بأنّه لأجل أن يترقى في مدارج اليقين إلى أقصى ما يمكن: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴾.[2] ففهمنا من ذلك، أن اليقين بما أنه مطلب

(١) آل عمران: ١٣٧.

(٢) الأنعام: ٧٥.

للأنبياء والمرسلين، لا جرم أن يكون كذلك بالنسبة لأتباعهم وعموم المسلمين. كما أن اليقين ليس مطلبًا لدرء الشبهات والاعتصام من تأثيراتها فقط، بل هو مطلوب ومرغوب أيضًا حتى للاعتصام من ضغط ظروف الحياة وشدائد الأقدار، ولهذا كان رسول الله يقول في دعائه: «اللَّهمَّ اقسِم لَنا من خشيتِكَ ما يَحولُ بينَنا وبينَ معاصيكَ، ومن طاعتِكَ ما تبلِّغُنا بِهِ جنَّتَكَ، ومنَ اليقينِ ما تُهَوِّنُ بِهِ علَينا مُصيباتِ الدُّنيا».[١]

لكن؛ حين ندعو لليقين وضرورة تعزيزه في العقل والقلب، يظن كثير من الشباب أننا ندعو لليقين المطلق النهائي، بل كثير منهم يبحثون عن هذا اليقين الذي ليس وراءه مثقال ذرة من اليقين!

والواقع أن هذا سوء فهم للقضية، فاليقين والطمأنينة العقلية والقلبية لا يمكن أن تتحقق للعبد بشكل نهائي، بل يحصل عليه بشكل متدرج، لأن اليقين والطمأنينة في حقيقة الأمر خبرة تجمع بين الجانب العقلي والجانب النفسي، ومعلوم أن الخبرة إنما تكون عبر الزمن وعبر مراحل مختلفة، ثم يظل كذلك بلا نهاية، بحيث لو عاش هذا المؤمن ألف عام في طاعة الله تعالى، فإنه سيظل يترقى في مدارج اليقين والطمأنينة بلا انقطاع وبلا وصول للمرتبة النهائية والأخيرة، لأنها أساسًا غير موجودة ولا يمكن أن تكون موجودة.

نؤكد على هذا الكلام، لأن اليقين والطمأنينة مرتبط بالله سبحانه، والله سبحانه له الكمال المطلق في ذاته وأسمائه وصفاته، وإذ كان الأمر كذلك، لم يكن ممكنًا للمخلوق المحدود أن يصل إلى هذا اليقين المطلق وهذه الطمأنينة النهائية، لأن

---

(١) سنن الترمذي.

المحدود لا يمكن أن يحيط باللامحدود، والمخلوق لا يمكن أن يحيط بالخالق، وانتفاء الإحاطة هنا لا ينفي قابلية العقل للإدراك المتواصل بلا نهاية، فـ «العقل يدرك المعلومات، والمعلومات لا يُتصور أن تكون متناهية. نعم، إذا لاحظ العلوم المفصلة فلا يكون الحاضر الحاصل عنده إلا متناهيًا، لكن في قوته إدراك ما لا نهاية له».[1] ولذلك سيظل المؤمن في الجنة، يترقى باستمرار أبدي في معرفة الله ومحبته وتعظيمه، لما ينكشف له من كماله وجلاله وجماله وعظمته، لأن «الإنسان مرآة لتجليات لا نهاية لها لأسماء رب العالمين، لذا فقد مَنحت قواه استعدادًا لا نهاية له»، كما يقول سعيد النورسي.[2] وبما أن اليقين والطمأنينة مرتبطان بالمعرفة بالله تعالى، فاليقين والطمأنينة يزيدان في الجنة إلى أبد الآبدين، قال أبو حامد الغزالي: «منازل السائرين إلى الله تعالى لا تنحصر».[3] وقال ابن جزي الغرناطي: «الارتقاء في المقامات لا نهاية له».[4]، وهذا لما قلناه من أن ذلك مرتبط بالله سبحانه وهو تبارك شأنه له الكمال بلا حدود ولا قيود. علمًا أن المؤمن الموقن رغم ارتقائه المتواصل الدائم في مدارج اليقين والطمأنينة والإيمان بلا نهاية، فإنه في كل مرحلة وفي كل مرتبة يكون معه من اليقين والطمأنينة والإيمان ما يظن أنه ليس وراءه مثقال حبة.

الأمر هنا يتعلق بتفاصيل اليقين، أما الأصل فيشترك فيه المؤمنون جميعًا، فكل مؤمن معه شيء من اليقين ولابد، لكن اختلاف مراتبهم ومنازلهم فيه مرتبط

---

(١) مشكاة الأنوار. أبو حامد الغزالي ص١٢٦.

(٢) المكتوبات ص٤٠٠.

(٣) ميزان العمل ص٢٠٧.

(٤) التسهيل لعلوم التنزيل ج١ ص٥٠.

بالتفاصيل وثراء الخبرة الإيمانية وتكاثر موارده وأدلته وقلتها. فزيد الذي يعيش في مكة يشترك مع عمر في معرفة مكة، رغم أن عمرًا لم يزرها قط وإنما سمع أو قرأ عنها مثلًا، لكن زيدًا له من العلم بتفاصيل مدينة مكة ما ليس لعمر، لأن هذه التفاصيل تحتاج لزيارة ميدانية ومباشرة، كما أنها تحتاج لظرف زمني معتبر. فكذلك الأمر في مسألة اليقين والإيمان، والله أعلم.

والواقع أن بعض الشباب تسيطر عليهم فكرة اليقين الكامل والطمأنينة النهائية، جهلًا منهم بما ذكرنا، ومن ثم تكون هذه الفكرة من مفاتيح الشيطان ليجول ويصول في عقولهم وقلوبهم! وأعرف حالات من هؤلاء! ولهذا على الشباب أن يهتموا بما يزيد يقينهم قوة وأن يركزوا على ما يزيده رسوخًا في عقولهم وقلوبهم، كالإخلاص، والتزام الطاعات، والرفقة الصالحة، وتحصيل العلم القرآني والنبوي، والابتعاد عن مواطن الفتن بمختلف أشكالها، المادية والمعنوية، وأن يحذروا من موهّنات اليقين، كالغرور العلمي، وركوب المعاصي والغفلة، وحشو العقل والقلب بمقالات أهل الضلال والتحريف، والهجوم على مواطن البلاء، والانغماس في طلب الدنيا.

* * * *

(١٠) سبل التخلص من تأثير الشبهات

سألني بعض الشباب الذين عادوا إلى الإسلام بعد مدة قضوها في الإلحاد: (كيف أتخلص من رواسب الشبهات الماضية، فرغم أنني صرت أدرك أنها مغالطات وأباطيل، إلا أنني لا أستطيع التخلص من ملاحقتها باستمرار!). والجواب بإذن الله هو:

الخطوة الأولى: من المهم جدًّا أن يستحضر العائد إلى الحق أن معركته لم ولن تنته، بل هو -باعتباره صار من أنصار الحق- في جهاد مستمر ضد إبليس اللعين، العدو الخفي. لقد كشف القرآن الكريم بوضوح أن إبليس أقسم أنه لن يترك ابن آدم لشأنه ما دامت روحه في جسده، ولذلك سيبذل كل ما في وسعه لإضلاله وتزيين الباطل له وتنفيره من الحق، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾،[1] وقال سبحانه في بيان قسم إبليس وإصراره على إضلال ابن آدم: ﴿قَالَ أَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ﴾.[2] فلإبليس حقد بالغ على العائد من الإلحاد إلى الإسلام، لأنه تحرر من زيوفه وخداعه وأباطيله، فلا عجب أن يحرص على محاولة رده إلى حظيرة الكفر، عبر بثّ كثير من الشبهات في نفسه.

الخطوة الثانية: التي يحسن بالعائد إلى الإسلام أن يحرص عليها هي ضرورة الابتعاد عن مواطن الشبهات، من مواقع، منتديات، فيديوهات، حسابات وصفحات، وكتب ومقالات. وذلك لأن بقاء الارتباط بهذه المواطن، لا شك أنه عنصر قوي في منع تحقيق البراءة الكاملة من زيوف الباطل ومكر الإلحاد والملحدين، ومعلوم أن المريض يحتاج لفترة نقاهة. وهذا القول ليس لأن ما يقوله هؤلاء وينشرونه له قيمة في ميزان الحق، فليس معهم سوى المغالطات والتخييلات، كما يدرك ذلك الباحثون

---

(١) البقرة: ٢٠٨.

(٢) الأعراف: ١٤-١٧.

والمطلعون، وإنما لأن الإنسان غير المطلع يكون عقله وقلبه أشبه بالبيت المفتوح الباب، يستطيع كل من هب ودب أن يدخله، فكذلك من ليس له زاد شرعي ومعرفي جيد لا جرم أن تنطلي عليها الشبهات والمغالطات حتى وإن كانت في نهاية السخف والسذاجة! وليس يعيب المرء إن لم يكن عالمًا أن يفر بدينه من الفتن، ولهذا نقل الإمام الذهبي عن السلف شديد تحذيرهم من الاستماع للشبهات والاسترسال معها، ودعوا لضرورة الإعراض عنها وعدم المبالاة بها، لأنّ «القلوب ضعيفة والشُّبَه خطّافة».[١]

الخطوة الثالثة: من الواجب على العائد إلى الإسلام -بل وكل مسلم عاقل- أن يحرص على الابتعاد عن رفقة السوء والتائهين الشاردين، الذين لا يبالون لماذا خُلقوا ولا يبالون بمصيرهم الأبدي! بل عليه -إن نصح لنفسه- أن يلزم صحبة صالحة، في عقلها وسلوكها والتزامها. وكل هذا لأن الطبع سرّاق، والنفوس تتأثر ببعض بشكل خفي وغامض، في الخير والشر، ولهذا ما زالت الحكماء والصالحون يوصون بالرفقة الصالحة وينصحون بها. أما حين يُبقي الشاب العائد إلى الإسلام على علاقته بأصدقاء الإلحاد والضلال والشكوك، بدعوى (نحن أصدقاء ولكل واحد منا قناعاته الخاصة)، فلا شك أنه يكون بذلك على خطر عظيم من الردة مرة أخرى إلى ظلمات الإلحاد، إذ لابد من نقاشات -ولو أحيانًا- حول الإسلام والإلحاد، لأنه الآن صارت له حماسة للدفاع عن عقيدته الجديدة، ورفقاؤه بالضرورة سيحرصون على اختبار قناعته الجديدة، فإذا لم يكن لهذا الشاب زاد جيّد

---

(١) سير أعلام النبلاء ج٧ ص٢٦١.

من العلم الشرعي والمعرفي، تختلط عليه الأمور، وهنا يكون قد فتح على نفسه تارة أخرى أبواب عواصف شكوك وشبهات عاتية!

الخطوة الرابعة: في عصر انفجرت فيه براكين الشبهات من كل حدب وصوب، مثل عصرنا، حيث لم تعد تلك الشبهات دائرة في أروقة البحث العلمي والأكاديمي، بل بفعل أجندات وعوامل متشابكة، صار القائمون على هذه الشبهات والشكوك ينشرونها بمختلف الوسائل حتى بين الأطفال والمراهقين والأميين. كل هذا يستدعي ويفرض على المسلم -الذي ينشد الخير لنفسه ويحترم دينه وعقيدته- أن يحرص على تحصيل العلم الشرعي والعلمي والثقافي ما يساعده -بإذن الله- على الاعتصام من مفتريات وأباطيل الملحدين وغيرهم. فهو -شاء أم أبى- يتعرّض لقصف متواصل وتُشنّ عليه معركة شرسة لتغيير القناعات، ولذلك لا حل له سوى أن يجعل طلب العلم -والاطلاع على مفاهيم العقيدة الإسلامية وأسس الديانة الإسلامية، وشيء مما يروج في أروقة الفكر والعلم والثقافة اليوم- ضمن برنامجه اليومي، كما أنه يحسن جدًّا الالتحاق بالدورات التكوينية، القصيرة والطويلة، سواء في قضايا الإلحاد أم في مباحث العلوم الشرعية. ذلك لأن العقل الجاهل لا حصانة له، بل يمكن التلاعب به دون أن ينتبه، بل ويمكن أن تُغرس فيه أفكار مغلوطة ومعلومات مزيّفة يتبنّاها وهو يحسب أنه ذكي نبيه!

الخطوة الخامسة: من أهم الأمور التي يغفل عنه كثيرون -وليس فقط العائدون إلى الإسلام والإيمان- أن الالتزام الصحيح والاستقامة الواعية من أعظم مؤيدات الإيمان في العقل والقلب. فالتطبيق العملي للأفكار والعقائد في واقع الحياة

ونشاطاتها وعلاقاتها وأهدافها، عنصر فعّال في ترسيخ هذه الأفكار والعقائد وتقويتها وحراستها ضد مؤثرات الزيوف والمفتريات والأباطيل. ولهذا وجدنا القرآن الكريم في عشرات المواضع دائمًا يقرن بين الإيمان والعمل الصالح، وقد كان السلف الصالح -على نباهة عقولهم وصفاء نفوسهم وسعة علومهم- أشد الناس التزامًا وتعبّدًا واستقامة، وذلك لإدراكهم أن العمل والتطبيق يمثّل -ضمن مجموع فوائده- جدار حماية لعقائدهم ودينهم ضد التأثر بشهوات الدنيا والانسياق مع دعوات الضلال والشبهات. وإذ كان المتديّن بلا علم يسير في طريق السقوط، فإن المتعلم بلا تديّن على شفا السقوط!

الخطوة السادسة: أحد أهم وأعظم الأمور التي يجب على العائد إلى الإسلام والإيمان إدراكها مبدئيًا -ليعمل على استيعابها تفصيلًا لاحقًا- والالتزام بها وتذكرها دائمًا، هو أن الإسلام ليس كباقي الأديان ذات الأصل السماوي أو الأديان الوضعية لمجرد القاسم المشترك بينه وبينها، أعني أنه دين وهي دين. بل الإسلام منظومة متكاملة الأركان، متماسكة العناصر، متعددة الأبعاد. أي إن الإسلام له أسس ومبادئ وكليات، منها انطلق في تأسيس مختلف تعاليمه في العقيدة والقيم والعبادة والتشريع، وبدون فهم تلك المبادئ والكليات والأسس، بل يستصحب العائد إلى الإسلام مفاهيم إلحادية، علمانية، ماركسية، ويحاول فهم الإسلام تحت ضوئها، فمن العسير جدًّا أن يفهم بناءه العقدي والشعائري والقيمي والتشريعي. وهذا ما يجعل الإسلام متفرّدًا عن مختلف الأديان والمذاهب الكبرى، كالمسيحية والعلمانية والماركسية.

الخطوة السابعة: على العائد إلى الإسلام -والشباب المسلم عمومًا- أن يتعلم طريقة التفكير القرآنية، وهي ألا يتقبل وألا يُسلّم بكل ما يقرأه أو يسمعه من الاعتراضات والشبهات والتشكيكات، حتى وإن كانت تتضمن اقتباسات قرآنية أو نبوية أو من تراث علماء الأمة، بل عليه أولًا أن يطالب بالدليل، بعد أن يعرف مراتب الأدلة وكيفية بناء الدليل، كما أن عليه أن يتحقق دائمًا من اقتباسات الملاحدة والنصارى والعلمانيين، فكثير منهم لا يتورّعون -وأنّى لهم ذلك!- عن الكذب والاختلاق والبتر، أما العودة إلى المصادر فتكشف سياق الكلام وهل هو حقًا موجود أم لا؟ وإذا كان هذا الأسلوب، أعني أسلوب البتر والكذب والتزوير، موجودًا بين شريحة من «الأكاديميين» فما بالك بملاحدة وسائل التواصل والمنتديات والمواقع! وهذا شيء جرّبته شخصيًّا مع بعضهم، مع الإشارة إلى أنّ بعضهم لا يعرف سوى عملية النسخ واللصق!

في تصوري أن هذه الخطوات السبعة -وقد عرضتها باختصار- من أهم ما ينبغي على العائد إلى الإسلام تذكرها، وهي مهمة في المساعدة على التحرر من ضغط الشبهات الإلحادية أو غيرها. ومن الخطأ البالغ أن يظن العائد أنه بمجرد عودته إلى الإسلام صار بمنأى عن معاودة تأثير الشبهات عليه، ومن ثم صار قادرًا على خوض لجة هذا المعترك! إن كل نقلة تقتضي من العاقل الابتعاد عما كان عليه، ليعطي لنفسه فرصة مناسبة للتأمل، سواء في مكامن الخطأ والخلل فيما كان عليه، أو في الحقائق التي كانت غائبة عنه فيما صار إليه، أو في ترسيخ معاني القناعة الجديدة.

❋ ❋ ❋ ❋

(١١) ترحيب الإسلام بالسؤال

وهنا سؤال قد يرد على بعض القراء وقد قرأ هذا الفصل عن الشبهات والتحذير منها، بل قد طُرح فعلًا، وهو: هل هذا يعني أن الإسلام يُحرّم السؤال؟ وأن على المسلم أن يبتعد عن طرح الأسئلة؟

والجواب هو أن طبيعة الإسلام لا يمكن أن ترفض السؤال، بل بالعكس، الإسلام يرحب بالسؤال، ويقدّره ويحترمه، بلا حدود ولا قيود، بل يحثّ عليه ويدفع إليه، وإنك مهما نظرت في الأديان المعروفة وموقع السؤال فيها، فلستَ تجد دينًا منها رحب بالسؤال واعترف به فضلًا عن أن يحث عليه كما فعل الإسلام.

إن النظر في سر قبول الإسلام للسؤال واعترافه به، يرجع إلى المعاني التالية:

أولًا. طبيعة الإنسان: يدرك الإسلام أن الإنسان كائن متسائل، أي أنه بطبعه وفطرته متسائل، ومن ثم لا يمكن أن يتوقف عن السؤال. هذه السمة البارزة في الإنسان تبدأ معه منذ نعومة أظفاره، فمنذ صغره وهو يسأل كثيرًا عن كل شيء، ويستمر كذلك خلال مسيرة الحياة وتقدم العمر واتساع دائرة التجارب والخبرات، وبقدر ما يرتقي في مراتب العلوم والمعارف، بقدر ما تتعلق أسئلته بالقضايا الكبرى في الحياة والوجود. وقد أشار القرآن إلى هذه السمة، فقال: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا ﴾.[1] فهذه الآية تشير إلى أن الإنسان وحده من بين سائر كائنات الوجود، الظاهر والباطن هو المخلوق الوحيد الذي يسأل كثيرًا ويجادل كثيرًا، بحكم أن

---

(١) الكهف: ٥٤.

تكـوين شخصـيته تتـدخل فيهـا الكثيـر مـن العوامـل والعناصـر، كـالأهواء والعصـبية والتقاليد والتجارب والثقافة والواقع وغير ذلك!

ثانيًا. فضيلة العلم: فتّش ما شئت من الأديان والملل والفلسفات، فلست تجد منها دينًا ولا ملة ولا فلسفة، قد عظّم العلم وأكبر المعرفة، وأضفى على البحث والتحصيل معاني القداسة والنبل والفضيلة، كما فعل الإسلام، بل إن الإسلام هو وحده من بين سائر الأديان الذي اعتبر أن طلب العلم وتحصيل المعرفة عبادة يؤجر عليها صاحبها إذا أخلص النية لله تعالى، وفعل ذلك ابتغاء معرفة الحق والاهتداء بهديه في نشاطات الحياة. وإذ كان الأمر كذلك، لا جرم أن كان السؤال مرحبًّا به في الإسلام، إذ هو مفتاح المعرفة ومعراج الحكمة وسلّم العلم. ولهذا ما زال علماء الإسلام ينوّهون بفضيلة العلم، ويحثّون على التفرّغ له، ويعظمون البحث فيه، وهذا ما نجده في تاريخ المسلمين الحافل بالدروس والمعاهد والجامعات والمدارس وحلقات التعليم والمناظرة والحوار، ولذلك خصصوا لبيان فضيلة العلم الذي كما قلنا يتضمن السؤال، فصولًا طويلة وكتبًا سائرة ودواوين جامعة.

ثالثًا. حفظ الدين: أحد المقاصد العظيمة والأساسية للنبوات والشرائع الإلهية، مقصد حفظ الدين، وذلك لأن الإنسان أساسًا لم يُخلق إلا لله تعالى، أي لعبادته وطاعته والتزام منهج وحيه وشريعته في تفاصيل الحياة ونشاطاتها، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.[١] وجوهر هذه الغاية المقدسة هو معرفة الله تعالى، وموارد معرفته متنوعة، فهناك الوحي، وهناك الكون، وهناك

---

(١) الذاريات: ٥٦.

التاريخ، وهناك الحياة. ومداخل هذه المصادر ومفاتيحها هو السؤال، فمن لم يتساءل حول نفسه والكون من حوله، وحول مظاهر الحياة وحركة التاريخ، ومن لم يسأل عن العقيدة والشريعة التي جاء بها الوحي، من لم يفعل كيف له أن يعرف الله سبحانه معرفة صحيحة وعميقة! بل إن الذي لا يسأل ولا يتساءل لا يكون بينه وبين الانحراف والابتداع والضلال والإلحاد إلا شعرة واحدة!

وبعد أن بيّنا مصادر ترحيب الإسلام بالسؤال، لابد من ذكر بعض الوقائع العملية للإسلام مع السؤال، وكيف تعامل معه، ونكتفي هنا بالتالي:

أولًا. سؤال الملائكة عليهم السلام: في مجموعة من الآيات ذكر الله سبحانه موقف الملائكة عليهم السلام من إعلامه تعالى لهم عزمه خلق مخلوق جديد يكون خليفة في الأرض، فقال سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾. فماذا كان رد الملائكة؟ لقد كان كما عرضته الآية، وهو: ﴿قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، هكذا ردوا عليهم السلام، رغم أنهم -كما ذكر الله تعالى عنهم في آية أخرى- في العلم والطاعة والخضوع له سبحانه الدرجة الرفيعة! فهل رفض الله العظيم تساؤلهم؟ هل زجرهم؟ الله أعظم من ذلك، بل أجاب عن تساؤلهم وكشف استفسارهم، وبشكل تطبيقية أيضًا، فقال: ﴿قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾.[١]

---

(١) البقرة/ ٣٠-٣١.

ثانيًا. سؤال الأنبياء عليهم السلام: ذكر الله تعالى في الكثير من سور القرآن قصص العديد من الأنبياء عليهم السلام. ومما يلفت النظر في هذه القصص هو ذكر السؤال أثناء حوار بعض هؤلاء الأنبياء عليهم السلام لربهم، بل ومراجعتهم له. فنذكر نبي الله زكرياء لما بُشّر بأنه سيولد له ولد قال: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞ﴾، فكان الجواب: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾.[١] ونذكر نبي الله نوح عليه السلام حين غرق ولده كافرًا: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾، فكان جوابه: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾.[٢] ونذكر نبي الله موسى عليه السلام حين أُمر بالذهاب إلى فرعون: ﴿وَإِذۡ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئۡتِ ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَۚ أَلَا يَتَّقُونَ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ وَيَضِيقُ صَدۡرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَٰرُونَ وَلَهُمۡ عَلَيَّ ذَنۢبٞ فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ قَالَ كَلَّاۖ فَٱذۡهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسۡتَمِعُونَ﴾.[٣]

ثالثًا. سؤال الصحابة رضوان الله عليهم: عندما تطالع السيرة النبوية وحياة الجيل الأول من المسلمين في عصر النبوة، سيلفت نظرك أمر مثير، وذلك هو سؤال الصحابة الكرام للنبي الأكرم، أسئلة معرفية تتعلق بالعقيدة والإيمان، واعترافهم له بما يخالج صدورهم من الهواجس التي تلقيها النفس أو الشيطان، هذا فضلًا عن أسئلتهم ومراجعاتهم له ﷺ في مجالات أخرى. نذكر هنا عندما جاء بعض الصحابة

---

(١) آل عمران: ٤٠.

(٢) هود: ٤٥-٤٦.

(٣) الشعراء: ١٠-١٥.

إليه عليه السلام «فسألوه: إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به! قال: وقد وجدتموه؟ قالوا: نعم، قال: ذاك صريح الإيمان».[١] ولننتبه إلى قوله صلى الله عليهم (وقد وجدتموه؟)، فكأنه عليه السلام كان يتوقع وينتظر من بعض أصحابه أن تهجم عليهم بعض الإشكالات والشبهات، ولم يعتبر ذلك نقصًا في الإيمان ولا طعنًا في الإخلاص واليقين، بل اعتبره (صريح الإيمان)، فهو عليه السلام يدرك أن الإنسان قد يتّسع علمه وفهمه، وقد يعظم إيمانه ويقينه، إلا أنه قد يصادف بعض الإشكالات التي لا يحسن الجواب عنها، ولذلك لم يعنّف هؤلاء المتسائلين ولا زجرهم عن الكشف عما يلم بهم أحيانًا.

بل أعظم من كل هذا، أنك تجد في القرآن الله سبحانه يحثّ نبيه الأكرم ﷺ على أن يسأل ويبحث ويفكر، في ماذا؟ في الوحي نفسه وصميم ما جاء به، هل ما جاءك صحيح أم خطأ؟ حق أم باطل؟ قال تبارك وتعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.[٢] إسأل إذن أهل الأديان والمعرفة من قبلك، لتعلم يقينًا أن ما جاءك هو الحق الذي بشّرت به الأنبياء من قبل، وهو الحق الذي يعرفه أهل الكتاب أنفسهم، وأنك النبي الخاتم الذي انتظرته البشرية الضالة منذ قرون! فكما ترى، فالله سبحانه يذهب مع نبيه -

---

(١) صحيح مسلم.

(٢) يونس: ٩٤-٩٥. الآية لا دلالة فيها في أن النبي ﷺ فعلاً قد خامره الشك، وإنما قصد الآية التوكيد على الصحة والصواب والدقة، ولهذا لما نزلت الآية قال عليه الصلاة والسلام (لا أشك ولا أشك) والله أعلم.

ونحن بالتبع- إلى نهاية المطاف وإلى أقصى ما يمكن، إنه يأذن له إن خامره شك في الوحي المنزل وقيمة شعبه المختلفة، أن يسأل مَن شاء من أصحاب الأديان والمعرفة، وأن يفكر ويبحث فيما أنزل عليه. ثم بعد أن أذن له بالبحث والسؤال ووضع منظومة الوحي تحت المجهر وتسليط الأضواء عليها، أكد له أن ما نزل عليه هو الحق، الحق باعتباره وحيًا، والحق باعتبار الأسس التي بنى عليها الوحي نظامه العقدي والتشريعي. ثم حذره أن الأمر جد ليس بالهزل، وأن الحقيقة واضحة، وعليه أن يتحمل المسؤولية: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾.

إذن، فالسؤال في الإسلام ليس مشكلة، وليس عيبًا، بل كما قلنا، السؤال مرحب به بلا حدود ولا قيود، حتى فيما يتعلق بالجانب العقدي الذي قد يتضمن الكثير من الأمور التي تقصر مدارك العقول عن استيعابها بشكل مفصل. فقد استشكل بعض الصحابة رؤيةَ الله تعالى في الآخرة: «فتَخرُجونَ منَ الأجداثِ من مصارعِكُم فتنظُرونَ إليهِ ساعةً وينظرُ إليكُم قالَ: قلتُ: يا رسولَ اللهِ كيفَ وَهوَ شَخصٌ واحدٌ ونحنُ مِلأُ الأرضِ ننظرُ إليهِ وينظرُ إلينا؟ قالَ: أنبِّئُكَ بمثلِ ذلِكَ في آلاءِ اللهِ الشَّمسُ والقمرُ آيةٌ منهُ قُرَيْبةٌ صَغيرةٌ ترونَهُما في ساعةٍ واحدةٍ، ويَرَيانِكُم ولا تُضامونَ في رُؤيتِهما ولعَمرُ إلَهِكَ لَهوَ على أن يراكُم وترونَهُ أقدرُ منهُما على أن يريانِكُم وتَرونَهُما».[1]

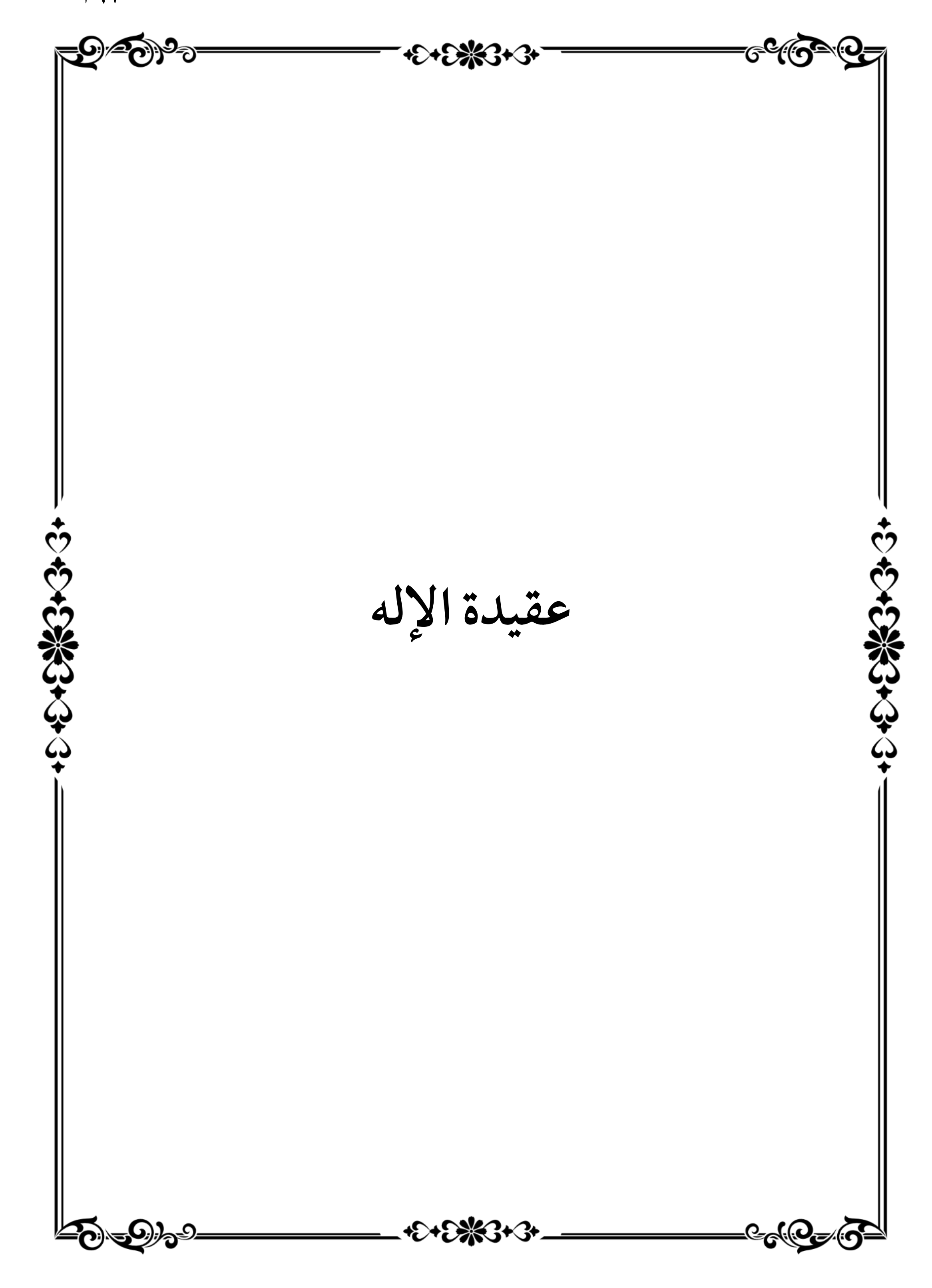
لكن، إذا كان السؤال مرحبًا به في الإسلام، ولا يمكن الحجر على المسلم في

---

(١) صحيح ابن حبان.

أن يطرح ما شاء من الأسئلة، ومن حقه أن يجاب عن كل ما يسأل عنه ويلم بنفسه من الإشكالات والشبهات.. إذا كان الأمر كذلك، والقرآن والسنة والسيرة وحياة الصحابة والعلماء خلال التاريخ الطويل، أدلة صادقة على صحة هذا القول، فإنه من المهم أن أشير هنا إلى أمر ينبغي أن يكون المسلم على ذكر منه، وهو ضرورة ألا يسترسل مع الشبهات. فالشبهات لا يمكن أن تتوقف عند حد، بل دائمًا يمكن للإنسان أن يخترع من الشبهات والإشكالات الشيء الكثير، خصوصًا حين نتذكر أن الأهواء لا حدود لها، وأن الشيطان حريص على إضلال العبد. ومن هنا لابد من التذكير بأهمية أن يكون مع المسلم أصول عامة وكليات جامعة تكون بمثابة القواعد التي يرد إليها كل شيء يعرض له، من نفسه أو يقرأه أو يسمعه من غيره، من الشبهات والاعتراضات والإشكالات. وهذا لا يمكن إلا بالقراءة في كتب أهل العلم الأصلاء. ولابد من التذكير بضرورة الابتعاد عن مواطن الشبهات والتشكيكات، كمواقع التواصل الاجتماعي أو قنوات اليوتيوب أو المنتديات، فضلًا عن الكتب والمقالات، ولكن للأسف الأسيف أنك اليوم تجد المراهق الطائش والشاب التافه لا يتردد في الدخول إلى تلك المواطن وزيارتها يوميًّا، فلا ينتهي الأمر بكثير منهم إلا وقد أغرقهم الشيطان في ظلمات الشكوك والشبهات!

ولك أن تقارن بين حال هؤلاء، وحال أئمة السلف رضوان الله عليهم، إذ كانوا -رغم سعة علمهم، ورجاحة عقولهم، وطهارة قلوبهم- شديدي الحذر من الأهواء والشبهات، والهروب من مواطنها، وهجرة أربابها، وذلك لعلمهم أن القلوب ضعيفة والشبه خطّافة، ولأنهم أرادوا تنبيه أتباعهم إلى خطورة أن يتخذ المسلم دينه وعقيدته غرضًا لنزوات الأهواء وأوهام الآراء.



عقيدة الإله

(١) سلطة فكرة الإله

لا توجد فكرة أو عقيدة لها تاريخ ممتد امتداد البشرية السحيق، ونالت من الاهتمام البالغ حتى إنها لم تفارق قط فكر الإنسان ووجدانه، كما هو شأن فكرة أو عقيدة الإله! فلقد استقطبت هذه العقيدة الإنسان، جاهلًا أم عالمًا، متخلفًا أم متحضرًا، ساذجًا أم ذكيًا، فنحن نجد في سجل تاريخ عقيدة الإله الأنبياء، والصالحين، والملوك، والأباطرة، والفلاسفة، والمصلحين، والشعراء، وما شئت من أطياف الناس وطبقات المجتمع، كما أننا نجد في سجل هذا التاريخ أنها كانت أبرز محركات الأمم والشعوب.

ومع ذلك، لا يتردد الملاحدة المعاصرون في إرسال دعوى عريضة، وهي أن الأصل في الإنسان الإلحاد! وأنّ الإيمان حدث بشكل عارض لدى الإنسان القديم، وبقي كذلك حتى عصرنا، بفعل عوامل ساعدت على ذلك، ولهذا يكون الإيمان وعقيدة الإله من مخلفات طور الإنسان البدائي القديم! وحتى حين يعترف بعضهم بأن الدين ما زال بارزًا في تاريخ الأمم والمجتمعات، فإنّهم يجزمون بأن ذلك لا يعني أن الدين والإيمان قضية صحيحة، أو أن له صلة بالعقل والفكر، بل أقصى حالاته أنها نزوع عاطفي وأوهام نفسية!

ولهذا اعتبر سيغموند فرويد الدين والإيمان مجرد أوهام، بلا أساس ولا منطق، ومن ثم، لا يمكن أن يكون له مستقبل في عصر العقل والعلم والحضارة، رغم اعترافه بأن الدين ما زال مهيمنًا على الإنسان خلال تاريخه الطويل، يقول: «وقد كان

للأفكار الدينية في الأزمنة الغابرة أعظم نفوذ وأقوى تأثير على البشرية، بالرغم من افتقارها بلا مراء إلى الصحة والصدق. وهذه في الحقيقة مشكلة سيكولوجية جديد تُحتم علينا أن نتساءل فيم تكمن القوة الباطنة لهذا المذاهب، وما الظروف التي تدين لها بتلك الفاعلية المستقلة عن رقابة العقل».[1]

وإننا لنعجب كيف لعالم يحترم نفسه أن يجزم بشيء لا دليل صريح عليه ولا مستند صحيح يدعمه، اللهم إلا الرغبة في أن يكون هذا الشيء غير صحيح!

ومع هذا لنا أن نسأل هل الأصل في الإنسان: الإيمان أم الإلحاد؟ ومبرر هذا السؤال أن الإنسان وحده دون باقي الكائنات المشهودة يستطيع ممارسة ثنائية النظر والفعل في مستوى الإيمان أو الإلحاد، ألا ترى كيف أنه الوحيد الذي يستطيع أن يؤمن أو أن يكفر! ألا ترى كيف أنه الوحيد الذي ما زال يخوض جدل الإيمان والإلحاد، والتوحيد والشرك منذ أقدم عصوره وغابره دهوره! ألا ترى كيف أنه الوحيد الذي يمكن أن يمارس الفن ويكتب الشعر ويؤلف الدراما والقصص ويضع القوانين! ألا ترى كيف أنه الوحيد يمكن أن يضحي في سبيل مُثل عليا ومبادئ مقدسة متجاوزًا ذاته وحسه ولحظته! ألا ترى كيف أنه الوحيد الذي يمكن أن يتوفر على كل المتع واللذائذ والشهوات ومع ذلك قد يشعر بالاختناق والاغتراب! ألا ترى كيف أنه الوحيد الذي يمكن أن يتصرف بأخلاقية شفيفة جدًا أو بمادية متوحشة جدًا!

يقول الشاعر السوفيتي فوزنسنسكي مشيرًا إلى هذا المعنى الذي يتفرد به الإنسان من بين كائنات الأرض كافة: «إن كمبيوتر المستقبل سيكون من الناحية

---

(١) مستقبل وهم ص٤٠.

النظرية قادرًا على عمل كل شيء يقوم به الإنسان فيما عدا أمرين: أن يكون متديّنًا وأن يكتب شعرًا». [١] ويقول علي عزت بيجوفيتش: «إذا كان الإنسان حقًا «مصنوعًا على طراز داروين»، وإذا لم يكن يوجد على الإطلاق سند للإنسان ولا مجال لروحه ولذاته، فإن الفن لا مجال له وإن الشعراء وكتّاب التراجيديا يضللوننا ويكتبون هراء لا معنى له». [٢] ولهذا فتدين الإنسان عبر التاريخ المديد وعقيدة الإله والفن والشعر والقوانين والحضارة، هذه كلها ثغرات واسعة جدًا في الرؤية المادية للإنسان والعالم، ولا يمكن أبدًا أن تقدم لها تفسيرًا محترمًا!

❊ ❊ ❊ ❊

(٢) أسطورة أصالة الإلحاد

إنني أعتقد أن قول الملاحدة بأصالة الإلحاد مجرد دعوى بلا برهان، وذلك للتالي:

(أولًا) لو كان صحيحًا أنّ الإلحاد هو الأصل في الإنسان، لوجب بضرورة العقل ألا يتوجّه الإنسان الأول إلى فكرة الإله المطلق، القوي القدير، البر الرحيم، بل بالحري أنه سيظل متمسكًا بإلحاده لأنّه هو الأصل، ويحرص على جلب الأمان لنفسه في إطار إلحاده! وما دام قد توجه إلى فكرة الإله الخالق كما يقول الملاحدة، فهذا يعني بالضرورة أن هذه الفكرة راسخة في كيانه العقلي والنفسي، وأن لديه صورة

---

(١) الإسلام بين الشرق والغرب. علي عزت بيجوفيتش ص٧٩.

(٢) الإسلام بين الشرق والغرب ص١٤٢.

مغروسة في فطرته ووجدانه عن مفهوم الإله، وإلا كيف يتوجه إلى شيء ليس عنده أي رصيد معرفي وشعوري مسبق عنه؟

(ثانيًا) البداهة تدلنا على أن توجه الإنسان لفكرة الخالق العظيم يدل على وجود قابليّة مسبقة للاعتقاد بوجود قوة مطلقة، خارج الوجود ومتجاوزة للإنسان، تستطيع أن تمنحه الأمان والسلام من أهوال الطبيعة وشراستها العنيفة، كما تستطيع أن تقدم له تفسيرًا منطقيًّا للكون. وإذن فعنصر الإله المتجاوز للإنسان والكون، مُكوّنٌ جوهري في الوعي والشعور الإنساني. خصوصًا حين نتذكر بأن هذه الفكرة لا يمكن أن يكون الإنسان الأول هو مَن أحدثها في نفسه، بل لابد أن يكون مصدرها خارجًا عنه، وإلا كيف أمكن تصور وجود كائن مطلق؟

(ثالثًا) تعليل فكرة الإله الخالق بالخوف من الطبيعة أو الشوق إلى عالم جميل وسعيد، هذا التعليل يتضمن أن الإنسان ليس كومة مادية متطورة، بل هو في حقيقته جوهر متجاوز للمادة، ولذلك يستطيع الإنسان التعالي على المادة وإلغاء قيودها إلى فضاء الكمال والسمو! ولهذا؛ نعود ونكرر السؤال: إذا كان الإنسان كومة مادية محدودة بنطاق مادي ضيّق، فكيف أمكن للإنسان الأول أن يستوعب فكرة وجود كائن أسمى وفوق كل الحدود والقيود، ويمكن أن يوفر وجوده الكمال والسعادة والتجاوز لحيّز المادة الضيق المحدود؟!

(رابعًا) إذا كانت عقيدة الإله نشأت في سياق ثورة الضعفاء ضد الأقوياء، فلماذا أساسًا نشأت هذه الثورة؟ فالإنسان بما أنّه مجرد كومة مادية، لا يمكن أن يشعر الضعيف بظلم الظالم ولا المسحوق بهضم الجائر، فالمادة التي لا تعرف شيئًا

عن المفاهيم والقيم والحقوق! وكيف يرد الملحد الذي يفسر الأمر بهذا التفسير على الملحد الآخر الذي يربط نشأة الدين وظهور العقيدة والإيمان بالأغنياء والأقوياء لأنهم أرادوا إبقاء الضعفاء تحت السيطرة؟ ومن المعلوم أن أحد التفسيرين ينفي الآخر، كما أنه ليس أحد التفسيرين أولى من الآخر!

(خامسًا) إذا كان الإيمان ليس أكثر من وهم خادع وعَرَض طارئ بسبب ظروف معيّنة، ومع ذلك تشبّثت به البشريّة، فهذا يعني أنّه أصلح لها وأنفع لها بكثير، لأنّه موافق لطبيعتها واجتماعها من عقيدة النفي والإنكار، رغم كون الإلحاد هو الحقيقة والأصل كما يزعم الملحد! ولا شك أنّ أصالة الإيمان هي التي جعلت مختلف العقول من مختلف الشعوب وفي مختلف الأزمان يقرّون بمبدأ وجود الإله الخالق. لأنّ هذه الفكرة ليست فلتة عقليّة أو سانحة عاطفيّة لا ثبات لها ولا قرار، بل هي جزء أصيل من كيان الإنسان وضرورة واجبة لعقله وضميره، أعظم من ضرورة الهواء لرئته والضوء لبصره.

(سادسًا) حدّثنا التاريخ؛ أن الحضارات البشريّة منذ قديم الدهر، كانت لها دُور للعبادة يتعبد فيها أفرادها للإله كما يتصورونه. والحضارة لا تظهر إلا أن يكون شعبها قد قطع أشواطًا مهمة في العلم والمعرفة بعلل الأشياء وأسبابها الماديّة. أليس هذا يعني -ضمن ما يعني- أنّ الإيمان لا صلة له بالضرورة بالجهل والخوف؟ وإلا فكيف يمكن للملاحدة أن يفسروا -إلحاديًّا- وجود الإيمان في كل الحضارات البشريّة التي مرّت في التاريخ، رغم القوة العلمية والماديّة والفلسفيّة بين أفرادها، بل يتجلّى هذا في الحضارة المعاصرة التي هي قمة العلم الطبيعي وسعة المعارف

والفلسفة، أكثر من أية حضارة أخرى؟ أليس هذا دليلًا واضحًا على رسوخ فكرة الإله في العقل والشعور؟

(سابعًا) إذا كان الإنسان مجرد كومة ماديّة متطورة عن حيوانات سابقة، ففكرة الإلحاد أو الإيمان، سواء نفيًا أم إثباتًا، هي في الحقيقة ممارسة عقلانيّة تجريديّة، تعني وجود نظام متجاوز للمادة يستطيع الإنسان من خلاله أن يقوم بعمليّة الاستقراء والتحليل والمقارنة والحكم. وبحسب المنطق الإلحادي الدارويني، فالإنسان الأول ينبغي أن يكون خلوًا من الإدراكات كافة، سواء قلنا الإلحاد أو الإيمان، لأنّ المادة في نفسها ليست نظام معلومات. فثبت إذن أن المعلومة شيء طرأ على الإنسان من مصدر خارجي، فمن أين جاءت معلومة (الإله الخالق)؟! وما سر وجود القابلية والاستعداد المسبق لها في الإنسان؟!

(ثامنًا) إذا كان الأصل في الإنسان الإلحاد، فمن أين تسلّلت القيم الأخلاقيّة إليه فردًا ومجتمعًا، علمًا بأنّ هذه القيم، لا يمكن اعتبارها أشياء ماديّة؟ ولماذا ابتكرها الإنسان الأول والمجتمع الأول؟ رغم أن القيم الأخلاقيّة لا يمكن أن تُكتسب بالتجربة والخبرة ما لم تكن لها جذور في النفس، وإلا لنا أن نسأل كم لزم من الوقت لاكتسابها؟ بل السؤال هنا، ليس حول إمكانية التزام الإنسان بمنظومة أخلاقية لتحقيق التواصل الفعّال مع الآخرين، ولكن حول مبررات وجود الأخلاق نفسها من حيث هي قيم متجاوزة لنطاق الذات المادية ومعطيات الحس الخارجي؟ وحول مصدر وجود الأخلاق من حيث هي قيم شاملة ومتعالية؟ هذا ما ينبغي على الملحد أن يفكر فيه!

(**تاسعًا**) إذا كان الأصل في الإنسان هو الإلحاد، وكان الإنسان في الرؤية الإلحاديّة وُجد صدفة بعد سلسلة طويلة من التطور والانتخاب، فالسؤال هنا عن علة ومصدر وجود الإنسان ملحدًا في أصله وليس مؤمنًا؟ أليس تحديد الإلحاد قيمة أصيلة في طبيعة الإنسان يقتضي أن يكون مصدر التحديد ليس الإنسان نفسه؟! ثم، إن القول بأنّ الإلحاد إنكار، فالإنكار يعني بالضرورة أنّ المنكر عرف شيئًا (وهنا هو الإله) فأنكره، أو أجاز وجود شيء (وهنا هو الإله) فأنكره. فالإنسان الأول مطلقًا كيف وُجد منكرًا لشيء لم يسبق له أن عرف وجوده أو أجاز إمكانيّة وجوده؟! وكيف يصح هذا والحال أن الإنسان مجرد كومة مادية؟!

(**عاشرًا**) إذا كانت عقيدة الإله نشأت في سياق الخوف من الطبيعة والعجز عن تفسيرها، فما المانع أن تكون كوارث الطبيعة وغموضها منبّهات للإنسان من غفلته ليُجدّد صلته بالخالق وليدرك بأنّ وجوده له رسالة مقدسة، ومحفزّات لعقله لتجاوز نطاق الكون الظاهر إلى الله تعالى! و«لماذا لا تكون هذه الكوارث الطبيعية، التي تُذهل الإنسان عند مواجهتها حتى عن نفسه، سببًا لإماطة الحجاب عن بصيرته، وعاملًا أساسيًّا لرؤية واضحة، كان يفقدها عندما لم يكن واقعًا تحت وطأتها، تعود به إلى فطرته السليمة وغريزته المركوزة في وجدانه وأعماقه إلى خالقه، الذي هو وحده بيده النجاة من تلك الكوارث وإن اختلفت تصوراته حول ذلك الخالق؟».[١]

(**الحادي عشر**) لا محيد عن تقرير أن يكون الإيمان أو الإلحاد هو الأصل في فطرة الإنسان، ومن وجوه معرفة أحقهما بذلك أن ننظر في الآثار المترتّبة على

---

(١) عقيدتنا في الخالق والنبوة والآخرة. عبد الله نعمة ص٢٤.

الالتزام بهما، سواء على المستوى المعرفي أم على المستوى السلوكي، وسواء على المستوى الفردي أم على المستوى الاجتماعي، لأنّ الآثار العمليّة من أوضح الأدلة على قيمة المبادئ والعقائد. والتاريخ والواقع يؤكدان على أنّ الإنسان كلما كان ملتزمًا بالإيمان الحق ومتطلّباته كما ينبغي، فإنّ يكون أدنى للاستقرار النفسي والسعادة الحياتية، وأوعى بحقائق الحياة ودلالات الوجود، وألزم للقيم الجميلة والأخلاق الفاضلة، فيعيش حياته بتوازن وانسجام، لأنّه يدرك أصله ودوره في الحياة ومصيره بعد الموت. عكس الملحد، فإنّ الواقع والتاريخ يؤكدان على أنّ الإلحاد يجلب الشقاء النفسي والاضطراب المعرفي، ويسلخ صاحبه من فضائل الأخلاق، ويبرر له كل نقيصة وسوءة سلوكية. ونحن اليوم نشهد الحضارة المعاصرة وهي تغرق في الأزمات النفسية والعصبية، وأوحال الفجور الأخلاقي والفسوق القيمي، فشاعت الخمور وانتشر الزنا وكثر الإجهاض وتفككت الأسر، وصار الإنسان حيوانًا مفترسًا يبحث فقط عن مصالحه الشخصية.[١]

(الثاني عشر) القول بأن الأصل في الإنسان هو الإلحاد يلزم عنه إثبات ميلاد الإنسان بمنظومة إدراكية ذات أبعاد ميتافيزيقية. ومن ثم يكون تعبير الإنسان عن هذا الإنكار لاحقًا ليس أكثر من تثوير تلك المنظومة الكامنة ذات الأبعاد الميتافيزيقية. وهذا يعني أنّ الإنسان يُولد بقدرات عقلية تجريدية هي التي تمكّنه من تحقيق الوعي

---

(١) لقد بحث الباحثون طبيعة الحياة اليومية لبعض مشاهير الإلحاد، وكانت النتيجة في منتهى السوء، فقد عاش هؤلاء بين القذارة الأخلاقية، وأزمات اليأس والمأساة. لقد كانوا يعيشون بوجهين، وجه أسود كالح هو حياتهم اليومية، ووجه مشرق جميل هو كتاباتهم وشعاراتهم! انظر: الإلحاد مشكلة نفسية. عمرو شريف، ص١٩٥ وما بعدها.

الفعلي لاحقًا بخصوص الإنكار. الإشكال هنا متعدد الأوجه، لكن حسبنا أن نشير إلى أنّ أحد أبرز أيقونات الطرح الإلحادي هو القول بمادية الوعي بحكم أن الإنسان ليس أكثر من مادة يعيش في عالم مادي. وإذا كان الأمر كذلك، فهو يعني أنّ القول بأصالة الإلحاد في الكينونة الإنسانية التي يلزم عنها كما قلنا إثبات وعي ميتافيزيقي في الإنسان، هذا القول قول متهافت ومتناقض. لأنّ الإنكار بما أنه ممارسة عقلية تجريدية، مثله مثل الإثبات، يقتضي وجود شيء في الإنسان فوق مادي، أي لديه القدرة على تجاوز نطاق الحس والمادة إلى آفاق أعلى. وهنا يرجع السؤال إلى مصدر ذلك الوعي الميتافيزيقي الذي ترتّبت عليه أصالة الإلحاد في الذات الإنسانية؟!

(الثالث عشر) إذا قلنا بأن الإلحاد هو الأصل في الإنسان، وأن الإيمان عرَضٌ طارئ عليه بفعل عوامل خارجية، كالأزمات والضغوط والتقاليد والجهل والخرافات وغير ذلك، فهذا يعني أنّ في الإنسان استعدادًا ذاتيًّا للإيمان، وقدرة على تغيير فطرته وطبيعته التي يقول الملحد بأن الأصل فيها هو النفي والإنكار أي الإلحاد. والحقيقة أنّ هذا اللازم، أي استعداد الإنسان لقبول الإيمان وتجاوز الإلحاد، يُلزمنا بالتساؤل حول مصدر هذا الاستعداد، وغايته، ووظيفته! ومعلوم استحالة أن يكون الإنسان هو نفسه من أنشأ هذا الاستعداد لقبول الإيمان في نفسه، فبقي أن يكون المصدر خارجيًّا. والقول بخارجية المصدر يفرض علينا الإقرار بأنّه مصدر غير مادي، متجاوز للكون والإنسان. وإذا وصلنا إلى هنا، انهدم صرح الإلحاد من أساسه!

(**الرابع عشر**) القول بأنّ الإلحاد هو الأصل في الإنسان يتناقض مع شعور الملحد بالقلق الوجودي، بحكم أنّ الإلحاد لا يستطيع أن يجيب عن الأسئلة الكبرى التي لا يستطيع الإنسان الفرار منها، بل لابد منها لكل إنسان وإنْ بنِسب متفاوتة. والواقع أن الأسئلة الكبرى من قبيل (من أنا؟ ما أصلي؟ لماذا أنا هنا؟ ماذا بعد الموت؟ لماذا الأخلاق؟ لماذا هذا الكون؟ ما مصير الكون؟ لماذا هذا التنوع الهائل في الكائنات؟ لماذا قوانين الفيزياء؟ سر الوعي؟ وغيرها كثير) تُمثّل حرجًا كبيرًا وضغطًا هائلًا على الملحد، لأن منظومة الإلحاد ومبادئه ومقولاته الأساسية لا يمكنها أن تقدم أجوبة عليها. ولا شك أنّ هذا العجز الذاتي في الرؤية الإلحادية عن الجواب يدل دلالة ساطعة على أن القول بأن الإلحاد هو الأصل في الإنسان، قول متهافت ولا نصيب له من الصحة، اللهم إلا في إطار القول بالعبثية في وجود الإنسان والحياة، وهذا بدوره كما أشرنا سابقًا يجبرنا على سؤال (لماذا هذه العبثيّة؟)

(**الخامس عشر**) الإلحاد بما أنّه إنكار لا يمكن أن يكون الأصل في فطرة الإنسان. فالإنكار لا يكون إلا لشيء معروف مسبقًا يناقض مبادئ العقل وهو المستحيل العقلي أو يناقض مبادئ الوجود وهو المستحيل الفيزيائي (مثل طيران الإنسان في الهواء بدون آلة). ولهذا؛ سيكون الإشكال منصبًّا على مصدر فكرة بداهة الإنكار رغم عدم وجود الإله الخالق في الواقع الخارجي؟ كما أنّه سيرتبط بمدى مناقضة وجود الإله الخالق لمبادئ العقل؟ وهذا يؤدي بنا لسؤال أكثر استشكالًا وهو أنّ الإنسان بما أنّه ليس مصدر فكرة الإلحاد، فإنّ مصدر هذه الفكرة والعقيدة لابد أن يكون خارج الإنسان والكون، ومن ثم، فإنّ المصدر لابد أن يكون له علم مسبق

باختراع الإنسان بعد وجوده -تحت عوامل مختلفة- لفكرة الإله الخالق، فكان أن غرس مبدأ الإنكار أي الإلحاد من باب التنبيه للإنسان على وهم وخطأ هذا الاختراع! لكن هذا أيضًا سيؤدي بنا للتساؤل حول الغاية من كل ذلك؟!

(**السادس عشر**) إذا كان الأصل في الإنسان هو الإلحاد، فذلك يعني وجوب الطعن في البشرية جمعاء، وعلى رأس القائمة الفلاسفة والعلماء والمصلحون والأدباء والسياسيون والفيزيائيون والعباقرة، وغيرهم ممن يعترف التاريخ بقدراتهم العقلية العالية. ولا شك أنّ هذا الطعن الكامن في القول بأصالة الإلحاد يجبرنا على الطعن أيضًا في كل تراث هؤلاء، من العلوم والمعارف التي خلّدوها لنا في مجالات تخصصاتهم. وذلك لأنّ الطعن في قناعتهم حول إثبات وجود الإله الخالق، رغم اختلافات حقيقة الإله بينهم، لا يساعدنا على تصديقهم ونزاهتهم وتقدير مجهوداتهم، إذ بما أنهم وهموا في قضية وجودية كبرى أي إثبات الإله الخالق، فهناك إمكانية وهمهم في كل معارفهم، خصوصًا وكما هو مثبت ومعلوم، أن العالم والمفكر وغيرهم لا يمكن أن ينفصلوا عن خلفياتهم العقدية.

(**السابع عشر**) القول بأصالة الإلحاد في النفس البشرية، يلزم عنه بالضرورة القول بنسبية الأخلاق ونسبية الحقيقة، إذ هذه العناصر بينها علاقة وثيقة، ولا يمكن أن ينفصل بعضها عن بعض، اللهم إلا أن يكون غبش في الفهم والتصور. الإشكال هنا هو أنّ القول بنسبية الأخلاق والحقيقة، يدفعنا للتساؤل عن معنى وجود الأخلاق أساسًا؟ وعن مصدرها أصلًا؟ إذ لا يمكن نفي وجود الأخلاق، فهي قيم موجودة بين الناس في مختلف الحضارات وفي شتّى الأطوار التاريخية. كما سيحملنا على

التشكيك في جهود الفلاسفة والمصلحين وغيرهم عبر التاريخ في بناء أنساق أخلاقية فاضلة. وهذا بدوره سيؤدي بنا وسيجبرنا على اتهامهم بالعبث وخداع البشرية. وقل الشيء نفسه بخصوص الحقيقة، ولماذا لا توجد حقائق مطلقة؟ ولماذا توهمت عقول الفلاسفة والمفكرين وجود الحقيقة؟ ولماذا بذلوا أعمارهم وعصروا عقولهم لوضع مناهج صحيحة لإدراك الحقيقة؟[١] وكل هذا يدفعنا لاتهامهم جميعًا بالتلبيس والتدليس، لأنهم في هذا المجال وكذا مجال الأخلاق أوهموا البشرية بأشياء غير موجودة أساسًا!

(الثامن عشر) التسليم بصحة أصالة الإلحاد موقوف بالضرورة على القول بوجود بديهيات فطرية، والتسليم بصحة مبادئها، بحكم أن الإنكار كما قلنا سابقًا عملية عقلية تجريدية تتجاوز الحس وتدخل في نطاق الميتافيزيقا، فلابد إذن من وجود بديهيات مسبقة، إذ النظريات تُبنى على البديهيات. يكمن الإشكال هنا في أنّ الإنسان لابد له من الإيمان أو الإلحاد، وهما لا يمكن إلا بوجود مرجح ثابت، والمرجح لابد أن يستند على منظومة من المبادئ البديهية المسبقة في ذات الإنسان. وإذا كان من خصائص البديهيات استحالة التدليل عليها، فذلك يعني أن الإنسان ليس هو من أنشأها في نفسه، بل لابد من وجود مصدر خارجي هو منبعها، وإثبات

---

(١) انظر قول متيم الضايع في مقدمة كتاب جنون الفلاسفة: «ليس هناك من فكرة تصلح لكل زمان ومكان، وما الأفكار والقيم والأخلاقيات الثابتة إلا مستنقعات آسنة، وليس هناك ثابت في الحياة سوى حتمية التغيير» ص٩. وحسب كلام هذا الضايع، يكون كلامه هذا لا قيمة له، لأنه ليس هناك فكرة صالحة دائمًا وثابتة!

مصدر خارجي للبديهيات التي استندت عليها عملية الإنكار بما هي ممارسة تجريدية تتجاوز الحس. وهذا يهدم صرح الإلحاد من أساسه.

(التاسع عشر) حسب منطق الملحد؛ يمكن أن نعتبر الإلحاد مرحلة أعلى في مراحل التطور الذي ارتقى إليها الإنسان، فيكون الإيمان مرحلة أدنى والإلحاد مرحلة أعلى، بحيث كلما ارتقى الإنسان تحرر من مرحلة الإيمان الدنيا ودخل أكثر في مرحلة الإنكار العليا. وهنا من حقنا مطالبة الملحد بتقديم المعيار أو المعايير التي تساعدنا على التفريق بين الأفكار التطورية والأفكار غير التطورية؟ إذ بدون تحديد معيار أو معايير للتفريق بينهما لا يجب أن يأمن الملحد نفسه أن يكون إلحاده مجرد وهم في خط التطور! وهذا التحديد الذي نطالب به غاية دونها خرط القتاد، اللهم إلا عادة الملحد حين يُحاصَر بما لا طاقة له به، فيلجأ إلى المغالطات والكلام الإنشائي والقفز إلى مواضيع أخرى، من أجل صرف محاوره والمتابعين أيضًا عن أساس الإشكال!

فهذه الوجوه مهما أمعن العاقل المنصف فيها نظره وقلّب فيها رأيه، لا جرم أن يتأكد بوضوح ساطع من أن جوهر الإنسان يستحيل أن يكون مبنيًا على الإلحاد وإنكار الإله الخالق، بل لابد أن يكون العكس هو الصحيح والحق. كما لابد أن يتأكد من أن القول بأصالة الإلحاد لا يحل المشكلة كما يتوهم الملحد بل يزيد الأمر تعقيدًا وإشكالًا! كذلك فإن تأمل ما ذكرنا، لابد أن يورث اليقين بأن الإنسان لا يولد ملحدًا بل يصير بفعل عوامل معينة ملحدًا، ذلك لأن الإيمان والتدين نزعة جوهرية في الإنسان، بل أقوى من كل النزعات الأخرى، كنزعة البقاء ونزعة الاعتراف ونزعة

الانتماء. وهذه حقيقة يشترك فيها بنو آدم قاطبة، بغض النظر عن أزمانهم وأماكنهم، وبغض النظر عن مستواهم من الرقي والحضارة والعلم المادي.

وعلى كل حال، فنحن ندرك بأن حرص الملاحدة على الترويج لفكرة أن الأصل في الإنسان هو الإلحاد وأما الإيمان فعرض طارئ لظروف فرضته، هذا الحرص والترويج يستهدف ترسيخ قناعتين خصوصًا عند الأتباع، وهما:

(**أولًا**).. الإحساس بالانتماء إلى تاريخ بعيد الجذور!

(**ثانيًا**).. الإحساس بالصواب في اختيار الإلحاد!

وهذه المضامين بالنسبة للملحد تضفي الشرعية على الإلحاد وتمنحه الاعتراف والأصالة!

* * * *

(٣) النزعة الإلهية في الإنسان

لم يستطع كثير من الملاحدة إنكار رسوخ فكرة الإله في ضمير البشرية عبر التاريخ، لأنها ببساطة فكرة راسخة في التركيبة الإدراكية والشعورية للإنسان، ولذلك فهي حقيقة يشترك فيها كل بني آدم، بغض النظر عن زمانهم ومكانهم، وبغض النظر عن مستواهم في العلم والحضارة. وقد جاء في معجم لاروس للقرن العشرين: «إن الغريزة الدينية مشتركة بين كل الأجناس البشرية حتى أشدها همجية وأقربها إلى الحياة الحيوانية، وإن الاهتمام بالمعنى الإلهي وبما فوق الطبيعة هو إحدى النزعات

العالمية الخالدة للإنسانية».[١] وقال الدكتور الزحيلي: «من الثابت تاريخيًا، أن فكرة التدين لم تفارق البشرية، ولم تخل منها أمة من الأمم القديمة والحديثة، لأنها نزعة أصيلة ملازمة للناس جميعًا».[٢]

لكن الملاحدة مع ذلك حاولوا الالتفاف عليها عبر تقديم تفاسير مختلفة لذلك لتفريغ هذه العلامة البارزة في تاريخ الإنسان من مضامينها! فهذا الملحد ميشيل أونفري يعترف برسوخ عقيدة الإله في وجدان البشرية إلى يومنا، فيقول في سياق نقده لفكرة موت الإله التي بشّر بها الملحد فريديرك نيشته، وأن هذا الإعلان «بقدر ما كان مرعدًا ومدويًّا كان خاطئًا، لقد كان تزميرًا في أبواق، وإعلانات مسرحية مبهرجة، ودقًا للطبول ابتهاجًا قبل الأوان»، ولذلك فـ «موت الإله كان ألعوبة أنطولوجية، وهو جزء لا يتجرأ من جوهر القرن العشرين الذي كان يرى الموت في كل مكان: موت الفن، وموت الفلسفة، وموت الميتافيزيقا، وموت الرواية»، ثم يتابع فيقول: «فمن رأى الجثة؟ ما عدا نيشته ولم يثبت ذلك.. ما زلنا ننتظر البراهين والشواهد لحد الآن، لكن مَن بإمكانه تقديمها؟ مَن هو الأخرق الجديد الذي سيتقدم نحو هذه المهمة المستحيلة؟.. إن الإله لم يمت، ولا هو يحتضر، بعكس ما يعتقد نيشته، إن الإله لم يمت ولا هو يحتضر، لأنه ليس بفان. إن الفكرة الخيالية لا تموت، وإن الموت لا يتوفى، والحكاية الخرافية الموجهة للأطفال لا يتم دحضها».[٣]

---

(١) الدين. عبد الله دراز.

(٢) وظيفة الدين في الحياة ص٣٣.

(٣) نفي اللاهوت ص٢٧-٢٨ بتصرف واختصار.

سنتجاوز هذا التهريج الإلحادي حول وصف فكرة الإله بالخيالية، والحسرة الخانقة للعجز عن دحضها، لنذكر تفسيراتهم لنشأة الدين وعقيدة الإله، وهي متعددة، نجملها في التالي:

(**أولًا**) **نزعة الخوف**. ويتجلّى في الخوف من الطبيعة، الخوف من المعاناة، الخوف من الموت، الخوف من المجهول.

(**ثانيًا**) **شعور العجز**. ويتجلّى في العجز عن فهم الظواهر الطبيعيّة، العجز عن تفسير آليات عملها، العجز عن الاعتصام من تأثيراها عليه.

(**ثالثًا**) **هيمنة التقليد**. ويتجلّى في خضوع الأفراد للعادات والتقاليد الاجتماعية الموروثة، وسذاجة وعيها للتحرر من الأوهام والخرافات.

(**رابعًا**) **سلطة الأغنياء**. ويتجلّى في حرص الطبقة الغنية والمتنفذة في تخدير الشعب وإلهائه بالأماني المستقبليّة بعد الموت عن المطالبة بحقوقه.

(**خامسًا**) **شوق السعادة**. ويتجلّى في نشوء رغبة شديدة في السعادة والهناء واللذات بفعل الحرمان والظروف القاسية المحيطة.

في إطار هذه العوامل الخمسة الكبرى، يزعم الملاحدة بأنّ البشرية القديمة ابتكرت فكرة وجود كائن عظيم ومتصف بصفات لانهائية الكمال ليشعر بالأمان والطمأنينة، وليُضفي على وجوده وعلى الحياة والكون من حوله المعنى والتناسق.

يقول الملحد محمد المزوغي -أكاديمي تونسي-: «الاعتقاد في وجود الآلهة ليس بالأمر الحقيقي المطابق للوجود، بل هو مجرّد اختراع إنساني، ومفروض من

نـواميس الدولـة طبقًـا لاتفـاق المشـرّعين، بحيـث إنـه يختلـف بـاختلاف الأمـاكن والأزمان». [١]

ويقول الملحد ستيفن هوكينج - فيزيائي بريطاني -: «إن الجهل بطرق الطبيعة قـاد النـاس في العصـور القديمـة لابتكـار الآلهـة التـي تـتحكم في كـل منـاحي الحيـاة البشـرية. فكانـت هنـاك آلهـة للحـب وللحـرب، وللشـمس، وللسـماء، وللمحيطـات، وللأمطار، وللأعاصير، وحتى للزلازل وللبراكين، وعندما ترضى الآلهة كان الإنسان يتمتّع بصفاء الجو وبالسلام ويتخلّص مـن الأمـراض والكـوارث الطبيعيـة، وعنـدما تغضب، كان يأتي الجفاف والحرب والطاعون والأوبئة. ولما كانت الصـلة بـين العلـة والأثـر في الطبيعـة غيـر واضـحة، فقـد بـدت تلـك الآلهـة غـامض، وكـان البشـر تحـت رحمتها». [٢]

ويقـول محمـد عبـد الحميـد الحمـد: «في مرحلـة بدائيـة (حـول البحـر الأبـيض المتوسط) بزغت منظومة من التصورات والأفكار المختلطة غيـر الواضـحة، صـاغها الإنسان في أساطير وأمثال، كوّنوا منها منظومة دينية أو عقيدة ساعدتهم على حيـاتهم، وصـارت تلـك المعرفـة السـرية يحتكرهـا الكهنـة في كـل جماعـة ويمارسـونها دون أن يطلعوا عليها أحدًا». [٣]

ويقـول ميشـيل أونفـري -فيلسـوف فرنسـي-: «إن الإلـه الـذي ابتكـره البشـر

(١) تحقيق ما للإلحاد من مقولة ص١٣.

(٢) التصميم العظيم. ستيفن هوكينج ص٢٥.

(٣) الزندقة والزنادقة ص٥.

الفانون على صورتهم الجوهرية لا يوجد إلا ليجعل الحياة اليومية ممكنة، بالرغم من مسار كل واحد إلى العدم... إن توليد الله يوجد في نفس الوقت مع الشعور القلق أما فراغ الحياة المنتهية، لقد وُلد الإله من قلب شدة وصلابة وجمود جثت أعضاء القبيلة».[١]

ولما سئل برتراند رسل عن سبب بروز الدين بين مختلف مجتمعات التاريخ، قال: «الخوف أساسًا على ما أعتقد،[٢] الإنسان الأول يشعر بنفسه عاجزًا على نحو خاص، وهناك ثلاثة أشياء تخيفه، الأول هو ما يمكن أن تفعله به الطبيعة، والثاني هو ما يمكن أن يفعله به البشر الآخرون، والثالث هو عنصر له علاقة متينة بالدين، وهو ما يمكن أن تدفع به انفعالات الهوى في عنف اندفاعها للقيام به، أشياء يعرف أنه سيندم على القيام بها عندما يستعيد هدوءه. هذا هو ما يجعل الناس يعيشون حالة من الهلع الدائم، والدين يساعدهم على التخفف من حدة الهواجس التي يسببها لهم هذا الخوف».[٣] وهو نفسه القائل: «لا أظن أن السبب الحقيقي لقبول الناس الدين له شأن بالمناقشة والمحاكمة المنطقية، إنهم يقبلون الدين انطلاقًا من أسس عاطفية».[٤]

هذه نماذج من تفسيرات بعض الفلاسفة والعلماء والأكاديميين الملاحدة لظاهرة نشأة الدين وعقيدة الإله الخالق، وهي كما ترى أقرب إلى الأوهام الشاردة

---

(١) نفي اللاهوت ص٢٩ و٣١.

(٢) تأمل هذا الاعتراف والصراحة، فالقضية ليست أدلة قاطعة بل فقط (ما أعتقد)! ولك أن تضع هذه الكلمة في أي موضع شئت، إلا موضع العلم وقانون العقل والمنهج الموضوعي.

(٣) ظاهرة نقد الدين في الفكر الغربي الحديث. سلطان العميري ج٢ ص٤٢٢.

(٤) لماذا لست مسيحيًا ص٣١.

والتخرّصات المتهافتة منها إلى منطق العقل السليم والعلم الصحيح والشعور بالمسؤوليّة، وهي تفسيرات نابعة من خلفيات هؤلاء واتجاهاتهم ومواقفهم المسبقة من الدين والإله، كما أنها نتيجة لتاريخ العقل الغربي، بأساطيره اليونانية، وصراعاته الكنسية، وانتفاخاته المتمردة!

وإذا كان الملاحدة يؤيدون كلامهم حول أصالة الإلحاد، ويفسرون ندرته في تاريخ الأمم والشعوب بسبب الجهل والسذاجة والخرافات وعدم العلم الذي يفسر لهم الحقائق والأمور كلها.. إذا كان الملاحدة يفسرون ندرة الإلحاد تاريخيًا بمثل هذه الدعوى التي لا تقوم على ساق كما هي عادة الملاحدة دائمًا في إرسال الدعاوى بلا دليل، فنحن نفسر هذه الندرة في تاريخ البشرية بأن الإلحاد انحراف نادر في الفطرة والعقل، فهذه الفطرة وهذا العقل قد يضلان عن الله لكنه ضلال لا يذهب بهما بعيدًا جدًا إلى حد الإنكار المطلق، لأن الأصل في الفطرة والعقل هو الإيمان بوجود خالق عظيم هو الذي أبدع العالم بما فيه من أشخاص وأشياء ومشاهد وعناصر وقوانين، أما حين يصل الإنسان إلى دعوى النفي المطلق لوجود الخالق فهو يكون قد بلغ النهاية في الانحراف. ولأن الانحراف لا يكون إلا بأسباب، فإن الإلحاد لما كانت أسبابه ضعيفة عبر التاريخ كان نادرًا، ولما قويت جدًا في القرنين الأخيرين علا سلطانها واشتدت هيمنتها، فلا عجب أن كان الإلحاد اليوم أقوى وأكثر مما كان عليه عبر التاريخ.

إنّ محاولة الملاحدة تفسير نشأة عقيدة الإله بردها إلى أحد الأسباب الآنفة الذكر أو كلها، ليست من العلم في شيء، وذلك للتالي:

(أولًا).. هي توسل بادعاءات غيبية لا يمكن التأكد منها؛ والأصل أنّ المادية الإلحاديّة ترفض كل ما لا يخضع للتجربة والاختبار أو للحس والمشاهدة المباشرة، وعندهم أن ما لا يخضع للتجربة والتكرار والرصد ليست له قيمة علميّة!

(ثانيًا).. لو قبلنا أحد هذه الأسباب -أو كلها- التي يقدمها الملاحدة، فلا سبيل للوثوق بها، إذ ما ضامن الثقة في هذا الحصر والتحديد؟ ولماذا هي وليس غيرها؟ والحال أن النفس البشريّة -باعتراف علماء النفس والاجتماع- بحر لا ساحل له!

(ثالثاً).. الأمد الشاسع الذي يفصلنا عن الإنسان الأول والمجتمعات البشرية الأولى، وهو أمد مُوغل في أعماق الزمن يمتد لمئات القرون، يمنع مَن يحترم نفسه أن يجازف بتقرير حقيقة معينة بمجرد الوهم والظن، ولكن العقل الملحد لا يخجل من نفسه!

ولهذا نقول: «أن كل النظريات التي حاولت تحديد ديانة الإنسان الأول بالتطبيق على ديانات القرون الماضية، أو الأمم الهمجية، فصورتها لنا تارة سليمة، وتارة سقيمة، وتارة ملفقة، إنما هي افتراضات مبنية على افتراضات، فهي لا تصف الحق الثابت، الذي هو مطلب العلم الصحيح، وإنما تعرض احتمالات تشبه الحق قليلًا أو كثيرًا».[1] ولا شك أنّه ينبغي قراءة النظريات الغربية حول ديانة الإنسان الأول في السياق الذي نشأت فيه، سياق التمرد على الكنيسة والهروب من الدين والإله! فلا

---

(١) الدين: بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان. محمد عبد الله دراز ص١٧٦.

جرم -إذن- أن تُبذل جهود حثيثة -كما تدل على ذلك المعطيات- لإثبات أن الدين ليس كما زعمت الكنيسة، بل هو مجرد انعكاس لظروف اجتماعية في إطار عالم الطبيعة! ولهذا لا مشكلة في تجاوزه، بل ينبغي تجاوزه لأن طور العقل والحضارة اليوم يقتضي ذلك ويحتّمه علينا!

ولنذكر الآن شيئًا مما في تلك التفسيرات من الخطل والزلل والتهافت:

(**نقد نزعة الخوف النفسي**).. الخوف مكوّن أصيل في النفس البشريّة، ولذلك عمل الأنبياء والمصلحون خلال التاريخ على إثارة هذه النزعة وتهذيبها وضبطها. لكن حين يقال بأنّ نزعة الخوف بمختلف تعلّقاتها هي سبب نشأة العقيدة وفكرة الإله، فمن المهم أن يفسر لنا الملاحدة معنى بقاء هذه العقيدة والفكرة حتى في حالات الشعور بالأمان والسلام المادي، إذ أغلب الناس يعيشون في أغلب مراحل أعمارهم حالات الأمان والسلام!

(**نقد شعور العجز العلمي**).. الإحساس بالعجز العلمي ما زال مصاحبًا للإنسان والمجتمعات منذ قديم الدهر وإلى يومنا. وهو أمر طبيعي، فالإنسان يعيش في كون مترامي الأبعاد، تحكمه قوانين غاية في الدقة والتعقيد، بل لولا هذه العجز لما تقدمت البشرية في مسيرة العلم والبحث والاكتشافات خطوة واحدة. لكن حين يقال بأنّ العجز العلمي عن تفسير الكون هو سبب نشأة الدين، فمن الواجب أن يفسر لنا الملاحدة سر إيمان جمهور العلماء بمختلف تخصصاتهم في شتى الحضارات واعترافهم بوجود الإله الخالق!

(نقد هيمنة التقليد الاجتماعي).. التقليد نزعة من نزعات الإنسان البارزة، بحيث يمكن القول بأنّ الإنسان كائن مقلّد، لأنّه مخلوق محدود لا يستطيع القيام وحده، فلابد له من التقليد لتفادي الكثير من الخلل والقصور في حياته.[١] ولولا التقليد لما كانت هناك علوم ولا حضارات. لكن حين يقال بأنّ سلطة التقليد هي سبب نشأة عقيدة الإله، فمن الضروري أن يُفسر لنا الملاحدة لماذا يرفع الجمهور شعار الحرية وتجاوز التقاليد مع الاحتفاظ بالإيمان والعقيدة بغض النظر عن قيمة هذا الإيمان ومدى هذه العقيدة!

(نقد سلطة الأغنياء وخداعهم).. صراع الفقراء ضد الأغنياء من السمات البارزة في تاريخ البشرية وفي كل المجتمعات والحضارات، فكل إنسان يحب المال لما يمثّله من السلطة والقوة، ولذلك يكره من يقف في طريقه نحو تحقيق هذه الغاية. لكن حين يقال بأنّ الأغنياء هم من ابتكر فكرة الإله لتخدير المسحوقين وجعلهم ينتظرون عالمًا وهميًّا بعد الموت، فمن اللازم أن يُفسر لنا الملاحدة سر تشبّث جمهور واسع من الأغنياء في عصرنا -وقبل عصرنا- بالإيمان والعقيدة، بعد أن صارت العلاقة بين الغني والفقير منظمة قانونيًّا في كثير من مظاهرها!

(نقد شوق السعادة ورغبة الهناء).. السعادة خط عريض من خطوط النفس البشرية، بل إن الإنسان في مختلف ممارساته ونشاطاته إنما يتحرك في إطار نزعة

---

(١) تأمل قول الله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ البقرة: ٣١. وقول الرسول ﷺ يقص مشهداً من خبر خلق آدم عليه السلام: «فَلَمَّا خَلَقَهُ قالَ: اذْهَبْ فَسَلِّمْ على أُولَئِكَ، النَّفَرِ مِنَ المَلائِكَةِ، جُلُوسٌ، فاسْتَمِعْ ما يُحَيُّونَكَ، فإنَّها تَحِيَّتُكَ وتَحِيَّةُ ذُرِّيَّتِكَ، فقالَ: السَّلامُ علَيْكُم، فقالوا: السَّلامُ عَلَيْكَ ورَحْمَةُ اللهِ، فَزادُوهُ: ورَحْمَةُ اللهِ» صحيح البخاري.

السعادة والرغبة فيها. ولذلك يدعو الأنبياء والمصلحون دائمًا للالتزام بمنظومة من الضوابط لأنه يترتّب على ذلك تحقيق السعادة والاستقرار والهناء. لكن حين يقال بأنّ البحث عن السعادة الكاملة هو سبب نشأة فكرة الإله بحكم استحالة تحققها كاملة في هذا العالم، فمن المؤكد أنّ على الملاحدة أن يُفسروا لنا معنى التزام كثيرين ممن يعيشون فعلًا السعادة بأقصى مظاهرها بالإيمان والعقيدة!

والحقيقة أننا لا ننكر بأنّ لشعور الخوف، أو لشوق السعادة، أو لإحساس العزاء، أو لتفسير الكون، دخل في التديّن، غير أنّنا لا نفسر نشأة الدين والعقيدة الإلهية بكل هذا، بل نعتبر هذه الأمور جميعًا مجرد مثيرات ومحفزات لكوامن الفطرة ودفائن العقل، إذ لا يمكن أن تعمل العوامل الخارجية، كيفما كان نوعها وحجمها ومدى تأثيرها، على إنشاء شيء في النفس البشرية ليس موجودًا فيها قبلًا، بل دورها فقط -ضمن شروط معينة- إثارة وتنبيه هذه النزعة أو تلك، بحسب تفاعل الإنسان نفسه معها، ومدى قبوله لتأثيرها عليه بسبب ما معه من الإرادة والقدرة على الاختيار. يقول الأستاذ محمد قطب: «الضغط الخارجي لا يمكن أبدًا أن ينشئ شيئًا في كيان الإنسان ما لم يكن هناك استعداد فطري للاستجابة له».[1] كما أشارت الآية بخصوص الخوف ومواجهة الموت: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾.[2] فالخوف أصيل في الكينونة البشرية، بحكم نزعة حب

---

(١) دراسات في النفس الإنسانية ص١٧٤.

(٢) يونس: ٢٢.

الحياة القوية والطاغية على الإنسان، ولذلك طلبوا الاستغاثة بالذي بيده ملك السموات والأرض.

وعلى كل حال، فلنا أن نفسر مثلًا نزعة الخوف أو السعادة أو تفسير الكون على أنها بحث عن المعنى الوجودي، للذات والكون، فهل يستطيع الملحد أن ينكر هذا! يقول كريسي موريسون: «إن كون الإنسان في كل مكان، ومنذ بدء الخليقة حتى الآن قد شعر بحافز يحفزه غلى أن يستنجد بمن هو أسمى منه، وأقوى، وأعظم، يدل على أن الدين فطري فيه، ويجب أن يقر العلم بذلك».[١]

إذن فالعوامل والمؤثرات الخارجية ليس من شأنها الخلق والإنشاء لنزعات جديدة، بل شأنها الإثارة والتنبيه للنزعات الكامنة، خصوصًا وأن تأثر الإنسان بهذا العامل الخارجي أو ذاك، لا يكون تأثرًا جزئيًا بسبب وجود النزعة القابلة لذلك التأثر فقط، بل إن عملية التأثر تحدث في إطار وثاقة صلة تلك النزعة الجزئية بمجموع الإنسان كله، من نزعات وقيم ومبادئ. ومن ثم، فإن إثارة الخوف أو غيره لنزعة الدين في الإنسان وتفاعله مع هذه الإثارة، دليل واضح على أن هذا التفاعل يتضمن رغبة كامنة في الإنسان، وأن هذه الاستجابة هي ذاتها دليل ساطع على وجود نشاط معنوي في أعماق كيان الإنسان تجاه مضمون الإثارة وأثرها، تمامًا كما أن إثارة الطعام الشهي شهية الإنسان دليل على نزعة الأكل فيه، ودليل أيضًا على وجود نشاط معين داخل الجسم تجاه الأكل.

---

(١) العلم يدعو للإيمان ص١٤٧.

كما أننا لا ننكر أن للعقيدة والإيمان دخلًا كبيرًا في تحقيق الأمان والاستقرار النفسي، كما أشارت الآية الكريمة حول هذا المعنى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴾.[1] وكذلك لا ننكر أن للعقيدة والدين دخلًا في تحقيق النظرة الموضوعية في تفسير الكون والحياة، كما قال الله سبحانه: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾.[2] كل هذا لا ننكره بل نحن نقره ونعترف به ونؤكد عليه. ولهذا نجد في القرآن والسنة الكثير من الآيات والأحاديث تتحدث عن غضب الله تعالى وهول عذابه للطغاة والظالمين والذين يمنعون الناس حقوقهم، وأيضًا الآيات التي تتحدث عن محبة الله تعالى ورحمته وحنانه، وعن عونه للمؤمن وتأييده وإمداده بألطافه، وعن جمال النعيم والسعادة التي أعدّها للمؤمنين في الجنة، وعن عظمة الكون وسعته ودقته وغموضه وآياته.

ومن هنا، فنحن نفسر علاقة الخوف بالتدين أو الرغبة في الخلود والسعادة أو الشوق لتفسير الظواهر الكونية، نفسر كل هذا بأن الفطرة الإنسانية لديها شعور غريزي ونزعة عميقة بوجود مصدر متجاوز للإنسان والكون لديه الإمكانية الكاملة لمنح الأمن والخلود والسعادة، وكذلك نفسره بأن الفطرة الإنسانية لديها ميل ذاتي وانجذاب طبيعي للبحث عن المعنى والغاية، سواء ما تعلق بأصل وجود الإنسان ووظيفته الكونية، أم ما تعلق بظواهر ومظاهر الكون والحياة، وهذا وذاك دليل واضح

---

(١) الرعد: ٢٨.

(٢) آل عمران: ١٩١.

وصريح على أن هناك إلهًا عظيمًا هو الذي شاء أن تكون فطرة الإنسان كذلك، وشاء أن تكون الحياة والكون كذلك.

بدون هذا التفسير سيكون أي تفسير يطرحه الملاحدة مجرد عبث لا يليق بالرجل العاقل، بل هم أصلًا يهربون من البحث والتفكير حول سؤال: لماذا الخوف في الإنسان؟ لماذا الرغبة في السعادة والخلود؟ كما أنهم ينفرون من سؤال لماذا الكون كذلك؟ حتى وجدنا مثلًا برتراند رسل يدعو لعدم التفكير في مثل هذا السؤال ورفض محاولة الإجابة عليه: لماذا الكون هكذا؟ فقال: «القوانين الطبيعية هي وصف للكيفية التي تتصرف بها الأشياء في الواقع، ولكونها وصفًا لما تفعله بالواقع، لا يمكنك أن تناقش بأنه لابد أن يكون هناك أحد ما قال لها أن تفعل ذلك. إذ حتى عند افتراضك أن هناك أحدًا ما ستجد نفسك وجهًا لوجه أما السؤال التالي: لماذا أصدر الإله تلك القوانين الطبيعية بالذات وليس سواها؟».[1] ووجدنا بول ديفيز الفيزيائي المعاصر يقول: «إذا اتضح أن الحياة مقصورة فقط على الأرض فسنعزو هذا إلى كونها مصادفة تاريخية فقط، وليس علامة على وجود سمة مميزة يتفرد بها النظام الشمسي من حيث قابليته لاستضافة الحياة».[2]

هل رأيت عبثًا أكثر من هذا؟ وهل رأيت سذاجة في التفكير أكثر من هذه؟ وهل رأيت إصرارًا عنيدًا على طرح أي هراء يمكن أن يبعد فكرة الإله الخالق؟ فقول برتراند رسل أشبه بمن يفسر الماء بعد التفكير العميق بأنه ماء ولا داعي لطرح أسئلة أخرى! وقول بول ديفيز أشبه بمن يدخل غرفة فيجد فيها تلفازًا وحاسوبًا ومائدة

---

(١) لماذا لست مسيحيًّا؟ ص٢٠.

(٢) الجائزة الكونية الكبرى ص١٦٣.

وكراسي ومزهرية، وكل ذلك موضوع بتصميم جميل، فيقول بعد تفكير عميق بأنه لا داعي للقول بأن أحدًا تعمد وضع هذه الأشياء على هذا الشكل وفي هذه الغرفة بالذات!

هكذا يتم خنق الروح واغتيال العقل، فقط لأن هناك رغبة قوية ألا يوجد إله!

وديفيز نفسه يكشف هذه الحقيقة بقوله: «منذ وقت طويل والعلماء يدركون أن الكون يبدو ملائمًا بشكل مستغرب للحياة، بيد أنهم اختاروا في الغالب تجاهل هذا الأمر. كان الأمر مصدرًا للإحراج، إذ بدا كأنه يدعم فكرة التصميم المتعمد للكون، كانت المناقشات الخاصة بالمبدأ الإنساني محل استنكار بوصفها لغوًا غير علمي».[1] بل يكشف لنا الدوافع وراء الإنفاق الهائل على برامج البحث عن الحياة في الفضاء البعيد، فيقول: «إن ما يقع خلف برنامج البيولوجيا الفلكية الطموح الذي تموله ناسا وغيرها من المؤسسات ومشروع SETI الذي يهدف إلى العثور على أدلة على وجود كائنات ذكية خارج كوكب الأرض، هو الافتراض بأن الحياة ليست بظاهره استثنائية مقصورة على كوكب الأرض، بل هي نتاج حتمي ومنتشر للقوانين المادية التي تتوافق في جوهرها مع علم الأحياء».[2] فتأمل ماذا يصنع العناد بصاحبه! وإلى أين يذهب به! وعلى أي محمل يحمله! وليت شعري؛ أي الأمرين أقرب لبديهة العقل وألصق بفطرة الوجدان وأمت إلى الحقيقة، أن نربط نشأة الدين بفطرة الإنسان ومبادئ العقل ومعطيات الكون والحياة، وأنّ الإنسان في إطار هذه الفطرة والمبادئ والمعطيات ينطلق تلقائيًّا للإجابة عن الأسئلة الكبرى (من أنا؟ لماذا أنا هنا؟ ما

---

(١) الجائزة الكونية الكبرى ص١٨٥.

(٢) الجائزة الكونية الكبرى ص٢٦٤. SETI هي اختصار لـ (البحث عن الذكاء خارج الأرض).

مصيري بعد الموت؟ لماذا هذا التنوع في الحياة؟ ما سر هذا الجمال والغموض في الكون؟ وغيرها)، أم أن نربط الأمر بشعور الخوف دون غيره من المشاعر والدوافع الأصيلة في الإنسان، كالأمل والحب والجمال والكمال أو بالصراع الطبقي بين شرائح المجتمع والتكالب على شهوات الدنيا، أو بمجرد العجز عن تفسير ظواهر الكون وعجائبه وغرائبه! أو بمجرد رغبة الأغنياء في إلهاء الفقراء والمساكين عن المطالبة بحقوقهم!

إن الفطرة العقلية في الطفل الصغير كما في الرجل الكبير، في الأمي الساذج كما في المتعلم الذكي، لا يمكن أن تنفك عن سؤال لماذا؟ وإذا كانت الرتابة تلهي أكثر الناس عن طرح هذا السؤال حول ظواهر ومظاهر العالم، بدءًا من أنفسهم، ووصولًا إلى مشاهد الوجود الرحيب، إذا كان الأمر كذلك، فإن لحظة الدهشة حين الرؤية المفاجئة لشيء جديد دلالة واضحة على فطرية سؤال لماذا؟ والإدراك المسبق بأن هناك مصممًا هو الذي اختار بمحض إرادته وعلمه وقدرته وحكمته أن يكون هذا الشيء هكذا. أما جهلنا بالغاية النهائية من ذلك فلا يطعن في وجودها، فعدم العلم ليس حجة ولا دليلًا على الانتفاء وعدم الوجود. فَرَسَلْ يريد أن يقول -وهذا قول كل الملاحدة-: بما أني لا أعرف الحكمة والغاية من خلق الكون على هذا الشكل وبهذه القوانين، إذن من الأفضل أن أعتقد أنه لا توجد حكمة ولا غاية! وفي مثل هذا المقام نقول مع الإمام أبو حامد الغزالي: «البلاهة أدنى إلى الخلاص من فطانة بتراء، والعمى أقرب إلى السلامة من بصيرة حولاء».[١]

---

(١) تهافت الفلاسفة ص٢٤.

(٤) أصالة عقيدة الإله

إن الدين حقيقة لازمة لفطرة الإنسان، فهو جزء أصيل ومكون جوهري فيها،، ونزعة عميقة في فطرته وعقله. وهذا المكوّن وهذه النزعة لم يتطور بتطور العقول والحضارات، ولا بتقدم المدنيات وارتقاء العلوم والفلسفات، فـ «منذ أقدم تجليات الوعي البشري، نجد نزوعًا دينيًّا نحو «المتعالي». هذا المتعالي الذي سيختصر فيه الوعيُ الإنسان مُثلَ الحق، والخير، والعدل، والجمال.. إلخ. وهذا النزوع الذي يسكن كينونة الإنسان هو ما نفهمه نحن من معنى فطرية التدين». كما يقول الدكتور الطيب بوعزة[١] أي أن الدين وعقيدة الإله الخالق ما زالا مصاحبين للإنسان منذ خلق الله تعالى آدم عليه السلام (أول إنسان وأبو البشر)، وما زال الإنسان منذ قديم الدهر إلى يومنا هذا يشعر شعورًا عارمًا ويدرك إدراكًا قويًّا وجود إله خالق عظيم، رغم ضبابية صورة الإله الخالق الحق لدى كثير من الناس، بسبب ابتعادهم عن هدي النبوات، ورغم نفورهم اللاهث بعيدًا عنه بسبب انغماسهم في شهواتهم المختلفة وتقاليدهم المنحرفة، إلا أنّهم لا يجدون مفرًّا من هيمنة ذلك الشعور وسلطان ذلك الإدراك! ولذلك زال الله سبحانه يبعث في كل أمة رسولًا ليجدد لها الدين ومفهوم الإله ومقتضيات الإيمان: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾.[٢]

وإننا لنتساءل عن سر بقاء فكرة وعقيدة وجود الإله الخالق والروح والحياة بعد الموت بارزة في تاريخ المجتمعات، بالرغم مما مرت به البشرية من أطوار

---

(١) نقد الليبرالية. الطيب بوعزة ص١٦٤.

(٢) فاطر: ٢٤.

مختلفة في العقل والثقافة والعلم والحضارة، وما اعتراها من الظروف والتقلبات والصراعات، بل حتى وهي في قمة ارتقاءها العلمي والمادي والثقافي كما هو الحال في عصرنا الحاضر! فهل عجز التطور والانتخاب -الذي يلهج به الملاحدة- عن نزع فكرة الدين والإله من النفوس خلال التاريخ الطويل إلا في هذين القرنين الأخيرين من عمر البشرية حيث حقق الإلحاد -بشعبه المختلفة- بعض النجاح!

وما من شك في أن فكرة الإله العظيم اللانهائي الكمال والقدرة والحكمة، لو لم تكن مصدرًا فيّاضًا وكوثرًا دفّاقًا يمنح الإنسان الشعور بالسعادة والراحة والأمان والأمل والقوة، لما كان لها معنى ولما انجذب إليها الناس عبر قرون التاريخ، رغم اختلاف أماكنهم وأزمنتهم وحضاراتهم وثقافاتهم وعاداتهم ولغاتهم. يقول عبد الله الشهري: «الخالق ليس فكرة أو «فلتة» للعقل، وإنما جزء لا يتجزأ من تمام إنسانيّتنا. وتتكمّل إنسانيّتنا، بل تتجمّل أيضًا على قدر اقترابها منه وتعرّفها عليه. فلا نعجب إذًا من تعدد وتنوع العقول التي تؤمن به. فإنّ التعدد والتنوع دليل كل عقل صحيح على كونه حاجة نفسيّة أصيلة».[1] ولهذا لابد للعقول الكبيرة أن تتوقف عند هذا الإحساس الغامر في النفوس تجاه الخالق، وأن تتساءل عن «أساس هذه التقوى التي لا يمحوها شيءٌ من صدر الإنسان؟!».[2] فحتى لو قلنا بعدم وجود الإله، فسيظل الملحد مطالَبًا بتفسير رسوخ عقيدته في النفوس والعقول عبر الخط الزمني السحيق للبشرية، ولا شك أن العجز سيكون حليفه حين يحاول ذلك!

---

(١) ثلاث رسائل في الإلحاد والعلم والإيمان ص١٧١.

(٢) قصة الحضارة. ول وايريل ديورانت ج١ ص٩٩.

إنّ الإنسان قد يعيش في الضلال والكفر، وقد يتوهم الإلحاد سنوات طويلة جدًّا، ثم في لحظة يقظة، انتباه، تذكر، تنكشف عنه كل تلك الزيوف الخادعة التي حالت دونه ودون الحقيقة، ليكتشف أنّه في الواقع إنما يعود إلى طبيعة فطرته الحقيقيّة. وهي عودة تؤكد لنا على أنّ عقل الإنسان مهما تراكمت الزيوف، فإنّ نور الفطرة فيه يظل متوهّجًا هناك في الأعماق، ينتظر لحظة الإشراق والانطلاق.

ونحن إذا بحثنا في سر المسألة، سنجد أن نزعة الإله وميول العقيدة والإيمان لم تأت من فراغ، كما أنها ليس حدثًا عارضًا يمكن أن يزول بزوال سببه الطارئ، بل إن لهذه النزعة ولهذا الميل مصادر أو أسباب قوية جدًا لا يمكن تجاوزها، وهي:

(أولًا) التكوين الفطري. فكما سبقت الإشارة، فإن الإنسان بفطرته متدين، أي مقر بوجود إله خالق عظيم، بغض النظر عن تصوراته في ميزان الحق، وبغض النظر عن زمانه ومكانه، وبغض النظر عن درجة تحضره وارتقائه في مدارج العلم الطبيعي. ولهذا وجدنا الإنسان المعاصر، إنسان العقل والعلم والآلة والتقنية، لم يجد بدًا من التعويض عن حاجته للإله والدين، باللهاث وراء المذاهب الباطنية والمقدسات المزيفة.

(ثانيًا) بروز المعنى في الحياة. لا يمكن للإنسان أن يعيش بلا معنى، بل إنه حين يفقد المعنى، تتحول حياته إلى جحيم كئيب، حتى وإن كان بين يديه شتى الشهوات، من المال والسلطة والشهرة وغير ذلك، ولهذا انفجرت موجات الانتحار اليوم في أرقى الدول التي حققت لأفرادها أعلى دخل مالي، وذلك بسبب الخواء الروحي وفقدان المعنى والشعور بالتفاهة وأن لا شيء يستحق، ومن المؤكد أن الإله هو جوهر المعنى.

(ثالثًا) بناء الكون المشهود. ليس واجبًا أن تكون عالم فلك أو فيزياء، تعيش بين النظريات وآلات البحث في الكون لكي تدرك ببديهة النظر وأولية الفكر أن هذا الكون المشهود عالم عجيب مدهش، بما فيه من أشياء ومشاهد وقوانين، فإن تأمل السماء خلال الليل مثلًا وقد ترصعت بالنجوم الزاهرة ليملأ العقل والوجدان هيبة ورهبة وجمالًا، ومن ثم، فالكون يفرض على الكينونة البشرية وجود خالق عظيم هو مصدره.

(رابعًا) شعور المسؤولية. منذ أن يعي الإنسان وهو لا يزال بعد طفلًا صغيرًا، يصاحبه شعور بالمسؤولية، أمام نفسه، وأمام أسرته، وأمام مجتمعه، ومن ثم لا يزال الآباء والحكومات يحرصون على تنمية هذا الشعور الفطري بالمسؤولية. ثم يكبر المرء ويتعمق وعيه وتتسع خبراته، فينظر في نفسه وفي الأحداث والأشياء من حوله، فيدرك لا محالة أنه المتفرد بهذا الشعور من بين الكائنات الأخرى، فيدرك أن مصدر هذا الشعور لابد أن يكون سماويًا مقدسًا، يتجاوز نطاق الحس والمادة.

فهذه المصادر الأربعة هي أصول روافد نزعة الإله في الكينونة الإنسانية.

ولقد كشف القرآن الكريم أنّ الإيمان بوجود الخالق تبارك وتعالى ليس قابليّة فطريّة لإدراك وجود الله تعالى ومعرفته فقط، بل إنّ الفطرة مطبوعة على هذا الإيمان، وأن الميل والانجذاب إليه مغروس فيها، فلا يمكنها تجاوزه والانسلاخ عنه. يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾.[1]

---

(١) الروم: ٣٠.

فهذه الآية تؤكد على أنّ الفطرة يستحيل أن تتبدّل بشكل نهائي عن أصلها وجوهرها الذي طبعها الله سبحانه عليه، وإنما قد تنحرف وتضل، بعد أن تتراكم عليها الغواشي والظلمات، لأن التبدل الكامل يعني تحول الإنسان إلى كائن آخر!

يقول الإمام الراغب الأصفهاني حول هذه الآية: «نبّه أن معرفته سبحانه من الفطرة التي فطر الناس عليها، وأن المعاندين وإن قصدوا تغيير هذه الفطرة لم يقدروا عليه، ونبه قوله «لا تبديل لخلق الله» على أنهم لا يمكنهم إزالة هذه المعرفة التي فُطروا عليها».[١] وقال الدكتور محمد الزحيلي: «النفس أو الفطرة خلقها الله تعالى، وأودع فيها هذا الاتجاه إلى الخالق، وأن الإنسان مهما ابتعد عن منهج الله، وجحد وجوده، وكفر بالدين، فإن لن يستطيع أن يُغير فطرته».[٢] وقال الأستاذ محمد قطب: «إن الذين يلجّون في الغواية غلى هذا الحد لا ينكرون وجود الله في الحقيقة، فلا يمكن للفطرة -مهما ضلت- أن تنكر وجود الله الخالق، ولكنهم -لسبب من الأسباب- يكابرون ويتظاهرون بالإنكار».[٣]

ولذلك كانت مهمة الأنبياء هي تثوير دفائن الفطرة، وتذكيرها بما هو راسخ فيها أساسًا، ومساعدتها على نفض غبار الغفلة وركام النسيان عنها، كما قال سبحانه: ﴿فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾.[٤] وفائدة هذا التذكير النبوي بمختلف أشكاله، تتجلّى في أنّ

---

(١) الاعتقادات ص٣٦.

(٢) وظيفة الدين في الحياة ص٥٠.

(٣) ركائز الإيمان ص٥٦.

(٤) الأعلى: ٩.

«الذكرى تنفع دائمًا، ولن تعدم من ينتفع بها كثيرًا كان أو قليلًا. ولن يخلو جيل ولن تخلو أرض ممن يستمع وينتفع، مهما فسد الناس وقست القلوب وران عليها الحجاب».[١] وقال سيد قطب: «تلك هي مهمتك، أن تطرح الكلمة التي تهز سمع الناس، لتنفذ إلى عقولهم، ولتفتح في داخلها نافذةً للتفكير في حساب كل تلك الاحتمالات، ليعيشوا قلق المعرفة في مسؤولية المصير، وأن تحرّك الأسلوب الذي يتفاعل مع فطرتهم ومشاعرهم وتطلعاتهم، ليثير اهتماماتهم حول الفكرة التي تقدمها، والخطر الذي يتهددهم، في الأجواء التي يحبونها ويرغبونها ويقبلون على الاندماج فيها، فذلك هو السبيل الأمثل لإخراجهم من الغفلة، وإدخالهم في أجواء التذكر الذي يتذكر الإنسان، من خلاله، مسؤولية وجوده في علاقته بالله، وفي حركة واجباته العملية تجاهه، وفي النتائج الأخيرة التي يكسبها في نهاية المطاف، عندما يقف غدًا، بين يدي الله للحساب».[٢]

ولهذا كانت مضامين النبوات أربعة:

أولًا: أن الإله واحد لا شريك له، متصف بالكمال والعظمة والجلال، هو الذي أبدع الوجود وخلق الحياة على هذا النحو المرئي لغاية حكيمة ومقصد شريف.

ثانيًا: أن دين الله واحد، في أصوله ومبادئه ومقاصده وأهدافه، وإنما تختلف شريعة كل نبي عن الآخر بسبب عوامل موضوعية لا يمكن تجاوزها.

---

(١) في ظلال القرآن. سيد قطب ج٦ ص٣٨٩٣.

(٢) من وحي القرآن. حسين فضل الله ج٢٤ ص٢٣٠.

ثالثًا: أن الفطرة الإنسانية واحدة في كل الناس، مهما تباعدت أزمانهم وأماكنهم، ومهما تباينت منازلهم في التقدم والتطور والحضارة المادية.

رابعًا: أن مصير البشرية واحد، فكل الناس يغذ السير -طال أم قصر- نحو مصيره الأبدي بعد الموت، إما إلى الجنة أبدًا أو إلى النار أبدًا.

والغرض بيان أن عقيدة الإله نزعة إنسانية أصيلة يولد بها الإنسان وتستمر معه إلى الممات، وإن غشّاها الكثير من الركام والغموض، إلا أن الأصل يظل هو هو. وهذا ما توصل إليه ليس فقط فلاسفة الحضارة وعلماء التاريخ، بل وحتى الباحثون المعاصرون. يقول الدكتور جستون باريت: «قمت بالعديد من الدراسات الإضافية على المعتقدات الدينية، كما اكتشف زملائي في ميدان دراستي وهو علم الإدراك الديني مزيدًا من الأدلة على أن الأطفال لديهم ميل طبيعي إلى التفكير والاعتقاد في الآلهة».[1] ويقول: «لو أخذنا مجمل المدى الزمني لوجود الإنسان عبر جنسنا البشري، فقد كان الإيمان بالله هو الأمر الاعتيادي، وكان عدم الإيمان أمرًا غير معتاد على الإطلاق».[2] لأن العقل مفطور على الإيمان بضرورة وجود إله خالق، هو الذي أبدع الكون والحياة، وبثَّ فيهما ما شاء من قوانين وأشياء وكائنات. فكان العقل بهذا المعنى مجبولًا على الاعتراف والإقرار بوجود الخالق، ولا يمكنه إلا الخضوع له والطاعة له، كما قال أبو الحسن العامري: «النفس بجبلّتها طائعة للعقل، **والعقل بجبلّته طائع للبارئ تعالى**».[3] والاعتراف والإقرار والطاعة من العقل للإله الخالق،

---

(١) فطرية الإيمان ص١٣.

(٢) فطرية الإيمان ص٢٥٤.

(٣) الأمد على الأبد ص٨٧.

هو شيء قدري كوني، لأنه أصيل في تكوين الشخصية الإنسان، ولذلك لا يمكن تجاوزه، وإنما تقع الحرية والاختيار بخصوص الإيمان في مظاهر وأشكال الإله، هذا يؤمن ويطيع الإله الحق، وهذا يؤمن ويطيع الإله الباطل.

ويقول أبو حامد الغزالي: «كل آدمي فُطر على الإيمان، وما جاء الأنبياء إلا بالتوحيد، ولذلك قال: قولوا «لا إله إلا الله». فإنه لن يصادف إلا مَن هو مصدق بالإله، وإنما غلط في عينه أو صفته، ثم لما كان الإيمان بالله مركوزًا في النفوس بالفطرة، انقسم الناس إلى مَن أعرض فنسي وهم الكفار، وإلى مَن أجال خاطره فتذكّر، وكان كمن حمل شهادة فنسيها بغفلة ثم تذكرها. ولذلك قال تعالى «لعلهم يتذكرون». وكأن التذكر ضربان: أحدهما أن يتذكر صورة كانت مكتسبة في قلبه بالفعل ثم غابت عنه، والآخر أن يكون تذكره لصورة مُضمّنة بالفطرة في الإنسان».(١)
والإمام يقصد أن دعوة الأنبياء للتوحيد ما كانت لتكون ذات قيمة لولا أن الأصل في الإنسان التصديق بالإله الخالق، وإنما يغلط الناس في تعيين هذا الإله الخالق وتحديد صفاته.

❉ ❉ ❉ ❉

(٥) ثمرات الإيمان بالله تعالى

من خلال هذه الفطرية الراسخة، يمكن أن نستخلص فوائد عقيدة الإله الحق وآثار الإيمان الصادق، ونلخصها في التالي:

---

(١) ميزان العمل ص٣٣٥.

الحاجة النفسية. قد يدرك الإنسان من الشهوات واللذات، وقد يبلغ من النجاح والطموحات، وقد يحصل من القدرة والسلطة، على الشيء الكثير جدًّا. ولكن، كل ذلك لن يكون له معنى ولا قيمة حين يفقد المرء الإيمان، الإيمان بوجود المعنى المتجاوز للإنسان والحياة والكون، والإيمان بأن حياة الإنسان في الأرض ليست نهاية الرحلة ولا خاتمة المطاف! فالإيمان بالله سبحانه هو الوحيد الذي يمنح الإنسان هدوءه النفسي وتوازنه الروحي، وشعوره بالاستقرار والثبات، هو الوحيد الذي يمنحه الأمل والتفاؤل والعزاء مهما اشتدت عليه الظروف وضغطت عليه الأسباب.

الموقع الوجودي. يلهث الإنسان كثيرًا للحصول على القوة والسلطة والمعرفة، وللظفر بالشهوات واللذات، ولتحقيق الأحلام والطموحات، لكن، تظل رغبته في معرفة موقعه في هندسة الوجود ضاغطة، فالإنسان يعيش وسط كائنات كثيرة جدًّا، إلا أنه لا ينفك عن شعوره بالتميز عنها في كل شيء، حتى في القواسم المشتركة بينه وبينها، كما أنه يعيش في عالم فسيح عظيم، كل شيء فيه كأنه مُعدٌّ لاستقباله وخدمته، وكل هذا يدفع به للإيمان بأن موقعه الوجودي فريد، لأن خالقه أراد أن يكون الأمر كذلك. ولهذا حدّث الله تعالى الإنسان عبر النبوات عن أصله المقدس، ودوره العظيم في الحياة، والمصير الكبير الذي ينتظره، وهذا ما يبعد عنه شعور الاغتراب والتفاهة والقلق!

ضبط الغرائز. يشترك الإنسان مع الحيوان في مجموعة من الغرائز التي تضغط لتلبيتها وإشباعها، كغريزة الأكل والجنس والتملك والحرية. إلا أن وضع الإنسان

يختلف تمامًا عن وضع الحيوان، من حيث طريقة تلبية وإشباع تلك الغرائز، ومن حيث أهدافها ومقاصدها. كما أن الإنسان حين يطلق العنان لتلك الغرائز، فإن حياته تتحول إلى جحيم كئيب ومأساة دامية. ولا يوجد شيء يمنح الإنسان القدرة على ضبط غرائزه أفضل من الإيمان بالله تعالى، فهو الذي يمنحه الشعور بالكرامة والمسؤولية وبالقداسة والمتابعة الإلهية يوم الجزاء، ومن ثم، يستطيع الإنسان أن يمارس ضبط وتأجيل وتهذيب مختلف غرائزه، بما يليق بكرامته الإنسانية وانتمائه إلى الخالق العظيم.

وحدة المجتمع. بدون إيمان بالله وبالحساب بعد الموت، فكل شيء يكون مباحًا وجائزًا ومطلوبًا، مهما حقق اللذة والمتعة، وجلب المنفعة والمصلحة الشخصية. لقد هيمنت فكرة الانطلاق بلا حدود ولا قيود على الإنسان الجاهلي المعاصر، أي مبدأ كل شيء مباح، فتمزقت وحدة المجتمع، وانفجرت عليه الأزمات والمآسي التي لم تعرفها المجتمعات خلال التاريخ الطويل. والإيمان بالله تعالى بما يمثل من قيمة ومسؤولية وقداسة وغاية، هو وحده الكفيل بضبط أفراد المجتمع والتنسيق بين رغباتهم، وتوجيه نشاطاتهم بما يعود على الجميع بالخير والسلام والتماسك، وأحد أهم مقاصد النبوات الإلهية هو تحقيق وحدة المجتمع والسلام والتماسك بين أفراده.

فهذه هي أصول فوائد الإيمان وضرورته للإنسان، وبقدر ما يكون هذا الإيمان صحيحًا بالانتماء إلى الدين الحق، وبقدر ما يكون راسخًا وواضحًا في عقل ووجدان صاحبه، يظفر بالسلام والطمأنينة، وينعم بالاستقرار والسعادة.

ولمزيد بيان، نلخص الثمرات اليانعات التي يجنيها العبد المؤمن حين يستجيب -استجابة صحيحة- لنزعة الإيمان الحق الراسخة في كينونته الشخصية، وهي تتجلّى في خمسة أبعاد:

(أولًا) البُعد المعرفي. الإشراق الأول الذي يشع في نفسيّة المؤمن هو المعرفة الرحيبة. وأعني بها أن العبد كلما ازداد معرفة بالله تعالى وعلمًا بأسمائه وصفاته وأفعاله ، ازدادت مداركه العقليّة اتساعًا وعمقًا وفهمًا لأسرار الوجود ومعاني الحياة الصحيحة.

(ثانيًّا) البُعد التحرري. الثمرة الثانيّة التي يقطفها العبد المؤمن من التوحيد هي الحريّة. وهو تحرّر إيجابي فعّال، يعصم المؤمن من الخضوع لشتّى أصناف الطواغيت الماديّة والمعنويّة، التي تؤثر سلبًا على طاقته الشخصيّة والإبداعيّة والسلوكيّة.

(ثالثًا) البُعد الأمني. عندما يتحرر العبد المؤمن من قيود الطواغيت المختلفة، فإنّه يشعر بالأمان والسلام من كل ما من شأنه أن يثير الخوف في أعماقه الباطنة. هذا الأمان والسلام ناتج عن عمق صلته بالله ﷻ، وتفاعله مع تعاليم شريعته.

(رابعًا) البُعد الجمالي. شعور المؤمن بصلته الوثيقة بالله ﷻ، يُفتّق في أعماقه حاسة الجمال، فيحرص على تذوقه عقليًّا من خلال تأمل دلائل التوحيد في الأنفس والآفاق، ووجدانيًّا من خلال تجاوبه مع إشراقاته في كل شيء، وسلوكيًا عبر ممارسته في مختلف نشاطاته.

(خامسًا) البُعد الإبداعي. امتلاء المؤمن بنفحات التوحيد، يُثور فيه طاقات الإبداع تفكيرًا وسلوكًا. فشهوده لروائع الإبداع الرباني في صفحات الأنفس والآفاق، يمنحه مقدرة عالية وحرصًا شديدًا على ممارسته إلى أقصى ما يمكنه في مجالات حياته المختلفة.

إذا تأملنا هذه المعاني الخمسة، تأكد لدينا أن الإنسان لا يمكن أن يشعر بالقيمة والمعنى، ولا يمكن أن ينعم بالهناء والاستقرار، إلا في ظلال الإيمان بالله تعالى، ومحبته وتعظيمه واتّباع أمره والطموح إلى لقائه.

والله سبحانه يعلم أن الإنسان وإن كان الأصل فيه هو الإيمان، إلا أن عوامل مختلفة يمكن أن تغطي على حقيقة الإيمان، ويمكن أن تحجب الفطرة، ويمكن أن تزيف العقل. ولذلك وجدنا القرآن الكريم في عشرات المواضع يعمل على تنبيه العقل وإثارة الوجدان نحو هذه الحقيقة.. حقيقة الإيمان. وقد سلك مسالك شتّى:

تارة بلفت انتباهه إلى آيات الكون: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.[١] ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَـٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾.[٢]

تارة بلفت بصيرة إلى آيات الأرض: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾.[٣] ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ

---

(١) يونس: ٥.

(٢) آل عمران: ١٩٠.

(٣) النمل: ٨٨.

مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾.(١)

تارة بلفت عقله إلى ذاته الشخصيّة: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴾.(٢) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾.(٣)

تارة بلفت مداركه إلى الأحياء: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾.(٤) ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾.(٥)

تارة بتذكيره بتفرده بالوحدانية: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.(٦) ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾.(٧)

---

(١) فاطر: ٢٧.

(٢) الإنسان: ١.

(٣) الحجرات: ١٣.

(٤) الأنعام: ٣٨.

(٥) النور: ٤٥.

(٦) الأعراف: ٥٤.

(٧) البقرة: ١١٧.

تارة بتذكيره بالموت والمصير المحتوم: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾.[1] ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾.[2] ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.[3]

إلى غير هذا من مجالات التفكر والاعتبار التي حثّ الله تعالى الإنسان على التّأمل فيها وتقليب النظر في معانيها. إذ أنّ «القرآن يوجه القلوب والأنظار توجيهًا مكررًا مؤكدًا إلى هذا الكتاب المفتوح، الذي لا تفتأ صفحاته تقلب، فتتبدى في كل صفحة آية موحية، تستجيش في الفطرة السليمة إحساسًا بالحق المستقر في صفحات هذا الكتاب، وفي تصميم هذا البناء، ورغبة في الاستجابة لخالق هذا الخلق، ومودع هذا الحق، مع الحب له والخشية له في ذات الأوان».[4]

والقرآن حين يعمل على تجديد الإيمان وتثوير الفطرة وتنبيه العقل، فلأنه يعلم أنّ الإيمان جزء أصيل ومكون جوهري في الوعي والوجدان. ففي أعماق العقل ومجاهل الروح فضاءات هائلة جدًّا لا يملؤها شيءٌ إلا حضور الله تعالى فيها بكماله المقدس وعظمته الفائقة، ومن ثم لا تستقر كينونة الإنسان من قلقها، ولا تطمئن من مأساتها، ولا تتحرر من اغترابها إلا بمعرفته ومحبته وبتعظيمه وعبادته والشوق إلى

(١) آل عمران: ١٨٥.

(٢) الأنعام: ٦١.

(٣) البقرة:٢٨١.

(٤) في ظلال القرآن. سيد قطب ج١ ص٥٤٤.

لقائه، كما قال الإمام ابن القيم: «في القلب شعث لا يلمه إلا الإقبال على الله، وفيه وحشة لا يزيلها إلا الأنس به في خلوته، وفيه حزن لا يذهبه إلا السرور بمعرفته وصدق معاملته، وفيه قلق لا يسكنه إلا الاجتماع عليه والفرار منه إليه، وفيه نيران حسرات لا يطفئها إلا الرضى بأمره ونهيه، وقضائه ومعانقة الصبر على ذلك إلى وقت لقائه، وفيه طلب شديد لا يقف دون أن يكون وحده مطلوبه، وفيه فاقة لا يسدها إلا محبته والإنابة إليه ودوام ذكره وصدق الإخلاص له، ولو أُعطي الدنيا وما فيها لم تُسدَّ تلك الفاقة منه أبدًا».[١] وقال العلامة يوسف القرضاوي: «والحقيقة أن في فطرة الإنسان فراغًا لا يملؤه علم، ولا ثقافة ولا فلسفة، إنما يملؤه الإيمان بالله جل وعلا. وستظل الفطرة الإنسانية تُحس بالتوتر، والجوع والظمأ، حتى تجد الله، وتؤمن به، وتتوجه إليه. هناك تستريح من تعب، وترتوي من ظمأ، وتأمن من خوف، هناك تحس بالهداية بعد الحيرة، والاستقرار بعد التخبط، والاطمئنان بعد القلق. فإذا لم يجد الإنسان ربه -وهو أقرب إليه من حبل الوريد- فما أشقى حياته، وما أتعس حظه، وما أخيب سعيه، إنه لن يجد السعادة، ولن يجد السكينة، ولن يجد الحقيقة، ولن يجد نفسه ذاتها، ﴿كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾».[٢]

ومن هنا، فحينما يحاول الإنسان أن يتنكّر لهذا الإيمان المتجذر في ذاته الفطريّة، فإنّما ينتقل من «سعة الإيمان الصحيح الواسع» إلى «ضيق الإيمان الفاسد الضيّق»، فيظل إحساس الخواء والفراغ يضغط عليه بعنف وقسوة! كما حدثت

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ج٣ ص١٥٦.

(٢) القضايا المبدئية والمصيرية الكبرى للإنسان ص١٢٣.

كاترين تيت ابنة الفيلسوف راسل -الفيلسوف الملحد المعروف- في كتابها (أبي، برتراند راسل) أنّ أباها كان يشعر دائمًا بوجود مكان شاغر في عقله وقلبه. مكان كان يشغله الرب عندما كان راسل صبيًّا، ثم أصبح خاويًا ولم يعثر على شيء يملؤه. وتقول بأن والدها كان يشعر دائمًا أن جوهر الإنسان لا ينتمي إلى هذا العالم المادي![1]

❊ ❊ ❊ ❊

(٦) إنكار وجود الله تعالى

إنّ التأمل في هذه المعطيات يحيطنا علمًا بأنّ الإنسان لا يمكنه إنكار وجود الإله قبل أن ينكر عقله ووجوده، وقبل أن ينكر العالم من حوله. ومن ثم فإذا كان الإلحاد حقًا، فالعقل باطل، وإذا كان العقل حقًا، فالإلحاد باطل! ومعنى هذا الكلام، هو أن إثبات العقل والذات الشخصية والعالم يتوقف على مقدمات بعضها مرتبط ببعض، أبرزها مقدمة الثقة بأحكام العقل، وهذه الثقة غير ممكنة بدون مقدمة إثبات الضروريات العقلية وعلى رأسها ضرورة السببية، وهذه يلزم عنها مقدمة أن هذه المعارف البديهية مصدرها خارج العقل والكون، وهذه تقتضي مقدمة نفي تطور العقل وانبثاق الوعي من المادة.

فكما ترى، فإن كل هذا يدفع دفعًا للإقرار بوجود الخالق، وينفي نفيًّا عدم وجوده، وإلا استحال إثبات الذات الشخصية بما فيه من وعي وشعور، قبل أي شيء

---

(١) رحلة عقل. عمرو شريف ص٤٠.

آخر! فخرج من هذا أن وجود الله سبحانه ضرورة عقلية كما أنه ضرورة وجودية، بل وجوده أصل أصيل لكل موجود ولكل معلوم. وقد أشار الإمام ابن القاص إلى هذا المعنى بقوله: «مَن أنكر عقله أنكر صانعه».[١] ومعناه أن من أثبت عقله أثبت الخالق. وقال الله سبحانه: ﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾.[٢] فهذا التعليم الإلهي يشمل الجانب المادي المتمثل في تيسير حواس وأدوات التعلم، كما يشمل الجانب المعنوي المتمثل في تهيئة المدارك العقلية لاكتساب العلوم والمعارف. والله أعلم.

وقد وجدت الأستاذ سامي عامري يشير إلى نفس المعنى بقوله: «إن الإنسان الذي يزعم الإقرار بحقيقة الإنسان وفهم العالم دون أن يقر بوجود الله، إنسانٌ متناقض، لأن وعيه بنفسه والعالم لا يتم دون بنائه على الإيمان بالله»، ثم نقل عن الفيلسوف الأمريكي سيرول قوله: «وجود الله هو العنصر الأساسي لصناعة أي نظرة كونية، إنكار الافتراض الرئيس إبحار إلى جزيرة العدمية».[٣] وقد قرر الإمام ابن تيمية تيمية أيضًا نفس المعنى، فقال: «لا يكون الإنسان عالمًا بغيره على الوجه الذي ينبغي حتى يعلم ما به وُجد وتحقق، وذلك لا يكون إلا مع العلم بالله تعالى، ولهذا لا يزال العقل يطلب للموجود -الذي لم يوجد بنفسه- ما به وُجد، سواء سُمي ذلك مؤثرًا أو فاعلًا أو علة فاعلة أو صانعًا أو ربًا، حتى ينتهي النظر إلى الله سبحانه وتعالى، فحينئذ

---

(١) الفقيه والمتفقه. أبو بكر الخطيب البغدادي ج٢ ص٣٧.

(٢) اقرأ: ٣-٥.

(٣) براهين وجود الله ص١٦٦.

يقف الطلب، فوجوده أصل كل وجود، وعلمه أصل كل علم».[١] ولهذا نجد القرآن أحيانًا يربط بين النظر في الذات وبين النظر في الكون: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.[٢] وفي قوله: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾.[٣]

نخلص من هذا إلى أنّ الإنسان في تعاطيه مع عقيدة وجود الإله، يتخذ موقفين:

الأول، هو مسار التصور الصحيح عن الله تعالى ومقتضياته المختلفة، فكريًا وقيميًا وأخلاقيًا وحضاريًا. وهذا هو الإيمان الصحيح.

الثاني هو مسار التصور المشوه عن الله تعالى ومقتضياته المختلفة، فكريًا وقيميًا وأخلاقيًا وحضاريًا. وهذا هو الإيمان الخطأ والمزيّف، أي الشرك والإلحاد.

الإلحاد -إذن- في البيان القرآني **ممارسة سلوكيّة**، وليس **عقيدة إدراكيّة**، أي إنّ القرآن عالج فكرة الإلحاد في النفس والتاريخ، سواء الإلحاد الكلي أي دعوى الإنكار للإله، أم الإلحاد الجزئي أي الإنكار لعقيدة الآخرة والنبوات مثلًا، عالج هذه الفكرة في شقها السلوكي وأنماط الحياة، كما لو كان ممكنًا فعلًا إنكار وجود الله تعالى**!**

وإذ كان الأمر كذلك، فيمكننا تقسيم الإلحاد إلى اتجاهين اثنين: **الأول**. إلحاد داخل الإيمان المباشر. **والثاني**. إلحاد خارج الإيمان المباشر.

---

(١) شرح الأصبهانية ص١٠٩.

(٢) الجاثية: ٤.

(٣) الروم: ٨.

ونعني بالإلحاد داخل الإيمان أنّ الملحد لا يعلن عن إلحاده بشكل مباشر، أي إنكار وجود الإله، بل هو حريص على تبّني فكرة وجود الإله الخالق. إلاّ أنّه يرفض معطيات الوحي، عبر كَمٍّ من التّأويلات والتزييفات والتحريفات والشعارات والمغالطات، التي يحاول أن يدعم بها مواقفه الفكريّة والسلوكيّة، مع التوكيد على إيمانه بوجود الله تعالى.(١) ويدخل في الاتجاه مثلًا العلمانية.(٢)

ونعني بالإلحاد خارج الإيمان أنّ الملحد يعلن عن إلحاده بشكل مباشر، أي إنكار وجود الإله، إما اكتفاء بمجرد الإنكار أو بمحاولة عرض أدلته على النفي، أو بادعاء الحياد تجاه الإقرار والإنكار. فالملحد هنا يرفض مرجعيّة الوحي، ويكتفي بالعقل والعلم والتجربة لرسم إطار الحياة وتحقيق الفردوس الأرضي.(٣) ويدخل في هذا الاتجاه مثلًا الماديون،(٤)، واللاأدريون.(٥)

---

(١) تأمل قول الحق سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ النساء:٦٠. فهؤلاء قوم يعلنون الإيمان، ولكن في المقابل يرفضون الالتزام بمضامينه التشريعيّة، ويقرّرون التحاكم إلى مرجعيّة تشريعيّة غير الوحي.

(٢) العلمانيّة هي فصل الإنسان عن منظومة التشريع الربّاني في نشاطات الحياة المختلفة، ليمارس حياته بمختلف مظاهرها في إطار التمركز حول الذات (الهوى والتجربة والمقدس الدولي)

(٣) تأمل قول الحق سبحانه: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [غافر:٨٣] . فهؤلاء قوم رفضوا الإيمان ومنظومته المعرفيّة والتشريعيّة، اكتفاءً بأهوائهم وعلومهم وتجاربهم!

(٤) المادية تعني الاعتقاد بألا وجود سوى للمادة، وجميع الظواهر (النفسيّة والأخلاقيّة.. إلخ) إنما هي أشكال وانعكاسات للمادة. معجم المصطلحات والشواهد الفلسفيّة. جلال الدين سعيد ص٤٠٥.

(٥) اللاأدرية تعني التوقف عن الحكم بالنفي أو الإثبات، بسبب عجز العقل على المعرفة، =

إن قضية الإيمان أعظم من أن يجعلها الرجل العاقل مسرحًا للعبث واللعب، وأجلّ من أن يتخذها مجالًا لعناده وثورته، وأكبر من يتعاطى معها بمنطق مختزل وساذج. غير أننا نطالب هنا من شاءت له نفسه أن يلعب لعبة النفي والإنكار لوجود الخالق سبحانه، أن يلتزم بلوازم قناعته في التفكير والشعور وفي السلوك والحياة والواقع، ونحن على ثقة بأن من يحاول ذلك، بأقصى ما يمكن، فإنه حتمًا سينتحر أو سيعود إلى الإيمان. أما حين ينكر المرء وجود الله سبحانه، ومع ذلك يعيش حياته في كثير من مظاهرها كما لو كان يؤمن بالله، فلا يمكن أن نصف هذا الموقف سوى أنه عبث ماجن واستهتار أحمق وتناقض صارخ!

❊ ❊ ❊ ❊

(٧) إيمان التقليد

ولنختم هنا بشبهة رائجة بين الملاحدة -والعجب أنه قد تأثر بها حتى بعض حملة الشهادات الشرعية!- وهي قولهم: «أنتم معشر المسلمين تدّعون أن الإيمان حق وحقيقة مطلقة، بل وأن الإسلام هو الدين الصحيح. ومن الواضح أن داعية هذه العقيدة هي تقليد الأهل والمجتمع. فإيمانكم وإسلامكم مجرد تقليد، وما كان عن تقليد فلا قيمة له معرفيًّا».

بادئ ذي بدء؛ فإنّ هذا الترويج والإشاعة له أهداف، منها:

= ولهذا يرفضون -كما يزعمون- إثبات أو نفي وجود الخالق. المعجم الفلسفي. جميل صليبا ج٢ ص٢٥٨.

أولها. الإيحاء بأن المسلم مجرد مقلد، عكس الملحد فهو بحّاثة مجتهد يتّبع الحجة والبرهان!

ثانيها. تشكيك المسلم في معتقداته، إذ النفس تنفر من وصمة التقليد ولو إلى التمرد!

ثالثها. تحقيق التبرير النفسي لخيار الإلحاد، بدعوى أنه بديل يقتضيه العقل والعلم!

ثم إن هذه الشبهة لا حجة فيها، وذلك لأمور:

نعم؛ للبيئة دخل في التأثير على توجيه الإنسان، ونحن لا ننكر هذا، بل حتى الوحي لا ينكر ذلك، كما أشار الله تعالى في قصة ملكة سبأ، فقال: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾.(١) وغير ذلك من الآيات الكثيرة التي تؤكد على سلطة البيئة الاجتماعية في توجيه القناعات والرؤى العقدية.

ولكن ينبغي التنبيه أولًا إلى أنّ الحق تبارك وتعالى لا يحاسب الإنسانَ على ما لا دخل له فيه، مثل مكان وزمان الميلاد، والأبوين، والهيئة الجسدية، والنوع ذكر أم أنثى. والله سبحانه لرحمته وحكمته قد أحاط الإنسان بآلاف الحجج والبراهين والمنبّهات الساطعة في الأنفس والآفاق على ضرورة وجوده وأصول صفاته، فلو خُلّي الإنسان بدون تأثير عوامل خارجيّة تنحرف بفطرته لما وجد أدنى تردد في الإيقان بضرورة وجود إله خالق، متصف بالعلم والقدرة والحياة والحكمة والعزة والرحمة، ولاهتدى بداعية فطرته وغريزته العقلية إلى الإله الحق.

---

(١) النمل: ٤٣.

إنّ البيئـة الأسـرية والاجتماعيـة مهمـا كانـت مغرقـة في الانحـراف والكفـر والضلال، فيستحيل أن تُغيّر الفطرة التي فطر الله تعالى الإنسان عليها تغييرًا كليًّا. فالإنسـان في أي زمـان ومكـان، لا يقـدر أن يُنكـر البـديهيات العقليّـة، والحـق تبـارك وتعالى يقيم حجتَه على الإنسان من خلال هذه المعارف الفطريّة الضروريّة التي يعجز الإنسان عجزًا مطلقًا عن إنكارها، سواء أكان جاهلًا أم عالمًا، بليدًا أم عبقريًّا، قبل آلاف السنين أم بعد آلاف السنين. ومن هذه المبادئ الفطرية (مبدأ السببيّة)، وهي أن العقل يضطر اضطرارًا قاهرًا لأن يعترف بأن كل حدث له مُحدِث، وأن كل شيء له سبب.

كما أن الإنسان وإن كان في غاية الانحراف الأخلاقي والانغماس المادي، فإنه لا يستطيع ولا يمكن أن يوقف وقفًا نهائيًّا تأثره بإيحاءات مشاهد الكون والحياة، بروعتها وجمالها ودقتها وتناسقها ونظام حركتها وعلاقاتها، سواء أكان جاهلًا أم عالمًا، بليدًا أم عبقريًّا، قبل آلاف السنين أم بعد آلاف السنين. والحق سبحانه وتعالى يقيم حجته على الإنسان من خلال هذا الكون الفسيح، بما فيه من أشياء ومشاهد ومظاهر وآيات. ومن أعظم ما يثيره الكون في النفوس والعقول (مبدأ الغاية)، وهي أن العقل يضطر اضطرارًا قاهرًا لأن يتساءل عن الغاية من خلق هذا الكون البديع، لأن وجوده على هذا الشكل وبهذا النحو يستحيل أن يكون صدفة عابرة، بل لابد أن تكون غاية عظيمة.

وثالث أعظم حجة أقامها الله سبحانه على الإنسان، هي حجة الوحي. فما زال سبحانه يرسل أنبياءه ورسله ليذكروا الناس بحقيقة فطرتهم التي طبعت على عقيدة

الإله، ولتفصيل المجمل في عقولهم عن الإله الخالق سبحانه، ولبيان المهمة التي خلقهم لأجلها في هذا العالم الدنيوي، ولكشف المصير المحتوم المنتظر بعد الموت، لمن آمن وأطاع ولمن كفر وعصى. وحجة النبوة تكمن في أن التأمل فيها يُلزم العقل الموضوعي بأن مصدرها هو خالق الإنسان والكون والحياة، وذلك لما تتضمنه من المعارف العالية والمطالب الشريفة والنظم العادلة التي تتوق إليها النفوس الفاضلة وتبحث عنها العقول الراقية، ولذلك أمر الله تعالى بالتفكر في منظومة الوحي: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.[1]

ومن هنا؛ فالخالق سبحانه لا يحاسب العبدَ على أنه وُلد في بيئة إسلامية أو إلحادية، رغم أن الميلاد في بيئة إسلامية وبين أبوين مسلمين نعمة كبرى وعامل مساعد على بقاء الفطرة في مستوى عال من النقاء والصفاء، بل يحاسبه على مدى استجابته لفطرة العقل المركوزة فيه، وكيف استثمر تلك الفطرة ومبادئها الإدراكية، في طريق الإيمان أو الإلحاد؟ في سبيل الخير أو الشر؟ في مسار الهدى أو الضلال؟

نعم؛ تختلف مستويات الناس في سعة الإدراك، وبينهم فروق واضحة في الوعي والاطلاع على تفاصيل تلك المنبّهات والبراهين الإلهية في الأنفس والآفاق، لكن هذا لا ينفي وحدة العقول في معرفة أصول الحقائق الوجودية. ولذلك لا يحاسب الله تعالى العبد على عدم إدراك التفاصيل، بل على تلك الأصول المجملة في فطرة عقله. ولأجل هذا؛ نجد في القرآن الكريم عشرات الآيات الآمرة بالنظر في مسارح الكون والحياة، كما في قوله سبحانه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي

---

(١) النحل: ٤٤.

ﮋﭴ ﭵ ﭶ ﭷﮊ.[1] ولولا وجود منظومة إدراكية في فطرة العقل لما كان للأمر بالنظر في ملكوت الكون والحياة أي معنى، إذ لابد للنظر من قاعدة يؤسس عليها وينطلق منها. أما إدراك التفاصيل فهو مجال تسابق العقول حسب ما تيسر لها من الوسائل، ولذلك حث عليه الإسلام لأنه يعتبر ذلك عبادة مقدسة وعملًا صالحًا وغاية شريفة.

القضية إذن ليست في كون المسلم وُلد لأبوين مسلمين، ولذلك فهو مجرد مقلد، ومن ثم لا قيمة لإسلامه وإيمانه. بل القضية في جوهرها في قيمة هذا الانتماء من حيث كونه حقًا أم باطلًا، صوابًا أم خطأ في نفسه، ولذلك كان إيمان عوام المسلمين المجمل مقبولًا، كما نقل أبو سالم العياشي عن بعض العلماء قوله: «كل من سلّم أن الله خالق معبود له كل شيء، وآمن به على ما هو عليه، مع أنه ليس كمثله شيء، فهو عارف بالله تعالى. ومن سلّم أن للدار مالكًا يتصرف فيها كيف شاء على ما ينبغي له، فهو عارف برب الدار إيمانًا لا حيطة، وكذلك هي معرفة الله تعالى إيمانًا به، وإن لم يحصر تلك المعاني التي سلّمها ولا يحسن العبارة عنها، فهذه المعرفة الإجمالية تُخرج العبد من الظلمة إلى النور، ومن الكفر إلى الإيمان. وأما التفصيل في النظر في الأفعال ودلالاتها عليها فلزيادة اليقين في التسليم واطمئنان القلوب وعلوم الدرجات في العلم».[2] وكذلك نقل عن أبي منصور الماتريدي الإجماع بأن العوام

---

(١) الجاثية: ١٣.

(٢) الحكم بالعدل والإنصاف ج١ ص٢٠٣.

مؤمنون عارفون بالله تعالى، لأن فطرتهم جُبلت على توحيد الصانع وحدوث الموجودات، وإن عجزوا عن التعبير عن ذلك على اصطلاح المتكلمين.[١]

إن المسلم لم يؤمن بوجود الله تعالى لأنّه نشأ في بلد مسلم وفي بيئة اجتماعيّة تؤمن بالخالق -رغم أن ذلك عامل مساعد كما قلنا-، بل لأنّ ضرورة العقل والكون والحياة تُحتّم وجود إله خالق وتقضي بضرورة هذا الوجود، بالرغم من أن عوام المسلمين يعجزون عن التعبير عن الأدلة حسب المناهج والاصطلاحات المعروفة، وهذا ليس عيبًا فيهم، إذ معرفة ذلك تقتضي الاشتغال به زمانًا، وليس كل المسلمين مأمورين بالتفرغ لتحصيل ذلك، وإلا اختّل العمران واضطربت أحوال الناس. أما الملحد فمن البيّن الواضح أنه ألحد لا لاعتبارات برهانية صحيحة، بل لعوامل شتّى تراكمت عليه ومهّدت له السبيل للسقوط في حمأة الإلحاد. وهذا ما يعترف به الذين عادوا إلى الإيمان.

ولأن الإسلام يعتبر قضية وجود الخالق سبحانه بديهة فطريّة لا يمكن الانسلاخ عنها، رغم ما قد يشوبها من الغبش والضبابية والانحراف، فإن المسلم حتى وإن كان جاهلًا، هو عمليًّا مؤمن إيمانًا فطريًّا عقليًّا، لأن الإيمان بالخالق كما قلنا مكون أساسي في بنية العقل، بالرغم من عجزه في حال كونه جاهلًا عن ترتيب الأدلة منهجيًّا. ولهذا لن تجد مسلمًا واحدًا حتى الجاهل الساذج -ولا أتحدث عن

(١) الحكم بالعدل والإنصاف ج٢ ص٤٢٢.

عشاق التفلسف البارد- يقول لك (أنا مسلم تقليدًا لوالدي أو لمجتمعي)، لأنه يعتبر إيمانه بالخالق سبحانه ولوازم هذا الإيمان بديهيات مركوزة في عقله، ومن ثم فهي لا تقتضي البحث عنها لإنشائها، عكس المسائل الفقهية، فلو سألته عن الصلاة مثلًا سيقول لك (لقد قال أبي أو سمعت الشيخ يقول: الصلاة تقام بهذا الشكل)، لأن هذه المسائل ليست مركوزة في الفطرة، ولهذا تقتضي السؤال والتقليد لمن لم تتح له فرصة دراستها منهجيًا.

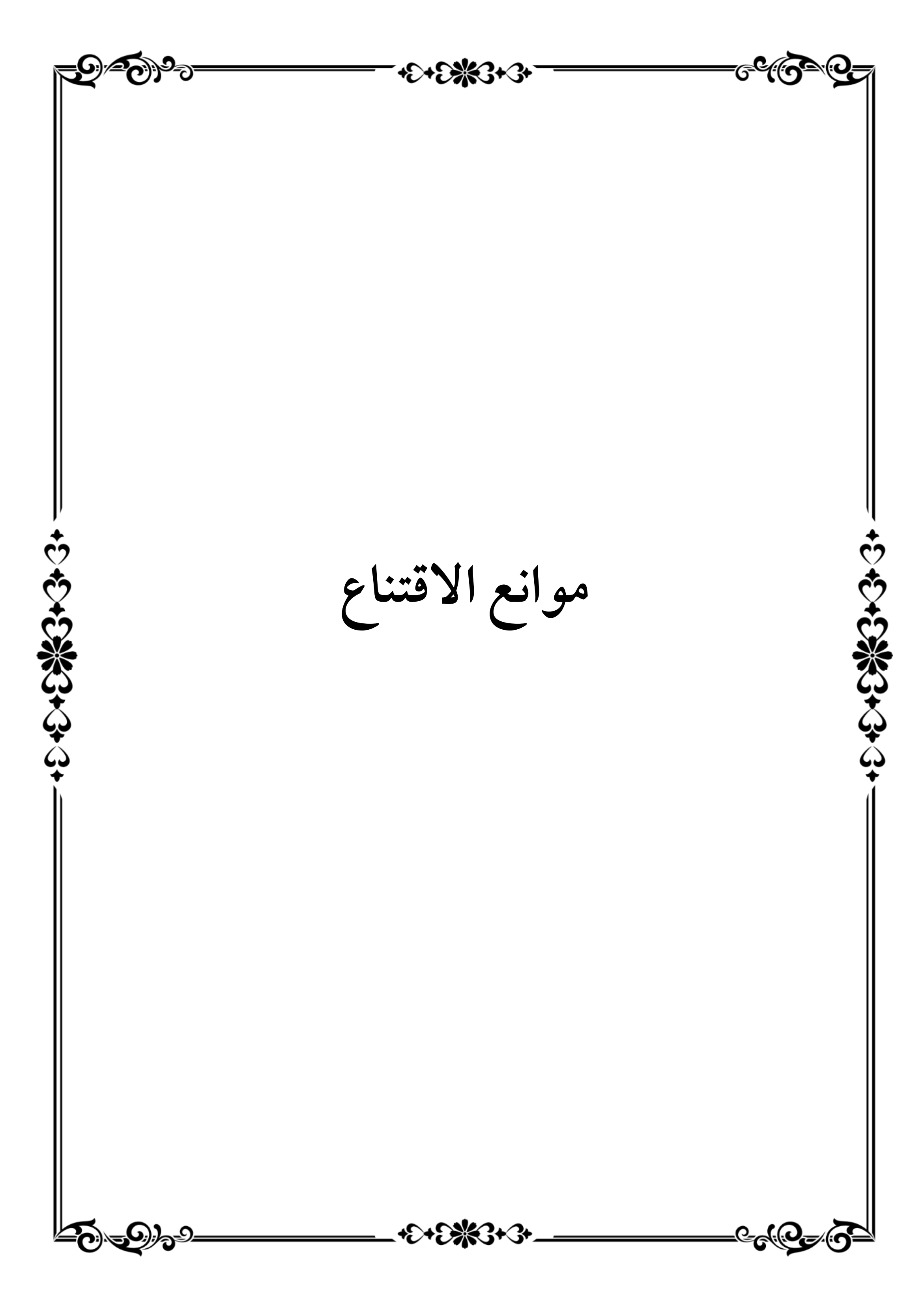
إن الملاحدة رغم أنّهم يلهجون بأن المسلم مسلم بالتقليد؛ ولولا البيئة التي وُلد فيها لما كان مسلمًا، إلا أن الواقع يؤكد لنا بأن جمهور هؤلاء الملاحدة هم مجرد مقلدة، ولم يكن إلحادهم أبدًا إلحادًا مؤسسًا على نظر عقلي منهجي، ولا على أصول علمية موضوعية، بل نشأ في إطار عوامل مختلفة مرتبطة في مختلف أبعادها بالجانب النفسي بدلالته الواسعة. وإلا فنحن نلزم جمهور الملاحدة بأن يكونوا أولًا متخصصين في الفيزياء والبيولوجيا وغيرهما، لكي يكون إلحادهم له شيء من الاعتبار، أما الواقع فيؤكد أن هؤلاء الجمهور إنما يرددون كلامًا من هنا وهناك، على أساس أنه دراسة علمية، أي أنهم مقلدون فقط، فهم لم يبحثوا ولم يجربوا ولم ينشئوا دراسة علمية واحدة!

وإذا كان الملحد يدعي بأن المسلم -والمؤمن عمومًا- إنما تأثر ببيئته الإيمانية، فيمكن أن نقول بأن الملحد أيضًا إنما تأثر ببيئة الإلحاد، كالكتب

والفيديوهات والأصدقاء ووسائل التواصل الاجتماعي، ولولا هذا كله لما ألحد ولما خطر بباله الإلحاد أصلًا! وخير دليل على صحة هذا المعنى، أن الواقع والدراسات يجمعان على أن الإلحاد ازداد انتشارًا بعد ترجمة الكتب الغربية ومذاهبها الفلسفية المختلفة، ثم زاد أكثر مع دخول الإنترنت إلى فضاء الاستعمال العام، ثم زاد أكثر بعد هجمات الـ(١١/ ٠٩/ ٢٠٠١) بأمريكا، واستغلال أمريكا خصوصًا والغرب عمومًا وصبيانهم العرب الفرصة لتحقيق مزيد من تزييف وعي الشباب وسلخهم عن دينهم وتنفيرهم من عقيدتهم.

وبعد: إن قضية البيئة والتقليد التي يلهج بها الملاحدة، تسقط سقوطًا ذريعًا حين نتذكر أن هناك ألوفًا من جنسيات وقوميات شتّى، دخلوا الإسلام وأعلنوا الإيمان، رغم نشأتهم وعيشهم طويلًا في بيئة الشرك والوثنية والضلال والمادية، ورغم انغماسهم الكبير في حمأة الشهوات المنفلتة. فكان ذلك من أوضح الأدلة على أن حجة البيئة حجة متهافتة.





موانع الاقتناع

(١) سمات أدلة وجود الله

قال الله تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.[(١)]

إن عرض هذه المشاهد المعجبة المدهشة والمثيرة؛ في صفحات الكون والحياة، والفصل بين كل مشهد وآخر بقوله (أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللهِ) يشير إلى حقيقة كبيرة، وهي أن القرآن الكريم يعتبر النظر في ملكوت الكون والحياة وعجائب الخلق في كيان الإنسان، عنصرًا فعّالًا في تثوير مكامن الفطرة ودفائن العقل. ومن ثم، فهذه المشاهد الوجودية الكثيرة والمتنوعة والثرية لا يجعلها القرآن مجرد أدلة تشير إلى وجود الله تعالى، بقدر ما يجعلها أدلة على ضرورة وحدانيته العظيمة وألوهيته المقدسة، وبذلك يكون النظر والتفكر في عظمة الخالق انطلاقًا من مشاهد الكون وما فيه من أشياء وأشخاص وعناصر وسيلة لترقية العقل وتزكية النفس وتثوير الوجدان.

إن مَن ينظر في نفسه وما فيها من عجائب وغرائب، ومن ينظر في الحياة من حوله وما فيه من دهشة وروعة، ومن ينظر في هذا الكون الهائل الشاسع، بمشاهده

---

(١) النمل: ٦٠-٦٤.

وأشيائه وقوانينه، إن من ينظر في كل هذا، ثم لا يجد فيه برهانًا ولا حجة مقنعة على ضرورة وجود إله عظيم وخالق جليل، أي برهان إذن يمكن أن يقنعه؟ وأية حجة إذن يمكن أن يخضع لها؟ اللهم إلا عقلًا منتكسًا مرتكسًا: ﴿وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾.[1] ﴿وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا﴾.[2] ﴿قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُۖ فَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾.[3]

ماذا يعني هذا؟ إنه يعني أن الأمر ليس كما يتوهم الملحد ويروج لذلك، أي عدم وجود أدلة أو عدم كفايتها، لمجرد التشكيك فيها! فما أسهل الدعوى، وما أيسر التشكيك في كل شيء نريد التشكيك فيه، ولكن الحق حق ولا يبطله تشكيك متشكك. ومن هنا فأدلة وجود الله تعالى، بل ضرورة وجوده، تتسم بثلاث سمات كبرى، نجملها في التالي:

السمة الأولى: المجانية. أي أن هناك مجانية واسعة وكثرة متنوعة في أدلة وجود الله تعالى، في النفس والحياة والكون والوحي والتاريخ، بل إن كل ذرة من ذرات الوجود هي بحد ذاتها دليل ساطع وآية باهرة على وجود الله بل ضرورة وجوده سبحانه.

السمة الثانية: البساطة. رغم أن أدلة وجود الله تعالى كثيرة ومنوعة إلا أنّها بسيطة غير معقدة، مفهومة غير غامضة، بحيث إن كل العقول مهما كان مستواها في العلم والذكاء والمهارة في العلوم والمعارف، تستطيع استيعابها بسهولة بالغة.

---

(١) النور: ٤٠.

(٢) الكهف: ٤٩.

(٣) الأنعام: ١٤٩.

السمة الثالثة: الضرورة. الإنسان مخلوق لله تعالى، ولذلك فالتكوين العقلي والشعوري فيه يقتضي أن يكون الإيمان بالله والاعتراف به والشوق إليه من لوازمه. ولهذا فإن كل إنسان في أي زمان ومكان لا ينفك عن الإيمان بقوة عليا وكائن عظيم هو سبب الوجود.

وبسبب هذه السمات الثلاث، قالت الأنبياء عليهم السلام لأقوامهم: ﴿قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾.[١] فالأنبياء عليهم السلام استنكروا الشك في وجود الله تعالى، سواء من جهة كونه خالقًا أو من جهة كونه إلهًا. أي إنّ الآية ترد على المتوهمين عدم وجود خالق لهذا الكون العظيم، بأنّ ذلك ضرورة فطرية وعقليّة قبل أي شيء آخر، وأن هناك أدلة واسعة ومتنوعة على وجود الخالق تبارك شأنه. كما أنّها ترد على المتوهمين عدم تفرّد الله بالألوهيّة المقتضية لإفراده بالعبادة والتشريع والحاكمية.

وفي قول الله سبحانه: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ﴾.[٢] تتجلّى فكرة المجانية والفطرية والضرورة بشكل واضح وأنها مقصودة له تبارك شأنه، فتركيب (سنريهم ... حتى) دلالة ساطعة على أن الله سبحانه يقصد قصدًا لكشف الكثير جدًا من الآيات والدلائل في مجالات الوجود (الإنسان، الحياة، الكون) حتى لا يجد الإنسان –ولو في قرارة نفسه– مفرًّا من الإقرار بضرورة وجود الله سبحانه، لأن تلك الدلائل في الأنفس والآفاق منبّهات ومثيرات لما هو مكنون

---

(١) إبراهيم: ١٠.

(٢) فصلت: ٥٣.

أصلًا في فطرة الإنسان وعقله ووجدانه. ولهذا، فكل إنسان لابد أن يقر ويعترف بوجود إله خالق لهذا العالم بما فيه من أشخاص وأشياء ومشاهد، بغض النظر هل يهتدي إلى الإله الحق أم يضل سواء السبيل. كما كشف سبحانه عن اعتراف الإنس بربوبيته العظيمة وهم لا يزالون بعد في عالم الذر: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾.[١] فهذه الآية تقرر رسوخ مبدأ وجود الرب تعالى في كيان الإنسان، ولذلك أجابوا بـ«بلى» لأنهم كانوا في عالم الصفاء والنور، بلا مشوشات ولا زيوف.

وقال الحق تبارك وتعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.[٢] فهذه الآية دلالة ساطعة على أنه جل جلاله ظاهر ظهورًا بيّنًا لا خفاء فيه. وبسبب هذا الظهور، كانت كل ذرات الوجود تسبّح لله وتقدس له، وتعظمه وتعترف له بالعظمة والكمال والجلال، كما قال سبحانه ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾.[٣]

وقد أشار أهل العلم إلى هذه المعاني والسمات، فقال أحمد بن خضرويه: «الدليل لائح، والطريق واضح، والداعي قد أسمع، فما التحيُّر بعد هذا إلا من العمى!».[٤] وقال أبو الحسن العامري: «على السبيل إلى الله أعلامٌ ظاهرة، وشواهدٌ واضحة، ولن يذهب عن الحق مَن سعى بصدق نية في طلبه».[٥] وقال ابن القيم: «لقد استبان -والله- الصبح لمن له عينان ناظرتان، وتبيّن الرشد من الغي لمن له أُذنان

---

(١) الأعراف١٧٢.

(٢) النور: ٣٥.

(٣) الإسراء: ٤٤.

(٤) طبقات الصوفية ص٩٧.

(٥) الإعلام بمناقب الإسلام ص١٢١.

واعيتان، لكن عصفت على القلوب أهوية البدع والشبهات، والآراء المختلفات، فأطفأت مصابيحها، وتحكّمت فيها أيدي الشهوات، فأغلقت أبواب رشدها وأضاعت مفاتيحها».[١]

وسر هذه السمات يرجع إلى:

أولًا: الله سبحانه له الكمال المطلق في ذاته وصفاته، والعظمة اللامتناهية في جلاله وكماله وجماله، وإذ كان كذلك، فلا شك أن الوجود بكل ما فيه من أشخاص وأشياء ومشاهد تجليات فائقة لبعض أسمائه وصفاته.

ثانيًا: الحق سبحانه خلق الإنسان بالحق وللحق، وقد حدد سبحانه نفسه هذه الغاية من خلقه للإنسان في العبودية، ولباب العبودية معرفة الله، وإذ كان الأمر كذلك، فقد أتاح الرب تعالى الكثير جدًا من وسائل معرفته، لأنه يحب أن يُعرف.

انطلاقًا من هذه المعطيات، أقول: إن أدلة الإيمان هي **أدلة تنبيهية** ولست **أدلة إنشائية**، بمعنى أن دلائل الآيات في الأنفس والآفاق، أو قل الدلائل الفطرية والعقلية والعلمية وغيرها، هي فقط تنبّه وتذكّر الإنسان بوجود الخالق سبحانه، وليست تنشئ فيه الإيمان بالخالق سبحانه بل تقويه وتؤكده، إذ إنّ وجود الله ليس من قبيل المجهول للإنسان الذي يحتاج فيه للدليل التجريبي لإثباته، مثل إحراق النار أو برودة الثلج أو جرح السكين أو لذة النكاح، بل من قبيل المغفول عنه في غمرة الأهواء والشهوات المختلفة، كغفلة الإنسان عن كونه موجودًا أو مفكرًا أو عاشقًا.

---

(١) اجتماع الجيوش الإسلامية على حرب المعطلة والجهمية ص٨٠.

والمقصود هنا التنبيه على أن كل ما هو مطلوب من العباد شرعًا، في باب معرفة خالقهم وكذا طرق عبادته والفوز بمرضاته، فالله سبحانه قد يسر معرفته وأتاح بسهولة إدراكه وهيّأ عقول الناس لاستيعابه بفطرتهم الأولى، إذ كان ذلك غاية إيجادهم في هذا العالم الدنيوي، وإقامة الحجة عليهم في العالم الأخروي. قال الشيخ عبد الرحمن المعلمي: «فأما المطلوب شرعًا، فإن الله تعالى أعد العقول العادية لإدراكه، وأعد لها ما يسددها فيه من الفطرة والآيات الظاهرة في الآفاق والأنفس، ثم أكمل ذلك بالشرع. فإذا انقاد العقل العادي للشرع وامتثل هداه واستضاء بنوره فقد أمن ما يخشى من قصوره».[1] وقال الإمام ابن الوزير اليماني: «علمت بالتجربة الضرورية في نفسي وغيري، أن أكثر جهل الحقائق إنما سببه عدم الاهتمام بتعرفها على الإنصاف لا عدم الفهم، فإن الله –وله الحمد– قد أكمل الحجة بالتمكن من الفهم، وإنما أُتي الأكثر من التقصير في الاهتمام».[2]

❋ ❋ ❋ ❋

(٢) التشكيك في أدلة وجود الله

لكن؛ نطرح هنا سؤالًا مهمًا، وهو مطروح فعلًا من قبل الشباب: إذا كانت أدلة وجود الله تعالى بيّنة وواضحة كما ندّعي، فلماذا ما زال يوجد في الناس مَن يُشكك فيها، حتى خرج بعضهم إلى النفي والإنكار ؟! ولماذا ما زال الناس منذ قديم الزمان يقدمون وينوّعون البراهين على ذلك؟!

---

(١) القائد إلى تصحيح العقائد ص٣٩.

(٢) إيثار الحق على الخلق ج١ ص٣٩٩.

جواب السؤال الأول: نعم كل أدلة وجود الله سبحانه يمكن التشكيك فيها والتشويش عليها، ليس لأن هذه الأدلة ناقصة أو ظنية، فأدلة وجوده سبحانه عظيمة ومتنوعة جدًّا تتضمنها كل ذرة من ذرات الوجود ومن ثم فهي قاطعة، وإنما النفوس لديها مقدرة عالية على توليد الشبهات حول كل شيء بفعل عوامل مختلفة![١]

ألا ترى أنّ المتكلمين والفلاسفة كل واحد منهم وكل اتجاه من اتجاهاتهم يدعي أن نظره العقلي قطعي ويقيني لا يمكن التشكيك فيه، ثم يأتي متكلم وفيلسوف آخر واتجاه آخر فينقض عليه كلامه ويشوّش عليه حجته! لأنّ توليد الاعتراضات له أسباب وعوامل، كما سيأتي بعد قليل حول الموانع التي تحول بين المرء والإقناع.

جواب السؤال الثاني: هو أنّ الأدلة على وجود الخالق هي «**أدلة تنبيهية**» وليست «**أدلة إنشائية**»، كما سبق أن ذكرت، بمعنى أنّها تُنبّه العقول وتثير الفِطَر بما هو مكنون في صميمها، وليست تنشئ فيها معنى جديدًا غير معروف لديها. والواجبات العقليّة ليس لازمًا أن ينتبه إليها كل الناس باستمرار، بل يكفي أنهم إذا نُبّهوا انتبهوا.

وأمارة ذلك؛ أنّ تفحص كل الجدل الذي صحب مسيرة الإنسان في مختلف الشعوب والحضارات حول وجود الله سبحانه، يؤكد على أنّ جوهر ذلك الجدل

---

(١) يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «اعلم أنه ما من حق ودليل إلا ويمكن أن يرد عليه شبه سوفسطائية، فإن السفسطة إما خيال فاسد وإما معاندة للحق، وكلاهما لا ضابط له، بل هو بحسب ما يخطر للنفوس من الخيالات الفاسدة والمعاندات الجاحدة». شرح الأصبهانية ص ٦٠.

وأساس تلك المناقشات لم يكن يدور حول وجود الخالق من عدمه من حيث هو مبدأ عقلي ووجودي، بل كان يدور حول طبيعة ذاته وصفاته وعلاقته بالمخلوقات. ولذلك فالمشكلة الكبرى في تاريخ العقيدة الإلهية، لم تكن حول إنكار وجود الله، بل كانت حول الشرك بالله.

يقول الشيخ العلامة يوسف القرضاوي: «الانحراف الكبير الذي أصاب البشرية في تاريخها الطويل لم يكن بإنكار وجود الله والعبودية له، وإنما كان بتوجيه العبادة لغيره، أو إشراك آلهة أخرى معه من مخلوقات الأرض والسماء. ولهذا كانت مهمة رسل الله كافة في جميع الأعمار، هي تحويل الناس من عبادة المخلوقات إلى عبادة الخالق، وكان نداؤهم الأول إلى قومهم: ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾».[١]

إن إيراد الاعتراضات والشبهات على الحقائق لا ينفي وجودها ولا قيمتها. ذلك لأن هذه الاعتراضات والشبهات تارة تكون بسبب عدم الاستيعاب والفهم، وتارة تكون انبعاثًا من الأهواء الجامحة، كحب الظهور بمظهر المفكر العبقري، أو حب الانتصار للمذهب والانتماء، أو بدافع التقليل من شأن المتكلم، أو للتلبيس لأجل تحقيق مآرب والاحتفاظ بامتيازات.. إلخ. وهذا ما قرّره القرآن الكريم في آيات مختلفة، مثل قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا﴾.[٢] قال الإمام ابن كثير حول الآية: «يقول تعالى: ولقد بيّنا

(١) القضايا المبدئية والمصيرية الكبرى للإنسان ص١٢٦.

(٢) الكهف: ٥٤.

للناس في هذا القرآن، ووضحنا لهم الأمور، وفصلناها، كيلا يضلوا عن الحق ويخرجوا عن طريق الهدى. ومع هذا البيان وهذا الفرقان، الإنسان كثير المجادلة والمخاصمة والمعارضة للحق بالباطل، إلا من هدى الله وبصره لطريق النجاة».[١]

وقال سبحانه: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا﴾.[٢] أي مهمة الرسل هي البشارة للمؤمنين والنذارة للكافرين عبر بيان براهين الحق ودلائل الهدى، ولكن الذين كفروا وألحدوا لا يفتؤون يطرحون اعتراضات وشبهات ويجادلون بالباطل بُغية دحض الحق وطمس الهدى، ودافعهم هو الاستهزاء بالله ورسله والسخرية مما جاء في الشرع. فإن اعتراضات الكفار والمشركين على الأنبياء والرسل لا ينفي أصالة وقطعية ما جاؤوا به عليهم السلام.

فالواجب على المسلم أن يتعلق بهذه القاعدة ضد الملاحدة خصوصًا والطاعنين في الإسلام عمومًا. ولا ينبغي أن يتشكك في الحق الذي معه، كمن يقول من المسلمين: إثبات وجود الله لا يوجد عليه دليل قاطع، لأنّنا نرى الملاحدة يطرحون الكثير من الاعتراضات عليه! وغير هذا من الاعتراضات التي تدل على خلل في الفهم وعدم إدراك للقضية، بل هذا القول يلزم عنه الطعن في الوحي والنبوات، وهل أقامت النبوات الحجة على الناس إلا لحقيقة أن الأدلة واضحة بيّنة، وأن العقول قادرة على استيعابها بسهولة، وإلا كيف يستقيم للنبوات أمرها! بل حتى

---

(١) تفسير القرآن العظيم ج٥ ص١٧١.

(٢) الكهف: ٥٦.

اختلاف أهل الإيمان من مختلف المذاهب والأديان ليس حجة في ذلك، إن «اختلاف الناس في الحق لا يوجب اختلاف الحق في نفسه، وإنما تختلف الطرق الموصلة إليه، والقياسات المركبة عليه، والحق في نفسه واحد».[١] ولهذا تجد كل فريق يؤمن إيمانًا قاطعًا أن أدلته قوية وأدلة خصمه المؤمن ضعيفة!

القضية -إذن- ليس لها صلة بقلة الأدلة أو غموض الحق، فالأدلة ولله الحمد كثيرة جدًّا والحق ساطع سطوع الشمس في كبد السماء، وإنما القضية أولًا وآخرًا لها صلة وثيقة بمجموعة من الموانع التي تحول بين المرء وبين الاقتناع، فالعين إذا وضعت عليها حجابًا فلن تر الشمس الساطعة ولا الحديقة الجميلة، لا لأن الشمس أو الحديقة غير موجودة، بل لأن هناك حجابًا يحول بين العين والرؤية! فكذلك الأمر في قضيتنا، رغم علمنا الواضح أن هناك جوانب في الحق لا تستبان إلا بالتوفيق الإلهي، كما أن بعضها لا يتجلّى إلا بعد النظر العميق، فإذا حُرم العبد التوفيق، أو كسل عن الاجتهاد في البحث والنظر، وأضاف إلى ذلك الانغماس في الغفلة والشهوات، وجد الشيطان فيه فرصته وأصابه منه بغيته، فأضله وهو يحسب نفسه من المهتدين!

إن من فضل الله تعالى ورحمته وعدله أنه نصب على الحقيقة الأمارات الواضحة، وأقام لها الدلائل الساطعة، وجعل الطريق إليها ميسورًا واسعًا، لأنه سبحانه ما خلق الخلق إلا ليعرفوه وليعبدوه، فيستحيل إذن أن تكون الحقيقة غامضة

---

(١) الإنصاف في التنبيه على المعاني والأسباب التي أوجبت الاختلاف. ابن السيد البطليوسي، ص٢٧.

ومبهمة وعسيرة الإدراك، وإنما يحول دونها ما ألمحت إليه آنفًا وما سيأتي مفصلًا من الموانع. ولهذا كان شرط بلوغ الحق:

(أولًا). صدق النية في طلبه والبحث عنه.

(ثانيًا). اتّباع طريق الحق لمعرفة الحق.

فمن لم تكن نيته خالصة لن يصل، وإن وصل لن يقبل. ومن اتبع الطرق الباطلة لا جرم أن يضله الله ويَكله إلى نفسه وقرينه، ولا يبالي في أي أودية الضلال هلك. فلابد من الأمرين معًا. وهذا ما لا يلتفت إليها كثيرون، فتراهم يجردون النية في معرفة الحق وطلبه والبحث عنه، إلا أنهم يهملون الركن الثاني وهو الطرق الموصلة إلى معرفة الحق، ولهذا كان «الانشغال الزائد بسلامة القصد يأخذ من سلامة المقصود من الأفكار والأفعال، ويُعمي صاحبه عن صحة فعله وسلامته: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾».[١]

وما من شك في أنّ أحد أبرز مشاكل الملحد في كل عصر؛ هو غفلته عن هذه المسألة، أعني أن عدم اقتناعه تتدخل في تشكيله مجموعة متشابكة من العوامل، رغم اختلاف قوة وضغط كل واحد منها على هذا الملحد أو ذاك، ومن عصر لآخر، ولهذا فهو ليس الأمر بالضرورة مرتبطًا بضعف طرح المؤمن، أو عدم وجود الأدلة، أو حتى عدم كفايتها، أو غموض الحقيقة!

وبسبب هذا الأمر، تجد حتى بعض الشباب الذي لا يزال في دائرة الإسلام، يراسلك بأنه عنده شبهة أو شبهات، وأنه قد سأل كثيرًا من المشايخ فلم يجيبوه إجابة

---

(١) العقلية الليبرالية. عبد العزيز الطريفي ص٤١.

كافية! وأنه بحث طويلًا في الإنترنت ولم يظفر بأجوبة شافية! ثم تكتشف أن شبهته قد أكل عليها الدهر وشرب وتقيّأ، وأنها قد قُتلت بحثًا في عشرات المنشورات والمقالات والفصول، وأحيانًا حتى في الكتب القديمة، وإنما مشكلة السائل أن نفسه تكون قد أُتخمت بالحواجز والموانع، فمهما قدمتَ له من جواب لا يرضاه، وهو مع ذلك يظن أن المشكلة في الآخرين، وأنه بعقله الذكي قد تنبه لإشكالية عويصة جدًّا!

لهذا من المهم إلزام الشباب مسؤولية البحث الجاد، وأن يتحرروا من الأوهام العبثية، خصوصًا فكرة أن المشايخ المعاصرين -ولا ننفي ذلك عن بعضهم!- لا يحسنون تقديم أجوبة لتساؤلات الشباب، وأن الخطاب الديني لا يلبي احتياجات الشباب ولا يروي ظمأهم المعرفي! ولعمر الله، لقد صارت هذه الشائعة فتنة لكثيرين! وإنما نقول بضرورة إلزام الشباب ضرورة البحث الجاد، لأن بعض الحقائق والمعاني لا تستبين إلا بعد الفحص والتأمل، ومعرفة جملة من العلل والأسباب التي بُنيت عليها وارتبطت بها، كما قال الجاحظ: «في كثير من الحق مُشبَّهات لا تُستبان إلا بعد النظر، وهناك يختل الشيطان أهل الغفلة، وذاك أنه لا يجد سبيلًا إلى اختداعهم عن الأمور الظاهرة».[1] ومن المؤكد أن الاعتصام من هذه الورطة ليس يمكن مع الدعة والكسل.

أين المشكلة إذن؟

الإنسان بفطرة عقله ينزع إلى الحق حتى وإن أخطأه، لأن أساس فطرته وتكوين عقله مبني على الحق، لأنه مخلوق بالحق وللحق. والله سبحانه خلق

---

(١) رسالة المعاش والمعاد. ضمن رسائل الجاحظ ج١ ص٩٨.

الإنسان لمعرفته وعبادته، ولا يكون هذا إلا أن يكون أصل فطرته متضمنًا لذلك وقابلًا له ومنجذبًا إليه. ولذلك لو خُلي الإنسان وفطرته الأولى لاهتدى إلى كثير جدًّا من الحق وأصوله، كما نبّه على هذا الله سبحانه بقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ﴾.[١] وقول الرسول ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة».[٢] والفطرة عبارة عن منظومة أصول ومبادئ صاغها الرب تبارك وتعالى صياغة مبنية على الحق، ولتهتدي إلى الحق، ولتقبل الحق، فلا تنفر منه إلا لعوامل خارجية، لأنه تبارك شأنه خلق الإنسان لمعرفته وعبادته، فخلقه الإنسان خلقة تناسبه دوره الوجودي رحمة كبيرة ونعمة جليلة وحكمة شريفة.

وأهل العلم يؤكدون هذا المعنى، فالإمام ابن تيمية يقول: «العقول السليمة مفطورة على معرفة الحق لولا المعارضات».[٣] وقال العلامة المعلمي: «الإنسان لا يكره الحق من حيث هو باطل، ولكنه يحب الحق بفطرته، ويحب الباطل لهواه وشهوته».[٤] هذا الميل إلى الحق والانجذاب إليه يتجلى في إيثار جميع البشر للصدق على الكذب، وللحقيقة على الوهم، ولليقين على الظن، وللعدل على الظلم، كما يظهر في مدح الجميع لمحاسن الأخلاق وذمهم لمساوئها، وأيضًا في أن الجميع يبحث عن القيمة والمعنى، وعن الجمال والكمال، إلى غير هذا من المظاهر والتجلّيات التي تشترك فيها البشرية قاطبة في كل زمان ومكان، والتي تؤكد بما لا يدع

---

(١) الأعراف: ١٧٢.

(٢) صحيح البخاري.

(٣) درء تعارض العقل والنقل ج١ ص٣٧٧.

(٤) القائد إلى تصحيح العقائد ص١١.

مجالًا للشك أن أساس التكوين في الإنسان هو الحق. ولكن؛ مع ذلك هناك موانع متنوعة تحول بين الإنسان وبين الاعتراف بالحق أو حتى معرفته أو اتّباعه.

ونحن ندعو المشتغلين على ملف الإلحاد وغيره من المذاهب المنحرفة والاتجاهات الضالة عن صراط الحق المستقيم، أن ينتبهوا لهذه الحقيقة، حقيقة وجود موانع تحول بين المرء ومعرفته للحق أو قبوله واتّباعه له، وذلك لأنّ معرفة هذه الأسباب والموانع عنصر مهم وفعّال لمعرفة أفضل سبل معالجة الانحراف لدى هذا الشخص أو ذاك. فبيّنٌ جدًّا أن كل امرئ وإن ادعى رفضه للحق لوجود دلائل وبراهين تؤيده، إلا أن هناك دائمًا مرتكزات وخلفيات ومحركات تكون الأساس لهذا الرفض، وهذه المرتكزات أو الخلفيات أو المحركات ليست شيئًا واحدًا لدى كل الأفراد، بل هي أنواع شتّى يجمعها الهوى! يقول الأستاذ عبد العجيري في بيان أهمية الوعي بمحركات ودوافع الرفض للحق:

«تكمن أهمية معرفة السبب أو الأسباب التي تقف خلف تبني التصورات في تحديد منهجية التعاطي الأمثل معها، وكيفية معالة الخطأ أو الانحراف متى لابس التصور، فإذا كانت بواعث التعلق بالفكرة الباطلة نفسية مثلًا، فالاشتغال المجرد بتبيان الحق فيها بدلائله العلمية قد لا يجدي كثيرًا في معالجة المشكلة في نهاية الأمر، ومن كان خطؤه منهجيًا فقد لا ينتفع كثيرًا بالمعالجة العلمية الجزئية وهكذا. ولذا فقد نوع القرآن أساليب الدعوة بناء على طبيعة البواعث والمحركات الكامنة للإقبال أو الإعراض عن الحق».[١]

---

(١) ينبوع الغواية الفكرية ص٦١.

(٣) أسباب عدم الاقتناع

هذه الموانع والعوامل التي تصد الإنسان عن معرفة الحق أو الاعتراف به أو قبوله له واتّباعه له، نلخصها في التالي:

(**الجهل المركب**) الإنسان إذا جهل أنه جاهل، فمن الطبيعي أن يرفض قبول حتى الواضحات، لأنه يعتقد أنه ذكي ومطلع بما فيه الكفاية ليرفض ما شاء من الحقائق تحت أي مبرر شاء، وإن كان الواقع يؤكد على أنه فقط يجهل ولا يريد أن يعترف بجهله! وهذا أمر يدخل فيه كل شيء، من المسائل العلمية والعملية.

(**القصور المعرفي**). قلة الاطلاع وضآلة الزاد المعرفي تمنع صاحبها من الاقتناع بالحق. ذلك لأنّ تفهّم الحقيقة والوعي بها واستيعاب أبعادها وأصولها ومآلاتها، كل هذا يقتضي أن يكون للمرء زاد معرفي مهم يساعده على تحقيق ذلك. أما بدون اطلاع فلا شك أن المرء يكون عرضة للوهم والزيوف والخداع، فيقبل الباطل ويرفض الحق!

(**التعصب الأعمى**). التعصب يحول دون معرفة الحق واتباعه. فكم رأينا ورأى الناس مَن يرفض الحق الواضح أو يرفض إعادة النظر في الباطل الذي معه، لا لشيء إلا لأنه يتعصب لجنسه أو بلده أو مذهبه أو ديانته أو الأيديولوجيا التي ينتمي إليها. فالنصراني الذي يعتقد أن إلهه صُلب على خشبة، هل ترى أن عقيدته مؤسسة على دليل معتبر!

(التصورات المسبقة). الرضوخ للتصورات القبلية تكبّل العقل عن المعرفة والفهم. الإنسان أولًا وآخرًا رؤية، هذه الرؤية تتشكل في إطار عوامل مختلفة، وكما تكون يكون كل شيء من أفكار وقناعات وأهداف وآمال. ولهذا كثيرًا ما يعتقد المرء الباطل ويرفض الحق لمجرد تصور مسبق راسخ في ذهنه وليس لأدلة مقنعة!

(اتباع الأهواء). اللهاث وراء نزعات الأهواء يحول بين المرء ومعرفة الحق واتباعه. وذلك لأن الإنسان عندما تتضخم فيه أناه لا يعود بعد قادرًا على قبول أدنى شيء يمكن أن يشكك في قيمة اختيارات الأنا، بل قد يرى الحق واضحًا ساطعًا، لكنه يرفضه لأهواء طاغية لا تسمح له بفرصة الانتقال إلى الحق والرضوخ له!

(بناء الأدلة). الخلل والخطأ في الاستدلال يُنتج أخطاء كارثية في النتائج، فمن لا يعرف مصادر الأدلة ومراتبها وكيفية ربط بعضها ببعض وتنزيل بعضها على بعض، لا شك أنه سيخطئ من حيث يروم الإصابة! كما قال ابن الوزير اليماني: «توسيع دائرة الأسئلة يؤدي إلى الخوض في الاحتجاج على الضروريات بالظنيات».[(١)]

(وهم الحرية). فهم الحرية خطأ يُولّد الإصرار على الرفض! ذلك لأن الإنسان بقدر ما يشعر بالحرية بقدر ما يشعر بإنسانيته وقيمته، وبقدر ما يفقد من الشعور بالحرية بقدر ما يشعر بخضوعه وعبوديته. ولهذا يحرص الملاحدة الصرحاء والأخفياء على تزييف معنى الحرية في عقول الشباب لدفعهم للثورة على الإله والدين!

---

(١) البرهان القاطع في إثبات الصانع ص١١٧.

(حب الذكاء). التأثر بخطاب تمجيد العقل والإشادة بقيمته وتكرار الدعوة للاعتماد عليه وحده، يجعل المتأثر بهذا الخطاب يرفض لكي يشعر بالذكاء! كما قال أحدهم: «أحس بوجود خالق في نفسي، ولكنني ما زلت غير مقتنع.. منذ سنوات طويلة، وأنا غير مؤمن بشيء، لكن عقلي رفض الاستسلام لفكرة ما، ورفض الاقتناع بأي فكرة».[١]

(النظرة الدونية). اتخاذ موقف الدونية من خطاب معين، مانع من قبول طرحه! كما قول الله تعالى على لسان النبي صالح عليه السلام: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾.[٢] ولهذا يحرصون اليوم على تشويه الصحابة والعلماء وتصويرهم على أنهم متناقضون ومتكالبون على الدنيا لينفر منهم الشباب!

(سكرة الشهرة). الشهرة تدفع صاحبها بقوة لإيثار الباطل على الاعتراف بالحق، لما تمنحه من النشوة وتضخم الذات والسلطة المعنوية! كما قال الشيخ الطريفي: «أقوى الشهوات تأثيرًا في العقول شهوة الجاه.. لأن الجاه إذا تحقق حقّق بقية الشهوات وجلبها جميعًا.. ولا يوجد شهوة تقود الإنسان وتأسر عقله كشهوة الجاه إذا تمكنت منه».[٣]

---

(١) لا أعلم هويتي. حسام الدين حامد ص١٢.

(٢) الأعراف: ٧٩.

(٣) الفصل بين النفس والعقل ص١٠٣و١٠٤ بتصرف يسير. والجاه هو الشهرة والمكانة بين الناس.

(**خوف الفقر**). مَن تعوّد مستوى معيشة مرتفع، يعسر عليه التراجع خشية الحرمان! كما حكى الإمام ابن القيم عن بعض علماء النصارى بعد مناظرة جرت بينهما وقد ألزمه الحجة والبرهان على فساد دين النصارى، فقال له: «ما يمنعك الآن من اتّباع الحق؟ فقال لي: لو أسلمت لدُرتُ في الأسواق أتكفّف الناس، فمن الذي يطيب نفسًا بهذا؟ ».[١]

(**تولّد الشبهات**). ما لا يدركه كثيرون هو أن الاسترسال مع الشبهات يزيدها قدرة على التوالد بسرعة، وبقدر ما تتكاثر بقدر ما يتوهم المرء بأنها حق وأنها مبررات كافية للرفض! كما قال ابن الوزير اليماني: «تحصل بكثرة الإصغاء إلى الشبه شكوكٌ تشبه شكوك الموسوسين في الطهارة».[٢] ولهذا يعملون اليوم على تكثيف الشبهات ونشرها بكل الوسائل، المرئية والمقروءة والمسموعة.

(**الغرور العقلي**). كثيرون حين يتوسّعون في الاطلاع والمعرفة حول المجالات المختلفة، يصابون بالغرور العقلي، فيؤدي بهم ذلك إلى وهم الاستقلال بالنظر وتجاوز مرتبة الآخرين، فلا يعود يقبل سوى التعمق ليشعر بالتميز، ولا يزال الأمر كذلك حتى يقع في قبضة الحيرة والشكوك والاضطراب، فـ «طريق المتعمقين مشتبهة مُوقعة في كثرة الخطأ والغلط والاختلاف والارتياب».[٣]

---

(١) هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى ص٢٧٢. باختصار.

(٢) العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم ج١ ص٢٠٨.

(٣) القائد إلى تصحيح العقائد. عبد الرحمن اليماني المعلمي ص٥٧.

(**عـدم الاهتمـام**). اللامبـالاة بمعرفـة الحقيقـة يصـرف المـرء عـن فهمهـا واستيعابها. كثيرون ينغمسـون في شـهواتهم وأهـدافهم وطموحـاتهم الدنيويـة الصـغيرة الزائلـة، فيـؤدي ذلـك تلقائيًّـا وحتميًّـا لغفلـتهم وعـدم مبـالاتهم بالقضـايا الوجوديـة الكبرى، فلا يهتمون بأصلهم ولا لماذا هم هنا، ولا ما هو مصيرهم بعد المـوت، ولا بطبيعة المعركة التي تُشن عليهم![١]

(**زيف المعلومات**). انتشار المعلومات الزائفة يؤثر على سلامة النظر العقلـي! وهذا كما مارسته الكنسية خلال القـرون الطويلة لصد الغـربيين عـن الإسـلام، مـن خلال تشويه عقيدة الإسلام ونبي الإسلام ودين الإسلام، ولا يزال الغرب حتى اليوم يقوم بنفس الدور عبر مختلف الوسائل، خصوصًا الإعلام، وكما يقـوم بـه العلمـانيون والنسويات لتشويه الإسلام بعرض معلومات زائفة عنه.

(**كراهـة الحـق**). بعـض النفـوس كأنهـا طُبعـت علـى كراهـة الحـق وعـدم الاعـتراف بـه، كمـا قـال تعـالى: تأمـل قـول الله تعـالى: ﴿لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾.[٢] وهـذه الكراهـة ليسـت للحـق في نفسـه، بـل لمـا يمنـع ويحـرم مـن المصالح الشخصية. ولهـذا مهمـا عُـرض علـى هـذا الشـخص مـن الـدلائل فإنـه يظـل مصرًّا على الرفض!

(**التبرير النفسي**). الإصرار على موقـف معين يُولّـد التبريـر النفسـي لـه، فيمنعـه

(١) تأمل قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ الأعراف: ١٧٩.

(٢) تأمل قول الله تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾. الزخرف: ٧٨.

ذلك من الانتقال عنه! فالإنسان يتحرك دائمًا في إطار الرغبة في القيمة والاعتراف من قِبل الآخرين، فإذا مُنح الاعتراف والتقدير على موقف ما، كالذي ينكر وجود الله، فإنه يلزم هذا الموقف، ويصر عليه، ولا يفتأ يبحث عن أي مبرر يضفي القيمة على إصراره!

(الكبر الخفي). امتلاء النفس بالكبر يمنعها عن الخضوع للحق! كما اعترف أحدهم قائلًا: «أعلم أن وراء هذا الكون خالقًا، ولكنني متكبر لدرجة عدم التصديق».[1] وكما كشف الله تعالى عن دافع إبليس لرفض السجود لآدم عليه السلام، فقال: ﴿ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ﴾.[2]

(كثرة المعاصي). الخوض في المعاصي ينشئ في النفس ظلمة تحول دون قبول الحق! كما قال الله تعالى: ﴿إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾.[3] أي بل الحقيقة أن حجب المعاصي والشهوات غطّت عقولهم ، كما قال الرسول ﷺ: «إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكت في قلبه نكتة سوداء».[4]

(الخضوع لسلطة النخبة). الرغبة في الانتماء إلى النخبة، كالأكاديميين وأصحاب السلطة مانع قوي دون تبصّر الحق والاعتراف به واتّباعه! كما اعترف بول

---

(١) لا أعلم هويتي. حسام الدين حامد ص١٣.

(٢) ص: ٧٥.

(٣) آل عمران: ١١٢.

(٤) سنن الترمذي.

فيتز بأن أحد أسباب إلحاده كان رغبته في تحقيق القبول بين النخبة الأكاديمية.[١] وكما حكى الله تعالى عن عوام الكفار: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾.[٢]

(**ضعف الحق وقوة الباطل**). ربط المصداقية بالضعف والقوة المادية حاجز منيع عن الحق! وهذا يحدث لكثير من الشباب اليوم، فهم يعتقدون بما أن الغرب متفوق ونحن ضعفاء في الاقتصاد والتكنولوجيا، وبما أن الغرب لم يتقدم إلا بإبعاد الدين، إذن لابد أن الدين هو سبب التخلف والضعف والضياع الذي يعيشه العالم العربي!

(**سلطان الحسد**). بعض النفوس ترفض الحق حسدًا لمن يمثّله ويدعو إليه! وهذا كما حسد بعض اليهود والمشركين قديمًا نبينا محمدًا ﷺ، فقد كان اليهود ينتظرون نبي آخر الزمان، فلما جاء من العرب حسدوه ورفضوا الاعتراف به. وكذلك بعض صناديد كفار قريش رفضوا الاعتراف بالنبي ﷺ حسدًا لأنّه خرج من بيت غير بيوتهم![٣]

(**حب الملك**). الخوف من فقدان سلطة الرئاسة على الأتباع من أعظم موانع قبول الحق! وهذا كما حدث قديمًا مع هرقل عظيم الروم عندما أُخبر خبر رسول الله ﷺ وبعد تأكده من كونه نبيًّا، حاول أن يحمل علية قومه وزعماء الشعب على

---

(١) نفسية الإلحاد ص٢١٣.

(٢) الأحزاب: ٦٧.

(٣) دلائل النبوة. الأصبهاني ج١ ص٧٤ و٧٧. دلائل النبوة. البيهقي ج٢ ص٢٠٧ .

الإيمان به، ليحتفظ مع الإسلام بالملك عليهم، لكن لما رفضوا، آثر الملك على الإسلام، فلم يسلم![١]

(العادة والألفة). الخضوع لعادات المجتمع في التفكير والسلوك وأنماط الحياة، والألفة بذلك، يشبه المخدرات لمن يتعاطاها واعتاد عليها، فالألفة بالثقافة الاجتماعية الباطلة، كالثقافة المادية في عصرنا، يحول دون التبصّر في ثغراتها وأخطائها وفسادها، والتحرر من ذلك والانتقال عنه إلى غير، شديد على النفس للغاية!

(الولوع بالخلاف). قال بعض العلماء: «من الناس مَن يُولَع بالخلاف أبدًا، حتى إنه يرى أن أفضل الأمور ألاّ يوافق أحدًا، ولا يجامعه على رأي، ولا يواتيه على محبة. ومَن كان هذا عادته فإنه لا يبصر الحق، ولا ينصره، ولا يعتقده دينًا ومذهبًا، إنما يتعصب لرأيه، وينتقم لنفسه ويسعى في مرضاتها».[٢]

(النافع والضار). كل إنسان في أي نشاط يقوم به، كالكتابة، الاختراع، السلوك، العلاقات، لابد أن يتدخل عنصر المنفعة والمضرة في عملية اقتناعه بما يقرره تجاه هذا النشاط، قبولًا أو رفضًا، إقدامًا أو إحجامًا، تأييدًا أو اعتراضًا. على أن المنفعة والمضرة تتدخل في توجيه بوصلتها مجموعة من الاعتبارات المتشابكة!

فهذه أهم موانع الاقتناع بالحق والاعتراف به والتزام مضامينه. فخرج من تلك الموانع المذكورة سابقًا أن أصول عدم معرفة الحق واتّباعه ترجع إلى ثلاثة أمور:

---

(١) صحيح البخاري.

(٢) كتاب العزلة. أبو سليمان الخطابي، ص١٦٦.

أولًا: ما يطرأ على الفطرة من عوامل الإفساد وما يغشاها من الحجب، وهذا ينشأ أساسًا في البيئة الأسرية، والسياق الاجتماعي، والتزييف الإعلامي.

ثانيًا: الإعراض عن معززات الفطرة والإبقاء على أصلها، وقد أمد الله تعالى العبد لتحقيق هذا المقصد بمبادئ العقل، ودلالة الكون، ومنظومة الوحي.

ثالثًا: عدم الرغبة في معرفة الحق، وهذا يكون على سبيل اللامبالاة والغفلة، كما يكون على سبيل الاكتفاء بما يطرحه أرباب ديانته ونحلته.

ولا شك أنك إذا تأملت ما ذكرنا من الموانع، كالجهل والهوى والكبر وحب الدنيا والعناد وغير ذلك، تجد كل ذلك وثيق الصلة بهذه الأصول.

لكن، من المؤسف أن كثيرين حين يقال لهم بأن الحق ليس به خفاء، وإنما هناك موانع حائلة وعوامل تصد بعض النفوس عن قبول الحق والاعتراف به واتّباعه، حين يقال لهم ذلك، يعجبون ويستنكرون، خصوصًا حين يتعلق الأمر بفلان «المفكر الكبير، أو الفيلسوف العظيم، أو العالم الحائز على جائزة نوبل»! وهذا لجهلهم بطبيعة النفس البشرية، وإلا ليت شعري أي عجب وأي إشكال في ذلك، فالإنسان مهما اتّسع عقله وعلمه يظل خاضعًا لنزعات النفس الباطنة وأهوائها الجلية والخفية، ولا يكاد أحد يتحرر منها إلا من وفقه الرب سبحانه! كما قال ابن القيم: «لم يزل في الناس مَن يختار الباطل، فمنهم مَن يختاره جهلًا وتقليدًا لمن يحسن الظن به، ومنهم مَن يختاره مع علمه ببطلانه كبرًا وعلوًّا، ومنهم مَن يختاره طمعًا ورغبة في مأكل أو جاه أو رياسة، ومنهم مَن يختاره حسدًا وبغيًا، ومنهم مَن يختاره راحة ودعة».[١]

---

(١) هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى ص٥٤.

وبعد: قلّب النظر في كلام الملاحدة بمختلف طبقاتهم وما يقدمونه مما يسمونه أدلة وبراهين، وستدرك أن سر إلحادهم مرتبط ببعض هذه الموانع أو كلها! علمًا أنّها قد تجتمع وتكثر في شخص وقد تفترق وتقل في شخص آخر، وكلما كثرت وتظاهرت كان ذلك أحرى أن يجهل صاحبها الحق، وإذا عُرض عليه أجدر أن يرفضه عنادًا وعصبية! فريتشارد دوكنيز في ختام إحدى مناظراته مع جون لينكس، سئل عن أصل قوانين الفيزياء؟ رد قائلًا: «أنا لا أعرف أصل قوانين الفيزياء، كما ذكرت ذلك مرارًا وتكرارًا، لكن مهما كان أصلها لا ينبغي أن يكون ذلك مسوّغًا لاستدعاء وجود مصمم ذكي»!

لا يمكن -إذن- الفصل بين الخلفيات الباطنة واللاشعورية وبين طريقة التعامل مع قبول الحق أو رفضه! ولهذا تجد الملاحدة إذا صادفوا أي شيء يؤيد موقفهم قالوا «ظفرنا بدليل جديد»، وإذا وجدوا أو ووجهوا بما ينقض أو يشكك في موقفهم قالوا «هذه شبهة وإشكالية» أو على الأقل يعملون على تفريغه من مضمونه! وهذا ليس خاصًا بقضية إنكار وجود الله، أي ليس خاصًا بالملاحدة الأقحاح، بل التحيزات الخفية تشمل حتى العلماء والمفكرين والفلاسفة والباحثين في مختلف المجالات، فقد «تُهمل حقائق هامة إهمالًا تامًا، لأن عقولنا تميل بطبيعتها إلى نبذ الأشياء التي لا تتلاءم مع إطار معتقدات عصرنا العلمية أو الفلسفية. ولا عجب، فالعلماء بشر قبل كل شيء، وهم غارقون في أفكار بيئاتهم وعصرهم، ومن ثم فهم على استعداد لأن يصدقوا أن الحقائق التي لا يمكن تفسيرها بالنظريات المتداولة غير موجودة».[1]

---

(١) الإنسان ذلك المجهول. ألكسيس كاريل ص٥٤.

(٤) موانع الاقتناع في القرآن

إن قضية موانع الاقتناع نجدها واضحة في معالجة القرآن للكفر والشرك، وموانع الاقتناع بالنبوات ورفض اتباع الحق رغم سطوع أدلته، وبيّن الأسباب التي تقف وراء ذلك وكشفها وفضح دوافعها وغاياتها، بما يرسم للباحث صورة واضحة عنها، وأن الأمر في رفض الحق لا صلة له بالعقل أو العلم! ففي سياق حديثه عن فرعون وقومه وموقفهم من دعوة النبي موسى ﷺ، قال: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَٰتُنَا مُبۡصِرَةٗ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗا﴾.[١] فالأمر مجرد هوى وجحود مع اليقين الباطني بصحة دعوة النبي موسى ﷺ. قال ابن كثير: «وجحدوا بها، أي: في ظاهر أمرهم. واستيقنتها أنفسهم، أي: علموا في أنفسهم أنها حق من عند الله، ولكن جحدوها وعاندوها وكابروها. ظلمًا وعلوًا، أي: ظلمًا من أنفسهم، سجية ملعونة، وعُلوًا، أي: استكبارًا عن اتباع الحق».[٢]

وفي سياق حديثه عن ملكة سبأ التي كانت وقومها يعبدون الشمسَ من دون الله تعالى، أشار إلى عامل النشأة الأسريّة والاجتماعيّة وتأثيرها القوي على توجيه القناعات الشخصية وتحديدها، وأن القناعات المسبقة لها دخل كبير في ترجيح قبول الحق أو رفضه، فقال: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ إِنَّهَا كَانَتۡ مِن قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ﴾.[٣]

---

(١) النمل: ١٣-١٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم ج٦ ص١٨١.

(٣) النمل: ٤٣.

وقال سبحانه لنبيه الكريم ﷺ كاشفًا له حقيقة موقف الكفار والمشركين من دعوته: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾.(١) فهذه الآية تقرر أن الكفار لا يكذبون الرسول ﷺ في نفس الأمر، فهم يصدقونه لخبرتهم به خلال أربعين عامًا قضاها بينهم، وإنما الرفض بسبب العناد واتّباع الأهواء والعصبية للعقائد الموروثة من الآباء والأجداد! فالرفض جاء من باب الجحود وليس من باب القناعة المبنية على الحجة الواضحة!

وجاء في الحديث القدسي عن ربّ العزة: «إنِّي خلَقْتُ عبادي حُنفاءَ كلَّهم، وإنَّه أتَتْهم الشَّياطينُ فاجتالَتْهم عن دِينِهم، وحرَّمتْ عليهم ما أحلَلْتُ لهم، فأمَرَتْهم أنْ يُشرِكوا بي ما لم أُنزِّلْ به سُلطانًا».(٢) أي إن الله تعالى خلق عباده على الفطرة والاستقامة، وبسبب شياطين الإنس والجن الذي يزيّفون الحقائق ويشوّهون الدلائل ويزيّنون الأباطيل، ينحرف العباد عن أصل فطرتهم. كما في حديث «كل مولود يولد على الفطرة. فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه»،(٣) فهذا فيه إشارة لتأثير البيئة الأسرية.

وتأمل هذه الآية الفاضحة لعناد الكفار وإصرارهم على الرفض لمجرد الرفض: ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾.(٤) فهنا يخبرنا عن تغلغل العناد في أعماق نفوسهم، بحيث

---

(١) الأنعام: ٣٣.

(٢) صحيح ابن حبان.

(٣) صحيح البخاري.

(٤) الحجر: ١٤-١٥.

لو ا‌تيحت لهم إمكانية الصعود إلى السماء وظلوا فيها يعرجون ورأوا عجائب ملكوت الله سبحانه وبدائع المشاهد في آفاق الكون، فلن يعترفوا بالحق الذي جاءت به الرسل، بل سيتعللون بأنه لا يوجد مانع عقلي من أن يكونوا مسحورين ومُلبّسًا عليهم، وأنّهم يمكن أن يكونوا في وهم كبير! وفعلًا يروج بين بعض الملاحدة مثل هذا الكلام: ربما نحن نعيش في وهم كبير ولا ندري شيئًا! بل قد وقع شبيه بهذا، فـ «في الـ ٧ من أغسطس/ غشت من عام ١٩٦١، أصبح الرائد «جرمان تيتوف» البالغ من العمر ستة وعشرين عامًا رائد فضاء سوفيتي يدور حول الأرض ويعود بسلام، محققًا إنجازًا تاريخيًّا للجنس البشري، وفي الكلمة التي ألقاها في المعرض العالمي مزهوًا بهذه اللحظة المجيدة، روى هذه الخبرة التي منح امتياز سماعها لمن حضروا كلمته، فقد أعلن وسط شعوره بنشوة الانتصار أنه لم ير الله في رحلته عبر الفضاء! وفور إعلان هذه الحجة السعيدة البهيجة، انبثق وسط الصمت تعليق من أحد الحاضرين قائلًا «لو خرج من حلّته الفضائية لرآه»».[١]

ثم تأمل هذا الإعلان الصارخ من الكفار بأنهم لن يؤمنوا أبدًا مهما كان: ﴿قَالُوٓاْ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلۡأَوَّلِينَ وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾.[٢] يذكرنا هذا العناد الشديد والإعلان عن الثبات على موقف الرفض والإنكار بالملاحدة المعاصرين الذين يصرون ويعلنون -كما سبق أن ذكرنا عن دوكنز بخصوص تسجيله لحظة موته على الإلحاد- بأنهم لن يتزحزحوا قيد شبر واحد عن

---

(١) الوجه الحقيقي للإلحاد. زافي زكراياس ص١٥.

(٢) الشعراء: ١٣٦-١٣٨.

موقف الإلحاد والنفي والإنكار، رغم شعارات البحث عن الحقيقة والتزام الدليل إلى أية نتيجة يقود!

ولما ذكر قصة سيدنا موسى ﷺ مع فرعون، وكيف أنه تم تقديم الأدلة الكافية لتحقيق الاقتناع والانتهاء عن الكفر والطغيان، إلا أنّه مع ذلك أبى هو وعصابته قبول الحق، واعتبر القضية مجرد رغبة من موسى في السيطرة على السلطة والتفرّد بالملك، أي أنه استحضر فقط البُعد المادي: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾.[١]

كما كشف القرآن الكريم بأن الحق سبحانه يعاقب هؤلاء المعاندين المجادلين في الحق بعدما تبيّن، بالطبع على قلوبهم والطمس على عقولهم، فلا يهتدون ولا يرجعون حتى يأتيهم الموت: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾.[٢] ففي هذه الآية بيان مقت الله سبحانه للذين يجادلون بالباطل وبغير علم ولا هدى، وكيف أن نتيجة ذلك هي الطبع والطمس على قلوبهم وعقولهم. وفي سياق عقوبة المعاند المجادل بالباطل، يشير القرآن في آية أخرى كيف أن الله سبحانه يُسلّط عليه شيطانًا مريدًا ليزيده إغراء بالباطل وتزيينًا للجحود والمعاصي: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾،[٣] وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا

---

(١) طه: ٥٦-٥٧.

(٢) غافر: ٣٥.

(٣) فصلت: ٢٥.

ﭐلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمۡ أَزّٗا ﴾.[١] أي تزعجهم وتدفعهم نحو مزيد من الباطل والجحود والعناد والمعاصي.

والمقصود؛ أن القرآن الكريم لم يغفل مسألة وجود موانع وتحيزات تحول بين المرء والاقتناع بالحق واتّباعه رغم يقينه بصحته وصدقه، وذلك لأن القلوب بفطرتها تنجذب إلى الحق والعقول ببديهتها تميل إلى الحق، ولا يمنع من آثار هذا الانجذاب والميل إلا وجود عوامل مانعة! وأغلب هذه العوامل ترجع إلى النفس والهوى، وليس إلى العقل والفكر، ولهذا قال سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ وَمَا يَكۡفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾.[٢] فلما كان الإسلام دينًا يوافق تمام الموافقة مبادئ العقل وقوانين الوجود، لا جرم أن من يكفر به أو يرتد عنه لا يمكن أن يكون داعي كفره أو ردته العقل، بل غلبة النفس عليه واتّباعه الهوى، ولهذا قال -والله أعلم-: ﴿وَمَا يَكۡفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾.

وإنما هما أمران العقل أو النفس، لأن الإنسان في دوافعه وغاياته لا يتحرك إلا بأحدهما، فإما أن يغلب عليه العقل الموجب اتّباع الوحي، إذ العقل بجبلته طائع للخالق، وإما أن تغلب عليه النفس الموجبة اتّباع الهوى ونهج الفسوق. ولهذا إذا تتبعت مورد الفسوق في القرآن، تجد هذا المعنى ظاهرًا ساطعًا. فمثلًا نجد المعنى نفسه في رفض نبوة محمد ﷺ، وأن الدافع هو الفسوق أي اتّباع الهوى وغلبة النفس: ﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾.[٣] والشيء نفسه بخصوص رفض

---

(١) مريم: ٨٣.

(٢) البقرة: ٩٩.

(٣) آل عمران: ٨٢.

الشريعة كما هو الحال عند العلمانيين والليبراليين: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾.[1] ولهذا تجد هؤلاء الجاهليين يلهجون بالحريات الفردية أي الفسوق.

❊ ❊ ❊ ❊

(٥) كلام أهل العلم في موانع الاقتناع

ولقد تنبّه العلماء قديمًا لمسألة الموانع التي تحول بين المرء وبين الاقتناع بالحق رغم ظهور أدلته وسطوع براهينه، ورغم وضوح زيف الباطل.

نبّه الإمام ابن تيمية -توفي ٧٢٨هـ- إلى أحد جوانب موانع الاقتناع والخضوع للحق، فيقول: «لما أحدث قوم من الكلام المبتدع المخالف للكتاب والسنة، وصاروا يُسمّون ذلك عقليات وأصول الدين، وكلامًا في أصول الدين، صار من عرف أنّهم مبتدعة ضلاّل في ذلك ينفر عن جنس المعقول، والرأي، والقياس، والكلام، والجدل، فإذا رأى مَن يتكلّم بهذا الجنس اعتقده مبتدعًا مبطلًا، كما أنّ هؤلاء لما رأوا أن جنس المنتسبين إلى السنة والشرع والحديث قد أخطأوا في مواضع، وخالفوا فيها صريح المعقول، وهم يقولون إن السنة جاءت بذلك، صار هؤلاء ينفرون عن جنس ما يُستدل في الأصول بالشرع والسنة، ويُسموّنهم حشويّة وعامة. وكل من هؤلاء وهؤلاء أدخلوا في مسمى الشرع والعقل والسمع ما هو محمود ومذموم. ثم هؤلاء قبلوا من مسمى الشرع والسنة عندهم محموده ومذمومه، وخالفوا مسمى

---

(١) المائدة: ٤٧.

العقل ومحموده ومذمومه. وأولئك قبلوا مسمى العقل عندهم محموده ومذمومه، وخالفوا مسمى الشرع محموده ومذمومه».[١]

وكذلك الإمام ابن الوزير اليماني -توفي ٨٤٠هـ- يشير إلى هذا المعنى نفسه، فيقول: «علمت بالتجربة الضرورية في نفسي وغيري أن أكثر جهل الحقائق إنما سببه عدم الاهتمام بتعرفها على الإنصاف لا عدم الفهم، فإن الله -ولله الحمد- قد أكمل الحجة بالتمكين من الفهم، وإنما أُتي الأكثر من التقصير في الاهتمام. ألا ترى أن المهتمين بمقاصد المنطقيين والمتكلمين يفهمونها وإن دقت مع الصبر وطول الطلب، فكيف لا يفهم طالب الحق مقاصد الأنبياء والمرسلين والسلف الصالحين، مع الاهتمام بذلك وبذل الجهد في الطلب وحسن القصد!».[٢]

وكتب جان جاك روسو -توفي ١٧٧٢م- يقول: «وحتى لو كان في وسع الفلاسفة أن يكتشفوا الحقيقة، مَن منهم يهتم بها؟ كل واحد منهم يعلم أن مقولته ليست أوثق تأصيلًا من غيرها، لكنه يتشبّث بها لأنها من إبداعه. لا واحد منهم، حتى لو تبيّن الحق وميّزه عن الباطل، يُفضّل الحق الذي أبدعه غيرُه على الباطل الذي اخترعه هو. أين الفيلسوف الذي يتورّع عن خداع النوع البشري إن كان في ذلك إنقاذ لسمعته؟ أين الفيلسوف الذي في قرارة قلبه يتوخى غير الشهرة والنبوغ؟ كل ما يصبو إليه هو أن يسمو عن العامة، وأن يُطفئ نورُه نورَ أقرانه. لا يهمه سوى مخالفة الغير، إن كان بين المؤمنين فهو ملحد، وإن بين الملحدين فهو مؤمن».[٣]

---

(١) النبوات ج١ ص٣٣٠.

(٢) إيثار الحق على الخلق ج١ ص٣٩٩.

(٣) دين الفطرة. جان جاك روسو ص٢٩.

وهذه الدوافع الشخصيّة والباطنية ليست خاصة كما قلنا آنفًا بمجال علمي دون آخر، مثل مجال العلم الشرعي أو مجال الفكر والفلسفة أو مجال السياسة والاقتصاد والإعلام، بل يشمل حتى مجال العلم الطبيعي ومختلف تخصصاته، عكس ما يتوهمه الملحد وكثير من المخدوعين، لأن الأمر تتدخل فيه عوامل كحب الشهرة والحصول على المكافأة المادية، والفوز بالدعم المالي لإجراء البحوث والدراسات، والخضوع لإملاءات الشركات والمعاهد، وكذلك التحيزات الشخصية المسبقة. ولهذا صار من المعلوم الثابت وجود دوافع مختلفة بعيدة عن العلم ومعطياته، تتدخل في الموافقة على المقالات العلمية المحكمة أو نشر الكتب العلمية.

يقول الدكتور حسان الباهي: «يُقدم لنا تاريخ العلم نماذج من سلوكيات غير مشروعة تسود داخل الجماعة العلمية، وبينها وبين الجماعات الأخرى. فقد تعاين حالات لا ينظر فيها كلُّ طرف فيما يُقدمه الآخر من حجج، سواء لتعضيد نتيجته أو لنقض دعوى خصمه. وهو ما نلاحظه كذلك داخل بعض اللجن العلمية التحكيمية. حيث يسود الانحياز لنظرية على حساب نظرية أخرى، لاعتبارات غير معرفية وغير موضوعية، لينبني التحكيم على محاباة طرف على حساب طرف آخر، والإعلاء من القيمة العلمية لشخص، في مقابل الحط من قيمة شخص آخر، ليخضع الأمر في نهايته لاعتبارات مصلحية».[1]

وفي موضع آخر، يقول: «تاريخ العلم يكشف لنا عن العديد من الطعون التي

---

(١) جدل العقل والأخلاق في العلم ص١٤٩.

قدمت مثلًا أمام لجن علمية محكمة، حيث اتُهمت بالانحياز والتزوير، وغيرهما من الطرق التي تستند فيها إلى ما غير علمي، كما يحدث هذا كذلك في لجن مراجعة المقالات العلمية. فالأسباب التي تُقدم مثلًا بعدم نشر مقالة علمية قد لا تكون هي الأسباب الحقيقية.. فكثيرًا ما تخضع عمليات من هذا القبيل إلى التحيز والعلاقات الشخصية والسلطة، سواء ببُعدها المعرفي أو المادي، إلخ. هكذا يبدو أن المناقشات التي تدور في حقل العلم لا تقل خصومة وشغبًا أحيانًا عن تلك التي نعاينها في مجالات أخرى، خاصة المجال السياسي».[١]

وفي سياق انتقاده للجامعات ومراكز البحوث، يقول آلان دونو: «بربط أنفسها بالأعمال الكبرى وبؤمسسات السلطة من دون أن تبقي شيئًا، لا تقوم المؤسسات البحثية ببيع المعرفة للزبائن فقط، بل إنها تصبح شريكة في التلاعب أيضًا، إذ تُعتبر الجامعات أداة أساسية لشركات الضغط السياسي، بالرغم من الطبيعة الإشكالية لنشاط هذه الشركات (..) لقد كانت الجامعة تعمل لعقود حتى الآن لجعل نفسها قابلة للتلاعب من قِبَل أي طرف على استعداد لتمويلها، وإلى حد ما، ربما كانت تقوم بذلك منذ تأسيسها في التاريخ الحديث (..) لقد بلغ الجدب الأخلاقي للبحث العلمي الناجم عن هذه العملية حتى أنه في النهاية كان الشيء الوحيد الذي عنبي به الباحثون هو حجم تمويل أبحاثهم، معاملهم، ومؤسساتهم».[٢]

❋ ❋ ❋ ❋

(١) جدل العقل والأخلاق في العلم ص١٥٣.

(٢) نظام التفاهة ص٩٨، ١٠١، ١١٥.

(٦) شبهة فطرية الإيمان

وبعد؛ فمن شبهات الملحد في هذا السياق، حرصه الدائم على الاعتراض على فكرة فطريّة الإيمان وعقلانيتها واستحالة الانسلاخ منها، بالقول: لو كان الإيمان حقًا قضية يقينيّة ومقنعة لما كان هناك ملاحدة أصلًا، بل إن التاريخ والواقع ليؤكدان على عدم موضوعية ادعاء المؤمنين يقينية الإيمان وقوة إقناع أدلته!

ثم يضيف قائلًا: أيُعقل أنّ فلاحًا جاهلًا في أدغال إفريقيا أو مجاهل آسيا أو صحراء الحجاز عرف الحقيقة أي وجود الإله الخالق، وأنّ الإسلام دين الحق، وأن هناك حياة بعد الموت، في حين أن فلاسفة وعلماء ومفكرين مشهود لهم بالعبقرية والعلم الواسع، مثل ستيفن هوكينج وريتشارد دوكنز وفريديرك نيتشه، وغيرهم لم يعرفوا هذه الحقيقة؟!

ورغم أن الملحد يتجاهل وجود ألوف من الفلاسفة والمفكرين والفيزيائيين وغيرهم من المتخصصين في مجالات علمية بحتة منذ قديم الزمان، يؤمنون بالخالق ولا يجدون أدنى تعارض بين تخصصهم العلمي وإيمانهم.. رغم ذلك، فأحب أن أنبّه إلى أن هذا الاعتراض يرجع إلى سوء تصور الملحد لمسألة العبقرية، فهو يربط بينها وبين معرفة الحق أو قبوله، بحيث كل عبقري عنده لابد أن يعرف الحقيقة بالضرورة، ولابد أن يقبلها حتمًا! ولا أدري لماذا يعتبر الملحدُ مَن ألحد من العلماء والمفكرين عباقرة، ولا يعتبر من آمن من هؤلاء عباقرة ينبغي اتباعهم والاستشهاد بهم!

وعمومًا، فهذا جهل محض، لأن قضية العبقرية والذكاء والنجاح في الاختبارات الخاصة بذلك تتحدد وفق شروط معينة لا علاقة لها بجوانب أخرى بالحياة، فضلًا عن الأخلاق، فضلًا عن معرفة الحقيقة وقبولها، فضلًا عن التحرر من رواسب النفس ونزعاتها اللاشعورية في تحقيق النجاح والشهرة والمال والمجد الدنيوي. ويكفي أن الأخبار تناقلت خبر تفوق طفلة إيرانية عمرها لا يتجاوز الحادي عشر، في اختبارات الذكاء والعبقرية على كلٍّ من ألبرت أينشتاين وستيفن هوكنج، فقد حازت في سلم الاختبار على ١٦٢ نقطة متجاوزة حاجز ١٤٠ للذكاء الخارق، وبنقطتين على مستوى أينشتاين وهوكنج!

إن الذكاء والعبقرية وحدهما لا يمنحان الإنسان الفهم السديد لقضايا الوجود ومعاني الحياة، ما لم يكونا مدعومين بجوانب أخرى ونشاطات أخرى تساعدهما على التهذيب والتزكية من الغرور والعجب الخفي واتّباع الأهواء المختلفة واللهاث وراء الشهرة والشهوات، ومن ثم، ترتقي بهما إلى آفاق الوعي الناضج للذات والعالم والحياة والعلاقات الوثيقة بينها. يشير ألكسيس كاريل إلى شيء من هذا المعنى فيقول: «يكاد الذكاء يكون عديم الجدوى لمن لا يملكون شيئًا آخر عداه. لأن الشخص الذكي البحت إنسان غير كامل، إنه ليس سعيدًا لأنه غير قادر على ولوج العالم الذي يفهمه. إذ إن القدرة على فهم العلاقات الموجودة بين الظواهر تظل عقيمة ما لم تتحد مع ألوان أخرى من النشاط، مثل الإحساس الأدبي والعاطفي وقوة الإرادة وأصالة الحكم والخيال. ولهذا يجب على من يرغبون في الظرف بالمعرف الحقيقية أن يحتملوا الإعداد الطويل الشاق».[١]

---

(١) الإنسان ذلك المجهول ص١٦٠.

أيضًا من مثارات الغلط هنا، تصور الملحد النزاهة التامة في الفيزيائيين والمشتغلين بالعلم الطبيعي عمومًا. والواقع أن موضوعية العلم وحياديته ونزاهته صارت اليوم من الأساطير. وقد ذكرنا سابقًا بعض ذلك، ولكن لابأس بذكر مزيد من الاعترافات. فهذا اعتراف من داخل البيت الفيزيائي: يقول الفيزيائي أليكس ورزنبرج: «التطورات العلمية توجهها إبستمولوجيا اعتبارات غير تجريبيّة وغير قابلة للملاحظة؛ مثل الالتزامات الفلسفيّة القبليّة أو العقائد الدينيّة أو الإيديولوجيات السياسيّة أو الأذواق الجماليّة أو المواقف السيكولوجيّة أو القوى الاجتماعيّة أو الأنماط الفكريّة. ونحن نعرف أن مثل هذه العوامل من شأنها أن تعمل على إيجاد إجماع، لكن ليس بالضرورة من النوع الذي يعكس اقترابًا متزايدًا من الحقيقة، أو الذي يؤدّي إلى معرفة موضوعيّة».[١]

ويقول عادل مصطفى: «يبدو أن المناعة الأيديولوجية هي شيء متأصل في الأداء البحثي العلمي، حيث تعمل كـ «مرشّح» أو «مصفاة» تُرشّد اندفاع التجديدات العلمية وتردها إلى الحصافة والحذر. من دأب المجتمع العلمي أن يقاوم التجديدات العلمية الثورية، لا أن يفتح لها ذراعيه!! لأن لكل عالم ناجح مصلحة مكتسبة (فكرية واجتماعية بل ومالية) في الحفاظ على الوضع القائم. ولو أن كل فكرة جديدة ثورية استُقبلت بالترحاب لكانت النتيجة فوضى كاملة».[٢]

ويقول بول ديفيز: «كثيرًا ما يقال إن العلم خال من التحيزات، أو على الأقل ينبغي أن يكون كذلك. لا شك أن العلم حين يمارَس بالشكل السليم، هو أقل

---

(١) فلسفة العلم: مقدمة معاصرة ص٢٥٦.

(٢) المغالطات المنطقية ص٢٦١.

المساعي الإنسانية تأثرًا بالأهواء والمعتقدات المسبقة، لكن، في نهاية المطاف لا مفر من أن يُكوّن العلماء (وأنا منهم) آراء خاصة بهم تقوم على نظرة أكثر عمومية عن العالم، تتخللها عناصر شخصية وثقافية، بل حتى دينية».[١]

ونجد القرآن الكريم أشار إلى هذه القضية، قضية أن سعة العلم والاطلاع لا تنفي التأثر بعوامل نفسية وخارجية معينة، رغبًا ورهبًا، وذلك في قصة الذي آتاه آياته أي علومًا واسعًا: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.[٢] فهذا بيان عن إنسان آتاه الله العلم الواسع ويسر له الاطلاع والمعرفة، لكنه بدل أن يستثمر ذلك كله في الترقي والتزكي، ليكون إنسانًا كريمًا وعنصرًا فعّالًا، آثر أن يتردى مع الهوى إلى الدرك الأسفل، لهاثًا وراء الشهوات الفانية وخضوعًا للنزوات العابرة، فهو يلهث وراءها في كل فكرة وخاطرة، وفي كل حركة وسكنة، ثم ماذا؟ لا شيء، فلكل شيء أجل معلوم!

والأمر يبدو مفهومًا، فالعالم والعبقري إنسان قبل أي شيء آخر، وهو ما يعني أنه رغم سعة اطلاعه ودقة تخصصه، إلا أنه يخضع لنفس ما يخضع له عموم الناس، ويتأثر بالتحديات والضغوط والإغراءات التي يتأثر بها جماهير الناس، ولذلك فحتى «الرجال الأكثر عظمة وتفوقًا لا يتجاوزون إلا نادرًا مستوى الناس العاديين في كل ما

---

(١) الجائزة الكونية الكبرى ص٣١٢.

(٢) الأعراف: ١٧٥-١٧٦.

يخص مسائل العاطفة: من دين وسياسة وأخلاق وتعاطف وتباغض»، كما يقول غوستاف لو بون[١] ولا شك أن هذا الحقيقة مما يغفل عنها الملحد!

إن من الأمور التي لا يعقلها الشباب العربي بخصوص انبهارهم بمشاهير الإلحاد الغربي وعدم اقتناعهم؛ أنهم يغفلون عن أن شبح صراع الكنيسة ضد العلم ووحشيّة تعاملها مع العلماء لا يزال يُشكل لهم كابوسًا مفزعًا! كما أنهم يغفلون عن أن بريق الشهرة والمال والمجد الدنيوي يُسيطر عليهم للغاية وليس من السهل أن يتنازلوا عن كل ذلك! وأيضًا فإن تلك الصورة المشوهة عن الإسلام وإله الإسلام ونبي الإسلام التي غذّتها الكتابات المختلفة عبر القرون، ونفخ فيه كثيرًا الإعلام الغربي المعاصر، هذه الصورة لا تزال ماثلة في أذهانهم وتُشكل حاجزًا منيعًا دون معرفة الإسلام!

يقول ليوبولد فايس -المفكر النمساوي، الذي أسلم فسمى نفسه محمد أسد-: «حين يصل الأمر بالباحث الغربي لدراسة الإسلام، نجد أن الموضوعية تتوارى وتختل وتشوبها انحيازية عاطفية ومعنوية.. فما يعتقده الغرب تجاه الإسلام في عصرنا الحالي ترجع جذوره إلى الانطباعات التي تولدت بين الأمم الأوروبية في أثناء الحروب الصليبية».[٢]

ويقول إدوارد سعيد: «في عيون الغربيين والأمريكيين يمثّل الإسلام نزعة بدائية عادت للظهور، ولا تقتصر على الإيحاء بالتهديد بالعودة إلى العصور الوسطى، بل

---

(١) سيكولوجية الجماهير ص٥٧.

(٢) الطريق إلى مكة ص١١، بتصرف قليل.

بخطر تدمير ما يشار إليه بانتظام بمصطلح النظام الديموقراطي للعالم الغربي»، ولهذا «لا يمكننا أن نقول إن دراسة الإسلام اليوم حرة أو بريئة في أي جانب من جوانبها تقريبًا، أو إن الضغوط المعاصرة الملحة والعاجلة لا تحدد مسارها. وما أبعد هذا عن الموضوعية غير السياسية التي يصف بها الكثيرون من الباحثين في مجال الاستشراق عملهم».(١)

والخلاصة أن الشباب عندنا لا يدركون العوامل التي في إطارها تشكّل العقل الغربي ودفعت به بعيدًا عن الله سبحانه!

ثم، نعود إلى أصل الحجة أو الاعتراض الإلحادي، أعني لو كان الإيمان حقًا وصوابًا، لكان الفلاسفة والعلماء أولى به من الجهلة والبسطاء، بسبب قوة ذكائهم وسعة اطلاعهم، أمر يحرص الملاحدة على الترويج له والإشادة به وطرحه بشكل دائم! أما كبراؤهم فيمارسونه لخداع المراهقين والشباب، وأما الأتباع فهم يعتقدون صحة هذا الوهم الطائش!

والحقيقة أنّ هذا الأسلوب -أي التشكيك في قيمة الإيمان وأصالته بسبب إلحاد بعض المشاهير في العلوم- هو أسلوب إلحادي قديم وليس من مبتكرات الملحد المعاصر!

يقول أبو الحسن العامري - ت ٣٨١هـ - في معرض كشفه لبعض خطط الملاحدة للإيقاع بالشباب وعموم الناس: «ثم وجدنا أوساخ الزنادقة يصطادون بهم

---

(١) تغطية الإسلام ص١٤٩، ٢٨٨.

-يقصد شهرة العلماء الملاحدة- الواحدَ والواحدَ من ضَعَفَة العقول، ويستدرجونهم بِصِيتِهِم إلى ما تدنّسوا به من الخلاعة. بل يوهمونهم بأنّ دين الله تعالى لو كان ذا حقيقة صادقة، لكان أولئك -يقصد العلماء الملاحدة- مع تكامل عقولهم ووفور أحلامهم أولى بإيثاره والتمسّك به».[١]

ويقول أبو القاسم الأصفهاني - ت ٥٠٢هـ -: «وكثير من الجهال اغتروا بقوم وُصفوا بوفور العقل في أمور الدنيا حيث أنكروا أمر الآخرة، فقالوا: لو كان ذلك حقًا لم ينكره أمثالهم مع وفور عقولهم وكثرة فهمهم، ولم يعلموا أن العقل وإن كان جوهرًا شريفًا فإنّه لا يتوجه إلا حيث وُجّه ولا غناء له إلا فيما إليه صُرف، فإذا صُرف إلى أمور الآخرة أحكمها، وإذا صُرف إلى أمور الدنيا قبلها وعكف عليه وأخل بما سواها».[٢]

ويقول أبو حامد الغزالي - ت ٥٠٥هـ - عن بعض ملحدة عصره، فقال: «وإنما مصدر كفرهم سماعهم أسماء هائلة، كسقراط وبقراط وأفلاطون وأرسطوطاليس وأمثالهم، وإطناب طوائف من متّبعيهم وضُلاَّلهم في وصف عقولهم، وحسن أصولهم، ودقة علومهم الهندسية والمنطقية والطبيعية والإلهية.. وحكايتهم عنهم أنهم -مع رزانة عقولهم وغزارة فضلهم - منكرون للشرائع والنحل، وجاحدون لتفاصيل الأديان والملل.. فلما قرع ذلك سمعهم ووافق ما حكى طبعهم، تجملوا باعتقاد الكفر، تحيزًا إلى غمار الفضلاء بزعمهم، وانخراطًا في سلكهم،

---

(١) الأمد على الأبد ص٧٦.

(٢) تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين ص١١٥.

وترفعًا عن مسايرة الجماهير والدهماء.. ظنًّا بأن إظهار التكايس في النزوع عن تقليد الحق، بالشروع في تقليد الباطل، جمال، وغفلة منهم عن أن الانتقال إلى تقليد عن تقليد، خرق وخبال».[١]

وكذلك جمال الدين ابن الجوزي -ت ٥٩٧هـ- يقول: «وقد لبّس إبليس على أقوام من أهل ملتنا فدخل عليهم من باب قوة ذكائهم وفطنتهم، فأراهم أن الصواب اتّباع الفلاسفة لكونهم حكماء قد صدرت منهم أفعال وأقوال دلّت على نهاية الذكاء وكمال الفطنة، كما يُنقل من حكمة سقراط وأبقراط وأفلاطون وأرسطا طاليس وجالينوس، وهؤلاء كانت لهم علوم هندسية ومنطقية وطبيعية، واستخرجوا بفطنهم أمورًا خفية إلا أنهم لما تكلموا في الإلهيات خلطوا.. وقد حُكي لهؤلاء المتأخرين في أمتنا أن أولئك الحكماء كانوا ينكرون الصانع ويدفعون الشرائع ويعتقدونها نواميس وحِيَلًا، فصدقوا فيما حُكي لهم عنهم ورفضوا شعار الدين.. وهؤلاء لا مستند لكفرهم إلا علمهم بأن الفلاسفة كانوا حكماء».[٢]

فهل تجد في عصرك شيئًا جديدًا غير ما هو مذكور في نصوص هؤلاء الأئمة والأعلام قبل قرون؟! أليس كلما تكلمتَ مع أحد من صغار الملاحدة وكبارهم يبادر إلى القول إن فلانًا وفلانًا من المشاهير في العلم وحاصل على جائزة كذا التي لا تُقدم إلا للعباقرة في التخصصات العلمية، فكيف تظن أنهم قد فاتهم ما ظفرتَ به أنت وأمثالك، وعجزوا هم عن فهم ما استوعبته أنت وأمثالك! حتى إنك تجد هؤلاء

---

(١) تهافت الفلاسفة ص٧٤.

(٢) تلبيس إبليس ص٤٨، بتصرف يسير.

المراهقين يقولون: إذا كانت هناك جهنم كما تعتقدون، فأنا أحب أن أكون مع كارل ماركس، وفريديرك نيتشه، وريتشارد دوكنز، وستيفن هوكينج، وأمثالهم! ولست أدري هل جهلوا -أم تجاهلوا- أن فيها أيضًا هلتر وماو تسي تونغ ونابليون وجورج بوش وغيرهم كثير من الجبابرة والطغاة وسفاكي الدماء والمجرمين العتاة الذين اقترفوا في حق الشعوب والإنسانية أفظع الجرائم بحكم ما امتلكوا من السلطة والقوة والجبروت ووسائل القتل والتدمير!

وإذا كان من غير المعقول لو كان الإيمان صحيحًا؛ أن يؤمن أغمار الناس بالإله الخالق وبصحة الإسلام، بينما يرفض ذلك كله المشهود لهم بالذكاء والعلم في تخصصاتهم، فهل من المعقول أن يعتقد أولئك العباقرة بأنهم قد جاؤوا من لا شيء، بلا شيء، لأجل لا شيء، كما يقول الملحد الفيزيائي كونتن سميث! في حين نجد فلاحاَ بسيطاَ يرفض هذا الإيمان ويعتبره سخفًا وجهلًا بل معاندة سمجة، لأن بديهة عقله تقرر أن الشيء لابد له من فاعل، وأن شيئًا من غير شيء غير معقول! وهل من المعقول أن يعتقد هؤلاء العباقرة والعلماء أن قوانين الفيزياء هي مَن أنشأت الكون، كما يقول ستيفن هوكينج، أو أن الحياة وأنواعها في الأرض سببها كائنات فضائية جاءت قبل ملايين السنين وزرعت بذورها في الأرض، كما يقول ريتشارد دوكنز! وغير هذا مما يسمونه علمًا ونظريات، وهو على التحقيق تخاريف وصبيانيات!

إن مما لا يدرك الشباب بخصوص هذه المسألة أن التخصص العلمي في فرع من فروع العلم لا يعني قدرة هذا المتخصص على التكلم في موضوع خارج تخصصه والبتِّ فيه برأي، فالطبيب الماهر في تخصصه لا يعني أن له القدرة على التكلم في

الفيزياء لمجرد مهارته الطبية، والفيزيائي العبقري لا يعني أن باستطاعته الخوض في القانون لمجرده عبقريته الفيزيائية، والقانوني المحنك لا يعني أنه يُقبل منه طرح رأيه في التاريخ لمجرد حنكته القانونية. فكيف إذا أضفنا عناصر منع الاقتناع والموافقة والقبول، كالأهواء والشهوات وأمراض القلب المعنوية والرواسب النفسية والمصالح الشخصية، وغير ذلك!

قال الإمام ابن تيمية: «القضايا تتفاوت في الجلاء والخفاء لتفاوت تصورها كما تتفاوت لتفاوت الأذهاب، وذلك لا يقدح في كونها ضرورية».[١] وقال المعلمي اليماني: «هناك قضايا يستوي في إدراكها العاقل والأعقل، وهناك قضايا يقع التفاوت فيها، ولكن يتفق أن يكون الرجل فيها أفضل من كثيرين كلهم أعقل منه، إما لأنه يُسّر له من المشاهدة والتجربة والملاحظة والوجدان ما لم يُيسر لهم، وإما لأنه عرضت لهم عوائق من الهوى والشبهات والاستكبار لم يعرض له».[٢]

بل نقول لهؤلاء الشباب: هب أن زعماء الإلحاد الكبار من ذوي الشهادات والتخصصات والجوائز والشهرة العريضة لم يتعمدوا اعتقاد الباطل والقول بالضلال، أليس يمكن أن يخطئوا إذ ليسوا معصومين، كما يخطئ كل إنسان، فكل بني آدم يخطئ من حيث يظن أنه مصيب! إذ أسباب الخطأ كثيرة جدًّا ومتشعّبة جدًّا، كما أن دوافع تعمد تزييف الحقيقة كثيرة جدًّا ومتشعّبة جدًّا! والعاقل يعرف الحق ليعرف أهله، وليس يعرف الحب بالرجال، خصوصًا وأن هناك أضعافًا مضاعفة من

---

(١) درء تعارض العقل والنقل ج١ ص٣١.

(٢) القائد إلى تصحيح العقائد ص١٧٣.

فحول العباقرة في تخصصات علمية متعددة، كلهم يقرّون بوجود الإله الخالق، بغض النظر عن طبيعة الإله الذي يؤمن به هذا العالِم أو ذاك!

والغرض مما سبق بيان أنّ الأدلة والبراهين كثيرة جدًّا، تتسم بوفرة مثيرة للانتباه، كما قال سبحانه: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾.[1] وأنها في نفسها منتجة للمعرفة واليقين، ولذلك كان الأمر الرباني الدائم بالنظر في ملكوت الكون والحياة، لأن هذه الآيات يكفي النظر فيها لاستيعاب الحق المكنون في دلالتها، كما احتج بذلك سيدنا موسى ﷺ على فرعون وقومه المعاندين خلال مناظرته حول وجود الله سبحانه: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾.[2] أي إن النظر في آفاق الكون وآيات السماء والأرض يورث اليقين الجازم بضرورة وجود إله خالق لكل هذا الجمال والنظام المشهود، إذ إنّ منطق العقل وبديهة الفطرة توجب ذلك: ﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾.[3] ولا يمنع ذلك إلا الموانع المذكورة آنفًا.

ولهذا دائمًا أقول بأن من ظن -من الذين يحبون الظهور بمظهر التجديد والاعتدال!- عدم كفاية الأدلة أو عدم وضوحها أو عدم تحقيقها لليقين فقد أساء الظن جدًا بالله وكذّب القرآن وطعن في النبوات من حيث لا يدري! وحسبك أن تعلم أن مقالهم يتضمن التكذيب لله سبحانه في تعهده لمن بحث عن الحق مخلصًا صادقًا،

---

(١) الذاريات: ٢١- ٢٢.

(٢) الشعراء: ٢٣،٢٤.

(٣) الشعراء: ٢٨.

وأتى الأمر من بابه، أن يهديه إليه ويكشفه له، فقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.(١) فهذه الآية تتضمن أمورًا:

(أولها) أن هناك مجانية في الأدلة وسطوعها.

(ثانيها) إمكانية إدراك الحقيقة وأدلتها.

(ثالثها) مسؤولية العبد عن الاجتهاد في البحث.

(رابعها) وجود موانع تحول دون الاهتداء للحق.

(خامسها) تعهد الله سبحانه بهداية من أخلص في البحث.

(سادسها) الإمداد للمجاهد المعرفي بالتوفيق والتثبيت.

والله أعلم.

* * * *

(٧) التحرر من قبضة موانع الاقتناع

والسؤال المهم في هذا السياق هو: كيف يمكن للملحد أن يتحرر من قبضة هذه الموانع؟

ينبغي أن نقول بوضوح وصراحة، إن تحقيق هذا التحرر والانفلات من قبضة موانع معرفة الخلل في الطرح الإلحادي وإدراك أصالة الطرح الإيماني، خصوصًا في عصر الدجل الحاضر، ليس بالأمر السهل، مع إقرارنا بأن المفترض أنه ليس بين

---

(١) العنكبوت: ٦٩.

العاقل والحقيقة عداوة، لأنّه كما قال الإمام الشافعي رحمه الله: «العقل مضطر إلى قبول الحق».[١]

وإذا كان بعض الناس يتوهمون سهولة الاقتناع، وأنه يكفي بعض الحوارات العابرة أو الكتابات المرصوفة، مع كل الشباب الملحد أو الذي في طريقه إلى الإلحاد، لكي تسطع أنوار الحق وتنجلي ظلمات الأوهام والأباطيل.. فلا شك أنّ هذه النظرة العجلى لا يقع فيها إلا الذين لا يعرفون طبيعة النفس البشريّة!

ألا ترى كيف أنّ قومًا قد بلغوا شأوا في العلم الطبيعي والحضاري ومع ذلك يعتقدون قدسية البقر! وآخرين يعتقدون قدسية أحجار منحوتة! وآخرين يعتقدون إمكانية نشوء شيء من لا شيء! وآخرين يعتقدون أن إلههم صُلب على خشبة! إلى غير ذلك مما تراه في تاريخ الفِرق والمذاهب والفلسفات والأديان، قديمًا وحديثًا! وكل ذلك ينبّه العاقل الفطن لصعوبة التحرر من قبضة موانع الإقناع كما عرضنا لها آنفًا.

ومن هنا، نقول: إن هذا التحرر يحتاج لمجاهدة فكرية ونفسية قوية وجادة وصريحة، وبدون هذه المجاهدة المخلصة التي ضمن الله تعالى الهداية لصاحبها كما ذكرت الآية السابقة، فمن المحال جدًّا أن تتحقق نتائج محترمة! وهذا ما يرفض كثير من زعماء الإلحاد الالتفات إليه، فضلًا عن صغارهم وعوامهم!

لقد ذكر القرآن الكريم منهجية فعّالة للغاية للتحرر من قبضة موانع الاستجابة للحق والبصر بخلل ولبس الأباطيل الرائجة، فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن

---

(١) آداب الشافعي ومناقبه. ابن أبي حاتم الرازي ص٦٨.

تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾.[١] فهذه دعوة إلهية لكل تائه شارد في أودية الغبش والحيرة والضلال، أو حتى المتقين من صحة ما عليه من الاعتقادات الفاسدة والتصورات المنحرفة، أن يمارس فعل التفكر ويقلّب وجوه النظر في الأمور من كل الجوانب، بكل صدق وإخلاص وجدّية، فإن العقل الخالص لابد أن يهتدي إلى مكامن الخلل والقصور، كما لابد أن يبصر مواطن الصحة والصواب.

يقول سيد قطب رحمه الله: «وهنا يدعوهم دعوة خالصة إلى منهج البحث عن الحق، ومعرفة الافتراء من الصدق، وتقدير الواقع الذي يواجهونه من غير زيف ولا دخل.. إنها دعوة إلى القيام لله. بعيدًا عن الهوى. بعيدًا عن المصلحة. بعيدًا عن ملابسات الأرض. بعيدًا عن الهواتف والدوافع التي تشتجر في القلب، فتبعد به عن الله. بعيدًا عن التأثر بالتيارات السائدة في البيئة. والمؤثرات الشائعة في الجماعة. دعوة إلى التعامل مع الواقع البسيط، لا مع القضايا والدعاوى الرائجة؛ ولا مع العبارات المطاطة، التي تبعد القلب والعقل من مواجهة الحقيقة في بساطتها. دعوة إلى منطق الفطرة الهادئ الصافي، بعيدًا عن الضجيج والخلط واللبس؛ والرؤية المضطربة والغبش الذي يحجب صفاء الحقيقة. وهي في الوقت ذاته منهج في البحث عن الحقيقة. منهج بسيط يعتمد على التجرد من الرواسب والغواشي والمؤثرات. وعلى مراقبة الله وتقواه. وهي (واحدة).. إن تحققت صح المنهج واستقام الطريق. القيام لله.. لا لغرض ولا لهوى ولا لمصلحة ولا لنتيجة.. التجرد.. الخلوص.. ثم التفكر

---

(١) سبأ: ٤٦.

والتدبر بلا مؤثر خارج عن الواقع الذي يواجهه القائمون لله المتجردون. ﴿أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾.. مثنى ليراجع أحدهما الآخر، ويأخذ معه ويعطي في غير تأثر بعقلية الجماهير التي تتبع الانفعال الطارئ، ولا تتلبث لتتبع الحجة في هدوء.. وفرادى مع النفس وجهًا لوجه في تمحيص هادئ عميق». [١]

لكن؛ ما هو موقف المسلم من عدم اقتناع الملحد بأدلته على وجود الله سبحانه؟ وعلى صحة الإسلام؟ وما يرتبط بهذا من لوازم ومقتضيات؟

الواقع؛ لقد قدم لنا القرآن الكريم الجواب عن هذا السؤال وبوضوح وجلاء، فقال سبحانه: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾. [٢] قال أبو السعود: «لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ، أي لا يجب عليك أن تجعلهم مهديين إلى فعلِ ما أُمروا به من المحاسن والانتهاءِ عما نُهوا عنه من القبائح المعدودة. وإنما الواجبُ عليك الإرشادُ إلى الخير والحثُ عليه والنهيُ عن الشر والردعُ عنه بما أوحي إليك من الآياتِ والذكرِ الحكيم. ولكن الله يَهْدِي، هدايةً خاصةً موصلةً إلى المطلوب حتمًا. مَن يَشَاء، هدايتَه إلى ذلك ممن يتذكر بما ذُكّر ويتبعُ الحق ويختار الخيرَ». [٣]

وقال سبحانه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾. [٤] قال ابن كثير: «يقول تعالى لرسوله ﷺ: إنك يا محمد «إِنَّكَ لا

---

(١) في ظلال القرآن ج٥ ص٢٩١٤.

(٢) البقرة: ٢٧٢.

(٣) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ج١ ص٢٦٤.

(٤) القصص: ٥٦.

تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ» أي: ليس إليك ذلك؛ إنما عليك البلاغ، والله يهدي من يشاء، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة. «وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ» أي هو أعلم بِمَنْ يستحق الهداية بِمَنْ يستحق الغِوَاية».[١]

إذن دور المسلم ليس تحقيق الإقناع للملحد فهذا أمر -كما بيّنت نصوص القرآن- بيد الله وحده وتتدخل فيها عوامل مختلفة بحسب سنة الله تعالى في حياة البشرية وطبيعة النفس الإنسانية. وإنما دور المسلم هو التبليغ والبيان لإقامة الحجة على الملاحدة -والمخالفين عمومًا-، وأن يحرص على تطوير فنون التبليغ وأساليب البيان. وهو حين يفعل ذلك ويحرص عليه، يكون قد قام بما يجب عليه شرعًا، ولا يؤاخَذ بما وراء ذلك، إذ واجبه القيام بالواجب. ففي الحديث أن بعض الأنبياء يأتون يوم القيامة وليس معهم إلا النفر اليسير، وبعضهم يأتي وليس معه أحد![٢] ومن الواضح أن هؤلاء الأنبياء عليهم السلام قد قاموا بما يجب عليهم أحسن قيام، لكن النتائج -كما قلنا- ليست بيد البشر. ولهذا يجب على الشباب المسلم أن يفهموا بأنهم غير مسؤولين على عدم اقتناع الملحد أو غيره من الكفار والمشركين والوثنين، بل عليه أن يفهم بأن واجبه القيام بواجبه، أما النتائج فليست من شأنه، بل هي من شأنه الله تعالى وسننه في العقول والنفوس.

وتأمل هذه الآية: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾.[٣] قال

---

(١) تفسير القرآن العظيم. ابن كثير ج٦ ص٢٤٦.

(٢) مسند أحمد.

(٣) الغاشية: ٢١-٢٢.

العلامة المراغي: «بعد أن ذكر سبحانه دليل قدرته تعالى على بعث الأجساد ولفت أنظار الجاحدين إلى مظاهر قهره وغلبته لهذا العالم، ثم وبخهم على إنكارهم وتماديهم في باطلهم، على وضوح الحجة وظهور البرهان، أردف ذلك أمره ﷺ أن يذكرهم بهذه الأدلة وأشباهها مما لا يبقى معه مجال للشك والتردد. (فذكر) بآياتي، وعِظهم بحججي، وبلغهم رسالاتي، وحذّرهم أن يتركوا ذلك، ثم بعدئذ لا تذهب نفسك عليهم حسرات إن لم يؤمنوا. ثم علل الأمر بالتذكير فقال: (إنما أنت مذكر)، أي إنما بعثت للتذكير فحسب؛ وليس من الواجب عليك أن يؤمنوا: فما عليك إلا التبشير والتحذير، فإن آمنوا فقد اهتدوا إلى ما تسوق إليه الفطرة، وإن أعرضوا فقد تحكمت فيهم الغفلات، وتغلبت عليهم الشهوات، واستولت على عقولهم الأهواء والجهالات».[١]

وقد عقد الإمام عبد الرحمن بن أبي بكر بن داود الصالحي - توفي ٨٥٦هـ - فصلًا بعنوان: «وجوب اجتهاد الآمرين الناهين في الأمر والنهي، وإن لم يستجب الجمهور إقامةً للحجة الإلهية لله على خلقه ولاحتمال ازدجارهم وانتهائهم».[٢] وأورد فيه قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾.[٣] فكما ترى، فإنّ الصنف الأول يئسوا من صلاح المجتمع فتركوا الأمر جملة واحدة، أما الصنف الثاني فبيّنوا لهم أن

(١) تفسير المراغي ج٣٠ ص١٣٨.

(٢) الكنز الأكبر من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ص٤٩.

(٣) الأعراف: ١٦٤.

واجبهم هو التبليغ لإقامة الحجة عليهم والإعذار إلى الله تعالى، مع الرجاء في اهتدائهم جميعًا أو بعضهم، أما أن يؤمن الآخر أو لا يؤمن فتلك مشكلته الخاصة.

وبعض الشباب المسلم اليوم يظن أن واجبه الشرعي هو تحقيق إقناع الملحد أو النصراني أو المخالف للإسلام عمومًا، وحين لا يجد النتائج المرجوة من وراء كتاباته وحواراته، يتهم نفسه ويظن بها الظنون، ثم يذهب يسأل ويبحث عن أقوى الأدلة والبراهين التي لا يمكن للملحد أن يُشكك فيها! وهذا خطأ بيّن وضبابية في الرؤية وعدم إدراك لمداخل النفس البشرية. فكما قلنا وبيّنا، فإنّ الاستجابة للحق ليست متوقفة على معرفة أدلته، فأدلته -ولله الحمد- وافرة جدًّا، وإنما تتدخل أمور أخرى لا صلة لها بالأدلة والبراهين والعلم والعقل في توجيه الملحد وصدّه عن الاستجابة الفعليّة لدلالات البراهين التي يطرحها المسلم.

ولقد أثبت الله تعالى دور ووظيفة الأنبياء، فحدده في التبليغ والبيان فقط، فقال: ﴿فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾.[1] وقال سبحانه: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾.[2] وقال جل مجده: ﴿فَإِنۡ أَسۡلَمُواْ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾.[3] وهذا ما ينبغي أن يكون واضحًا عند المسلم المعاصر، خصوصًا الذي يمارس الدعوة إلى الإسلام بين الملاحدة وغيرهم، أي بيان الحق والدعوة إليه، أما أن يقبله الملحد أو يرفضه فتلك مشكلته لا شأن لنا بها، بل إن

---

(١) النحل: ٣٥.

(٢) العنكبوت: ١٨.

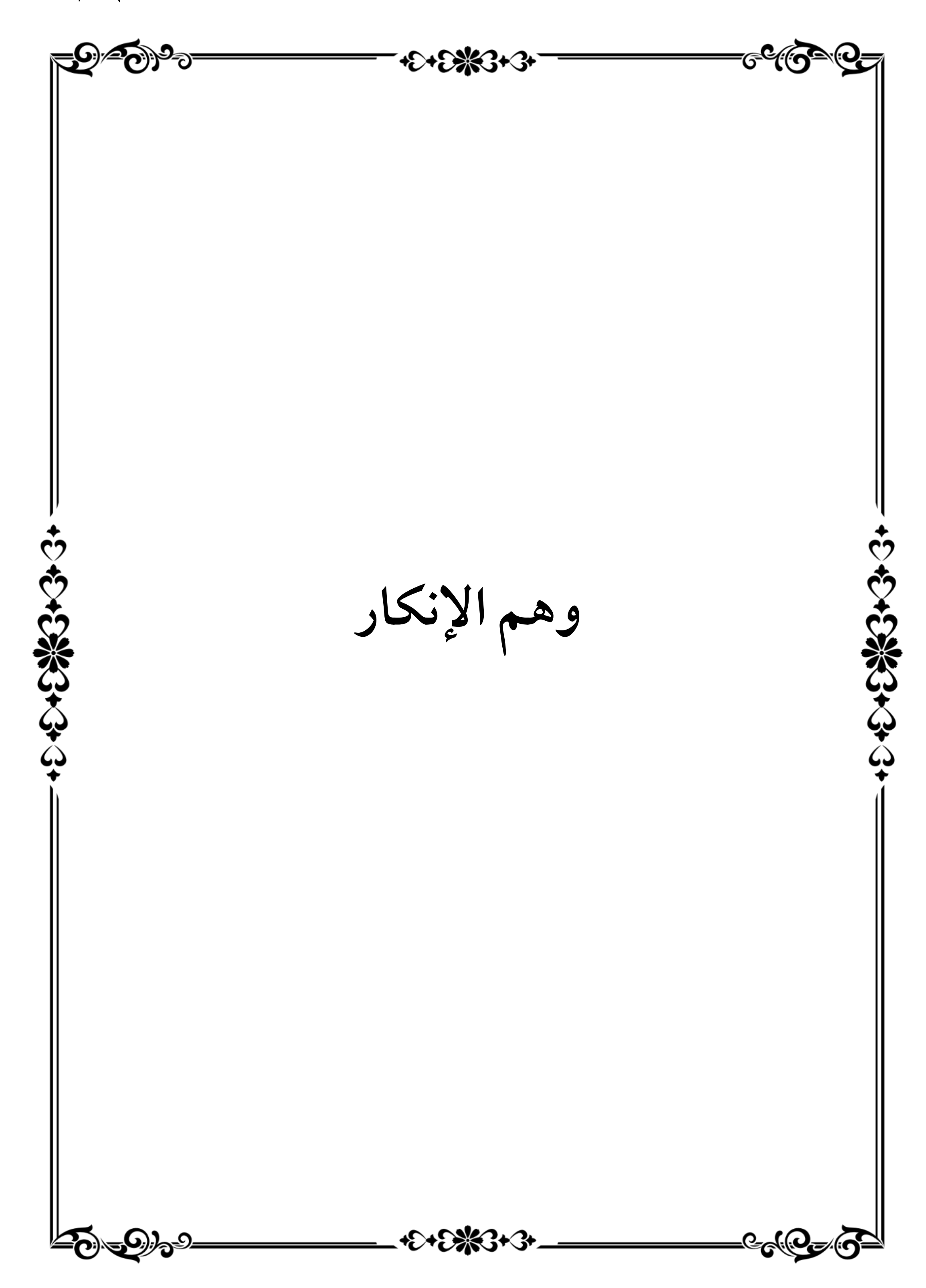
(٣) آل عمران: ٢٠.

جمهور هؤلاء الملاحدة كلما فصّلت لهم في الأدلة ونوّعت جوانبها ودلالاتها، استمروا في غيّهم، وازدادت نفوسهم عنادًا وتمردًا، كما قال مرة جورج دونالد، الأديب الاسكتلندي: «محاولتك بيان الحق لمن لا يحبه، لا تعدو أن تكون بذلًا لمزيد من الأفكار ليسيء تفسيره».

وها هنا أمر آخر يحسن أن ينتبه إليه من يريد إقناع الملحد ويطلب أقوى دليل على ذلك، وهو ما كشفه الله سبحانه عن حضور الشيطان في المشهد، فقال جل شأنه: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ﴾.[1] فالآية تكشف كيف أن الشياطين يعينون الكفار والمشركين والمنافقين والملحدين بالشبهات التي يمكن أن يجادلوا بها أهل الإيمان وينازعوهم بها حول صحة الإسلام وعدالة أحكامه، ولمحاولة التدليل على صحة وصواب المذهب الذي ينتسبون إليه وتحبيبهم إليهم. ولهذا ليس من الحكمة الاسترسال في مجادلة من يظهر عليه عدم الرغبة في معرفة الحق واتّباعه.



(١) الأنعام: ١٢١.



وهم الإنكار

(١) جناية الوهم على العقل

الوهم فكرة جانحة في حنايا العقل وليس حقيقة موضوعيّة خارج الوعي أي في الوجود، كمَن يرى سرابًا من بعيد فيعتقد -وهو واهم- أنّه بركة ماء! ومن ثم، فعندما يسيطر الوهم على عقل الإنسان ووجدانه فلا شك أنّ حُجبًا كثيفة تحول بينه وبين رؤية الحقيقة، فيرى الباطلَ في صورة الحق، ويعتقد الزيفَ على أنّه عين الحقيقة!

والإلحاد قناعة تحكمها أوهام شتّى، موغلة في الضلال والزيف والخداع! وإنّ أحد أبرز معالم ضحالة هذا الفكر -إن جاز وصفه بذلك- اعتبار الملحد إنكاره لفكرة وجود الله تعالى وامتداد أصولها المعرفيّة والنفسيّة في العقل والفطرة والتاريخ، دليلًا أكيدًا على صحة هذا الإنكار وبرهانًا قويًا على صدق هذا النفي!

إذن يمكن صياغة وهم الملحد على الشكل التالي: أنا أنكر وجود الله، إذن الله غير موجود! فالملحد ينفي وينكر ثم يجعل هذا النفي والإنكار دليلًا على صحة النفي والإنكار!! يقول عرّاب الملاحدة الجدد ريتشارد دوكنز: «على أي حال، فإن نظرية الله بأي شكل من أشكالها ليست ضرورية».[(١)] فالرجل -كما ترى- بما أنه يرى أن الله غير موجود إذن فهو غير موجود، وبما أنه يعتقد أن قضية وجود الله ليست ضرورية إذن هي غير ضرورية! المهم أنه يطلق ادعاءه ويصدقه ويجب على القراء تصديقه!

---

(١) وهم الإله ص٤٨.

هكذا يُنحر العقل على نطع الهوى، وهكذا تُسحق الحقيقة بمطرقة العبث!
وهذا يشبه وهم جمهور الفلاسفة حين يظنون أن إعلانهم بأن أساس الفلسفة هو العقل فذلك يبرئ فلسفتهم من الوهم والهوى والتأثر بما يتأثر به البشر، من المشاعر والمواقف والواقع والرواسب الدفينة والمنطلقات الخفية! بل أساس قول الملحد هنا هو توهمه أن مجرد احتجاجه وإنكاره يُضفي المصداقية عليه، ويجعل قوله دليلًا صحيحًا!

ولقد صدق الشيخ محمد قطب في قوله: «إن قضية الإلحاد المنتشر في الأرض اليوم لا تقوم على أي أساس من العقل ولا من العلم، في عصر يزعم لنفسه أنه يعيش في كل أموره على أساس من العقل وأساس من العلم».[1] فالملاحدة رغم كثرة حديثهم عن الأدلة والبراهين، إلا أنهم من أبعد خلق الله عن التزام هذا الشعار عمليًّا! ليس لأنه لا توجد أدلة واضحة وبراهين قاطعة، أو لأن الأمر مبهم غامض، أو لأن الحقيقة تلامس منطقة المستحيل الذي تعجز العقول عن إدراكه! بل لأن الملحد لا يريد!

وهل يغير الحق رفض إنسان له! أو حتى اختلاف الناس فيه! لقد قال أبو الحسن العامري: «إن الحق لا ينقلب باطلًا لاختلاف الناس فيه، ولا الباطل يصير حقًا لاتفاق الناس عليه. وليس في وُسع الحق قهر الأنفس على الإقرار به، وتسخيرها للاعتراف بصدقه، لكنه شيء مُحقق بنور العقل بعد الروية والبحث، فيظهر به

---

(١) ركائز الإيمان ص١٥٢.

المحق، ويمتاز به عن المبطل».[1] وقال الراغب الأصفهاني: «فإن قيل: لو كان معرفة وجوده -يقصد الله- ضرورية لما جحد به الملاحدة. قيل: الملحدة لم يجحدوا أن لهم فاعلًا فعلهم وناقلًا نقلهم في الأحوال المختلفة، وإنما يخالفون الموحدين في تعيين هذا الفاعل وفي صفاته وتوحيده، وكل هذا يُعلم بالاستدلال. وإن وُجد مَن جحد أن له فاعلًا، ويقول نحن انفعلنا بأنفسنا، فذلك إما مؤف في عقله، وإما جاحد خبيث في طينته».[2]

لا جرم أن نقول هنا قولًا واحدًا: لن يكون الإلحاد من العقل في شيء، لأن مبدأ العقل هو هذا: ما علمه فقد علمه، وما لم يعلمه، فلا يصح إنكاره، إذ كان عدم العلم ليس دليلًا على العدم، والعاقل لا يجعل ما جهله دليلًا على صحة علمه واستقامة رأيه! ولن يكون الإلحاد من العلم، لأن أساس العلم هو هذا: ما قامت التجربة على صحته فقد علمه، وما لم تقم عليه لم يعلمه، فلا يصح إنكاره، إذ كان للتجربة حدود تقف عندها لا تتجاوزها، والعاقل لا ينكر ما وراء حسه لمجرد تجاوزه لنطاقه وتجربته! أترى ما غاب عن حد بصرك غير موجود لمجرد عجز عينك عن الإحاطة به!

فلو أنصف الملحد لما اعتبر نفيه دليلًا، بل غاية أمره التوقف، أو قل اللاأدرية! إذ حتى لو وضع دليلًا عقليًّا هداه إلى القول بعدم وجود الله سبحانه، فلا يكون ذلك إلا قولًا خاصًا به، لأنّ ما سلكه من الدليل حتى وإن زعم أنه هداه إلى النفي

(١) الإعلام بمناقب الإسلام ص١٩٢.

(٢) الاعتقادات ص٣٨. قوله (مؤف في عقله، أي هناك خللاً).

والإنكار، فمن المؤكد أنه لا ينفي وجود الخالق واقعًا، خصوصًا إذا حاكمناه إلى المرتكزات الإلحادية، كالقول بنسبية الحقيقة، ومادية العقل!

وقد صرح بيرتراند رسل في لحظة صدق مع الذات بهذه الحقيقة، قائلًا: «أنا لا أزعم أنني قادر على إثبات أنه لا يوجد إله».[١] وكتب كاي نيلسون -من أبرز ملاحدة أمريكا الشمالية- يقول: «من الممكن أن تفشل كل أدلة وجود الله، لكن يبقى مع ذلك احتمال وجود الله قائمًا. باختصار، إظاهر أد الأدلة غير ناجعة ليس كافيًا في ذاته، تبقى هناك مع ذلك إمكانية وجود الله قائمة».[٢]

* * * *

(٢) أسباب العبث الإلحادي

لا نحتاج لجهد كبير لكي نفهم بأنّ أسباب هذا العبث الفكري ترجع إلى:

(أولًا). **تضخم الذات بجعلها مقياس الصواب والخطأ**. فالملحد يتوهم فكرة ذهنية هي «الإله غير موجود»، ثم يجعل من هذا الوهم الشخصي دليلًا على صحة فكرته وأمارة على أصالتها. وبلا شك فإنّ هذا عين الغرور الذي تشمئز منه النفوس الفاضلة والعقول السليمة، إذ كان مجرد هوى شارد بلا زمام!

(ثانيًا). **إخفاء العجز عن إقامة الدليل على صحة الدعوى**. إذ لا يمكننا أن نحكم على أية فكرة بالصواب أو الخطأ إلا بدليل واضح وصريح يكشف لنا وجه

---

(١) لماذا لست مسيحيًّا ص٦٥.

(٢) براهين وجود الله. سامي عامري ص١٥٠.

علة الصواب أو الخطأ، وعندما نرفض ذلك ونتمركز حول قناعتنا الشخصيّة، فذلك يعني عجزنا عن إقامة الدليل، وأن قناعتنا لا علاقة لها بالحقيقة والموضوعية!

(ثالثًا). عصبية عمياء لهوى الإنكار بفعل ضغوط نفسيّة وشخصيّة واجتماعيّة وثقافيـة. وذلـك لأنّ التمركـز حـول الـذات وجعلهـا مقيـاس الصـحة أو الفسـاد، والصواب أو الخطأ، بدون تقديم الأدلة الموضوعيّة على صحة القناعة الشخصيّة، إنما يعكس عصبية عمياء وتقليدًا أرعن لتحقيق مكاسب وطموحات معيّنة!

هـذه العوامـل الثلاثـة تـدعمها وتُرسـخها الدعايـةُ الهائلـة التـي يقـوم بهـا كهنـة الإلحاد المعاصرون والجاهلية العالمية بأساليب مختلفة ووسائل متعددة، بشكل صريح وبشكل متخفي، استغلالًا لسذاجة الشباب وقلة زادهم الشرعي والعلمي والمعرفي لإسقاطهم في مستنقع الإلحاد!

غيـر أن الملحـد يحـاول أن يـدعم موقفـه بأربعـة دعـائم، وهـي: قضـية الشـر، الشبهات الدينية، كثرة الآلهة، الفوضى الكونية. وبيان هذه الدعائم هو:

قضية الشر. منطلق الملحد الكامن في نقده للشر في الكون والحياة هو فكرة الكمـال، أي أنّ الملحـد يريـد أن يـرى عالمًـا جمـيلًا وكـاملًا، وخاليًـا مـن الشـرور والآلام. ولا شك أنّ فكرة الكمال أصيلة في الفطرة البشريّة، بل إن كل إنسان في شتّى نشاطات حياته إنما يتحرّك في إطارها. ولهذا نجد الملحد يربط ربطًا تلقائيًّا بين وجود الشر ونفي الإله، وهو ما يعني بالضرورة أن وجود الخير يعني وجود الإله، وإلا كيف يفسر لنا الملحد وجود الخير!

الشـبهات الدينيـة. ينطلـق الملحـد في نقـده للـدين عـبر طـرح كَـمٍّ هائـل مـن المغالطـات والاعتراضـات، وتأمـل كلامـه يـدل علـى أنّ منطلقـه في ذلـك هـو فكـرة الكمال، أي أنّه يريد أن يرى منظومة دينيّة كاملة في شتّى جوانبها وشعبها، وخاليـة مـن أي قصور وعيوب وثغرات. ولهذا نجد الملحد يربط ربطًا تلقائيًّا بين وجود الثغـرات الدينيـة ونفـي الإلـه، وهـو مـا يعنـي بالضـرورة أن وجـود الانسـجام في منظومـة الـدين والتشريع يعني وجود الإله.

كثرة الآلهة. ينطلق الملحد في نقد لكثرة الآلهة التي تعرضـها الأديـان المختلفـة من خلال القول بأن هذه الكثرة تدل على النفي، لأنـه يعتقـد أن الإلـه يجـب أن يكـون واحـدًا، متصـفًا بالكمـال، ومـن ثـم، فكمالـه يفـرض وحـدة الأديـان لا كثرتهـا. لكـن الملحد يجهل -أو يتجاهل- أن كثرة الشيء تدل على أصله، وأيضًا فهذه الكثـرة هـي نتـاج التحريـف البشـري وأهـواء النـاس، ولهـذا كـان معتقـد المسـلم أن أصـول أديـان الأنبياء واحدة، لأن الرب واحد.

الفوضـى الكونيـة. يلحـظ الملحـد بعـض مظـاهر الكـون التـي تحـدث أحيانًـا، وتكون لها بعض الانعكاسات السلبية -في الظاهر- على بعض الأقوام، مثل البراكـين والزلازل والفيضانات والأعاصير، فيقرر بأنّ هناك فوضى كونية! ومـن ثـم يـربط بـين هذه الفوضى كمـا يعتقـد وبـين عـدم وجـود الخـالق! لكـن الخلـل تطـرّق إلـى موقـف الملحد حين نسي أنّ علمه محدود وكم من أمور اعتقد الإنسـان سـلبيتها ثـم اكتشـف لاحقًا أهميتها.

فكما ترى؛ فإن اعتراض الملحد بالشرور أو الثغرات الدينيّة أو العشوائية الكونية أو كثرة الآلهة، مرتبط بإدراكه الفطري وشعوره القبلي بضرورة كمال الإله، وأن هذا الكمال لابد أن يتجلّى في كلامه وأفعاله. والواقع أن هذا الإدراك والشعور الفطري لضرورة كمال الإله، دليل على أن الكمال نزعة أصيلة في تركيبة الإنسان، بل هو أُمُّ النزعات وأساسها ومنطلقها، فالإنسان ينزع إلى الكمال أبدًا في كل شيء من نشاطاته حتى وإن أخطأه. وليست النبوات ولا دلائل الكون ومشاهد الحياة إلا عوامل لاستخراج معنى الكمال في الإنسان وتثويره ودعمه وتوجيهه، من حيث تعريفه بالله، وتبيين الطريق إليه، ورسم معالم تزكية نفسه وترقية عقله. كما قال ابن خلدون: «لما ركب الله فيه -يقصد في الإنسان- من محبة الكمال لا يزال يتحرك بكل متحرك فيه إلى تحصيل كماله، والفكر خادمه في جميع ذلك، يركّب ويحلل، ويجمل ويفصل».[١] وقال ابن القيم: «الله سبحانه هيّأ الإنسان لقبول الكمال بما أعطاه من الأهلية والاستعداد التي جعلها فيه كامنة كالنار في الزناد، فألهمه ومكّنة، وعرفه وأرشده، وأرسله إليه رسله، وأنزل إليه كتبه لاستخراج تلك القوة التي أهله بها لكماله إلى الفعل».[٢]

لكن يظل السؤال: كيف استوعب الملحد هذه الفكرة: إذا كان الإله كاملًا فيجب أن يكون كونه ووحيه كاملًا! بل ولماذا أساسًا يريد الملحد يوجب أن يكون الإله كاملًا! هذا ما لا ينتبه له الملحد، ولا يريد بحثه والتوقف عنده! كما هو شأنه دائمًا مع كل الأسئلة الكبرى والقضايا الجوهرية! وسبب ذلك أن الملحد إذا التزم

---

(١) شفاء السائل ص٣٨.

(٢) مدارج السالكين ج٢ ص٣٦١.

بأسس رؤيته الإلحادية، فإنه لن يكون لمختلف اعتراضاته أدنى مبرر أو قيمة، فهو -وفق نسبية الحقيقية- لا يستطيع أن يفرق بين الخير والشر، ووفق مادية العقل لا يمكن أن يقرر عشوائية الكون وعبثية الحياة، إذ من المحتمل أن يكون واهمًا جدًا، لأن مادية العقل تفرض انتفاء المعايير، وقس على هذا كل شيء آخر مما يعتبره الملحد اعتراضات وشبهات.

* * * *

(٣) استحالة تبرير الإنكار

الإنكار -إذن- في حقيقته يؤكد على ضرورة وجود الإله الخالق! لأنّ استحالة إنكار جوهر فكرة الإله الخالق، مرتبطة بشكل وثيق بطبيعة الكيان البشري وآلية اشتغال نظامه الإدراكي، وشعوره الوجداني. فالملحد إنسان قبل أن يكون ملحدًا، ولهذا لا يمكنه أن ينسلخ عن الأسس العقليّة المركوزة في فِطر البشر جميعًا. ولو أمكن للملحد أن يتجاوز هذه المكونات الإدراكيّة في فطرة العقل، لكان إذن خلقًا آخر وليس بشرًا من البشر!

عرّف الشريف الجرجاني البديهة الفطرية بقوله: «البديهي هو الذي لا يتوقف حصوله على نظر وكسب.. كالتصديق بأن النفي والإثبات لا يجتمعان ولا يرتفعان»،[١] وقال جميل صليبا: «البديهيّة قضيّة أوليّة صادقة بذاتها، يجزم بها العقل من دون برهان».[٢] فالفطرة العقلية إذن تتسم بثلاث سمات كبرى:

(١) معجم التعريفات ص٤٠.

(٢) المعجم الفلسفي ج١ ص٢٠٢.

أولًا: ضروريّة. أي إنّها غير محتاجة لإقامة البرهان على صحتها، كما لا يمكن تصور نقيضها، لأنّها من العقل نفسه.

ثانيًا: كليّة. أي إنّ أحكامها تشمل كل شيء، سواء في الذهن أم في الوجود الخارجي، كما كل زمان ومكان.

ثالثًا: ثابتة. أي إن هذه القواعد ومقتضياتها ثابتة راسخة، عبر مراحل العمر المختلفة، كما تشمل مختلف أصناف الناس.

ولذا يستحيل على الإنسان إلغاء المبادئ العقلية وتجاوزها، سواء على المستوى المعرفي أم المستوى السلوكي. لأنّه لم يعرفها عبر النظر والتجربة واكتساب العلوم والمعارف، بل حصلت عنده ابتداء من الخالق تبارك شأنه، فكل إنسان كيفما كان مستواه يدركها ويعترف بها ويفكر بها وفي إطارها دون أن يدري كيف حدثت ولا من أين جاءت، بل يعجز عجزًا مطلقًا عن البرهنة عليها، ذلك لأن هذه المبادئ الإدراكية الفطرية بعض مكونات الروح نفسه. ولهذا كان العقل هو هو في كل زمان ومكان وفي كل الناس، لا يستطيعون الانفكاك عن ضروراته المتأصلة فيه.

ولهذا دائمًا يحتج الله سبحانه في القرآن على المخالفين بما هو مركوز في عقولهم، كما أنّه دائمًا يطالبهم بالعودة إلى فطرة عقولهم، كما في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.[1] ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.[2] ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ

---

(١) البقرة: ٢٤٢.

(٢) الأنبياء: ٦٧.

﴿وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾.[١] وغير هذا من عشرات الآيات في مواضع مختلفة. وليس هذا إلا لما قلت لك من أن نظام المبادئ العقلية واحد في كل البشر في كل زمان ومكان مهما تباينت مستوياتهم في البداوة أو الحضارة.

الملحد إذن في الحقيقة لا ينكر وجود الله ﷻ، وإنما ينكر ما يتوهمه أنه حقيقة وجود الله وصفاته. فهو صنع -أو صُنعت له!- للإله صورة قبيحة، مشوهة، ومختزلة، ثم أخذ يهاجمها على أساس أنه يهاجم الإله الحق، ثم يعلن دحضه لكلام المسلم عن حقيقة الله سبحانه. وهذه هي ما أسميناه سابقًا بمغالطة إله القش!

هذه هي قصة الإلحاد في تاريخه القديم والمعاصر، بل لا يمكنه غير ذلك. والسؤال للملاحدة هنا هو: هل من الموضوعية والمنهجية العلمية أن يبني شخص صورة معينة كما شاء ثم يهاجمها وينتقدها، دون مبالاة بالحقيقة في الواقع الخارجي!

وما من شك في أنّه بسبب مغالطة إله القش، صار الملحد يعاني ما أسميه (حالة فوبيا الإله) أو (حالة الإلهوفوبيا)، وهو ما يتجلّى في كمية الطعن والسب والسخرية وهوس الهجوم العنيف بكل وقاحة وبذاءة على الأديان ورموزها وتعاليمها، والبحث عن أدنى خطأ وأقل عيب، مع الإشادة البالغة بالإلحاد والتبشير بالفردوس الإلحادي المثالي، فكل ذلك لأن نفوسهم لما غلبت عقولهم، كان من الطبيعي أن تُزيّن للعقل الإلحاد من خلال حشد كَمٍّ هائل من النقائص والعيوب في الأديان!

---

(١) النحل: ١٢.

وإلا فلنا أن نسأل الملحدَ: كيف تُفسر لنا -إلحاديًّا- تبريرك رفض الإله كما يقدمه الإسلام، بذريعة أنّه -سبحانه- إله متناقض وشرّير وجاهل وظالم؟! فأي تبرير يقدمه الملحد يضعه في مأزق شديد وحرج بالغ! وقيمة المأزق هنا تبرز في أنّ التبرير لابد أن يستند إلى مرجعيّة معياريّة، والحال أنّ الإلحاد لا وجود فيه للمرجعيّة المعياريّة التي تفصل بين (حق/ صواب) و(باطل/ خطأ)!

ولهذا، فإن من أهم الإشكاليات العويصة في الطرح الإلحادي، أن الملحد لا يمكنه مطلقًا تبرير إلحاده عقليًا ولا أخلاقيًا! وهذا العجز نتيجة طبيعية للتالي:

(أولًا) نفيه للبديهات العقلية.

(ثانيًا) نفيه وجود الحقيقة المطلقة.

(ثالثًا) إنكاره إمكانية المعرفة.

فإذا كان العقل -إلحاديًا- معطى متطورًا، وإذا كانت الحقيقة نسبية، فهذا يعني أن الملحد سيكون مضطرًا لإثبات صحة قناعته الإلحادية في كل لحظة. والنتيجة الضرورية لهذا على المستوى المعرفي نظريًا، هي أن الملحد سيجد نفسه يخوض أزمة إدراكية مفتوحة!

وكل هذا دلالة على أن مشكلة الملحد العربي مشكلة نفسية متعددة الأبعاد ولا صلة لإلحاده بالعقل والعلم، كما يحاول أن يبرر لنفسه ويوهم غيره! إن الواقع يؤكد على أن الملحدين لا يريدون الإنصات لأدلة المؤمنين والتأمل فيها وتقليب النظر في معانيها وأصولها وقواعدها، بل يفضلون إغلاق كل المنافذ والتقوقع على

أنفسهم وتصوراتهم لكي لا يواجهوا الحقيقة، حقيقة أن وجود الله ضرورة لا مفر منها! إنهم يبذلون جهودًا نفسية ضخمة خوفًا من الإيمان بوجود الله سبحانه!

إن مبادئ العقل السليم -وهي مبادئ مشتركة بين جميع البشر- توجب أن يكون للإنسان كما للكون والحياة، وما فيهما من أشياء وأشخاص وسنن وقوانين، إله خالق، هو السبب والمصدر الأعلى لوجود ذلك كله بعد أن لم تكن شيئًا مذكورًا، وهو السبب والمصدر الأعلى في وجودها بهذا الشكل وعلى نحو هذا التصميم وبذلك النظام، وأن لكل ذلك غاية وهدفًا تسير نحوه الأشياء والكون والحياة. ثم إن استحالة أن تكون كل هذه المشهودات واجبة معلوم بالضرورة، إذ العقل يرى كيف أنها وُجدت بعد أن لم تكن، وكذلك يرى العقل كيف أن الكون والحياة مصممان بدقة متناهية وبشكل فائق النظام، وليست رحلة الإنسان العلمية منذ أقدم العصور إلا محطات لاكتشاف تلك الدقة والنظام، حسبما يتوفر له من الآليات والوسائل والإمكانيات، وحسبما يبذل من الجهد والطاقة في سبيل ذلك. وأيضًا يرى العقل كيف أن كل شيء له وظيفة محددة وخصائص معينة، وأن كل شيء لا يخرج عن ذلك الإطار.

يرى العقل السليم كل ذلك، فيجزم جزمًا قاطعًا أن مبدع هذه الأشياء والعناصر والمكونات لابد أن يكون أزلي الوجود بلا بداية، إذ لو كان لوجوده بداية لكان مخلوقًا مثل باقي المخلوقات المشهودة، وأنه لابد أن يكون متصفًا بكمال العلم والحكمة، ونهاية الإرادة والقدرة، وفائق العزة والعظمة، إذ يستحيل في منطق العقل السليم أن تكون الصناعة المتقنة من جاهل وعاجز وضعيف وذليل، ففاقد

الشيء لا يعيطه. وكل هذا يشبه أن ترى طائرة في غاية الفخامة، فحتى وإن كنت تجهل العلوم التي أنتجتها، وأَضْفَت عليها الفخامة وجعلتها تطير في أجواء السماء بسلاسة، فإنك لا محالة تجزم جزمًا قاطعًا بلا أدنى شك، أن الشركة المصنعة لها تجمع في طاقمها من العلماء والمهندسين مَن بلغوا شأوًا بعيدًا في العلوم الرياضية والفيزيائية والهندسية والفنية، وأن لديهم من الإمكانيات المادية الشيء الكثير، مما يسر لهم صناعة هذه الطائرة الخالبة للأبصار.

فإذا بلغ العقل السليم هذه الغاية وجزم بهذه النتيجة، فإنه يتصفح الأديان التي تقدم الخالق الذي يتزعم أنه خالق الكون ورب الوجود وقيوم العالم، فيجد في النصرانية مثلًا صورة هذا الخالق في غاية الغرابة والقباحة والشناعة، ولا يمكن أن تتطابق معطيات النصرانية عن ذات الخالق وصفاته مع معطيات النظر العقلي المستوحاة من مبادئه الفطرية ودلالات الصنع المتقن والخلق البديع في الكون والحياة. أما إذا نظر في الإسلام، فإنه يجد صورة الإله الخالق مشرقة بهية، بديعة عظيمة. فهنا يجد الإله أزلي الوجود بلا بداية، ليس كمثله شيء في ذاته وصفاته، له الأسماء الحسنى والصفات العليا، متصف بغاية الكمال والعظمة، وبمطلق العزة والجلال، علمه محيط بكل شيء، وقدرته مهيمنة على كل شيء، وحكمته فوق كل شيء، وإرادته طليقة بلا حدود، يدبر شؤون خلقه كافة بغاية الحكمة والعدل والرحمة ولا يشغله شأن عن شأن. فلا جرم أن يجزم أن الله في الإسلام هو الإله الخالق الذي توصل إليه بمنطق مبادئه الفطرية.

ومن هنا؛ فإنّ تعريف الإلحاد بأنّه إنكار وجود الإله، يفتح المجال لطرح مجموعة من الأسئلة التي من العسير على الملحد أن يقدم لها أجوبة موضوعيّة. فإذا

كان المقصود هو النفي المطلق، فهنا لدينا مجموعة من الإشكالات نلخصها في التالي:

أولًا، ما هي المبادئ العقلية التي تأسّس عليها إنكار وجود الخالق؟

ثانيًا، ما هو تفسير الملحد لرسوخ فكرة الإله في فطرة البشريّة؟

ثالثًا، كيف أدرك الملحد عدم وجود الخالق وهو خارج الكون؟

رابعًا، كيف يمكن للملحد أن يتأكد من صحة هذا النفي؟

خامسًا، ما القيمة الأخلاقية لنفي وجود الإله الخالق؟

إنّ إلحاح هذه الأسئلة والإشكالات على الملحد يظهر في ثلاثة مظاهر، وهي:

المظهر الأول: صراع التناقض، إذ يجد الملحد تناقضًا حادًّا بين عقله الذي يقضي بأنّ وجود شيء ما لابد له من سبب، هو مصدر وجوده وتصميمه وغايته، وبين محاولة إقناع نفسه أنّ كل شيء من حوله –حتى هو شخصيًّا– وُجد هكذا بلا سبب ولا غاية!

المظهر الثاني: عجز التفسير، إذ يشعر الملحد بضغط شديد نابع من أعماق عقله وسويداء فطرته لا يقدر على مدافعته، يطالبه بتقديم تفسير موضوعي لذاته وللكون وللحياة من حوله. وبنفيه للإله الخالق يكتشف أنّه يعجز عجزًا مطلقًا عن تقديم هذا التفسير!

المظهر الثالث: مأساة الاغتراب، إذ بسبب صراع التناقض وعجز التفسير، لا يلبث الملحد أن يكتشف أنّه يقاسي عنف الاغتراب وفقدان المعنى، فهو بلا انتماء

ولا روابط تصله بالحياة والكون من حوله، ومن ثمَّ يشعر بأنّه غريب في عالم غريب ومجهول!

ولهذا نقول: يستحيل على الإنسان أن يُنكر فكرة وجود الإله الخالق. ولهذا لا يوجد دليل طرحه الملاحدة أو يمكن أن يطرحوه مستقبلًا، إلا وهو نفسه دليل على وجود الله تعالى. وسر ذلك هو أن الحق سبحانه وتعالى قد بنى النظام الإدراكي في الإنسان، والنظام التكويني في الوجود، والنظام التوجيهي في التشريع، والنظام التدبيري في الأقدار، قد بنى كل ذلك على قانون الحق، لأنه تعالى الحق، ووحيه الحق، وفعله الحق. وإذ كان الأمر كذلك، فلا يمكن أن يكون في هذه المجالات الأربعة (العقل، الكون، الوحي، القدر) أدنى ثغرة يمكن أن يتسلل منها ويستقر فيها الباطل.

❊ ❊ ❊ ❊

(٤) الإله بين الكمال والنقص

يمكننا التدليل على صحة دعوى الاستحالة بطرح السؤال التالي: ما هو جوهر فكرة الإله الخالق؟ ونحن نسأل هذا السؤال، لأنّ العقل لابد له من إصدار حكم معيّن على المعطيات المختلفة، فإصدار الأحكام «ظاهرة نفسيّة ملازمة للإدراك والمعرفة».[1] كما أنّ هذا الحكم «قبول/ رفض» أو «إثبات/ إنكار»، لابد أن يستند إلى تصورات مسبقة. فالأحكام النظريّة فرع تصوراتها ومرآة لها. والسمتان متلازمتان لا يمكن تصور انفصالهما أبدًا.

---

(١) المعجم الفلسفي. جميل صليبا ج١ ص٤٨٩.

إنّ نفي الملحد لوجود الله تعالى لابد أن يستند أوّلًا إلى تصور معيّن للذات الإلهيّة وصفاتها، لأنّه حكم عقلي، والأحكام العقلية -إثباتًا أو نفيًّا- لا تكون ممكنة ما لم تستند أولًا إلى تصورات ومعطيات مسبقة. وحين يعجز العقل عن إصدار الحكم فذلك يكون في «حالات: **الأولى**: عند فقده لشرطه المعرفي وهو التصور. **والثانية**: لقصور التصور وعدم وضوحه. **والثالثة**: لوجود مانع نفسي وهو الهوى. فإذا سلم الإنسان من تلك العوائق، وحصل له تصور تام، فإنّ العقل لا يتوقف عن وظيفته الرئيسة وهي الحكم».[1]

من هذا المنطلق؛ نحن نطالب الملحد بأن يقدم لنا تعريفًا واضحًا لهذا الإله الخالق الذي ينكره وينفي وجوده؟ أو ما هي الصفات والمقوّمات التي إن وُجدت في موجود ما، استحق أن نُطلق عليه صفة الألوهيّة والخالقيّة، وإذا لم توجد لم نطلق عليه ذلك، ليترتب على عدمها نفي الوجود وإنكاره؟

نحن نطرح هذا الطلب؛ لأن الملحد ليس بين يديه خيارات كثيرة، فهو إما أن يقول أنه ينكر الإله مطلقًا، أو أنه فقط ينكر إله الإسلام، أو فقط ينكر إله النصرانية، أو غيرهما من الآلهة. وفي جميع الأحوال سيجد نفسه في مشكلة لا يستطيع الخروج منها والانفصال عن لوازمها! وذلك لأنه سيجد نفسَه بين أحد أمرين:

أولًا: إما أن يُقدم لنا تعريفًا للإله الخالق على أساس أنّه موجود مطلق الكمال في ذاته وصفاته. وهذا يدل على أنّه لا معنى لإنكاره وجود هذا الإله الخالق. إذ

---

(١) منهج ابن تيمية المعرفي. عبد الله الدعجاني ص٣٦٩.

اتصاف هذا الإله بالكمال المطلق يعني أنّه الخالق، كما يعني أنّ الإنسان لا يمكنه أن يحيط علمًا بأسرار قدرته وأبعاد حكمته، فالكمال يعني عدم المحدوديّة.

ثانيًا: إما أن يُقدم لنا تعريفًا للإله الخالق على أساس أنّه موجود ناقص الكمال في ذاته وصفاته. وهذا يدل على أنّه لا معنى لإعلانه إنكار وجود هذا الإله الخالق. إذ اتصاف الإله بالنقص يعني أنّه ليس خالقًا مطلقًا، كما يعني أنّ الإنسان يمكنه أن يحيط علمًا بمنتهى قدرته ومدى حكمته، إذ النقص يعني المحدوديّة.

فكما نرى؛ فإنّ الخيارين كلاهما مرٌّ! وكلاهما يهدم صرح إلحاد الملحد من أسسه! ذلك لأن الملحد لا يستطيع أن ينفي وجود الإله إلا بعد أن يتصور هذا الإله الذي ينكره وينفيه، إذ لا حكم إلا بتصور للمحكوم عليه، وإلا فإن كان يعجز عن تصور طبيعة هذا الخالق الذي يزعم أنه ينكره، كيف يصح منه هذا النفي والإنكار! فما علمنا ينكر الشيء لمجرد الإنكار قبل استيعاب طبيعته إلا الجاهل الأحمق أو الماكر الخبيث! وأغلب الملاحدة لا ينتبهون إلى هذا المعنى، ولذلك خرج كل كلامهم وتفريعاتهم مخرجًا معوجًّا، لأن الأصل الذي انطلقوا منه غير مستقيم!

وهنا معنى آخر، وهو أنّ قول الملحد لا يوجد إله، صياغته هي (لا إله)، وهذا النفي لا يُتصور إلا أن يكون نفيًا مطلقًا، وهو يقتضي نفي الألوهية عن الأنا النافية، وعن الآخر، (أشخاصًا وأشياء). وإذا كان مفهوم الألوهية يتضمن معنى الكمال اللانهائي، كان معنى قول الملحد (لا إله) نفيًا للكمال اللانهائي عن الذات والآخر (أشخاصًا وأشياء). لكن الإشكال هنا، هو كيف أمكن للملحد الجزم بنفي الكمال اللانهائي أن يكون متحققًا في الواقع الخارجي؟ فالنفي المطلق يلزم عنه التحقق

بالعلم المطلق والإحاطة الشاملة، وهذا ما لا يمكن للملحد ادعاؤه فضلًا عن إثباته، لأنه مخلوق وكل مخلوق محدود، بل بما أنّ مضمون (لا إله) يتجلى في إثبات النقص ونفي الكمال، فيحق لنا أن نتساءل عن إمكانية العقل الملحد -ومن المفيد أن نتذكر جيّدًا أنّه عقل مادي متطور، أي بلا معيار ولا ثبات ولا أصول- استيعاب مفهوم الكمال المقابل لمفهوم النقص؟

ولست أعتقد أن بإمكان الملحد أن ينفك عن هذا الإلزام، من أجل أن إدراك المعاني لا يتحقق في نظام العقل إلا في إطار ما أسميه بـ (ثنائية الإدراك)، أي التقابل بين عناصرها، وهما في هذا السياق (النقص/ الكمال).

بل أزيد هنا إشكالًا آخر أراه مهمًا في دلالة النفي الكامنة في (لا إله)، وذلك أن هذا النفي بما أنه نفي مطلق، فهو يعني تمتع العقل الإلحادي بالإحاطة الإدراكية، وهذا يلزم عنه بالضرورة انحصار الوجود كله -عند الملحد- في مستوى (الشهادة) فلا غيب ولا ما وراء ولا أبعاد خارج الوجود بما أنه كله محصور في مستوى الشهادة! ومن البيّن أن دعوى انحصار الوجود في مستوى الشهادة منقوض عقلًا وحسًا وعلمًا، بل هناك مستوى آخر هو مستوى (الغيب)، وذلك يعني أن دعوى الملحد الجازمة والمطلقة والتي تكمن في قوله (لا إله) هي دعوى بلا أساس، ولا يمكنه إقامة البرهان عليها، وإنما يلهج بها من باب التقليد الأعمى والترويج لما لا يدرك، ومن باب المناكفة للمؤمنين والطعن فيهم، ومن باب تضخم ذات والطموح للشهرة والظهور!

فخرج من هذا، أن قول الملحد (لا إله) هو في أفضل حالاته تعبير عن قناعة عاطفية شخصية، وليس عن حقيقة وجودية ثابتة! ولك أن تتعجب ممن يؤسس رؤيته

الوجودية بشعبها المختلفة، والتي يتحدد عنها مصيره النهائي، على قناعة عاطفية ليست من البرهان والاستدلال الحق في شيء!

لكن؛ الذي يحدث حين نقول هذا للملحد، يسارع إلى القول: كيف تقولون ذلك؛ وأنا أمامكم أنكر فعلًا وجود الخالق؟! ونحن لا ننكر عليه هذا الإنكار، ولكن الملحد يجهل حقيقة بسيطة سبقت الإشارة إليها، وهي: (**إنكار الإله كما يقدمه الإسلام مثلًا شيءٌ**). و(**إنكار فكرة وجود الخالق مطلقًا شيءٌ آخر تمامًا**). وأزمة الملحد أنّه يخلط بينهما!

كتب كوستي بندلي يقول عن الماركسية الإلحادية: «لقد خلطت الماركسية بين الإله الحقيقي وبين صنم رهيب هو من صنع تصورات البشر وأهوائهم، فرفضت الله باسم الإنسان، ولكن رفضها هذا جعل جهادها المرير، والبطولي أحيانًا، من أجل الإنسان مشوبًا باحتقار وبتر للإنسان».[١] ولذلك تساءل ليستر ماكغراث قائلًا: «هل من المحتمل أن يكون الإلحاد وهمًا حول الله؟».[٢] وهذا تساؤل مشروع وواجب، لأن الملحد -وفق رؤيته لمادية العقل ونسبية الحقيقة- ليس يمكنه أن يجزم بأن الإلحاد وتصوره عن الله حق وصواب ولن يتغير أبدًا مستقبلًا!

وإذا كانت الماركسية خلطت بين الإله الحقيقي وبين الإله المزيف الذي عرضته الكنيسة، فانطلقت ترفض الإله الحقيقي باسم الإنسان والحرية والإرادة والرفاه والعدالة، إذا كان هذا ما حدث في السياق الغربي، فهو نفس القصة في كل

---

(١) إله الإلحاد المعاصر ص١١٥.

(٢) وهم دوكينز ص١٠٣.

مكان: الخلط بين الإله الحقيقي وبين الفهم الشخصي للإله الذي ينتمي إلى الإيمان به الملحد! وهذا ما أسميه بالسقوط في فخ مغالطة إله القش، أي رسم صورة معينة للإله ثم مهاجمتها ثم ادعاء دحض حجة المسلم حول معتقد وجود الله! علمًا أن رفض الإله ليس دائمًا يكون نتيجة ما يعرضه الدين الذي نشأ في بيئته هذا الملحد أو ذاك، بل أحيانًا تكون هناك دوافع نفسية تعكس الكبر والغرور أو الجهل والتنطع، تمنعه من الاقتناع. كتب نيتشه مرة قائلًا: «الإلحاد؛ أمر غريزي فيّ»، وأيضًا «سأفتح لكم تمامًا ما في قلبي يا أصدقائي. لو كان هناك آلهة، فكيف أطيق أن لا أكون أنا إلهًا»، وأيضًا «إنّ ذوقنا الآن يقرر رفض المسيحيّة؛ وليس حججنا».[1] وقال أيضًا: «لا يوجد لدي أي معرفة بالإلحاد باعتباره نتيجة للمنطق، ولا يزال أقل من كونه نتيجة، فهو بالنسبة لي فطرة».[2] واعترف فرانسيس كولنز -قائد المشروع الدولي للجينوم البشري، كان ملحدًا ثم عاد إلى الإيمان- بأنه قضى ستة وعشرين عامًا لم يفكر خلالها مطلقًا في البراهين التي تؤكد أو تنفي وجود الله، فتخيل![3]

إنّ من أكبر الخلل الذي يقع فيه الملاحدة هو عدم تفريقهم بين مستويين من البحث:

المستوى الأول. البحث في إنكار الإله الذي يقدمه الإسلام مثلًا؟

المستوى الثاني. البحث في إمكانيّة إنكار وجود الإله إنكارًا مطلقًا؟

---

(١) إله الإلحاد المعاصر ص١٢١.

(٢) نفسية الإلحاد. بول فيتز ص٦٤.

(٣) لغة الإله ص٢٨.

ولا شك أنّ هناك فروقًا عظيمة بين المستويين. وبيان هذا هو:

المستوى الأول. يتوهم الملحد أنّ إنكاره لوجود الإله كما تقدمه الأديان المختلفة، احتجاجًا بما يتخيّله أدلة عقليّة أو علميّة أو واقعيّة، يعني بالضرورة مقدرته على إنكار وجود الإله من حيث هو قيمة وجوديّة يستطيع التفكير وممارسة حياته خارج إطارها!

ولا شك أنّ هذا سوء فهم للقضيّة! فنحن نبحث مع الملحد أوّلًا في مقدرته على تجاوز ضرورة العقل التي تُوجب وجود مُوجِد له الكمال المطلق، وأنّه سبب الموجودات وفاطر المخلوقات، والقيّم عليها، كما أنّه هو المحدد لطبيعة علاقاتها ونتائجها؟

المستوى الثاني. يتوهم الملحد أنّ بحثنا في إثبات وجود الإله الخالق، بل وضرورته العقلية والفطرية والوجودية، كما الحرص على تنويع البراهين على ذلك، يعني أنّنا نطالبه بالإيمان بوجود الله تعالى كما هو في الإسلام، أو النصرانيّة، أو غيرهما من الأديان!

ولا شك أنّ هذا خلل شنيع في الفهم وسوء إدراك لمقصودنا! فنحن نبحث مع الملحد أولًا في فكرة الإله مجرّدة، سواء من حيث إثباتُ وجوده أو من حيث علاقتُه بالوجود. لأنّنا نعتقد أنّ الإنسان لديه من القدرات الكامنة في فطرة عقله ما يؤهله لمعرفة الخالق. ولقد كان هذا الخلط من أعظم أسباب ضلال الملاحدة في قضية إنكار وجود الإله!

أيضًا يترتب على هذا الخلط، خلط آخر وقع فيه العقل الإلحادي، وهو:

المسألة الأولى. إثبات وجود إله متصف بالأكملية اللانهائية.

المسألة الثانيّة. إثبات أنّ هذا الإله المدرك عقليًا هو (الله ﷻ) في الإسلام.

فالخلط بين هذين المبحثين ساهم في مضاعفة ضلال وتعنّت الملاحدة في الفهم الصحيح لفكرة وجود الإله الخالق. وذلك لأنّهم يهملون المسألة الأولى، وهي أصل، ويركزون على المسألة الثانيّة، وهي فرع. ولا يصح عند العقلاء تقديم الفرع على الأصل!

❊ ❊ ❊ ❊

(٥) محددات فكرة الإله

لقد سبق أن طالبنا الملحد بتحديد مفهوم الإله الذي ينكره، وبيّنا أنه لا يمكن أن يقدم أي معنى مستقيم له، لأن أي خيار يطرحه (إله مطلق، أو إله ناقص) سيوقعه في إشكاليات مختلفة. وهنا أحب أن أبيّن محددات جوهر فكرة الإله، وأختصرها في:

المحدد الأول: **الأزليّة بلا بداية**، فهو الأول ليس قبله شيء، لأنّ وجوده من ذاته، ولذا فهو سبب كل شيء موجود وليست بدايته من نفسه.

المحدد الثاني: **الأبديّة بلا نهاية**، فهو الآخر الدائم أبدًا بلا نهاية، لأنّه قائم بنفسه، وكل شيء غيره قائم به، ولذا فكل شيء في ذاته له نهاية.

المحدد الثالث: الكمال المطلق، فهو المتصف بالكمال اللانهائي في ذاته وصفاته، ولذا فهو مستغنٍ عن غيره، وكل شيء قائم به مفتقر إليه.

المحدد الرابع: مصدر القيم، فهو مصدر القيم والحقائق، ومعيارها الصحيح، وغايتها النهائيّة، وبدونها لا يمكن فهمها بل تسقط نهائيًّا.

المحدد الخامس: الغموض المدهش، فهو فوق مدارك العقل، لا يمكن الإحاطة به علمًا إلا إجمالًا وبشكل مبهم، بسبب محدوديّة الإدراك العقلي.

هذه المحددات الخمسة هي جوهر فكرة الإله، سواء سمّيته (الله جَلَّ جَلَالُهُ) أو (الطبيعة) أو ما شئتَ من الأسماء، فنحن في هذا المقام يهمنا المضمون أكثر من أي شيء آخر. ولهذا بيّنها القرآن الكريم في الكثير من آياته، كما نجد ذلك في مثل قوله: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾،[1] وقوله: ﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾،[2] وقوله: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾،[3] وقوله: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾.[4] فإذا جئنا لبحث «صورة الإله» في النسق التصوري الذي يقدمه كلٌّ من الإسلام والإلحاد، في إطار تلك المحددات الستة، سنجد التالي:

---

(١) الحديد: ٣.

(٢) الأنعام: ١٨٥.

(٣) الشورى: ١١.

(٤) الأنعام: ١٠٣.

المحددات	الإسلام	الإلحاد
الأزليّة بلا بداية	الله ﷻ أزلي بلا بداية	المادة أزليّة بلا بداية
الأبديّة بلا نهاية	الله ﷻ أبدي بلا نهاية	المادة لا تفنى أبدًا
الكمال المطلق	الله ﷻ له الكمال اللانهائي	المادة لا حدود لكمالها
الخالقية المريدة	الله ﷻ متفرد بالخلق والإيجاد	المادةتخلق بلاحدود ولا قيود(١)
مصدر القيم	الله ﷻ مصدر القيم كافة	المادة مرجعيّة الحقائق كافة
الغموض المدهش	الله ﷻ فوق الإدراك	المادة غامضة فوق الإدراك

نخلص من هذا الكشف إلى أنّ هذه المحددات -من حيث الاقتضاء واللزوم- ثابتة أيضًا للبديل الذي وضعه الملاحدة لـ(الإله الخالق) ألا وهو «المادة/ الطبيعة». ولهذا فالملحد في جوهر إلحاده يؤمن بمحددات مفهوم الإله الخالق،كل ما في الأمر أنّه انتقل من الإيمان بـ(الإله الخالق) كما يقدمه الإسلام إلى الإيمان به لكن في صورة أخرى وشكل آخر مختلف، ووضع له أسماء شتّى، ثم توهم أنّ تغيير الاسم سيؤدي بالضرورة إلى إنكار جوهر محددات مفهوم «الإله الخالق»!

إذن؛ فالإلحاد عقيدة ورؤية شركيّة. وقد وجدت الشيخ العلامة يوسف القرضاوي يقول: نفس المعنى: «أثبت الواقع أن كل ملحد مشرك، وإن كان الفرق أن

---

(١) قال داروين: «الطبيعة تخلق كل شيء، ولا حد لقدرتها على الخلق». الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة ج٢ ص٩٢٧.

المشركين يعبدون مع الله آلهة أخرى، والملحدون يعبدون من دون الله آلهة شتى».[١]

وقد جاء في حوار جرى بين الإمام أبي حنيفة النعمان (ت ١٥٠هـ) والإمام جعفر بن محمد بن علي (ت ١٤٨هـ): «ثم قال لأبي حنيفة: أخبرني عن كلمة أوّلها شركٌ وآخرها إيمان ؟ قال: لا أدري، فقال جعفر: «لا إله إلا الله»، **فلو قال: لا إله ثم أمسك كان مشركًا**، فهذه كلمة أوّلها شركٌ وآخرها إيمان».[٢]

وهذا القول مبني على حقيقة أن عقيدة الخالق مبدأ مغروس في الفطرة الإنسانية وأن التدين نزعة عميقة في الوعي البشري، بغض النظر عن تجلياتها ومظاهرها عند هذا الإنسان أو ذاك، وعند هذه الأمة أو تلك. يقول الدكتور محمد الزحيلي: «التدين فطرة في الإنسان، وهو جزء من كيانه ووجوده، مثل بقية الغرائز التي تتكون منها النفس منذ خُلقت البشرية وحتى تقوم الساعة».[٣] ولهذا لا يوجد إلا التوحيد أو الشرك، أي إما إفراد الله تعالى بالربوبية والألوهية والحاكمية، وإما اتخاذ شركاء معه أو من دونه، كالذات أو الصنم أو الدولة أو الطبيعة أو العلم. فالملحد لما نقل خصائص الألوهية وسحبها عن الإله الحق سبحانه، إلى آلهة أخرى كان ذلك يعني أن الإلحاد عقيدة شركية. إذ معنى الشرك إضفاء معاني الألوهية على مخلوق من المخلوقات أو حتى الذات الشخصية كما قال سبحانه: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾.[٤] وسر هذا المعنى هو أن الإيمان بالإله الخالق راسخ في جذر الفطرة

(١) الإيمان والحياة. ص ١٠٠.
(٢) الفقيه والمتفقه. أبو بكر الخطيب البغدادي ج١ ص ٤٦٥.
(٣) وظيفة الدين في الحياة ص٣٢.
(٤) الفرقان: ٤٣.

وممتزج بذاكرتها وسار في أسسها ومبادئها، فلولا هذا الرسوخ الباطني والذاكرة البارزة لما استطاع الإنسان أن يُضفي معاني الألوهية والتقديس على أي شيء مما اتخذه أربابًا من دون الله سبحانه.

ومن هنا؛ فالملحد بنفيه لله تعالى وإيمانه ببديل عنه كالمادة أو الطبيعة أو ما يمكن أن يخترعه من البدائل، هذا النفي والإنكار ليس سوى انتقال من «إيمان التوحيد» إلى «إيمان الشرك». لأنّه في الحقيقة اتخذ من دون الله الحق آلهة أخرى زائفة!

إنّ المهم عند الملحد ألا يؤمن بإله الأديان، ولا مانع لديه من الإيمان بأي شيء آخر يجعله مصدرًا للكون والحياة والإنسان. فملحد شهير مثل ريتشارد دوكنز -عالم بيولوجيا بريطاني- يقول: «من الممكن أن هناك كائنات فضائيّة هي سبب وجود الحياة على الأرض»! ووجدنا ملحدًا آخر لا يقل شهرة عن الأول، أعني ستيفن هوكنج -عالم فيزياء بريطاني- يقول: «بناء على قوانين الجاذبية، يمكن أن يخلق الكون نفسه من لا شيء، والخلق العفوي هو السبب في وجود شيء ما، ومن أجله يوجد الكون، ومن أجله نوجد نحن»! ألا يدل هذا الهراء والسخف الذي يتفوه به أمثال هؤلاء على أنّ الأمر ليس قضيّة دليل وعقل وعلم، بل القضية الهوى الأعمى والتعصب الصلب والأيديولوجيا الصماء التي تدفع بصاحبها لمناقضة المعقول والمعلوم الذي يدركه الصبيان والجهال وأمثالهم، فقط لكي لا يتنازل عن رأيه! فأي مجون فكري هذا! وأي فضيحة معرفية هذه!

وتاريخ الملحدين يثبت لنا أن قناعاتهم ومواقفهم لم تكن أبدًا نتيجة نظر عقلي خالص أو بحث علمي محايد، بل لم تنفصل أبدًا عن عوامل نفسيّة ورواسب راسخة. وليس خافيًا على أحد من المتابعين مدى تأثر فحول الملاحدة بأحداث حياتيّة مختلفة، كموت قريب، أو تلقي معاملة سيّئة، أو التعرض للتحرش الجنسي، أو رفض البيئة الأسريّة! يقول ستيفن جولد: «ساعدت وعجّلت وفاة «آنى» القاسية تحفيز كل الشكوك التي ولّدتها قراءات داروين لكتابات نيومان، ونقده العميق للدين، وفقد بالتالي -وإلى الأبد- كل ما لديه من إيمان بإله راع للخليقة، ولم يعد يبحث بعدها عن السلوان في ثنايا الدين».[١]

أما الملحد الريوندي؛[٢] فانظر إليه كيف جعل توفر الرزق الوفير للجاهل وحرمان العالم والذكي أمارة على الظلم والعبث وانتفاء القصد والغاية، ومن ثم، يعتبر ذلك سببًا كافيًا لاختيار الزندقة والإلحاد:

كم عاقل عاقل أعيت مذاهبه وجاهل جاهل تلقاه مرزوقًا

هذا الذي ترك الأوهام حائرة وصيّر العالم النحرير زنديقًا

وقال المتيم الأفريقي وهو طبيب ومنجّم:[٣]

أصلي ولا فِتْرٌ من الأرض يحتوي عليه يميني إنني لمنافق

(١) صخور الزمان: دور العلم والدين في اكتمال الحياة ص٤٨.

(٢) تاريخ ابن الريوندي الملحد. عبد الأمير الأعم ص٢٤٥.

(٣) ديوان الزنادقة. جمال جمعة ص٢١١. الفتر: مسافة ما بين طرف الإبهام والسبابة. المائق: الهالك غباوة. البارق: سحاب ذو برق. مخاريق: أباطيل.

تركـــت صـــلاتي للـــذين ذكـــرتهم	فمـن عـاب فعلـي فهـو أحمـق مـائق
بلـــى، إن علـــي الله وسّـــع لـــم أزل	أصـلي لـه مـا لاح في الحِـرِّ بـارق
فـــإن صـــلاة السـيّئ الحـــال كلهـــا	مخـــاريق ليســـت تحـــتهن حقـــائق

إنها مأساة عنيفة يتجرّعون ألمها بصمت كئيب!

ولهذا كان وهم الإنكار مرتبطًا بمجموعة من العوامل البعيدة كل البعد عن العقل والمنطق والبرهان. يقول مشير باسيل عون في هذا السياق: «يرتبط الإلحاد بالتصور الذي ينشئه الإنسان في اللاهوت أو الألوهة»،[1] أي إنّ إلحاد الملحد مرتبط بطبيعة فهمه وتعريفه وتصوره لـ(الإله) وتعاطيه معه. ومن ثم، فالإلحاد في الحقيقة يتضمن الإيمان بوجود الإله الخالق ولكن بشكل خاطئ ومشوّه -وإلا لما كان للإلحاد أي معنى!-، تارة بسبب تقديم الدين المحرَّف لصورة مشوهة للإله، كما هو الحال في النصرانيّة مثلًا، وتارة بسبب الجهل بحقيقة ما يقدمه الدين لصورة الإله، كما هو الحال في الإسلام. ومقالات واعتراضات الملاحدة تدل على هذا المعنى! وهذا الإنكار ليس يعني أن لهم صورة واضحة عن الإله كما ينبغي أن يكون، بل بالعكس، فلو سألت أي ملحد، من الزعماء أو الغوغاء، فلن يرجع إليك بجواب واضح! فمثلًا توماس ناجل، الفيلسوف الملحد صرّح أنه ببساطة لا يمكن أن يوجد كائن ذي صفات كالله، أي يكون مطلق الكمال والعظمة في علمه وقدرته وإرادته، لماذا؟ لأن ذلك يمكن اعتباره انتهاكًا صارخًا للخصوصية، إذ سيعلم هذا الإله كل

---

(١) نظرات في الفكر الإلحادي الحديث ص٥.

فكـرة وخـاطرة تلـم بالـذهن وتجـول في الـنفس، وستصبـح كـل الأفعـال والنشـاطات موضع مراقبة ومحاسبة![١] فتأمل هذا الهراء السخيف!

وها هنا معنى لا ينتبه إليه الملحد، وهو أنّ ربـط الـرفض والنفـي بوجـود الظلـم والجهل والشر والتناقض في معطى الإسلام مثلًا عن الإله الخالق، يقتضي بالضـرورة إدراكًا مسبّقًا منه -أي الملحد- لمقابلات تلك المعاني وهـي: العـدل والخيـر والعلـم والانسجام!

والحديث عن هذه الثنائيّات القيميّة: «الظلم/ العدل، الشر/ الخير، التناقض/ الانسجام، الجهل/ العلم» يسقط صرح الإلحاد مباشرة، إذ هـذه الثنائيـات القيميـة لا يمكن أن تنتمي إلى المادة، بل إلى مستوى خارج عنها ومتجاوز لها، لأنّ إدراكها مـن قِبل الإنسـان علـى المستوى المعرفي والشعوري والممارسـة السـلوكية لا يكـون إلا بـالتحرّر مـن إطـار المـادة، وإلا فـأي تفسـير يمكـن للملحـد أن يقدمـه لرفضـه للظلـم ورغبتـه في العـدل مـثلًا؟! خصوصًـا وأنّ أحـد أهـم مقـررات الإلحـاد تؤكـد علـى أنّ الإنسان -والوجود جميعًا- ليس سوى كومة ماديّة صلبة، كما تؤكد على أن الحقـائق نسبية ولا يوجد معيار ثابت لها، وأيضًا تؤكد علـى أن مـوت الإنسـان لـيس أكثـر قيمـة من موت حشرة! فكيف يستقيم هذا من الملحد؟!

ولهذا، فنحن في هذا السياق نطالب الملحد على الأقل بالتزام مبدأ النسبية التي يتغنى به ويرفع شعاره، إنها النسبية التي «تنزع القداسة عن العالم -الإنسان والطبيعة-

---

(١) الإلحاد بين قصورين ص١١٣.

، وتجعل كل الأمور متساوية. ومن هنا فالظلم مثل العدل، والعدل مثل الظلم، والثورة ضد الظلم، لا تختلف عن الاستسلام له، فيصبح من العسير للغاية، بل من المستحيل على الإنسان الفرد أن يتخذ أي قرارات بشأن أي شيء، ويصبح من السهل اتخاذ القرارات بالنيابة عنه والهيمنة عليه سياسيًا. فالنسبية قوضت الإنسان/ الفرد من الداخل وجعلت منه شخصية هشّة غير قادرة على اتخاذ أي قرار، وإن كانت في الوقت ذاته قادرة على تسويغ أي شيء وكل شيء»، كما يقول الدكتور عبد الوهاب المسيري.[١]

❋ ❋ ❋ ❋

(٦) عبء الدليل

وبعد: مما له صلة ببحثنا، قضية عبء الإثبات. وهذه الفكرة من أعظم الأوهام التي يخدع بها الملحد نفسه! فمن أبجديات الإلحاد المعاصر، حرص الملاحدة على مدافعة طلب المؤمن منهم تقديم أدلة صحيحة على صحة الإلحاد وقناعاته! بل يكتفون بالقول: لا يوجد إله، لأنّه لا يوجد عليه دليل! ويرفضون تقديم الأدلة على دعواهم، لأنّ عبء الأدلة -كما يقولون- يقع على المثبت وليس على النافي!

والحقيقة أنّ هذا الموقف ليس موقف الإلحاد المعاصر فقط؛ بل هو موقف كل الملاحدة والمنكرين خلال التاريخ، كما أشار إلى ذلك الله سبحانه وهو يعرض علينا مشهدًا من مشاهد الأنبياء عليهم السلام مع أفراد أقوامهم الذين ينكرون لمجرد

---

(١) رحلتي الفكرية في الجذور والبذور والثمر ص١٤٧.

الإنكار: ﴿قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَدۡعُوكُمۡ لِيَغۡفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرَكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾.[1] فكما نرى؛ فإنّ الأنبياء نبّهوا على أنّ فكرة الخالق سبحانه فكرة بدهية فطرية، وأن النظر في آفاق الكون والحياة (السموات والأرض) كفيل بإثارة هذه الحقيقة المغروسة في العقول والقلوب، لأنّ العقل والفطرة لا يقبلان وجود شيء بلا سبب ولا غاية، ولهذا استعملوا كلمة (فاطر) الدالة على أن الخالق سبحانه هو مبتدئ ومنشئ هذا الكون الفسيح.

ثم زادوا عليهم السلام جرعة التنبيه عسى أن تنتفض الفطرة فيهم وتتحرر من ذلك الركام الهائل الذي طمر جوهرها ومعانيها الأصيلة، فأشاروا بأنّ هذا الخالق قد خلقهم لغاية نبيلة ومقصد شريف، وأنه يدعوهم للدخول في التوحيد وحمى الإيمان ليغفر لهم ذنوبهم ويمتعهم إلى حين، ثم ينتقلون إلى عالم الآخرة. وهذا كله لتحريك الفطرة التي لابد أن تسأل ذلك السؤال الكبير (لماذا أنا هنا؟ ماذا بعد الموت؟)

لكن؛ كيف قابل هؤلاء المنكرون كلام هؤلاء الأنبياء وتنبيهاتهم وأدلتهم؟ لقد قابلوهم بنفس منطق الملاحدة المعاصرين، فبدل مناقشة طرح الأنبياء، نقلوا الحوار إلى دائرة أخرى، وهي كيل الاتهام لهم بالكذب والخداع والتزييف، وأنهم يطعنون في آبائهم وأسلافهم، ومع ذلك اعتبروا أن أدلة الأنبياء ليست كافية ولا واضحة ولا مبرهنة، ومن ثم أصروا على عبء الإثبات عليهم: ﴿فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾!

---

(١) إبراهيم: ١٠.

وفي مشهد آخر؛ كشف القرآن الكريم كيف أن الكفار يكتفون في رفض النبوة والوحي المنزل بالقول أنه مجرد اختراعات بشرية بلا سند ولا قيمة، أي بتعبيرهم (أساطير). قال سبحانه: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا ۚ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾.[١] فرغم كل ما عُرض عليهم من الأدلة، إلا أنهم سلكوا سبيل الجدل، ثم اكتفوا بالقول إن ما يُطرح مجرد أساطير واختراعات!

ولست أدري أي منطق هذا الذي يجعل الملحد يرفض عقيدة الإله الخالق لعدم توفر الأدلة كما يقول، في حين يرفض تقديم أدلته هو على دعوى عدم توفر هذه الأدلة، أليس هذا يعكس خللًا فكريًّا ومنهجيًّا في عقل الملحد!

إنّ المؤمن والملحد كلاهما يقف في محكمة العقل، والمتَّهِم والمتَّهَم -كما هو معلوم- كلاهما يجب عليه تقديم الأدلة الكافية لدعم ادّعائه وصحة موقفه ونفي التهمة عنه. وإذا كان مَن يرفض تقديم أدلة الدعوى يُعتبر في منطق القانون مثبتًا للتهمة على نفسه أو مشاغبًا، فكذلك في منطق قانون العقل يُعتبر مَن يرفض تقديم أدلة دعواه مثبتًا للتهمة على نفسه أو مجرد مشاغب له طوية سوء وغاية خبيثة!

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «لا ريب أن النافي عليه الدليل، إذا لم يكن نفيه بديهيًا، كما أن على المثبت الدليل. فالقضية -سواء كانت سلبية أو إيجابية- إذا لم تكن بديهية فلا بد لها من دليل، وأما السلب بلا علم فهو قول بلا علم».[٢]

---

(١) الأنعام: ٢٥.

(٢) الرد على المنطقيين ج١ ص٣٥.

ولهذا قلنا الواجب أن يقال (عبء الدليل) وليس (عبء الإثبات)، لتقرير أن الطرفين معًا -المؤمن والملحد- مطالبان بتقديم الدليل، هذا على صحة الإيمان وذاك على صحة الإلحاد. وهذا من شأنه تجاوز خدعة الملاحدة في حصرهم الدليل على المؤمن المثبت دون المنكر والنافي!

وما من شك في أنّ رفض الملحد تقديم أدلته على صحة قناعته؛ والاكتفاء بمطالبة المؤمن بتقديم أدلة الإثبات، عبث وسخف لا يحترمه العقلاء وإنما ينخدع به السفهاء، خصوصًا وأنّ القضية قضية وجودية كبرى، لها آثار عظيمة وتترتب عليها لوازم خطيرة، تشمل الفكر والشعور والسلوك والعلاقات والأهداف، بل ولا تقتصر على عالم الدنيا وإنما تمتد لتشمل عالم الآخرة الأبدي.

لقد كان الواجب في بداهة العقل؛ أن الملحد إذا كان على يقين من قناعته واعتقاده بعدم وجود الإله الخالق، أن يعرض من الأدلة المكافئة في حماستها وثباتها وقوتها حماسة وثبات وقوة يقينه بعدم وجود الله سبحانه! ولكنه العبث الهازل والمجون الفكري حين يسيطر على النفوس ويخلب العقول، وينفخ فيها أوهام التحرر والاجتهاد والعقلانية!

إنّ الإلحاد بما أنّه رفض للتفسير الإيماني للذات والوجود والعلاقات القائمة والرابطة بينهما، فهو تقديم لرؤية تفسيريّة بديلة، تستند على عناصر ومكونات محددة، تخالف أو تناقض العناصر والمكونات التي استندت عليها الرؤية الإيمانيّة، وبهذا؛ فالإلحاد في جوهره عملية استدلاليّة وليست بدهيّة. ماذا تعني هذا النتيجة؟

إن القول بأن الإلحاد بما أنه تفسير للذات والوجود، فهو عمليّة استدلاليّة، ناتج عن كون منطلقاته الرافضة للإيمان، وهي منطلقات استشكالية -أو هكذا ينبغي أن تكون وأن يتعامل معها الملحد- سواء للطرح الإيماني، أم للذات والوجود. وهذا يعني، أن الإلحاد رؤية مركبة، وبما أنه كذلك، فالواجب في حكم العقل أن تتعدد استدلالاته بتعدد استشكالاته.

نخرج من هذا البيان إلى أن الملحد مطالَب بتقديم أدلته كما هو حريص دائمًا على طرح اعتراضاته واستشكالاته. على أنّ له -من باب الجدل والتنزّل- أن يمسك عن تقديم الدليل على صحة وصواب قناعته الإلحاديّة في حالة واحدة، وهي أن يعيش بعيدًا عن مجتمعه، إذ من الواضح أنه حينها لن يجد أحدًا يطالبه بالدليل، أما وهو يعيش بين الناس، بل ويمارس الدعوة للعقيدة الإلحادية، فمن غير المقبول -بأي منطق حكمنا- أن يمتنع عن تقديم أدلته على صحة البديل الذي يطرحه، اللهم إلا ألا يكون هو شخصيًّا مقتنعًا تمامًا بما يتبنّاه من القناعات!

الواقع؛ ينبغي أن نقرر هنا حقيقة أن الملحد في قرارة نفسه غير مقتنع تمامًا بما يتبناه من الأفكار والرؤى الإلحادية، لأنه يشعر بأنّها أفكار ورؤى وقناعات مناقضة لفطرته وعقله، ولدلالات الكون والحياة، مهما حاول تبريرها. وهذا ما أثبته القرآن الكريم وهو يحلل مواقف المناوئين لدعوة التوحيد والإيمان والوحي، فقال الله سبحانه: ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ

مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾.[1]
واستعمال كلمة (يخرصون) هنا لها دلالتها، فهي تشير في أصلها لمن يكذب في قوله أي يقول خلاف ما يعلم، ويتكلم بما لا يَحُقَّ.

إن عيش الملحد بين أفراد المجتمع يفرض عليه التواصل معهم لتكون حياته طبيعيّة. والعملية التواصلية الاجتماعية تعتمد في جوهرها على ثنائية الإقناع والاقتناع، أي ضرورة تحقيق مستوى معين من إقناع الآخر بما تريد، ومبادلته بمستوى معين من الاقتناع بما يريد، لكي تستمر عملية التواصل الثنائي والجماعي في أفقها المنشود. ومن هنا؛ لا يمكن الاكتفاء بمطالبة الآخر بعرض أدلته على صحة مواقفه وقناعاته، دون مبادلته بالشيء نفسه، وإلا كان ذلك يتضمن الرفض للتواصل معه وقطع الصلة به. فهذا في نشاطات الحياة اليومية، فكيف إذن في قضايا الوجود الكبرى؟ ولهذا؛ فإن انتقال الشخص من الإيمان إلى الإلحاد يقتضي أن تكون لديه مقدرة حجاجية قويّة للدفاع عن قناعته الجديدة وإقناع الآخر بها. ونخلص من هذا إلى أنّ الملحد ليس بمنأى عن معاناة عبء الدليل.

على أنّ عملية محاججة المؤمن لإقناعه بمبررات الإلحاد، ليست عملية خاصة بالفضاء التحاوري العام، أعني خوض التحاور والتواصل مع المؤمن لعرض تلك الحجج والمبررات للانتقال إلى القناعة الجديدة، بل هي عملية لها تعلق بالفضاء الفكري الذاتي الخاص أيضًا. فانتقال الإنسان من الإيمان إلى الإلحاد أو العكس، يقتضي جهدًا معرفيًّا وحجاجًا استدلاليًّا قويًّا وواسعًا مع الذات والوعي

(١) يونس: ٦٦.

والوجود، لما لهذا الانتقال من الآثار واللوازم والمقتضيات، وأعظم من ذلك، لأنه سير في اتجاه معاكس لطبيعة الفطرة وشعور الوجدان ومبادئ العقل ودلالة الكون والحياة.

نصل من هذا البيان إلى كون تفصيل الأدلة على صحة الإلحاد وقيمة الانتقال إليه، واجب بالنظر إلى الذات والوعي الخاص بالملحد، كما هو واجب بالنظر إلى التواصل والتحاور مع الآخر. والقضية لكل هذا أكبر مما يتوهم الملحد حين يكتفي بمطالبة المسلمَ بالدليل، ليظل هو في موقع المستمع والمراقب!

ومن العجيب -ولا عجب في الإلحاد- أن الملحد مستعد للتنازل عن عقله ووجدانه وهواتف الكون والحياة على مراجعة نفسه والنظر الجاد في وجود الإله الخالق ولوازم هذا الوجود، معرفيًا وسلوكيًّا وسلوكيًا واجتماعيًّا! وهذا الموقف من الملحد يذكرنا بقول الله تعالى في الكفار الذين أنكروا نبوة سيدنا محمد ﷺ: ﴿وَلَوۡ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ كِتَٰبٗا فِي قِرۡطَاسٖ فَلَمَسُوهُ بِأَيۡدِيهِمۡ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾.[1] فهنا نجد قمة المعاندة والجحود والإنكار حتى للمحسوسات بدعوى أنه من الممكن أن يكون خداعًا وأوهامًا، كما يقول اليوم بعض الملاحدة، من الممكن أن يكون هذا الكون مجرد وهم كبير ونحن نتصور أنه شيء حقيقي!

في هذا الإطار لابد من التنبيه على أمرين في غاية الأهميّة بخصوص هذه المسألة. وذلك أنّ دافع الملحد لإلقاء العبء على المؤمن، ينطلق من حقيقتين:

---

(١) الأنعام: ٧.

الحقيقة الأولى: التبرير النفسي. وذلك أنّ الملحد يشعر في أعماقه أن موقفه شاذ، وأنه شخص غريب في مجتمعه، ومن ثمَّ يحاول لاشعوريًّا أن يجد مبرّرًا لموقفه الإلحادي. وعمليّة التبرير النفسي يمارسها الإنسان في مختلف نشاطاته التي يشعر أنّها شاذة!

الحقيقة الثانيّة: التّلبيس الماكر. وذلك أنّ الملحد أثناء حواراته مع المسلم -أو أي مؤمن بوجود الإله الخالق- يحرص على التّشويش عليه بمطالبته بتقديم الدليل على وجود الإله، ويكون مستعدًّا للمغالطة حول أي دليل يُقدم بـ «غير كاف/ غير واضح»!

ونحن ندرك جيّدًا بأن هذا الأسلوب، أي الحرص على محاصرة المسلم بتقديم الدليل، يتضمن بُعدًا نفسيًّا، وهو محاولة تشكيك المسلم في قناعاته الإيمانية. فالملحد يراهن على أن هذه المحاصرة ستجعل المسلم يتساءل عن مدى صحة وصواب عقيدته في وجود الله ولوازمها! نعم؛ ليس كل الملاحدة يدركون هذا الجانب النفسي، لكن نحن ننبّه عليه ليعرف المسلم جانبًا من سر محاولة إلقاء الملحد عبء الدليل عليه.

بعد أن اكتشفنا سر حرص الملحد المعاصر على إعفاء نفسه من تقديم دليل عدم وجود الإله الخالق؛ وإلقاء عبء تقديم الدليل على المؤمن، بعد هذا، نقول: القناعات الفكريّة التي يتبنّاها الإنسان قسمان، فهي إما أن تكون (**قناعة عقليّة**) أي مبنية على أدلة، وإما أن تكون (**قناعة نفسيّة**) أي غير مبنية على غير أدلة.

فالملحد إما أن يكون قد أسّس إلحاده أي نفى وجود الخالق على **(قناعة عقليّة)**، وإما أن يكون فعل ذلك على **(قناعة نفسيّة)**. لكن؛ بما أن الملحد ينفي عن نفسه تهمة تبني الإلحاد والانتماء إليه لأجل قناعات عاطفيّة ودوافع نفسيّة، بقي إذن أن يكون موقفه واختياره عقليًّا!

عندما يقرر الملحد موقفه من وجود الإله الخالق في النفي والإنكار بدل الإثبات والإقرار؛ فهذا يعني أنه يعترف ضمنيًّا بأنّ هذا الحكم (عدم وجود الإله) هو ممارسة استدلاليّة وفعل برهاني.[1] وبذا؛ يكون اكتفاؤه بإلقاء عبء الدليل على المؤمن (تناقضًا عقليًا) و(انعدامًا للمنهجيّة) في الحوار والطرح، كما أنه يعكس أهدافًا وغايات غير بريئة كما سبقت الإشارة!

إنّ نفيَ الإله حكمٌ عقلي يتبنّاه الملحد في مقابل تبنّي المؤمن حكمًا عقليًّا آخر هو إثبات وجود الإله. وبما أن الموقفين والقناعتين معًا هما في جوهرهما ممارسة استدلاليّة لأنّهما حكم عقلي، فعبء الدليل وتقديم البرهان على صحة الدعوى (النفي/ الإثبات) يقع على الطرفين معًا (المؤمن والملحد)، وليس كما يقول الملحد حين يحصر تقديم الدليل في جانب المؤمن.

---

(١) يقول أندري كونت سبونفيل -فيلسوف ملحد فرنسي معاصر-: «إن الإلحاد موضوع فلسفي متميز. فهو اعتقاد لكن سلبي وأسلوب للتفكير لكنه لا يقوم إلا على أساس فراغ موضوعه. ذلك ما يشير إليه بالضبط الاشتقاق عبر هذا الحرف الصغير«a» النافي الذي يتقدم لفظة الـ théos العظيمة (والتي تفيد الله)». موقع الأوان، ترجمة حسن أوزال/ ٢٠٠٩، على هذا الرابط:
(http://cutt.us/Pm٨Cv)

نزيد المسألة بيانًا؛ فنقول بأنّ أي حكم عقلي لابد أن يمر بثلاث مراحل، وهي:

المرحلة الأولى: مرحلة التصور للقضية.

المرحلة الثانية: مرحلة إخضاع القضية لمرجعية معيارية.

المرحلة الثالثة: مرحلة إصدار حكم نهائي قبولًا أو رفضًا.

هذه المراحل الثلاثة يمر بها حكم المؤمن في الإثبات، كما يمر بها حكم الملحد في الإنكار، وهي تخص القضايا الجزئية كما تخص القضايا الكلية.

نضرب المثال بالملحد:

(المرحلة الأولى، تصوره لمفهوم الإله: ذاتًا وصفات)، أي تشكيل صورة معيّنة في العقل عن الإله من حيث ذاته وصفاته.

(المرحلة الثانية، استدعاء قواعد العقل المعياريّة)، هذا الاستدعاء من أجل إخضاع تلك الصورة المتصوَّرَة عن الإله لهذه القواعد المعياريّة.

(المرحلة الثالثة، استنتاج الحكم بأنّ صورة الإله ناقصة)، وبالتّالي ضرورة نفي وجود الإله، وهذا يكون لاعتقاده أنّ صورة الإله لا تتوافق مع العقل وقواعده المعياريّة.

بعد هذا نقول: نفي وجود الإله له احتمالان لا ثالث لهما:

(إما أنّ هذا النفي ضروري)، لأنّ وجود الإله ممتنع بنفسه. أي أنّ مجرد تصور وجود الإله يؤدي إلى نفيه، مثل تصور اجتماع النقيضين (كتصور شخص واقفًا قاعدًا في اللحظة نفسها) يؤدي إلى نفيه عقليًّا. فإذا قال الملحد بأنّ وجود الإله ممتنع لذاته،

فليقدم لنا الأدلة العقليّة التي تدعم قوله، كما يجب عليه أن يُفسر لنا امتداد فكرة وجود الإله طبقات المصلحين والفلاسفة والمفكرين، بالرغم من استحالتها الذاتيّة عقليًّا!

(إما أنّ هذا النفي ممكن فقط)، لأنّ أدلة الإثبات والنفي متعادلة. أي أنّ الملحد تجمّعت لديه مجموعة أدلة متساوية الحجة، نصفها يثبت وجود الإله، ونصفها ينفي وجوده. وبالتّالي فنحن لا نستطيع أن نقول أنّ تعادل الأدلة وتساويها في الدلالة كما توصل إليها الملحد يؤدي إلى الإلحاد، بل فقط -وهذا منطق العقل- إلى «اللاأدرية». أي أنّ الإله بسبب تعادل الأدلة يمكن أن يكون موجودًا كما يمكن أن لا يكون موجودًا![١]

يمكننا أن نستنتج من التحليل السابق، أنّ زعم الملحد بأنّ عبء الدليل إنّما يقع على المؤمن، زعم فارغ لا أساس له من الصحة والمنهجيّة والموضوعيّة. بل هو وهم يخادع به نفسه لكي لا يطالبه عقلُه ولا يطالبه أحدٌ بالأدلة الواضحة، لأنّه يدرك أنّ تقديم الأدلة سيقفه وجهًا لوجه مع الحقيقة، وهذا سيُشكّل بالنسبة إليه كابوسًا مرعبًا لما يترتب على ذلك من اللوازم والمتطلّبات المعرفية والسلوكية!

ولهذا نقول: يستحيل وجود إلحاد حقيقي، أي نفي فكرة وجود الخالق نفيًا مطلقًا. إذ هذا النفي ليس ممتنعًا لذاته، فبقي فقط إمكان النفي. والإمكان يعني

---

(١) من الأسئلة التي يمكن طرحها هنا، سؤال: كيف أمكن للملحد أن يتأكد من تعادل الأدلة؟ وحتى لو قال الملحد بأن نسبة وجود الإله الخالق هي ١ ٪ ، فيظل السؤال: لماذا هذه النسبة بالضبط؟

تساوي الأدلة، والتساوي فيها يعني العجز عن الترجيح. فالعيب في عقل الملحد العاجز وليس في ذات الأدلة! ولهذا لا يمكن للملحد أن ينكر فعلًا وجود الإله قبل أن ينكر عقله. كما نبّه على ذلك الإمام أبو العباس ابن القاص بقوله: «مَن أنكر العقل أنكر صانعه».[1] ومفهومه أن من أنكر الخالق أنكر عقله. وهو يقصد ما سبق تقريره، أي استحالة إنكار فكرة ومبدأ وجود الخالق، وليس إنكار الله كما يقدمه الإسلام مثلًا، فإثبات أن الله الذي يقدمه الإسلام هو الإله الخالق مسألة أخرى.

على أنّ للملحد أن يرفض هذا التقرير وأن ينازع في هذا البيان، إلا أنّنا نطالبه بأن يخبرنا هل إلحاده يقين صادق أم مجرد ظن؟ وهل هو صحيح أم خطأ؟ من الواضح أنّه لن يقول بأن إلحاده ظنٌّ وخطأ، وإلا أضحك عليه الصبيان فضلًا عن العقلاء. فلم يبق بين يديه سوى أن يقول: إلحادي يقيني وصحيح وصواب! فنحن نسأله: بأي معيار عرفتَ أنّ إلحادك يقينٌ وصحيحٌ وصوابٌ، وأنت تُنكر القواعد العقليّة الفطريّة؟ بل وتعتقد أنّ العقل ليس سوى نبضات وتفاعلات ماديّة تتم في الدماغ؟ بل وتعتقد أن الحقيقة هلامية، سائلة، نسبية، ويستحيل أن يعرفها أحد؟

نحن نُلزم الملحد بذكر مرجعيّته المعياريّة، لأنّ الإنسان لا يعرف الصحة من الخطأ، إلا استنادًا إلى مرجعيّة معياريّة عليا، هي التي تمنحه الثقة بصوابيّة حكمه (صحيح/ خطأ). والحقيقة أن الملحد سيواجه مأزقًا خانقًا ومشكلة حرجة، إذ إنّ أي جواب يقدمه لاختياره الإلحاد والاقتناع به، سيكون بمثابة انتحار عنيف وهدم شامل

---

(١) الفقيه والمتفقه. أبو بكر الخطيب البغدادي ج٢ ص٣٧.

لصرح منظومته الإلحاديّة. ففي حال كان الجواب بأن قناعته نتجت عن فكر وعقل، فهذا يتضمن بالضرورة الإقرار بما لا يحب الملحد الاعتراف به:

أولًا: البديهيات العقليّة. لا يمكن أن يكون هناك دليل صحيح من غير أن يكون مؤسسًا على قواعد عقليّة مسبقة وثابتة ومُسلّمة، وإلا لزم الدور أو التسلسل إلى غير نهاية.

ثانيًا: الحقائق الثابتة. لا يمكن إثبات صحة خيار دون آخر وترجيح أحدهما؛ بدون أن يكون هناك اعتراف مسبق بوجود حقائق مطلقة وإمكانية معرفتها ووثوقيّة أحكامها.

وسواء البديهيات العقلية أم الحقائق الثابتة، فكلاهما يدل على أن مصدرها خارج العقل والكون ومختلف عنهما ذاتًا وصفات، أي الإقرار بوجود خالق عظيم! ذلك لأن الإنسان بما أنه في الرؤية الإلحاديّة مجرد وسخ مادي متطور، فإن النتيجة الضرورية لذلك هي أنه لا يمكن أن ينتج مرجعيّة معيارية وقواعد عقليّة استدلاليّة، فالمادة شيء صلب، ساكن، محايد. والمرجعيّة والاستدلال ممارسة فوق مادية!

والمقصود بيان أن عبء الدليل الذي يفرح به الملاحدة ويتوهمون أنهم يحققون به انتصارًا ساحقًا على المؤمنين، هو نفسه حين التحقيق يؤدي إلى ضرورة إثبات وجود الإله الخالق. ولكنهم يستغلون سذاجة الصغار وكثير من الشباب، ويكثرون عليهم بتنميق الكلمات وزخرفتها، لإيهامهم أن موقفهم صحيح، وأن كلامهم هو الحق المبين، وأن البيّنة على مَن ادعى!

ونحن المسلمون نعتقد أن المؤمن والملحد كلاهما مطالَبٌ بعرض أدلته وتقديم براهين صحة قناعته وعقيدته حول وجود الخالق من عدمه. وهذا الموقف منا ناتج عن المنهجيّة الصارمة التي علمناها الله سبحانه للتعامل مع المخالفين بشتّى خلفياتهم واتجاهاتهم. فما فتئ القرآن الكريم يعرض حججه وأدلته، سواء على وحدانية الخالق أم على ضرورة إفراده بالألوهية والحاكميّة التشريعيّة أم على صحة الإسلام وبطلان غيره من المذاهب والأديان. وفي المقابل حرص دائمًا على مطالبة المخالفين والمناوئين بعرض أدلتهم وتقديم براهينهم للنظر فيها ومحاكمتها لقوانين الحق. يقول سبحانه: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.[1] ويقول تبارك شأنه: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.[2] ويقول جل مجده: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.[3] ويقول جلت عظمته: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.[4] إلى عشرات الآيات البيات التي تتضمن تقرير هذا المعنى.

ولقد استوعب المسلمون هذا الدرس القرآني وهذه المنهجيّة الإلهية في إحقاق الحق وإبطال البطل، فأنشأوا علومًا متنوعة وقرّروا قواعد صارمة سواء لمعرفة مراد

---

(١) النمل: ٦٤.

(٢) البقرة: ١١١.

(٣) الأعراف: ١٩٤.

(٤) يونس: ٣٨.

الله ورسوله، أم للدفاع عن عقيدتهم وإسلامهم ضد هجمات المخالفين والمناوئين. ويكفي الإشارة إلى قانونهم الأبرز: «إن كنت ناقلًا فالصحة، أو مدعيًا فالدليل». فأن يأتي اليوم ملحد ويطالبنا بالدليل ويكتفي هو بالتفرج والمشاهدة فهذه مهزلة وفضيحة فكرية منه، لا يمكن لعاقل أن ينزل إلى مستواها! فنحن المسلمون أرباب الدليل ودعاة البرهان، أما الملاحدة فماذا لديهم؟! لا شيء، سوى ثرثرة الشعارات!

* * * *

(٧) الدليل الذي يريده الملحد

لم يقدم الملاحدة دليلًا واحدًا متماسكًا على صحة موقفهم النافي والمنكر لوجود الله، رغم أن المؤمنين من مختلف الأديان والاتجاهات قدموا الكثير جدًّا من الأدلة! إنّ كل ما قدمه الملاحدة لم يكن سوى اعتراضات نفسيّة وعاطفيّة، كوجود الشرور، وادعاء وجود ثغرات في المنظومة الدينية، والقول بوجود عيوب في الإنسان والكائنات والكون. ومعلوم لمن مارس العلم، أن هذا -وما كان بسبيله- لا يمكن أن يعتبره العقلاء أدلة وبراهين!

وبالرغم من كل هذا؛ يمكن أن نتنزل مع الملحد ونطالب بتحديد مصدر الدليل المعتبر بالنسبة إليه، ليكون مقنعًا له، ولا يجد بدًّا من العودة إلى الإيمان بوجود الخالق؟

الحقيقة التي يجب أن نبادر لتوكيدها هنا، هي أنّ الملحد نفسه لا يعرف طبيعة الدليل الذي يريد لكي يؤمن بوجود الإله الخالق! فخذ مثلًا أنتوني فلو -الذي كان

يُلقب بأشرس الملاحدة طيلة عقود طويلة قبل أن يتحول للاعتراف بوجود خالق للكون- في حوار معه في أواخر حياته، سأله محاوره لي باتريك ستروبل السؤال التالي: ما الذي يمكن أن يفعله إله المسيحية لكي يقنعك بأنه هو الإله الحق؟ هنا بقي فلو وقتًا طويلًا مستغرقًا في التفكير، ليجيب جوابه الصادم بأنه لا يعرف، بل وأنه لم يسبق أن فكر في هذا الموضوع! [1]

فلك أن تتصور كيف لرجل قضى عقودًا طويلًا في الإلحاد مُنظّرًا ومناظرًا، وكتب كثيرًا منافحًا عن الإلحاد وطاعنًا في الإيمان، كيف أنه خلال تلك العقود والحماسة لم يسأل نفسه قط عن طبيعة الدليل الذي يريد! بل ولا أحد من أتباعه والمعجبين به الذين كانوا يتخذون كتاباته دستورًا لهم سأله هذا السؤال! أليس هذا يعني أن الإلحاد عبث فكري ونزوة طائشة ووهم بائس، ليس بينه وبين العقل والعلم والدليل أدنى سبب!

لقد اتفق عقلاء الأمم قاطبة على بعض مصادر الأدلة، رغم اختلافهم في ترتيبها، لكن الجميع لم يحصر المعرفة في الحس التجريبي، فضلًا عن أن يعتبروه أعلى مصادرها. أما الملحد؛ فهو الوحيد الذي يحصر المعرفة في (الحس التجريبي) ويرفض باقي المصادر!

وهنا يحق لنا أن نطالب الملحد بالتدليل على انحصار الأدلة في الحس التجريبي؟ وكيف أمكنه -انطلاقًا من الأسس الإلحادية التي سبق أن أشرنا إليها

---

(١) قطيع القطط الضالة. سامي أحمد الزين ص٧٨.

مرارًا- أن يتأكد من صحة هذا الحصر؟ ولماذا منحه ثقته ويقينه في أن مخرجاته صحيحة ولا يمكن التشكيك فيها؟

ومع ذلك؛ من المهم الإشارة إلى أنّ الملحد لا ينتبه لإشكالين اثنين وهو يطالب بالدليل الحسي المباشر على وجود الإله الخالق:

الإشكال الأول: إذا كان الخالق له الكمال اللانهائي في الذات والصفات، فكيف إذن يمكن إدخاله تحت التجربة الحسيّة وإخضاعه لها، إذ كانت إمكانية ذلك تنفي كونه إلهًا خالقًا له الكمال والعظمة المطلقة؟

الإشكال الثاني: لنفترض جدلًا، أنّ الملحد أدخل الإله تحت التجربة المباشرة ورصده رصدًا مباشرًا بالوسائل المادية، كيف يمكنه أن يتأكد من أنّ هذا الشيء المرصود حسيًّا بالآلات المادية هو فعلًا الإله الخالق وليس شيئًا مزيّفًا؟

بسبب هذين الإشكالين قلنا آنفًا بأن الملحد هو نفسه لا يعرف طبيعة الدليل الذي يمكن أن يتأكد به من وجود الإله الخالق وحقيقته! لأن حديثنا ليس عن إله محدود يمكن الإحاطة به، فنحن لا نقول به ولا نعتقده، وهو غير شرط الألوهية والخالقية، بل كلامنا حول إله خالق له الكمال المطلق في ذاته وصفاته، إذ لا يمكن أن يكون للإله وجود خارجي بدون هذا الكمال المطلق.

نترك مسألة دخول الإله تحت التجربة الحسيّة، وننتقل إلى افترض آخر، وهو: لنفترض أن الملحد حدّد صيغة حسيّة معيّنة بضوابط معيّنة، كأن يطلب مثلًا تحقيق رغبة شخصيّة، وإذا تحقق الأمر كما طلب، سيكون ذلك بالنسبة له دليلًا على وجود

الخالق، رغم عدم وجود إمكانيّة لهذا التحقق ضمن الشروط الموضوعيّة المعلومة، أي أنّ تحقق الطلب والرغبة هنا يتضمنان معنى خرق العادة.

هنا كيف يمكن للملحد أن يتيقن أن تحقق هذا الطلب جاء من الخالق؟ لأنّه من المحتمل جدًّا أن تكون هناك معطيات «علمية» غير معروفة في لحظة تحقق الطلب هي السبب وراء تحقق هذا الطلب أي اخترقت جدار العادة المألوفة، كما أنّه من المحتمل جدًّا معرفة هذه المعطيات العلمية بخصوص هذه الحادثة مستقبلًا! بل يمكن أن يكون هناك شخص ما من بني البشر أو حتى من عالم آخر هو من قام بتنفيذ الطلب بطريقة في غاية التعقيد والغموض والذكاء، بحيث استحال على الراصد الملحد رصده وإدراك طريقة عمله في تنفيذ الطلب! لكن هذا الشخص الشبح، يمكن أن يكشف عن نفسه لاحقًا ويثبت بالدليل أنه هو مَن قام بذلك!

وهذا يذكرنا بما حكاه الله سبحانه عن كفار قريش وصناديدها: ﴿وَلَوۡ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ كِتَٰبٗا فِي قِرۡطَاسٖ فَلَمَسُوهُ بِأَيۡدِيهِمۡ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾.[1] فقد بلغ بهم العناد والكبر والغرور إلى درجة لو تم تنزيل كتاب حسي مادي من السماء، ولمسوه حتى لم يبق لهم شيء في ذلك، إلا أنهم سيذهبون إلى أن ذلك مجرد سحر وخداع بصري، أو أنه من المؤكد أن له سببًا طبيعيًا وإن كانوا يجهلونه، المهم بالنسبة لهم رفض استحضار البُعد الغيبي، أي رفض الاعتراف والإقرار!

ومن هنا، فإنّ حدوث المعجزة المادية الحسية التي يطلبها الملحد لكي يؤمن ويوقن أن الله تعالى موجود، لا يدل بحد ذاته على وجود الإله الخالق، إذ كما قلنا من

(١) الأنعام: ٧.

المحتمل جدًّا أن الحدث وقع لأسباب طبيعية غير معروفة الآن. كما أن الملحد -من باب الجدل- لو آمن وأيقن بوجود الإله الخالق بعد حدوث المعجزة، فالسؤال هو: كيف يعرف أن هذا الإله الذي أوقع هذه المعجزة هو الإله كما يقدمه الإسلام، أو كما تعرضه النصرانية، أو الإله كما يطرحه غيرهما من الأديان؟ بل وفوق هذا، هل سيكتفي الملحد بهذا الإيمان بعد حدوث المعجزة أم سيجد من نفسه داعية معرفة الغاية التي خلقه لأجلها هذا الإله؟ وما الطريق الموصلة إلى رضاه والطريق المؤدية إلى سخطه؟

فكما نرى؛ فإن مختلف الافتراضات المتعلقة بالتجربة الحسيّة، تكتنفها إشكاليّات تُفقدها قيمتها، فليت شعري كيف سمح الملحد لنفسه بالوقوع فيها!

الواقع أن مثل هذا الافتراض قد جعله بعض الملاحدة من أدلته على عدم وجود الله تعالى، فقال: «ها أنا أتحداه أمام البشرية جمعاء أن يثبت وجوده الآن بأن يجعل الشمس تقف أمام الخلائق جميعًا ليثبت أنني على خطأ وبأنه موجود. ليجعلها تقف ولو لبعض الثواني فيظهر الحق ويزهق الباطل الذي يدعي أن بسام البغدادي يأتي بهِ».[١]

وهذا برتراند رسل -الفيلسوف البريطاني المعروف- يقول: «أعتقد أنني لو سمعتُ صوتًا قادمًا من السماء يتنبّأ بكل ما سيحدث لي في الساعات الأربع

---

(١) هو ملحد عراقي، وهو الذي ترجم كتاب وهم الإله لدوكنز. والفقرة المذكورة مأخوذة مقاله (قبلت تحدي الله، فهل يقبل هو التحدي؟) على موقع الحوار المتمدن:
http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=٢٣٨٥٤٣&r=٠

والعشـرين القادمـة، بمـا فيهـا الأحـداث ذات الاحتماليـة المنخفضـة جـدًا، وإن حدثت كل هذه الأمور، ربما قد أقتنع بوجود ذكاء أرفع مـن ذكـاء البشـر، أسـتطيع أن أتخيل أدلة مشابهة قد تحملني على الاقتنـاع، ولكـن علـى حـد علمـي لا يوجـد هكذا أدلة». [١]

هكذا قالوا؛ فاعجب مـا شـئتَ أن تعجـب، وانظـر لهـذه العقـول التافهـة ومـدى ضيق إدراكها وعظم عنادها وغرورها وجنايتها على أصحابها وعلى المخدوعين بهـا! وهذا التفكير الصبياني يذكرنا بما حكاه فرنسيس كولنز حاكيًا عن فترة طفولته: «أتذكر أنني عقدت اتفاقًا مع الإله «في عمـر التاسـعة» أنـه إذا منـع سـقوط المطـر أثنـاء عـرض المسرحية والحفلـة الموسـيقية مسـاء السـبت والتـي كنـت أسـتمتع بهـا بشـكل خـاص سوف لن أدخن. وبالتأكيـد هـذا مـا حصـل، لـم يسـقط المطـر ولـم أعـد إلـى التـدخين مطلقًا». [٢]

إن من مشاكل الملحد أنه يظن أنك مهما قدمت له دليلًا حسيًا يناسبه، فلا شك أنه سيقف عنده وينتهي إليه! وهذا وهم كبير! أصله الجهل والغفلة عـن أن مـن طبيعـة العقل الاسترسال، بمعنى أن العقل لا يمكن أن يقف عنـد حـدود معينـة، خصوصًـا في الباطل، بل تراه أبدًا يطلب ما وراء ذلك، اللهم إلا أن تكـون عنـده أصـول كليـة يـدرج تحتها كل الجزئيات، فيعرف بـذلك حـدوده، وهـذا لا يكـون إلا في الحـق. وهـذا كمـا وقـع لسـيدنا موسـى عليـه السـلام مع قومـه، فهـم لـم يكتفـوا بطلـب معجـزة حسـية

(١) ما الذي أؤمن به ص١٢٢.

(٢) لغة الإله ص٢٠.

للإيمان، ولم يقنعوا بما شاهدوا من المعجزات الحسية، بل استرسلوا حتى طلبوا بعدها رؤية الله جهرة: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾.[١]

إنّ اقتصار الملحد على الدليل الحسي المباشر؛ ليس ابتكارًا إلحاديًّا معاصرًا وليس أسلوبًا جديدًا، بل هو عادة قديمة ومعروفة عند الزنادقة والكفار الذين رفضوا الوحي والنبوات. وقد ذكر لنا القرآن الكريم ذلك وأنه اعتراض قديم في البشريّة. فقال: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ۝ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ۝ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ۝ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾.[٢] ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾.[٣] ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[٤] فتأمل كيف أضاف المطالبة بالدليل الحسي (كلام الله المباشر أو معجزة مادية) لـ (**الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ**)، أي لا يعلمون مراتب الأدلة، ولا يعلمون حقيقة ما يطالبون به، ولا يعلمون مآل قولهم!

وتأمل كيف نبّه على أنّ هذا الطلب هو ديدن المعاندين من قديم الدهر: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾. ثم انظر كيف ختم

---

(١) البقرة: ٥٥.

(٢) الإسراء: ٩٠-٩٤.

(٣) الفرقان: ٢١.

(٤) البقرة: ١١٨.

بأنّ الأدلة واضحة والبراهين ساطعة على وجود الله وما يترتب على هذا الوجود، وأنها أدلة وبراهين تورث اليقين لمن ترك العناد وتحرر من العصبية العمياء ﴿قَدْ بَيَّنَّا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

ثم هاهنا لفتة مهمة، وهي أن الملاحدة ما فتئوا يشنّعون على النبوات من جهة أنها تأتي بخوارق حسية لإجبار الناس على الإيمان بهم وبإلههم، بعيدًا عن الفكر والحجة العقلية والموضوعية والعلم، ثم هم أنفسهم يطالبون «بخوارق حسية» لكي يؤمنوا بوجود الإله الخالق، فماذا يمكن أن نسمي هذا الموقف، إن لم يكن تناقضًا صارخًا!

وعلى ذكر المعطى الحسي المباشر، لابد من الإشارة إلى أنّ المؤمن الصادق يعيش فعلًا تجربة الحضور المقدس للإله الخالق. وما تلك الروحانية العالية التي نجدها عند الصالحين إلا انعكاسًا لذلك الحضور والإحساس الغامر به، فإذا كان الملحد ينفي لعدم وجدانه دليلًا حسيًّا، فإن المؤمن يجده ذلك في نفسه عبر تجربته العميقة مع الإيمان والعبادة والتقرّب المستمر إلى الخالق جل شأنه. بالإضافة إلى أن المؤمن يعتبر الوجود بكل ما فيه، من أشخاص وأشياء ومشاهد، ليس إلا تجليات حسية للكمال والعظمة والجلال الإلهي. ولهذا لما «سئل العارف بالله سيدي أحمد بن يوسف الملياني عن ذات الحق تعالى، هل هي حسية أو معنوية؟ أجاب بأنها **حسية لا تُدرك**». وعلق العارف بالله ابن عجيبة على هذا القول بأن عدم الإدراك هنا متعلق بما قبل التجلي من خلال خلق الوجود، و«أما بعد التجلي، فهي حسية تُدرك بواسطة التجليات الحسية».(١) وهذا منزع قرآني، أعني قول الله تعالى:

---

(١) تقييدان في وحدة الوجود. أحمد بن عجيبة ص٢٣.

﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾.[١] فالله سبحانه لعظمته اللامتناهية يستحيل أن تحيط به مدارك المخلوق، وقد قال بعض العارفين: «العجز عن الإدراك إدراك».

كما أنّنا في العقيدة الإسلاميّة نؤمن ونوقن بوعد ربنا تعالى لنا بعيش هذه التجربة الحسيّة بشكل أعمق في الجنة. فعن جرِير بن عبد الله، كنَّا عند النَّبي ﷺ إِذ نظر إِلى القمرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، فَقَالَ: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ، لَا تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ».[٢] وأحاديث رؤية المؤمنين لله تعالى مما أجمع عليه علماء الأمة قاطبة ونقل بالتواتر.[٣] وهي تدل على أن الله سبحانه سيكون في عالم الجنة مرئيًا محسوسًا لأهلها، يتلذذون بالنظر إلى وجهه الكريم، ويستمتعون بسماع كلامه العظيم. ولهذا قال الإمام ابن القيم: «أفضل نعيم الآخرة وأجله وأعلاه -على الإطلاق- هو النظر إلى وجه الرب جل جلاله، وسماع خطابه، كما في صحيح مسلم عن صهيب رضي الله عنه عن النبي ﷺ: إذا دخل أهل الجنة الجنة، نادى مناد: يا أهل الجنة، إن لكم عند الله موعدًا يريد أن يُنْجِزْكُمُوه، فيقولون: ما هو؟ ألم يبيّض وجوهنا؟ ويثقل موازيننا؟ ويدخلنا الجنة؟ ويجرنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فينظرون إليه، فما أعطاهم شيئًا أحب إليهم من النظر إليه».[٤]

---

(١) الأنعام: ١٠٣.

(٢) صحيح البخاري. (لا تضامون) أي لا تجدون زحامًا أثناء الرؤية، لأن الله عظيم، ولا تدركه أبصار العباد ولو نظروا إليهم كلهم جميعًا في نفس اللحظة.

(٣) نظم المتناثر من الحديث المتواتر. أبو عبد الله الكتاني ص٢٣٨.

(٤) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ج١ ص٧٩.

نحن نؤمن أن الإنسان لا يمكنه رؤية الخالق مباشرة في هذا العالم الفاني، كما نبّه الله تعالى عليه في قصة سيدنا موسى عليه السلام حين طلب النظر إليه: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.[١] أما في عالم الخلود، فهناك كما قلنا ستتم هذه الرؤية وهذه التجربة الحسيّة مباشرة وبشكل دائم إلى أبد الآبدين، عبر الحضور بين يدي الخالق، وسماع كلامه العظيم، والارتواء من جمال وجهه الكريم.

* * * *

(٨) تنوع الأدلة الإيمانية

ثم نقول: إذا كان الملحد قد حصر مصدر دليله في الحس التجريبي، فنحن أدلتنا متنوعة وثرية، يمتزج فيها النظر العقلي، بالفطرة الوجدانية، بالإجماع البشري، بدلالة الكون والحياة، بمعطيات الوحي. ولهذا نجد القرآن الكريم كثيرًا ما يستعرض مشاهد مختلفة في النفس والتاريخ والكون والحياة والتشريع، ثم يربط ذلك كله ببعض الأسماء والصفات، وفي ذلك دلالة ساطعة على كثافة الأدلة الإيمانية، ومقصد الوحي على تكثيف حضور الإله تبارك شأنه في مختلف المواقف والمشاهد والأحداث والنشاطات.

---

(١) الأعراف: ١٤٣.

فليت شعري ماذا عند الملحد؟ لا شيء، لا شيء!

نعم؛ يحاول الملحد أن يجد مخرجًا بادعاء عدم وجود الدليل الكافي! لكن؛ حتى في هذه الدعوى، فإنه لا ينتبه إلى سقوطه في خطأ منطقي كبير، إذ لنا أن نسأل: هل انتفاء الدليل دليل على انتفاء المدلول؟ بمعنى هل عدم وجود دليل على وجود الخالق عند الملحد ينفي فعلًا عدم وجود الخالق حقيقة؟ وبأي معيار تأكد الملحد من ذلك؟

إنّ وجود الله تعالى بعظمته وكماله وجلاله ثابت في الخارج، سواء أدركه العقل أم لم يدرك، وسواء شعرت به النفس أم لم تشعر، فله سبحانه الوجود أولًا وآخرًا، كما قال رسول الله ﷺ: «كان الله ولم يكن شيء قبله»، وفي رواية: «كان الله ولم يكن شيء غيره».[1]

إنّ إثبات فكرة وجود الإله، أي إثبات موجود متعالي ومتجاوز للإنسان والكون وفوق الزمان والمكان، وهو الذي خلق الكون والحياة، وفهم الصفات اللائقة به، بحكم أنّه إله مطلق الكمال في ذاته وصفاته، كل هذا يستطيع العقل بقواعده الفطريّة الوصول إليه والإيقان به. ودليله وجود هذه القدرة لدى الإنسان في كل زمان ومكان.

غير أنّ إدراك العقل للوجود الإلهي له مرتبتان:

(المرتبة الأولى: إدراك الوجود الإلهي وصفاته مجملًا) وهذا القدر المجمل مشترك بين البشر، لأن طبيعة العقل وقواعده تُحتّم ذلك.

---

(١) صحيح البخاري.

(المرتبة الثانيّة: إدراك الوجود الإلهي وصفاته مفصلًا) وهذا القدر التفصيلي لا يُدرك إلا عن طريق الوحي، فلا أحد أعلم بالله منه تعالى.

بيان ذلك: الإنسان عندما يقلّب النظر في ذاته الشخصية، ويطوف بين مسارح الحياة، ويرتاد آفاق الكون من حوله، ويكتشف -بما توفر لديه من آلات ووسائل- الكثير من أسرار البناء في أشياء وأشخاص الكون والعلاقات الرابطة بين العناصر المختلفة، لا جرم أنّه يصل إلى قناعة ضروريّة بأنّ هناك مُوجدًا لكل هذه الأشياء المشهودة والمتنوعة، فبداهة العقل السليم تؤكد أنه لا يوجد شيء بلا مُوجد.

هذا اليقين الضروري بوجود سبب أول ومصدر أعلى للكون والحياة، يتمثل في تلك الدهشة التي تملأ روعتُها الوجدانَ كلما خلا الإنسان بالطبيعة من حوله، كما يتجلّى في ذلك الشعور بالعجز عن صرف العقل والشعور عن التفكير في مضامين وأجوبة هذا المجهول الغامض في ثنايا الكون، بل الإحساس بأن ذلك العجز هو الذي يُضفي السمو على الكون والإنسان معًا، إذ العجز عن الإدراك إدراك.

مرة قال لوفج بيتهوف: «حين أفكر في نفسي وفي صلتي بالكون، فإنّ هذا التفكير هو الذي ينطوي عليه ما في الإنسان من قدسيّة».[1]

هذه الحقيقة ليست خاصة بإنسان دون إنسان أو بزمان دون زمان، بل هي ظاهرة وثيقة الصلة بالبشريّة خلال مسيرتها التاريخيّة الطويلة. يقول فيلسوف الحضارة «وِل ديورانت»: «لا يزال الاعتقاد القديم بأنّ الدين ظاهرة تعمُّ البشرَ

---

(١) أشهر الرسائل العالمية. محمد بدران ج٢ ص٢٢، بتصرف يسير.

جميعًـا، اعتقـادًا سـليمًا، وهـذه في رأي الفيلسـوف حقيقـة مـن الحقـائق التاريخيّـة والنفسيّة. فهو لا يكفيه أن يعلم عن الديانات كلها أنّها مليئة باللغو الباطل، لأنّه معنيٌّ قبل ذلك بالمشكلة في ذاتها، أعني العقيدة الدينيّة من حيث قِدَم ظهورها ودوام وجودها، فما أساس هذه التقوى التي لا يمحوها شيءٌ من صدر الإنسان؟!».(١)

ولأجل هذه المقدرة العقليّة ومكوناتها الفطريّة لدى كل إنسان، ما زال الله سبحانه يحتج على المخالف بالعقل ويأمر بالعودة إلى فطرة العقل لاستثارة دفائنه الإدراكيّة، ويحث على التأمل والتفكر وتقليب النظر العقلي في دلائل النبوة وبراهين التوحيد. حتى إن «تعقلون، يعقلون، يتفكرون» وردت عشرات المرات في سياقات مختلفة، وكلها تؤكد على ثقة القرآن الكريم بقدرة العقل على المعرفة والإدراك. كما قال الصحابي الجليل ابن مسعود ﵁: «إنما بُعثت الأنبياء لتثوير دفائن العقول».



(١) قصة الحضارة ج١ ص٩٩.



الانتقال إلى الإلحاد

(١) دلالات الانتقال إلى الإلحاد

لا ينتقل المرء من دائرة الإيمان إلى دائرة الإلحاد بشكل مفاجئ، فالانتقال الجذري المفاجئ مستحيل في طبيعة الأشياء كما هو مستحيل في طبيعة الإنسان، بل لابد أن يحدث الأمر بالتدرج وأن يأخذ مدة زمنية معينة، قد تطول وقد تقصر، كما أنها تتم في إطار عوامل مختلفة ومتشابكة تتراكم عبر الأيام والشهور، أي أن الأمر يبدأ بخطوة، ثم شيئًا بعد شيئ، وبدون وعي الشخص نفسه، إلى أنه يجد نفسه قد بلغ نقطة اللاعودة. يقول محمد الهبيلي: «أثر الإلحاد لا يظهر بشكل مفاجئ أو سريع، بل يتمركز في اللاوعي ويترسب لفترات طويلة، ثم يتحول إلى معاداة إلى الدين».(١) ولهذا «لن يكون في الناس ملحد إلا وفي طباعه أو أخلاقه أو حوادث دنياه جهة مريضة ينكسر عندها الرأي، ويُبتلى بها الحسُّ، فهي توجّهه وتُصرّفه منظورًا فيه إلى شعور بعينه».(٢)

من أجل ذلك يحرص المفسدون في الأرض على تغيير القناعات وتزييف الوعي عبر هذه الخطة، خطة التدرج، أي أنهم يراهنون على فاعلية الزمن في عملية التغيير، لأن ذلك يمنع من انتباه الفئة أو الفئات المقصودة ويقظتها. والحقيقة أن خطة التدرج والمراهنة على تأثيرها عبر الزمن، هي الخطة المحببة لإبليس لعنه الله، كما كشف الله سبحانه ذلك وحذر منه بقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ

(١) طلاسم نجسة: الإلحاد وإهانة الجنس البشري ص١٤.

(٢) المساكين. مصطفى صادق الرافعي ص٥٧.

عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾.[١] واستعراض الآيات التي تحدثت عن الانحرافات العقدية والسلوكية في تاريخ البشرية يكشف لنا بجلاء حضور الشيطان دائمًا، وأنه لم يكن يتوانى للحظة واحدة في استغلال كل شيء لإيقاع الإنسان في الإثم والفساد والكفر وصده عن الخير والإيمان والهدى!

فالملحد الذي كان مسلمًا لم ينتقل إلى الإلحاد إلا بعد مرحلة وسلسلة من التراكمات الذاتية كالجهل بالإسلام والسذاجة المعرفية، والخارجية كالإعلام وشيوع الشبهات، جعلت نفسه تميل إلى الانسلاخ عنه إلى الإلحاد ومهيأة للسقوط فيه. ولهذا لا يوجد ملحد يمكن أن يحدد اللحظة التي بدأ فيها ينجذب إلى الإلحاد، لأن الأمر يأتي شيئًا فشيئًا، حتى يبلغ حدًّا يكون فيه مهيّأ للسقوط مع أدنى شيء. وهذا المعنى ثابت في كل الانحرافات التي تحدث للإنسان وللمجتمعات، فـ «كل ضلال في البشرية كان بواسطة التدرج البطيء في الخطأ حتى ينقلب على صورة غير واردة في الذهن في البدء بالتحول».[٢] و«الشيطان قد لا يستطيع صد الإنسان عن الحق من أول مرة، فيستخدم بمكره خطواته الخادعة، ويبدأ معه بخطوة هي في ظاهرها سهلة، فإذا مشى معه الإنسان في هذه الخطوة الأولى، انتقل به إلى خطوة أخرى، وهكذا حتى يضله ويصده عن الحق».[٣]

إذن تحت ضغط عوامل مختلفة سبق البحث فيها، في فصل موجة الإلحاد المعاصر، وفصل موانع الاقتناع، ينطلق الملحد لإعلان التمرد والعناد على الإيمان،

---

(١) البقرة: ٢٠٨.

(٢) العقلية الليبرالية. عبد العزيز الطريفي ص١٦٣.

(٣) الأسباب التي تصد عن قبول الحق. نايف العتيبي ص٦٥.

والانتقال إلى الإلحاد، ولا يقبل أن يتوقف أحيانًا لمراجعة حساباته حول الربح والخسارة، في هذا القرار المصيري وهذا الانتقال الجوهري! بالنسبة إلى الملحد -وقد صار ملحدًا- فإنّ خيار الإلحاد لا يقبل النقاش، إذ هو نتاج العلم والعقل، ولا سلطة تعلو على سلطة العلم والعقل! رغم أن السؤال الذي يظل قائمًا هو: هل حقًا الانتقال إلى الإلحاد مرتبط بالعلم والعقل، كما يدعي الملحد ويتفاخر بذلك! سنرى ذلك خلال فقرات هذا الفصل.

غير أنني أقول: إنّ الإلحاد بما أنّه رؤية وجودية تلزم عنها لوازم على مستوى الفكر والشعور والسلوك، ينتقل إليها الملحد من الرؤية الإيمانية ولوازمها الفكرية والشعورية والسلوكية، إذن من المؤكد أنّ هذه العملية الانتقالية تحتوي على الكثير من الدلالات والمضامين الكامنة، لأنه لا يمكن أن يتبنّى الإنسان قناعة معينة أو قل رؤية وجودية معينة بدون أن تكون محتوية على بنود كامنة، تكون في الحقيقة المحرك والمؤطر والموجه، وتكون المرجعية ونقطة المركز لمختلف الأفكار الجزئية والسلوكيات التطبيقية.

نستطيع تلخيص دلالات الانتقال من الإيمان إلى الإلحاد في العناصر التالية:

أولًا: الرؤية الوجوديّة. انتقال الإنسان من الإيمان إلى الإلحاد هو انتقال «مما هو كائن» أي الإيمان إلى «ما يجب أن يكون» أي الإلحاد. هذا الانتقال يتضمن افتراضًا كامنًا يشير إلى «رؤية وجودية شاملة» مستوعبَة لدى هذا الإنسان المنتقل إلى الإلحاد. وفي إطارها وضمن شروطها قرّر القيام بهذا التمرد الجوهري وبهذه النقلة النوعية مما هو كائن أي الإيمان لتحقيق ما يجب أن يكون أي الإلحاد.

ثانيًا: القيمة الجوهريّة. الرؤية الكونية الشاملة التي قلنا بأنّها كامنة في عمليّة الانتقال، تتضمن أبعادًا قيمية، بمعنى أنها عمليّة تفترض بأنّ الإنسان قيمة جوهريّة ومقدسة، ومن ثم، فهذا الانتقال هو في واقع الأمر سعي من الملحد نحو تحقيق هذه القيمة وممارستها معرفيًّا ونفسيًّا وسلوكيًّا واجتماعيًا، انطلاقًا من الموقع الجديد أي الإلحاد «ما يجب أن يكون» بدل الموقع القديم أي الإيمان «ما هو كائن».

ثالثًا: نقل المقدس. لا يمكن للإنسان أن ينسلخ عن فكرة المقدس، رغم اختلاف الصور والأشكال التي تتجلى فيها. ولذا، فإن الانتقال من دائرة الإيمان إلى دائرة الإلحاد يعني أن الملحد يقوم بعملية نقل المقدس من رؤية يدعي أنها رؤية غير صالحة، إلى رؤية يدعي أنها رؤية صالحة، فهي عملية إزاحة وإبدال وإحلال. أي أنّ كل ما في الأمر هو أن الملحد سحب معنى المقدس عن إله الإسلام -أو إله دين مجتمعه كالنصرانية-، وأضفاه على إله الإلحاد (الهوى، العلم، الطبيعة، الدولة)![١]

رابعًا: الألوهية المتعالية. هذه العملية الانتقاليّة تعكس وعي الملحد وشعوره بعظمة الألوهية، ومن ثم فانتقاله احتجاج على ما يتوهمه أخطاء في عرض الدين لوجود الخالق،[٢] وما ارتبط به من قيم ومفاهيم ولوازم ومقتضيات. أي إن الملحد في

---

(١) يقول وليام كافانو: «لقد ترافق انتقال السلطة من الكنسية إلى الدولة مع هجرة المقدس من الكنيسة إلى الدولة أيضـًا». أسطورة العنف الديني ص٢٨٢.

(٢) نكرر هنا ما سبق التنبيه عليه، وهو أننا نعترف بأن العرض النصراني مثلاً للإله والدين بعد الانحرافات والتحريفات الكبيرة التي وقعت فيها الكنيسة، هو عرض يثير الكثير من التساؤلات، إذ كانت تلك المعطيات المعروضة تصادم العقل والفطرة والحياة. ولهذا، فكلامنا هنا خاص بالإسلام.

الحقيقة لا يحتج على مبدأ وجود الخالق في ذاته، بل يحتج على صفاته المعروضة عنه والصورة المطروحة له، ولذلك جعل أساس حججه في النفي وجود الشرور في الكون والحياة. ولا شك أن هذا كله إنّما يتعلّق بالصفات لا بالذات.

خامسًا: وجود الحقيقة. هذه العملية الانتقاليّة هي في واقع الأمر إقرار مسبق من الملحد بوجود الحقيقة، وأن هذه الحقيقة يمكن إدراكها واستيعابها، وأن الإنسان لديه القابلية للوصول إليها، بل هو بفطرته يبحث باستمرار عنها. ومن ثم؛ فرحلة الانتقال هي شك وقلق يحاول الملحد من خلالها التحرر منهما وبلوغ أفق اليقين. ولا شك أنّ الإحساس بالشك والتوتر ينبئ عن وجود اليقين ويشير إلى إمكان الطمأنينة، وأنهما أصيلان في تركيبة الإنسان، فلولا اليقين ما عُرف الشك ولا كانت له قيمة.

سادسًا: الذات الآفلة. من أهم دوافع الإنسان للانتقال من رؤية وجودية ومنظومة شمولية إلى رؤية ومنظومة وجودية أخرى، دافع الرغبة في الشعور بالذات وتحقيقها في الواقع العملي. ومن هنا، فالملحد يعتقد أن الدين الذي نشأ فيه وبين أهله يسلبه الشعور بذاته ويحرمه من تحقيقها عمليًّا. ولذلك فعندما انتقل إلى الإلحاد تراه حريصًا أشد الحرص على إطلاق القيود لذاته المكبوتة والمهدرة كما يتصور،(١) وعلى المستوى النظري تجده متحمّسًا للدعوة لقناعته الجديدة!

---

(١) نحن هنا لا ننفي وجود بيئات أسرية يتم فيها -جهلاً وغباء وتقليداً- سحق ذاتية الأبناء وإهدار شخصياتهم، ما ينتج عنه أحياناً خلق رغبة عارمة في نفوسهم للتمرد والتحدي. لكن، هذا الواقع الذي لا نوافق عليه، لا يمكن أن يحملنا -ويحمل الرجل العاقل- على تبرير الإلحاد!

سابعًا: إمكان التجاوز. لا يمكن أن يبرر الإنسان انتقاله من رؤية كونية إلى رؤية أخرى، إلا لأن لديه القدرة المسبقة على التجاوز والخروج من الإطار المطروح في الرؤية الأولى. وإذا كان هذا المعنى الكامن في عملية الانتقال مفهومًا ومبررًا حين يكون الانتقال من رؤية إيمانية إلى رؤية إيمانية من حيث المبدأ والأساس، فهو غير مفهوم ولا مبرر حين يكون الانتقال إلى رؤية مادية ترى الإنسان ليس أكثر من كومة أو حثالة مادية متطورة، وهو ذو بُعد واحد، هو البُعد المادي.

ثامنًا: المرجعية المعيارية. لا يمكن للإنسان أن ينتقل من دائرة رؤية وجودية إلى دائرة رؤية أخرى مناقضة لها، ما لم تكن لديه -استوعب ذلك أم لم يستوعبه- مرجعية معيارية، تقرر له الحسن والقبيح، والصواب والخطأ، والحقيقة والوهم. ولهذا بعد الانتقال إلى الإلحاد ترى الملحد حريصًا على محاكمة الدين إلى مرجعيته الجديدة، كما أن كثرة طرح الشبهات من طرف الملحد دلالة على كمون هذه المرجعية لديه وإقراره ضمنيًّا.

لا ريب أن نقرر هنا بأن الإلحاد في الحقيقة بحث عن المعنى والقيمة، بل لولا كمون البحث عن المعنى والقيمة في الإلحاد لما كان له أي جاذبية يمكن أن تثير المرء للانحراف إليه. ولهذا يقول الدكتور هيثم طلعت: «في مفارقة نادرة ومضحكة في آن، لن يستطيع الإنسان أن يُلحد إلا لو استقر في ذهنه خطأ الإلحاد مسبقًا، فلولا وجود القيمة والمعنى والهدف والغاية والذين افتقدهم الملحد في دينه لما ألحد!».(١)

أو لنقل لا يستطيع الإنسان أن يلحد إلا أن يؤمن بالقيمة والمعنى!

---

(١) الإلحاد يسمم كل شيء ص١٦.

وأنا أفسر كمون هذه المضامين، بالرغم من أنها تتنافى مع الرؤية الإلحادية وأسسها المادية للإنسان والوجود، في أن الملحد هو أولًا وآخرًا إنسان، ولا يمكن أبدًا أن ينسلخ عن طبيعته الإنسانيّة ولا يمكن أبدًا أن يتجاوز فطرته التي فطره الله تعالى عليها تجاوزًا نهائيًّا، وقد قلت سابقًا بأن الإنسان لا يولد ملحدًا بل يصير ملحدًا بسبب ظروف معينة. ولهذا أعتقد أن غفلة الملحد عن هذا الأمر هو أحد الحجب التي تحول بينه وبين مراجعة نفسه والتبصّر في قيمة قناعته الإلحادية!

* * * *

(٢) دوافع الانتقال إلى الإلحاد

الانتقال إلى الإلحاد -إذن- ليس كما يتصور الملحد، أي أنه مجرد تغيير قناعة عقدية بأخرى وينتهي الأمر،[١] بل هو يحتوي على الكثير من المضامين كما ذكرنا. ومن ثم لنا أن نتساءل عن سر تحمل الملحد -والحديث هنا متعلق أساسًا بالملحد العربي- لكلفة الانتقال إلى الإلحاد، المتمثّلة في إحساس الخوف الدائم من المجتمع والقانون! والمتمثّلة في ضغوط الصراع مع الأهل والعائلة! والمتمثّلة في الشعور بالغربة والكراهة والنبذ والاحتقار بين وسط جماهير خرافية وغير عقلانية بالنسبة له!

(١) هذا التعامل الساذج مع الإلحاد إنما هو سمة الجمهور والأتباع الملحدين، أما الزعماء والقادة فهم يدركون جيّداً لوازم الإلحاد ومآلاته. والحقيقة أنهم في تصريحاتهم يكشفون بوضوح هذا الإدراك بل ولا يخجلون منه أحيانـًا. أما الأتباع والعوام فهم كما قلنا يعتقدون أن القضية تنتهي عند نفي الإله، ولذلك تراهم يلهجون بأنهم وجدوا في الإلحاد الإنسانية والرحمة والتسامح والحرية والحقيقة!

إن تحمل هذه الكلفة الباهظة يؤكد تلك المضامين والدلالات الكامنة التي أشرت إليها آنفًا في عملية الانتقال، خصوصًا وأنّ هذه العملية تقع في تناقض صارخ مع الأسس الإلحاديّة! فمثلًا كيف يمكن للملحد الذي يؤمن بنسبية الحقيقة أن يتحقق من صحة هذا الانتقال وصوابه؟ فالقول بنسبية الحقيقة يعني استحالة معرفة الصحة والصواب والحق والباطل، لأنّ كل شيء ممكن ومحتمل! وكيف يمكن لعقل مادي متطور -كما يؤمن الملحد- أن يُنتج رؤية وجودية، مركبة وشاملة؟ إذ ما الضامن لثبات ما يراه العقل اليوم حقًا (الإلحاد في حالة الملحد) أن يظل كذلك مستقبلًا! وكيف يمكن للملحد -في ظل أسس الإلحاد- أن يُضفي القيمة والمعنى على قرار الإلحاد وسحبهما عن الإيمان؟ والأصل أن إضفاء المعنى والقيمة يقتضي وجود مرجعية متجاوزة غير مادية!

وكيف يمكن للملحد أن يبرر هذا الانتقال مع توكيده على نفي الحرية والإرادة؟ فإذا لم تكن هناك إرادة ولا حرية اختيار، فلماذا يبذل الملاحدة كل هذه الجهود والأوقات والأموال لـ «تلحيد» البشرية وإخراجها من الإيمان؟! أليس الانتقال من الإيمان إلى الإلحاد -والذي من المفترض أنه انتقال واع ناتج عن قرار حر واختيار شخصي محض- يؤكد على مبدأ الإرادة وحرية الاختيار، ومن ثم يدحض مذهب الإلحاد المعاصر في نفي الإرادة؟ وإلا ليت شعري، أنّى يمكن استيعاب فكرة حرية قرار الانتقال إلى الإلحاد وأنه قرار عقلاني وحضاري، وفي الوقت نفسه لا مكان للإرادة والحرية؟ من المؤكد أن الملحد يحتاج لمجهود ضخم جدًا لتفسير هذا التناقض الصارخ!

إنّ الحرية بما أنّها معنى وقيمة مقدسة عند الملحد -وهي كذلك عند كل إنسان- فذلك يعني أنّه لا علاقة لها بالماديّة التي يعتقدها الملحد! ذلك لأنّ بحث الملحد عن الحريّة وحرصه عليها وتمرّده على فكرة الإله بسببها، ينطلق من افتراض أنّه -بحكم أنّه إنسان- كيان مختلف، مستقل، ومتميّز عن الإطار المادي والطبيعي من حوله! فهذا الإحساس بالتميّز والاختلاف وبالتفرد والاستقلال عن الطبيعة وماديّتها هو الدعم الإدراكي والوجداني الذي يستند إليه الملحد في بحثه عن الحريّة، فلولا هذا الإدراك والإحساس لما كان للبحث عن الحريّة معنى. يقول جلال الدين سعيد في هذا المعنى: «إنّ تحديد كيان الإنسان بوصفه كيانًا حرًّا يفضي بالضرورة إلى انتزاعه من الطبيعة، على حين أنّ تحديد نسبته إلى الطبيعة يفضي إلى انتزاع الحريّة منه».[١]

وكيف يمكن للملحد أن يبرر طموحه إلى حياة أفضل في ظل الإلحاد -والمفروض أن هذا هو السبب الظاهر في انتقاله من الإيمان وخروجه من دائرته!- مع إيمانه بحتمية القوانين المادية؟ إذ إن هذه الحتمية الصارمة تفرض ابتداء استحالة التفكير في عالم أفضل، فضلًا عن محاولة السعي لتحقيقه! فلما خرج الملحد من الإيمان إلى الإلحاد، بدافع الرغبة في حياة أفضل، كان ذلك أمارة على انتفاء الحتمية التي يتكلم عنها! وانتفاء المادية التي ينادي بها! وكيف يمكن للملحد أن يبرر «جهاده المقدس» في سبيل الإلحاد مع إيمانه بأن الحياة عبث سخيف وأن الموت فناء أبدي؟ إذ إن هذا الجهاد الإلحادي المقدس والذي يتمثل في بذل الجهود والأموال

---

(١) معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية ص١٥٦.

والتضحية بالمتع واللذات والراحة، لن تكون له قيمة في عالم مادي، عالم ميكانيكي، عالم لا قداسة فيه ولا فضيلة ولا إرادة، ومن ثم لن تكون له قيمة ما لم يعترف بقدسية الحياة وقيمة الإنسان ورسوخ المعنى في العالم!

وما من شك في أنّ مثل هذه الأسئلة سيجد ملحد صعوبة بالغة في أن يقدم لها أجوبة تملك مقدرة حسنة على التفسير والإقناع، ولذلك حين تُطرح على كهنة معبد الإلحاد لا يجدون سوى القفز إلى مسائل أخرى أو إلقاء موعظة إلحادية باردة حول وحشية الأديان مثلًا، أو حول فردوس الإلحاد المنشود! فلو أخذنا ريتشارد دوكنز في إحدى مناظراته التي جرت بأستراليا عام ٢٠١٢، نجده مثالًا صارخًا لهذا المعنى، فقد سئل من قبل بعض الحضور: هل يمكن للملحد أن يكون داعية للسلام، ومسؤولًا اجتماعيًا يُعوّل عليه؟، فكان جوابه «حسنًا، من الواضح أن الجواب لهذا السؤال هو نعم»،[١] ثم قفز إلى الطعن في الأديان وكتبها المقدسة، وأن المسيحية جاءت بأفكار فظيعة، وأن أفضل القيم الإنسانيّة لا تمت بصلة إليها! نحن نقر بأن بعض هذا الكلام صحيح، لكن، مغالطة دوكنز هو أنه بكل صراحة هرب من جوهر السؤال، واكتفى بجواب مرسل بدون أدنى تعليل أو تبرير!

يقول هادي المدرّسي: «غالبًا ما تأخذ عند الملحدين من الوقت في المناقشة أكثر من المحور الأساس، لأنهم يريدون أن يضيّعوا عليك الحقيقة، ومن خلال أمثلة وادعاءات باطلة يريدون أن يزرعوا الشك في قلوب الناس».[٢] ولقد أشار أيضًا إلى

(١) حوارات سيدني ص١٨.

(٢) حوار ساخن عن الإلحاد ص١٣٧.

هذه الحقيقة أنتوني فلو -زعيم الملاحدة سابقًا قبل انقلابه عليهم- فقال: «أساس الإلحاد الجديد يقوم على الاعتقاد بعدم وجود إله، لا وجود لإله خالد لا متناه مصدر لكل الموجودات. هذا الاعتقاد الأساس يحتاج إلى تأسيس حتى تصح بقية الحجج. أدّعي هنا أن الملحدين الجدد من أمثال ريتشارد دوكنيز، دانيال دينيت، لويس ولبرت، وسام هاريس، وفيكتور ستينجر، لم يفشلوا فقط في تقديم سبب لهذا الاعتقاد، بل إنّهم تجاهلوا الظواهر الواضحة المتعلقة تحديدًا بالسؤال عما إذا كان الإله موجودًا».[(١)] ولهذا صرّح بول فيتز -عالم نفس أمريكي قضى عشرين عامًا في الإلحاد- معترفًا بأنّ «الأساس الفكري لإلحادي -مثل الكثيرين غيري- يظهر بعد إعادة النظر أنّه أكثر ضحالة من المنطق الموضوعي».[(٢)] بل هذا ريتشارد دوكنز، المتناقض بلا خجل، في كلامه وقناعته، يقول بوضوح وصراحة تحسب له، وقد سئل في مناظرة له بأستراليا: «ما البرهان الذي سيجعلك تغير رأيك؟»، فكان رده: «إن هذا سؤال صعب جدًّا، ومهم جدًّا في الوقت نفسه».[(٣)]

هذه المفاجأة المدوية تعني أنّ الملحد انتقل من الإيمان إلى الإلحاد لا عن أدلة صحيحة واضحة ويقينية، ولا عن بحث وجِدٍّ واجتهاد لتأسيس القناعة الجديدة على أصول قوية ومتماسكة، بل إن هذا الانتقال نتج عن أدلة ظنية في أحسن الأحوال، وعن تقليد أعمى فقط، وتحت ظروف نفسية فقط! فكما أشرنا آنفًا، فالعقل

---

(١) هناك إله ص٢٢٧.

(٢) نفسية الإلحاد. بول فيتز ص٢٢٣.

(٣) حوارات سيدني ص٢٧.

بما هو نشاط مادي في التصور الإلحادي لا يمكن أن ينتج اليقين، بل أقصى مخرجاته لا تعدو أن تكون ظنونًا مرسلة! وكذلك إذا أخذنا الفيزياء مثلًا، فهي علم ظني الدلالة في مجمله، وأمارة ذلك هي كثرة النظريات والتغيير المستمر فيها أو حتى تجاوزها، كما يقول آلان شالمرز: «لا يوجد أي منهج استطاع إقامة الدليل على أن النظريات العلمية صادقة أو حتى محتملة الصدق».(١) وشبيه بهذا، ما قاله ابن الهيثم قديمًا: «تخيّلنا أوضاعًا ملائمة للحركات السماوية، ولو تخيّلنا أوضاعًا أخرى ملائمة أيضًا لتلك الحركات لما كان منعه مانعٌ، لأنه لم يقم البرهان على أنه لا يمكن سوى تلك الأوضاع أكثر مناسبة لهذا الحركات».(٢)

بالإضافة إلى أن جمهور الملاحدة ليسوا أهلًا لا للنظر العقلي ولا هم من أهل العلم الفيزيائي والتجريبي، بل فقط تلقوا كلامًا من أناس اشتهروا بأنهم علماء، فقالوا لهم كلامًا فصدقوهم! فاعجب -ما شئت أن تعجب- لهؤلاء القوم الذين أقصى ما لديهم وأساس مذهبهم ظنون عائمة وأوهام شاردة! وهذا ما قرره الحق تبارك وتعالى عن سلفهم، فقال: ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾.(٣) وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾.(٤) فهي معتقدان

(١) نظريات العلم ص١٢.

(٢) تاريخ الحكماء: نزهة الأرواح وروضة الأفراح/ شمس الدين الشهرزوري ص٣١٢.

(٣) الجاثية: ٢٤.

(٤) يونس: ٦٦.

وقناعات لا تستند إلى علم صحيح، ولا يقوم بها برهان صريح، بل أكاذيب منتفخة، وزيوف خادعة، وهكذا هو حال كل المبتدعة والمشركين والملاحدة، ذلك لأن الكون والحياة والفطرة والعقل، كل أولئك بُني على الحق، والحق لابد أن يكون ساطعًا وصادقًا وعليه الكثير جدًّا من الأدلة والبراهين، وحين ينحرف العبد عن هذا الحق المغروس في فطرته وعقله وفي الكون والحياة، لا يجد سوى الزيف والكذب والدعوى!

ثم ها هنا إشارة أخرى، وهي أنّ الملحد حين يقول (أبحث عن الحقيقة) أو يرفع شعار (البحث عن الحقيقة)، حينها يكون قد أعلن الدخول إلى عالم الفلسفة، إلى عالم المعنى والقيمة والغاية! إلى عالم التركيب والثنائيات! كما أنّه شعار يتضمن إحساس الضياع والقلق الوجودي، واللهاث وراء شيء غامض ومبهم! الإشكال هنا هو هل يستطيع عقل مادي متطور أن يدخل إلى هذه العوالم؟ وعلى أي أساس؟ وبأية منطلقات؟ وبأية معايير وأصول؟ ثم فوق ذلك كيف يمكن الثقة بهذا العقل المتطور؟ كيف يمكن اليقين في أطروحاته ونتائجه ومخرجاته؟ وكيف معيار مثل هذا العقل للقول بأنه وصل إلى الحقيقة أو قاربها أو لا يزال بعيدًا عنها؟ ثم الأهم من كل هذا، ما هي الحقيقة التي يبحث عنها الملحد؟ وكيف أمكن لعقل مادي متطور أن يفكر أساسًا في الحقيقة؟ وكيف أمكنه أن يفترض وجود شيء اسمه الحقيقة؟ ولماذا أصلًا يبحث عن الحقيقة؟ وغير هذا من الأسئلة التي كل سؤال منها كفيل بهدم صرح وهم الإلحاد!

ولهذا أقول: لا يوجد شيء مما يجعله الملحد سببًا لفراره من الإله والإيمان والدين، إلا كان ما يقع فيه في الإلحاد أضعاف ذلك مضاعفة! وهذا من عجائب عقوبات الله سبحانه الخفية! بل هي سنة من سنن الله تبارك وتعالى فيمن ترك الوحي واتّبع الهوى، وفي من رفض الاقتداء بالأنبياء والعلماء الربانيين واقتدى بالمنحرفين والمتشككين والكافرين، فإن الله سبحانه يسلط عليه شيطانًا مريدًا يزيّن له الباطل، ويزخرف له الوهم، ويضخم فيه صورة فلان وفلان من الملاحدة والمفسدين للفكر والإيمان، فلا يزال يدفعه من ضلال إلى ضلال، ومن وهم إلى وهم، ولا يزال يفتح عليه شقاء بعد شقاء، كل ذلك وهو يظن بنفسه الذكاء والعقلانية، ويتوهم في نفسه الحرية والبراءة من الخرافة والتقليد! كما لخصت هذه الآية قصة هؤلاء: ﴿وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ وَإِنَّهُمۡ لَيَصُدُّونَهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ﴾.[١]

لقد زعم الملحد أن الإله الخالق وهم فسقط في وهم أعظم وهو القول بالصدفة والأزلية والخلق الذاتي! وزعم أن الإيمان خرافة فسقط في خرافات أعظم منها وهي القول بالتطور والأكوان المتعددة وغير ذلك! وزعم أن الدين يسلب الحرية والعقل فسقط في عبودية مقيتة حين نفى الإرادة وإمكانية الإدراك! وهذا من جنس ما يقع فيه أتباع الأنبياء حين يبتدعون، فلما كان الوحي الذي يأتي به النبي متضمنًا لأعظم المعارف وأصدق المعلومات وأقوم الطرق، في العقيدة والفكر، وفي السلوك والعمل، وفي التنظيم والتشريع، فيأتي المبتدعة من أتباع الوحي ويبتدعون من

---

(١) الزخرف: ٣٦-٣٧.

قبل أهوائهم وأوهامهم حسب أصول يؤصلونها وقواعد يؤسسونها وشعارات يرفعونها، فإن ما يقعون فيه من الاضطراب والالتباس والحيرة والانحراف والظلمات والباطل، كثير جدًّا حسب بدعهم!

❊ ❊ ❊ ❊

(٣) البحث عن الفردوس المنشود

وهنا مسألة في غاية الأهمية تمتُّ بصلة وثيقة لسياق كلامنا عن أسباب انتقال الملحد إلى الإلحاد، وقد أشرت إلى أصلها خلال الفقرات السابقة وهي طموح الملحد للفردوس مستقبلًا وأنه لن يتحقق إلا بالإلحاد وفي الإلحاد. والحقيقة أن من مقدسات الملحد المعاصر وأفكاره المركزية، فكرة أن المستقبل للإلحاد! فلستَ تجد ملحدًا من الزعماء أو الأتباع، إلا وتجد لديه يقينًا جازمًا وعقيدة راسخة وقناعة لا جدال فيها بأن المستقبل الزاهر سيكون بالإلحاد وللإلحاد! فالملحد يؤمن إيمانًا نهائيًّا بأن العلم سيكتشف كل شيء، وأن الفردوس المنشود والمدينة الفاضلة سيتحققان بالإلحاد وفي الإلحاد، بعد أن حُرمت البشرية منهما مئات القرون بسبب خرافات الإيمان والأديان!

وبالتوازي مع هذا الجزم واليقين والثقة المطلقة لدى الملحدين، هناك الفكرة اللازمة، وهي أن الدين والإيمان لا مستقبل لهما في سيرورة التاريخ وخط الزمن، لأن البشرية ستبلغ طورًا تتمكن خلاله من التحرر نهائيًّا من الدين، بعد أن يتم الكشف الكامل عن الأوهام والخرافات اللذين رسخهما الدين والإيمان في البشرية خلال

تاريخها الطويل، وبعد أن يستطيع العلم تحقيق الفردوس الجميل وكشف الحقيقة الغائبة!

في عام ١٩٢٧؛ كتب سيغموند فرويد -مؤسس مدرسة التحليل النفسي- يُبشر بنهاية الدين وألاّ مستقبل له في سيرورة التاريخ وتطور الحضارة، فقال: «يمكننا أن نتوقع أن يتم العزوف عن الدين عبر سيرورة النمو المحتومة التي لا راد لها، كما يمكننا أن نحدس بأننا نمر في الساعة الراهنة بهذا المرحلة من التطور على وجه التحديد».[١] ويصرح بيرتراند رسل بنفس البشارة: «من المحتمل أن الجنس البشري على عتبة عصر ذهبي، وإذا كان الأمر كذلك من الضروري أولًا أن نذبح التنين الذي يحرس الباب، ألا وهو الدين».[٢] لماذا؟ يجيب رسل قائلًا: «إنني على قناعة تامة بأن الأديان مؤذية بقدر ما هي غير صحيحة».[٣] ولهذا -كما يقول فرويد- «ما من شيء يستطيع على المدى الطويل أن يقاوم العقل والتجربة، وتناقض الدين مع كليهما أمر لا يحتاج إلى بيان، وليس في مستطاع حتى الأفكار الدينية المطهرة والمصفاة أن تفلت من هذا المصير».[٤]

النتيجة الحتمية لذلك، هي هذا التحذير المدوي والصارخ الذي أطلقه فرويد لأتباع الدين من مغبة التمسك بالدين لأن ذلك سيجعلهم موضع نبذ واحتقار، يقول:

---

(١) مستقبل وهم ص٦٠.

(٢) لماذا لست مسيحيًا ص٦١.

(٣) لماذا لست مسيحيًا ص١٢.

(٤) مستقبل وهم ص٧٤.

«مؤكد أنكم لو اقتصرتم على تأكيد وجود كائن أعلى لا سبيل إلى تحديد صفاته ولا إلى معرفة مقاصده، لوضعتم أنفسكم خارج منال اعتراضات العلم، لكنكم لن تعودوا في هذه الحال موضع اهتمام من قبل البشر».[1]

ألا يذكرك هذا الغرور المتنفخ وهذه الدوغمائية المتصلّبة بمحاكم التفتيش التي مارستها الكنيسة خلال القرون السوداء: إما أن تتبنّى قناعتي وإما فالويل ينتظرك! ألا يذكرك هذا بمحاكم التفتيش التي تمارسها العلمانية اليوم، إما العلمانية وإما التخلف والفقر! أليس كل هذا عين الإرهاب الفكري يمارسه الملاحدة بمختلف ألوانهم ضد المؤمنين! وعلى كل حال، أعتقد أن لنا كل الحق في التساؤل عمَن أعطى لفرويد ورسل وأمثالهما سلطة التكلم بلسان البشرية! لا أحد، ولكنها العنجهية المقتية والغطرسة المتكبرة!

والواقع أن فكرة الفردوس المنشود والمستقبل الزاهر أو لنقل اليوتوبيا، ليست من إبداعات الملحد المعاصر، بل إن فكرة الفردوس الأرضي أو اليوتوبيا المثالية، فكرة راسخة في التاريخ الإنساني. فمنذ أقدم العصور السحيقة، ما فتئ كثير من الأباطرة والملوك والفلاسفة والمصلحين يحلمون بالفردوس أو المستقبل الأفضل أو اليوتوبيا، يرسمون إطارها ويحددون معاييرها ويضبطون قواعدها ويعينون نشاطاتها، ويعمل من يستطيع منهم على تحقيق ذلك واقعًا، ومن عجز اكتفى بالكتابة والتأليف والتبشير والترويج!

---

(١) مستقبل وهم. سيغموند فرويد ص٦٠ و ٧٤. ينبغي التنبيه إلى أن فرويد يفكر في الدين داخل إطار اليهودية والمسيحية المحرفتين، وهكذا هم الملاحدة دائمًا، يعتبرون الأديان رغم كثرتها واختلافها، شيئًا واحداً، وهذه خيانة للحقيقة!

علـى أني أحـب أن أشـير إلـى أن اليوتوبيـا ليسـت فكـرة مرتبطـة بالفلاسـفة والمصلحين كما هو شائع، بل هي نزعة أصيلة في النفس البشرية، فكل إنسـان، بغـض النظر عن مستوى علمه وذكائه، وبغض النظر عن زمانه ومكانه، ينزع نحو اليوتوبيا أو المستقبل المشرق، يحلم به ويحاول تحقيقه واقعًا ملموسًـا. وهـذا يتجلى في أن كـل فرد يحلم بمستقبل زاهر وحياة أفضـل ورفـاه مستمر، يحلـم بواقـع يستجيب لإرادتـه ويلبي طموحاته وتتحقق فيه رغباته.

يقول عبد الوهاب المسيري: «الحلم بالفردوس، ذروة كل الأحـلام، هـو أيضًـا لحظة الكشف الكامل، فـالفردوس هـو نقطـة «النجـاح» التـي يتحقـق فيهـا كـل شـيء، وننجز فيهـا ذواتنـا الحقيقيـة كمـا نتخيلهـا، متحـررة مـن كـل ضـغوط اجتماعيـة وقهـر تاريخي».[١] وتقـول ماريـا برنيـري: «تمثـل اليوتوبيـا حلـم الجنس البشـري بالسـعادة، واشتياقه الخفي للعصر الذهبي، أو لجنته المفقودة كما تصور البعض».[٢]

أو لنقل، المستقبل الزاهـر أو اليوتوبيـا تمثـل للإنسـان تجلـي المطلـق: السـعادة المطلقة، الحرية المطلقة، الرفـاه المطلـق. ولـذا، فـإن الإنسـان في قمـة واقعيتـه يعـيش مثاليته الحالمة! إن حلم الفردوس أو اليوتوبيا نزعة أصيلة في الـنفس البشـرية، ولأنهـا كذلك، فإنه لا يمكـن تجاوزهـا والانسـلاخ عنهـا. ومـا مـن شـك في أن التـبرم بـالواقع والتطلـع لمسـتقبل أفضـل ميـزة إنسـانية خالصـة دون سـائر الكائنـات، فالإنسـان هـو الكائن الوحيد الذي لا يفتأ يحلم بمستقبل أفضل كما ينبغي أن يكون متجـاوزًا واقعـه

---

(١) الفردوس الأرضي ص٩٥.

(٢) المدينة الفاضلة عبر التاريخ ص١٦.

الراهن كما هو كائن، لأن في الإنسان نزوعًا شديدًا نحو الكمال والمطلق، وقد قال جان جاك روسو في هذا المعنى وتنيهًا على هذه الحقيقة: «أيها الإنسان، إن شيئًا في ذاتك يروم الانفلات من القيود التي تكبّلك».[١]

وإذا كانت جماهير الملحدين صورتهم حول الفردوس المستقبلي المنتظر، تنحصر في اختفاء الأديان، وعلو سلطان العلم التجريبي، وشيوع الرفاه المادي، وانبساط الحريات الشخصية، وعموم السلام والمحبة بين الأفراد. أما مناقشة كل هذه العناصر في إطار الأسس التي يقوم عليها الإلحاد وتشكل القناعة الإلحادية، فذلك شيء لا يعرفونه ولا يرغبون في التوقف عنده، وهو أمارة واضحة على تضخم الأهواء فيهم، وسيطرة الخيال الجانح عليهم!

إذا كان الأمر هكذا، فنحن نسأل: لماذا يتبنى الملحد فكرة أن المستقبل للإلحاد؟ ولماذا يروج لفكرة أن الفردوس المنشود والمجتمع النموذجي لن يكون إلا بالإلحاد؟ أعتقد أننا لا نحتاج لكثير تأمل لندرك أن الأمر يرجع إلى التالي:

أولًا.. فكرة عالم مثالي، يتسم بالكمال والسعادة والرفاه، بلا حدود ولا قيود، هي -كما سبقت الإشارة- نزعة أصيلة في النفس البشرية. فلا يوجد إنسان يستطيع أن يلغي التفكير في مستقبل أفضل وأجمل، بل إن خطط كل إنسان وأحلامه وسعيه له ارتباط وثيق جدًا بالمستقبل المنتظر والواقع المنشود، حتى إنه يمكن القول بأن الإنسان بطبعه كائن مستقبلي، كما أنه بطبعه كائن فردوسي، أي إنه يتواجد -تفكيرًا وتخطيطًا وأحلامًا- باستمرار في المستقبل، ناشدًا ومتمنيًا أن يكون مستقبلًا زاهرًا

(١) دين الفطرة. جان جاك روسو ص٥٤.

وجميلًا ورائعًا. ولذلك كان من أهم محركات الإنسان، مبدأ اللذة والألم، أو قل المصلحة والمفسدة، أو قل المنفعة والمضرة، فالإنسان بفطرته يحرص على جلب اللذة، والمصلحة، والمنفعة وتكثيرها، ودرء الألم، والمفسدة، والمضرة وتقليلها.

ثانيًا.. الملحد لا يملك الخيار حول هذه القناعة والعقيدة تجاه المستقبل وحلم الفردوس وفكرة اليوتوبيا الحالمة، فهو مرغم على تبنّيها والتبشير بها والدعاية لها، ليكون لإلحاده معنى وقيمة، إذ بدون تلك القناعة وبدون هذا الجزم واليقين حول المستقبل وأنه سيكون للإلحاد، وأنه بالإلحاد فقط يمكن تحقيق المدينة الفاضلة واقعًا ملموسًا، لا شك أن صرح قناعته الإلحادية سيهتز ويضطرب، لأنّه سبق أن جعل من أهم أسباب انتقاله إلى الإلحاد وهروبه من الدين ونفوره من الإله، أن الإلحاد سيوفر له ما عجزت عنه عقيدة الإله، وأن الإيمان يعمل على تخدير طموحاته وآماله، ولهذا ففي الإلحاد وبالإلحاد فقط يمكن كسر القيود والفوز بالحرية والسعادة والرفاه.

وبعد هذا، أحب أن أشير إلى بعض أهم لوازم هذه الفكرة والأيديولوجية الإلحادية، ومدى توافقها وانسجامها مع البنود الكبرى للقناعة الإلحادية. وإنما رغبت في هذا التقديم، لأنّ الظاهر أن الملاحدة -أو على الأقل جمهورهم- لا يدركون هذه اللوازم، ومن ثم لا يجدون أدنى حرج ولا أي تناقض في رفع شعار (المستقبل للإلحاد)، والترويج له بقوة والتبشير به بحماسة، مع الحالة الشاعرية التي تملأ عليهم أقطار نفوسهم، لأنهم مستقبلًا سيكون بإمكانهم بلوغ درجة كمال الإلحاد! هذه اللوازم هي باختصار:

اللازم الأول: سيرورة التاريخ إلى الأفضل، وهذا الأفضل هو الإلحاد.

الملحد -وفق هذا اللازم- يتعامل مع التاريخ على أساس أنه حتمي المسار، وهذه الحتمية تعني الخضوع لقوانين فوقية قاهرة. ومن ثم، فالتاريخ يسير في اتجاه واحد وإلى نهاية محددة، نحو الأمام والتقدم والأفضل. كما أن هذه النهاية محتّم أن تكون الفردوس الإلحادي المنتظر! وهنا أعتقد أن الملحد يواجه أسئلة حرجة، منها: إذا كان التاريخ فعلًا لا يملك سوى السيرورة نحو الأفضل والأكمل، فلماذا كان الأمر كذلك وليس العكس؟ وإذا كان الإلحاد هو نهاية التاريخ فعلًا، فما موجب ذلك، وبأي معيار يمكن الحكم على صوابية هذا القول؟ لكن، أليس واقع تاريخ البشرية الطويل يكذّب هذه الدعوى الذاهبة إلى أن التاريخ يسير نحو الأفضل، وأن هذا الأفضل لابد أن يكون للإلحاد؟ فهذا التاريخ منذ كانت البشرية ما زال يتراوح بين صعود وهبوط، وبين تقدم وتأخر، فحركته متذبذبة وعلى شكل موجات، إذ هناك عوامل للصعود والارتقاء وهناك عوامل للسقوط والاضمحلال، وقد وجدنا حضارات عظيمة جدًّا، بلغت شأوًا بعيدًا في المدنية والتقدم المادي وطال زمانها حتى ظن أهلها أنهم بلغوا نهاية التاريخ، ثم أدركتها عوامل الضعف والتفكك، ثم السقوط والفناء، فصارت فصلًا يُقرأ في كتاب التاريخ، وما حدث قديمًا لابد أن يحدث حاضرًا ومستقبلًا، إذ طبيعة الإنسان الذي يصنع الحضارة ثابتة في كل زمان ومكان، والسنن التي تحكم التاريخ واحدة، فكان لزامًا أن ما أدرك الإنسان في الماضي، سيدركه مستقبلًا لا محالة مهما طال عمر البشرية.

اللازم الثاني: الكون والإنسان معطيات قابلة للفهم والاستيعاب.

الملحد -وفق هذا اللازم- لابد أن يتعامل مع الكون والإنسان بمنطق المعطى القابل للفهم والاستيعاب، والدراسة والبحث، واستخلاص النتائج وتكوين الحقائق. ولا شك أن هذا يعني بالضرورة أن هناك قوانين عامة وسننًا كلية تحكم طبيعة الكون والإنسان، بحيث تكون ثابتة وصارمة ومطلقة، في كل زمان ومكان، ولا يمكن أن يتجاوزها الكون والإنسان، إذ لو أمكن ذلك، لكان يعني امتناع تحقيق الفهم والاستيعاب لهما، والنتيجة الضرورية لذلك هي استحالة تقرير مصير الكون والإنسان ليس فقط بعد مئات السنين بل بعد سنوات معدودة بل بعد أيام قليلة، ذلك لأنه بدون ثبات في القوانين الضابطة لطبيعة الكون والإنسان يكون الأمر فيهما مفتوحًا على كل الاحتمالات. ومن الواضح أن ذلك يمنع إمكان استشراف المستقبل ومعرفة الملامح العامة لصيرورة الكون والإنسان والمجتمعات. لكن، أليس من أيقونات القول الإلحادي اليوم، القول بأن الكون فوضوي وعشوائي، لا نظام فيه ولا إتقان! وأن الإنسان عبارة عن وسخ مادي متطور، لا يختلف عن أدنى الحشرات إلا في رتبة التطور والارتقاء! فكيف إذن يمكن أن يستقيم هذا مع المعنى الكامن في القول بأن المستقبل للإلحاد، وأن المصير الحتمي الذي ينتظر الإنسان والحضارة البشرية هو الإلحاد!

اللازم الثالث: الحياة قيمة مقدسة ينبغي الاحتفاء بها والحرص عليها.

الملحد -وفق هذا اللازم- ينظر للحياة على أنها قيمة مقدسة ومعنى نبيل وغاية مجيدة. ولأنها كذلك لابد من الاحتفاء بها وتطويرها وتزيينها، ولابد من العمل

على الارتقاء بها ليعيشها الإنسان في مستوى الكرامة والسعادة والإخاء والرخاء. ولهذا فإن البشرية تتجه نحو الإلحاد، لأنه الوحيد القادر على تحقيق ذلك، عكس الأديان التي أغرقت الإنسان خلال تاريخه الطويل في ظلمات الخرافات والأباطيل والزيوف، وزرعت فيه الحقد والكراهة والعنف ضد أخيه الإنسان، فلم تتطور الحياة جرّاء ذلك! لكن، وبالإضافة إلى أن التاريخ يؤكد على أن تطور الحضارات نبع من عقيدة الإله ومعطيات الدين، عندما نراجع بنود الإلحاد نجد من ضمنها بندًا كبيرًا يقول بأن الحياة مسرحية عبثية، وإنما هي أرحام تدفع وأرض تبلع، وأن البقاء للأقوى والاستمرار للقادر على المواجهة والتكيف، وأن أعظم خطأ كوني هو وجود الإنسان، وأكبر خطيئة يقترفها الإنسان هو إنجاب مزيد من الأفراد، وبسبب هذه العبثية السخيفة، والأدوار الهزلية، وهذه القساوة المرعبة، لا يوجد معنى ولا قداسة ولا غاية، لا يوجد نبل ولا فضيلة ولا سلام، لأن الكل مصيره العدم مهما طال عمر هذا العبث والألم! ومن هنا، يحق لنا أن نتساءل عن مدى انسجام هذا اللازم للقول بأن المستقبل للإلحاد وأن البشرية ينتظرها الفردوس الإلحادي الجميل، مع هذا البند الصارخ في العقيدة الإلحادية!

اللازم الرابع: الصورة القبلية عند الملحد للمستقبل المنتظر.

الملحد -وفق هذا اللازم- لا ينفك عن تبني صورة مشرقة للمستقبل المنتظر. صورة تشمل كيف ستكون الحياة الفردية والاجتماعية، بمختلف علاقاتها نشاطاتها، إلا أنها كما قلنا ستكون حياة حافلة بالسعادة والحرية واللذات، موسومة بالسلام والإخاء والرفاه. في صورة تؤكد على اختفاء الخرافات والأباطيل التي طالما روّجت

لهـا الأديـان وغرسـتها في النفـوس والعقـول، فجعلـت الأفـراد والمجتمعـات يهتـدون بهديها ويؤطرون علاقاتهم بتعاليمهـا وأحكامهـا. صـورة تؤكـد علـى أن الكلمـة العليـا يومئـذ سـتكون للعلـم والعلمـاء ولا شـيء غيـر العلـم والعلمـاء، فهـم وحـدهم الـذين سيكون لهم الحق في تقرير نتائج أية مسـألة وتحديـد معـايير الصـواب والخطـأ، وهـذا سيشمل الأخلاق والقوانين، كما سيشمل العلاقات والمعايير والقيم، وأيضًا سيشمل الكون والحياة. لكن، إذا كان الملحـد يعتقـد -وفـق الإيمـان الإلحـادي- أن الإنسـان كومة مادية، وأن الحياة مسرحية سخيفة، وأن الأخلاق نسـبية بـلا ثبـات، وأن المـوت نهاية الرحلة، ولا يوجد إله ولا مبادئ عليـا ولا قـيم متجـاوزة، إذا كـان الأمـر كـذلك، فمن أين تسرّبت، وكيف تسرّبت، ولماذا تسرّبت إلى الملحد تلـك الصـورة المشـرقة وذلك الفردوس الجميل الذي يحلم به وينتظره بفارغ الصبر!

اللازم الخامس: ادعاء امتلاك الحقيقة المطلقة.

الملحـد -وفـق هـذا الـلازم- يكـون مضـمون شـعاره، تلميحًـا وتصـريحًا، أن الحقيقة المطلقة، في الإنسان والحياة قاصـرة عليـه ورهينـة بـه، إذ بسـعيه الـدائب نحـو تحقيق الفردوس المنتظر وأن المستقبل لا يمكن أن يكون إلا للإلحاد، فإنـه -ضـمنيًا- يبرر ذلك بأنه وحده -لأنه ملحد- القادر على معرفـة أفضـل فهـم لطبيعـة الإنسـان، ولطبيعة الحياة والكون من حوله، ومـن ثـم تحقيـق الحيـاة المثاليـة والفـردوس الـذي طال انتظاره مئات أو آلاف السنين، وكل هذا نتيجة حتمية لامتلاكه الحقيقـة المطلقـة التـي حـرم منهـا الإيمـان والأديـان الإنسـان! والحقيقـة أن كمـون امـتلاك المطلقـة في دعـوى أن المسـتقبل للإلحـاد، يبـدو طبيعيًـا، إذ لـو اعـترف الملحـد بـأن المسـتقبل

محتمل، وأن الإلحاد ليس من المؤكد أنه حقيقة مطلقة، فلا شك إذن أنه يكون بذلك قد فتح على نفسه باب التشكيك في القناعة الإلحادية، لأنه لا يفتأ يُبشّر بأن الإلحاد وحده هو القادر على تحقيق اليوتوبيا المثالية حيث يمكن أن يعيش الإنسان فردًا ومجتمعًا سعيدًا! وربما لا داعي للتنبيه بأن هذا الادعاء الكامن، أعني امتلاك الحقيقة، يتناقض مع أحد أهم عناصر مكونات القناعة الإلحادية، أعني أن الحقيقة نسبية!

اللازم السادس: القدرة الفائقة على التجاوز والتعالي.

الملحد -وفق هذا اللازم- لا يفتأ يدعي أن المجتمع الإلحادي في المستقبل المنتظر سيكون بإمكانه تجاوز قوانين التاريخ والنفس والمجتمعات، كما مضى عليه تاريخ الإنسان منذ أن وطئت قدماه الأرض! ماذا يعني هذا؟ إنه يعني أن الإلحاد في الفردوس المستقبلي سيحرر الإنسان من ضغط التاريخ وقوانينه، ومن ضغط المجتمع وقواعده، ومن ضغط النفس ونوازعها! إنه يعني أن المادة ستنتصر وسيتم ردم الهوة نهائيًا بين الإنسان والطبيعة من خلال إسكات جميع النزعات ومحو جميع السمات التي تمنح الإنسان القدرة على التجاوز والتمايز بينه وبينه الطبيعة وعناصرها! إنه يعني أنه داخل الفردوس الإلحادي ستلغى الهويات الحضارية والثقافية والتاريخية للشعوب، وستمحى الخصوصيات والملامح المميزة بين الأفراد! ومن ثم، فإن الإلحاد سينشئ فردًا ومجتمعًا بنُظم جديدة ودوافع جديدة وسمات جديدة تناسب حالة اليوتيوبيا الإلحادية وإنسانها ومجتمعها! لكن، أليس هذا حلمًا بعدي المنال في إطار طبيعة عالم الدنيا، وطبيعة النفس البشرية!

فتأمل هذه اللوازم الكامنة في القول بأن المستقبل للإلحاد الذي جعله الملحد من أسباب انتقاله إلى الإلحاد، وأن اليوتوبيا المنشودة لن تكون إلا بالإلحاد، وستدرك أن الملاحدة يعيشون في أوهام ضخمة وخيالات جامحة، ذهبت بهم إلى حد رفض أن يكون العالم الحالي وإنسان هذا العالم على ما هو عليه! بل لو كان هناك إله لوجب عليه أن يخلق عالمًا أفضل، كما يقول مثلًا بيرتراند رسل![(١)] وهكذا تضيع أعمارهم في الأباطيل لمجرد نفورهم من عقيدة الإله، وكبرهم المنتفخ ضد الإيمان، كالذين استبدلوا الذي أدنى بالذي هو خير، لو كانوا يفقهون!

* * * *

(٤) طبيعة العلاقة بين الزعماء والأتباع

ولما كان الأمر على ما حكينا وكشفنا، كان من الطبيعي ألا تقتصر العلاقة الجامعة بين زعماء الإلحاد أي النماذج المتحدثة باسم الإلحاد، وبين الأتباع والمعجبين والمقلدين من عامة الملاحدة، وألا تتوقف عند الدليل والبرهان، كما يتوهم الطرفان أو على الأقل الملحد العامي! بل إن الأمر أعمق وأبعد من ذلك. فالعلاقة بين الطرفين (الزعماء والأتباع) ليست علاقة برهانية، يطرح الزعيم الإلحادي الأدلة فيقبلها التابع لقيمتها المعرفية والدلالية، لأن هذه العلاقة البرهانية -المتوهَّمة- ما كانت لتكون لها قيمة لولا وجود علاقة وجدانية مسبقًا، على الأقل من طرف الملحد العامي، إذ لولا شعوره الفيّاض بالحب والتقدير والثقة والانبهار بقيمة

---

(١) لماذا لست مسيحيًا ص٤٥.

«إمامه وشيخه وزعيمه الإلحادي» وإضفاء هالة قداسة وتمجيد عليه، لما استطاع أن يتقبل أدلته وبراهينه وتشكيكاته! ألا ترى كيف يرفض رفضًا قاطعًا الالتفات لما يقوله علماء ومفكرو الإسلام، لأن نفسه ممتلئة بالنفور والكراهة لهم! وسر ذلك أنّ «أكثر الناس لا يكاد ينفك من تعظيم أحد أصلًا، فحتى أولئك الذين يجرّون أعطاف الزهو وتطول ألسنتهم في الوقيعة في أكابر الأئمة باسم الاستقلال وتساوي الرؤوس، تجدهم في غاية الإجلال والخضوع لمعظّميهم».[1] ولهذا لستَ تجد أحدًا يعظم المفكرين والفلاسفة الغربيين وأشباههم في الكفر والضلال، إلا وتجده يحط من أقدار العلماء المسلمين ويلهج بالطعن فيهم، والتفتيش عن زلاتهم للزراية عليهم! ذلك لأن الإنسان لابد له من نماذج يقتدي بها ويعظم قدرها، ومن ثم يحرص على الاشتداد على يناقضون مُعظَّمَه ومبجَّلَه في العقيدة والمنهج، ليذوق حلاوة الاقتداء به والتبجيل له! فلا يمكن -إذن- فصل البرهان عن الوجدان، لأن العلاقة ليست بين طرفين آليين، بل بين طرفين إنسانين لهما مخزون ثقافي وحياتي ونزعات ورغبات وشهوات وطموحات.

يقول طه عبد الرحمن: «العلاقة النفسية التي تقوم بين الفردين -أو الجمعين- ليست علاقة برهان خالص، يكتفي فيها الطرفان بتبادل الأدلة المجردة فيما بينهما، كل واحد يُسلّم للآخر دليله متى ظهر أنه أقوى من دليله بناء على قوانين الاستدلال الصحيح، حتى إذا فرغا من تقديم أدلتهما، كان الحاصل هو «الإجماع الخادم للسلام»، أي الاتفاق الكامل على النتائج المتوصَّل إليه الذي يؤدي إلى تحقيق

---

(١) المرقاة. سليمان العبودي ص١٧٢.

السلام، وإنما هي علاقة برهان مزدوج بالوجدان، ذلك أن الدليل لا يرد مستقلًا بذاته، وإنما مقيّدًا بسياق نفسي انفعالي قيمي، إذ يخدم هذا الدليل غرضًا نفسيًا مخصوصًا، وهذا الغرض النفسي بدوره يحمل قيمة مخصوصة، وهذه القيمة هي الأخرى تُحدث في النفس أثرًا مخصوصًا، إيجابًا أو سلبًا».[١]

والحقيقة أنّ قضية العلاقة الوجدانية والانبهار النفسي بقادة ومشاهير الإلحاد، وأنهم تحولوا فعلًا إلى أيقونات ونماذج مثالية بالنسبة للأتباع، هذه القضية بارزة بين هؤلاء الأتباع ولا تكاد تخطئها العين، فـ «يمكن أن تلحظ حالة الإعجاب هذه من خلال حديث كثير من الأتباع عنهم، واحتفائهم الشديد بهم، وردة الفعل العنيفة تجاه حالات النقد الموجهة إليهم. وجريد «الإندبندنت» البريطانية والتي يمكن أن تُعد من المجلات شديدة الدعم للعلمانية، وضعت دوكنز في ضمن قائمة الشخصيات الأكثر إعجابًا بنفسها في بريطانيا، فكان رد أحد المدونين (ريتشارد دوكنز ليس معجبًا بنفسه ولو بقدر بسيط، إنه محق فقط، وذكي كذلك».[٢] بل أذكر أنني قبل سنوات كنت أدردش مع أحد الشباب الذين تحولوا إلى الإلحاد جرّاء قراءاته للفكر الماركسي والفلسفة الغربية، وقلت له خلال حديثنا عن أمانويل كَنت (لقد أخطأ كنت في طرحه حول الواجب الأخلاقي)، فقاطعني بنبرة متعجبة ومتأسفة قائلًا (لا تقل أنه أخطأ)!

وفي هذا السياق نذكر تلك الإشارة القرآنية البديعة حول السادة والزعماء الكفار والأتباع والمقلدين يوم الحشر، أعني قول الله تعالى: ﴿إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ

---

(١) روح الدين: من ضيق العلمانية إلى سعة الائتمانية ص١٣٤.

(٢) مليشيا الإلحاد. عبد الله العجيري ص٨٠.

مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴾.[١] ففي هذه الآية تقرير بأن القادة والسادة يوم القيامة يتبرؤون من الأتباع والمقلدين، وأن **الأسباب** التي كانت بينهم في الدنيا ستتقطّع يومئذ. وهذه الكلمة «الأسباب» تحمل إشارة إلى البُعد النفسي الجامع للمحبة والتقدير والتعظيم والخضوع والفوائد الدنيوية المتبادلة، في علاقة الأتباع والمقلدين بالزعماء والسادة، ولهذا فسر مجاهد وابن عباس كلمة «الأسباب» بالمودة والوصال الذي كان بينهم في الدنيا.[٢] وتأمل كلمة «تقطّعت» الدالة على رسوخ تلك الروابط النفسية بين الطرفين، وهو ما قلنا بأن العلاقة الوجدانية بين الزعماء والأتباع أعمق من العلاقة البرهانية. وإنما تقطّعت بينهم لأنها كانت مبنية على الكفر والباطل، وكل ما بُني على باطل فهو زائل! ولما كان هؤلاء الزعماء يستغلون سذاجة الأتباع ويرفعون أنفسهم إلى مقام الأيقونة لتحقيق مزيد من الاستعباد والاستلاب الفكري والنفسي للأتباع، وإبعادهم عن الحق والحقيقة، لا جرم أن «عذاب المتبوعين أكثر وأشد من عذاب الأتباع في النار، لأن المتبوعين هم السادة الكبراء، والقادة الزعماء، والملأ الطغاة، الذين يقودون الأتباع والغوغاء في الكفر والشرك، ويدعون هؤلاء الأتباع إلى تأليههم وعبادتهم».[٣]

بل إن الأتباع الذين تنازلوا عن عقولهم وفطرهم لزعمائهم وأسيادهم الفكريين وقادتهم المعنويين، بفعل الانبهار بهم والإعجاب بأطروحاتهم، هؤلاء الأتباع يوم

(١) البقرة: ١٦٦.

(٢) تفسير الطبري. ابن جرير الطبري ج٣ ص٢٥.

(٣) الأتباع والمتبوعون في القرآن. صلاح عبد الفتاح الخالدي ص٩٧. معنى التأليه والعبادة هنا الجانب النفسي والاتّباع الأعمى والتقليد اللاهث.

القيامة بعد أن يكتشفوا الحقيقة، حقيقة هؤلاء الزعماء والأيقونات المثالية، سيطالبون بمضاعفة العذاب عليهم بسبب إضلالهم لهم وخداعهم إياهم وحرصهم على تزييف الحقيقة في عقولهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾.(١)

إن اعتقاد الملحد المعاصر حياد العلماء وتنزيههم عن شوائب الأهواء في التعاطي مع المعطيات العلمية، لا يعني إلا أن الملحد منح هؤلاء العلماء نفس القدسيّة التي يمنحها المؤمن للأنبياء في اعتقاده عصمتهم ونزاهتهم، رغم أنه لا مجال للمقارنة بين الثرى والثريا، ورغم أن المؤمن له ما يبرر به اعتقاده في الأنبياء من جهة العقل والواقع والأخلاق والمعجزات ومعطيات الوحي، عكس الملحد الذي لن يجد -وفق الأسس الإلحادية- مبررًا واحدًا لتبرير تقديس علماء الطبيعة والثقة بهم والخضوع لآرائهم! ولهذا؛ لا شك أن الرابطة بين القادة الإلحاديين والأتباع المقلدين هي رابطة نفسية في المقام الأول وأكثر تغلغلًا فيهما من الرابطة العقلية والبرهانية، بل لو حاول أحد الطرفين توكيد الرابطة العقلية البرهانية بينهما، لكان في ذلك نقضًا لأحد أهم مبادئ وأسس الرؤية الإلحادية، أعني مبدأ التطور ومبدأ النسبية، إذ كيف يمكن الثقة في هذه الرابطة البرهانية وهي أساسًا مؤسسة على عقل متطور! وكيف يمكن الثقة في هذه الرابطة البرهانية وهي أساسًا نسبية لا ثبات لها! بل

---

(١) الأحزاب: ٦٤-٦٨.

لو حاول ذلك أحد الطرفين إذن لتقطّعت تلك الروابط الواصلة بينهم، إذ لا يمكن إقامة البرهان على صحة الدعاوى الإلحادية!

ولهذا أنا دائمًا أقول بأنّ الملحد لا يدرك معنى كونه ملحدًا، ولذلك تجد تناقضات صارخة بين قناعته الإلحادية على المستوى النظري، وممارسته التطبيقية في واقع الحياة والمواقف المختلفة، ولو أنه يعيش الإلحاد فعلًا -وهذا غير ممكن!- لما وجد بين يديه إلا أحد خيارين، الانتحار أو العودة إلى الإيمان![1]

إن جهل المبطل بمضامين باطله من الأسباب الرئيسة في انصرافه في كثير من الأحيان عن معرفة ما عليه من التناقضات!

سمعت المفكر الكبير عبد الوهاب المسيري في دورة قدمها حول منهجية التعامل مع الفكر الغربي -وهي منشورة على يوتيوب- يقول: بأنه كان في السعودية، وكان يعرف هناك أستاذة كبيرة، وأنها كانت علمانية شرسة، إلا أنها كانت طيبة ورحيمة ومساعدة، فكانت خلال الحديث حول العلمانية تقول له: (أنا أصلي وأصوم)، فيرد عليها الدكتور ساخرًا: «أنت لأنك طيبة ستدخلين الجنة، وأفكارك العلمانية ستدخل النار». ثم علق المسيري قائلًا: «بأنها لم تكن تفهم معنى كونها علمانية!». أي لم تكن تفهم اللوازم الفلسفية والسلوكية للعلمانية ولمعنى كونها علمانية!

---

(١) أثبتت الدراسات ارتفاع نسبة الانتحار بين الملحدين مقارنة مع المؤمنين. ففي دراسة لنسبة الانتحار، قام بها بعض الباحثين عام ٢٠٠٢، اعتمدوا فيها على مراجع الأمم المتحدة المُوثقة، احتلّ الملحدون أعلى نسبة في الانتحار، في حين أنّ نسبة الانتحار بين المسلمين تكاد تقترب من الصفر. انظر:

http://www.braheen.com/mag/١st/٢٥-psychological-atheism

الشاهد هنا؛ هو أن جمهور الملحدين -خصوصًا الشباب والأميين معرفيًا- لا يدركون اللوازم الفلسفية والسلوكية للإلحاد الذي انتقلوا إليه، كما لا يدركون معنى كونهم ملاحدة، تمامًا كما هو شأن صاحبة القصة بخصوص العلمانية، ومن ثم، لا مانع لديهم أن ينكروا الإله والمقدسات والمعنى والثوابت والإرادة، لكنهم في واقع الحياة، تجدهم يعيشون مثل باقي الناس، لديهم مقدسات وثوابت كامنة، ويسعون لإضفاء المعنى والقيمة على أنفسهم على حياتهم وعلى علاقاتهم وشتى نشاطاتهم. فهم واقعًا إنما يتسوّلون القيم والمبادئ الإيمانية التي لها ارتباط وثيق بالإله الخالق، لكي يعيشوا حياتهم! ولهذا، فإن من مشاكل الملحد العويصة، أنه لا ينتبه -ويرفض مَن ينبهه!- إلى مضامين قناعته الإلحادية ولوازمها الفلسفية والسلوكية والاجتماعية!

خذ مثلًا أعظم «ثرثرة إلحادية» أعني وجود الشر، فنظمها إلحاديًا هو هكذا: الشر موجود إذن الله غير موجود. هنا يقف الملحد ويظن أنه حقق انتصارًا ساحقًا لقناعته الإلحادية على خصمه المسلم والرؤية الإيمانية عمومًا! لكن، ما مضمون هذه «الثرثرة»؟ أولًا يمكن أن نقلبها عليه بنظم عكسي وهو: الخير موجود إذن الله موجود. ثانيًا، ما موقع فكرة الشر في الرؤية الإلحادية؟ لا شيء، صفر، بلا معنى، لماذا؟ لأنه في عالم بلا قيم، بلا معايير، بلا أخلاق، بلا ثوابت، فكل شيء مباح، جائز، مقبول. ماذا يعني هذا؟ إنه يعني أنه لا يحق للملحد أصلًا أن «يثرثر» بفكرة الشر، وأن يتخذها دليلًا على عدم وجود الخالق، وإلا فما هو المبرر الإلحادي لحجة الشر؟ لا شيء، ولو بقي الملحد ألف عام يعصر عقله لإيجاد هذه الحجة لن يجد إلى ذلك سبيلًا.

بل الأدهى من هذا، أن «ثرثرة الشر الإلحادية» تتضمن حقيقة كامنة، وهي إيمان الملحد الخفي واعترافه المسبق بوجود القيم، المعايير، الحقيقة، الثوابت، كما تتضمن، الاعتراف بأن الإنسان قيمة، والحياة معنى، وأن هناك غاية وقداسة، وهذه المضامين كلها تهدم صرح الإلحاد وتذره قاعًا صفصفًا. لماذا؟ لأنك لا يمكن أبدًا أن تستوعب معنى فكرة الشر إلا أن تكون مستوعبًا مسبقًا لمعنى فكرة الخير، ولأنك يستحيل أن تحتج بالشر في العالم ما لم تعترف مسبقًا بأن الإنسان كائن متميز عن الحيوان، عن المادة، وأن الحياة لها قداسة وقيمة، والأولى والأفضل أن يكون عالمنا خيّرًا وجميلًا وفاضلًا. فهذا مثال عن عدم وعي الملحد بلوازم القول الإلحادي في أعظم حجة إلحادية في تاريخ الإلحاد، فما بالك بغيرها! وهذا يجعلك تفهم أن الإلحاد لا يسقط فيه المرء إلا حين يسقط في الجنون. وإذا كان الملاحدة يحتجون بوجود الملحد الطيب والرحيم والمستقيم والنبيل، فلنا أن نقول على منوال ما قال المسيري للأستاذة العلمانية عن علمانيتها: (هؤلاء الملاحدة الطيبون النبلاء سيدخلون الجنة، أما أفكارهم فستدخل النار)!

❋ ❋ ❋ ❋

(٥) أسس مشروعية الرؤية الإلحادية

وهكذا؛ مع الانتقال إلى دائرة الإلحاد، صار الملحد يمارس تفسير الذات والآخر والكون والحياة داخل مقولات مغلقة، صلبة، ثابتة ومتعالية لا يمكن بالنسبة إليه التشكيك فيها أو تجاوزها، لأنّ افتراض ذلك -فضلًا عن قبوله والإقرار به-

يعني ببساطة انهيار صرح قناعته ورؤيته الكونية الجديدة المؤسسة على الإنكار! ومن ثم؛ لا يجد الملحد بُدًّا من إضفاء المشروعية لعملية الانتقال وتبني القناعة الجديدة!

تتجلّى عملية المشروعية التي يمارسها الملحد على العقيدة الجديدة؛ في حرصه الدؤوب على إثبات صحة الإلحاد وخطأ الإيمان. ومرد هذا الحرص الواعي وغير الواعي من الملحد، أن إضفاء المشروعية نزعة أصيلة وقوية في الإنسان ومواقفه وقناعته، فالعلوم إنما تسعى لتأسيس معايير المشروعية للمعرفة، والحروب إنما ترمي لإضفاء المشروعية على توجهات الدولة، والقوانين إنما تنشد ترسيم أسس المشروعية بين الأفراد، والمذاهب الكبرى تنشد إضفاء المشروعية على أطروحاتها، بل وحتى النبوات إنما جاءت لتأكيد مشروعية التوحيد وبطلان الشرك والإلحاد.

لكن؛ إذا كانت العلوم والنبوات والقوانين والمذاهب تؤسس لمشروعيتها من خلال منظومة من القواعد والأصول والمبادئ، ذات الامتداد العقلي والنفسي والقيمي والواقعي، إذ لم يكن ممكنا إضفاء المشروعية بدون أسس قوية ومتماسكة، وبحسب هذه القوة والتماسك تكون قيمة المشروعية، إذا كان الأمر كذلك، فالإشكال الذي يواجهه الملحد في عملية الانتقال وإضفاء المشروعية عليها، هو الأسس والمعايير العقلية والنفسية والواقعية التي أنتج في إطارها هذه المشروعية! إذ من المحتمل جدًّا أن تكون تلك الأسس والمعايير باطلة في نفسها وفاسدة في مآلاتها ولو على المدى البعيد، فيسقط الاعتبار بها! فهل يستطيع الملحد أن يبرر إضفاءه المشروعية على انتقاله إلى الإلحاد بشكل موضوعي؟ أو هل يستطيع أن يجزم بصلاحية الإلحاد على المدى البعيد؟

ولما كانت المشروعية لا معنى لها إلا بتحديد «معايير الأفضلية»، بحكم أن الملحد لم ينتقل من الإيمان إلى الإلحاد إلا لاعتقاده أفضلية الإلحاد ومشروعيته، فنحن نحدد هنا هذه المعايير لنرى مدى التزام الإلحاد بها ووفائه بها. ونحددها في التالي:

أولًا: معيار الفطرة. والمقصود به أن يكون الإلحاد منسجمًا مع طبيعة الفطرة، يلبي لها أشواقها ويتيح لها ممارسة نزعاتها المختلفة. الواقع يؤكد على أن الإلحاد نظريًّا وعمليًّا غير منسجم بتاتًا مع الفطرة الإنسانية. ففي الفطرة أشواق الكمال والخلود، ونزعات التسامي والمعرفة، وكل هذا وغيره لا يمكن للإلحاد بحسب أسسه أن يمنحه للفطرة، وهذا من أسباب كثرة الانتحار بين الملحدين!

ثانيًا: معيار العقل. والمقصود به أن يكون الإلحاد متوافقًا مع المبادئ العقلية، فلا يناقضها ولا يلغيها. الواقع يؤكد على أن الإلحاد نظريًا وعمليًّا غير متوافق إطلاقًا مع المبادئ العقلية. فيكفي التذكير بأن من أبرز هذه المبادئ مبدأ السببية، ومبدأ الغاية، وهذان من أهم المبادئ التي يتعامل بها كل الناس تلقائيًا في يومياتهم، أما الإلحاد فيؤكد أن الأشياء تحدث بلا سبب وبلا غاية!

ثالثًا: معيار التفسير. والمقصود به أن يكون في إمكان الإلحاد تقديم منظومة تفسيرية شاملة ومتكاملة للكون والحياة والإنسان، وللقيم والمبادئ والأخلاق، وللقوانين الفيزيائية وحركة التاريخ ومصير الوجود. الواقع يؤكد أن الإلحاد نظريًا وعمليًّا يعجز عجزًا كاملًا عن تقديم تفسير موضوعي لكل ذلك. ولهذا يهرب

الملاحدة -زعماؤهم وأتباعهم- من مواجهة مثل هذه الأسئلة الكبرى، وإذا اضطروا ألقوا بأجوبة مضحكة وخيالية!

رابعًا: معيار القدوة. والمقصود به أن يكون في إمكان الإلحاد تقديم النموذج والقدوة لعموم الناس، بحكم أن الإنسان بطبيعته يبحث دائمًا عن النموذج والقدوة والمثال الأعلى ليصوغ حياته في إطار سيرته وأفكاره، ولذلك كانت للمشاهير سلطة قاهرة على نفوس المتابعين والمعجبين. الواقع يؤكد أن الإلحاد نظريًا وعمليًّا يستحيل أن يقدم قدوة نموذجية تكون مثال القيم والتوازن والاستقامة،[١] لأن الأسس الإلحادية تمنع ذلك!

خامسًا: معيار التنظيم. والمقصود به أن يكون الإلحاد قادرًا، وفق أسسه وانطلاقًا من مبادئه التي يرفعها، على إنشاء منظومة تشريعية لضبط حركة المجتمع والعلاقات القائمة بين أفراده، في سبيل بناء وإنشاء مجتمع متماسك. الواقع يؤكد على أن الإلحاد نظريًا وعمليًا لا يمكن أن يحقق ذلك. يكفي أن نذكر هنا بأن مبدأ المنفعة الشخصية والحرية الشخصية كاف لهدم الفرد والمجتمع وإشاعة الفوضى والخلل والاضطراب فيه![٢]

---

(١) نُذكّر هنا بأننا لا نتحدث عن استحالة وجود ملاحدة أخلاقيين وطيبين ونزهاء، بل نتحدث عن كون الأسس الإلحادية تعجز عن جعل الملحد كذلك، ولذلك حتى هؤلاء الملاحدة الأخلاقيون والطيبون لا يستطيعون تبرير نزاهتهم واستقامتهم إلحاديّاً!

(٢) ولنا عبرة بالجاهلية المعاصرة، تلك الجاهلية التي لم تتنكر للإله مطلقاً، غير أنها أبعدته عن شؤون الحياة وتنظيم المجتمع وتأطير العلاقات، فكانت النتيجة المرعبة لذلك، هي انفجار الأزمات النفسية والعصبية، وكثرة الأمراض العضوية والعقلية، وتفشي الانحراف =

فـأنّى يكـون بإمكـان الإلحـاد؛ وهـو المؤسـس علـى الرؤيـة الماديـة الصـلبة والمعرفـة السـائلة، أن يفـي بهـذه المطالـب والمعـايير لإثبـات أحقيتـه في مشـروعية الوجود!

لا جـرم أن الإلحـاد؛ وقـد نقـل المنتمـي إليـه مـن الإيمـان بـدعوى أنـه البـديل الأفضل والأكمل، يعمل على تضـخيم الأنـا، الـنفس، الـذات في هـذا التـابع، ويمنحـه الشـعور بالقـدرة والسـلطة والهيمنـة، وهـو مـا يتجلـى في رواج أفكـار كـبرى مـن قبيـل «الهيمنـة علـى الطبيعـة»، و«العلـم سيكشـف كـل شـيء»، و«نهايـة التـاريخ وثباتـه في النموذج المادي العلماني».. إلخ. هـذا الشـعور بالسـيادة والسـلطة والقـدرة يتجلـى في ثلاثة معالم، وهي:

أولًا: السيادة التفسيرية. والمقصـود بها؛ أن الملحد في الإلحـاد صـار يعتقـد بـأن لديـه القـدرة علـى تفسـير كـل شـيء، في ذاتـه والحيـاة والتـاريخ والاجتمـاع والكـون الفسيح، انطلاقًا من العلم التجريبي وحده، وإنما المسألة مسألة وقت فقط!

ثانيًا: السيادة التدبيرية. والمقصـود بهـا؛ أن الملحـد في الإلحـاد صـار يعتقـد بـأن لديه القدرة على تحقيق التدبير الحياتي، الجالب للاستقرار والسعادة والرفاه، والدافع للاضطراب والشقاء والحرمان، انطلاق من الأسس المادية الصرفة!

ثالثًا: السيادة الكونيـة. والمقصـود بهـا؛ أن الملحـد في الإلحـاد صـار يعتقـد بـأن لديه القدرة على تحقيق أقصى مراتب الهيمنة على الكـون وغـزو فضـاءاته واسـتغلال

= الأخلاقي والأسري، وطغيان الأمم القوية على الأمم الضعيفة تنهب ثرواتها وتسرق خيراتها وتدمر بلدانها.

طاقاته وذخائره، باعتبار أن الإنسان بعد تطوره صار سيد الوجود وكل شيء في خدمته!

والقول الجامع هنا؛ هو أن الملحد صار يعتقد أنه يستطيع القيام وحده وتحقيق كل رغباته وتنفيذ كل أحلامه، كل ذلك بعيدًا عن الإله الخالق ودستوره في الحياة!

* * * *

(٦) عملية الانتقال إلى الإلحاد

إذن كيف يمكن فهم عملية الانتقال من الإيمان إلى الإلحاد؟!

لا ينشأ قرار الإلحاد من فراغ؛ بل ينشأ في إطار عوامل مختلفة. هذه العوامل تُحدث صدمة وعي بطيئة عبر تراكمات متداخلة، إلى أن يأتي حدث معين، كأزمة عاطفية أو نفسية أو أسرية أو اجتماعية أو كونية، فيكون فتيل الاشتعال لدى هذا الشخص أو ذاك، ومن ثم إعلان الانتقال إلى الإلحاد! لأن الإنسان أعقد بكثير جدًّا من أن يقوم حدث مفرد في لحظة زمنية معينة بإحداث تغييرات جوهريّة فيه على مستوى الوعي والإدراك، وبالتالي على مستوى الشعور والسلوك، فضلًا عن إحداث نقلة نوعية على مستوى الرؤية الوجودية وتداعياتها ومآلاتها!

تعمل هذه الصدمة على زعزعة ثقة الملحد بنفسه وبكل شيء من حوله، وتفقده الإحساس بالقيمة والتقدير، وتقذف به إلى جحيم الشعور بالمأساة والاغتراب والدونية والإحساس بالقهر العنيف! ولأن الملحد إنسان أولًا وآخرًا؛

فإنّ هذه الحالة الكئيبة التي يجد نفسه يتقلّب بين أطباقها ويتجرّع رغمًا عنه كؤوس مرارتها، تدفع به للتمرد والثورة، والذهاب إلى الضفة المقابلة، إلى حيث يظن أنه سيجد ذاته الآفلة وأشواقه المسحوقة! وهذا ما يشحنه بطاقة العناد والرفض والاستماتة في الدفاع عن قراره وخياره الجديد!

والحقيقة أنّ الإنسان بفطرته التي فطره الله تعالى عليها؛ عندما يبلغ أفقًا تُستنزف فيه طاقته كلها لا يعود بعدُ قادرًا على الاستمرار في مسار الرؤية المعيارية التي تحكم البيئة التي يعيش فيها، يجد من نفسه داعية قوية واندفاعًا قاهرًا نحو التغيير والانتقال إلى رؤية مختلفة تعيد إلى ذاته المرهقة طاقتها وحيويتها، وتمنحه الشعور بالمعنى والقيمة والغاية!

الذي يحدث عند نقطة الانتقال هو أن بعض هؤلاء يشعر بالمسؤولية لوعيه بأنّ أية رؤية أخرى سينتقل إليها لابد أن تكون لها آثار في الفكر ومقتضيات في السلوك، ولذلك يتعامل مع القضية بما تستحق من الاحترام والمسؤولية والجدية، ولا يعنيه في شيء كم سيبذل من جهد وماذا سيلاقي من العراقيل في الطريق، لأنّه باحث جاد، وهؤلاء -رغم قلتهم- يهتدون إلى الحق، حتى وإن كان حقًا جزئيًّا وقاصرًا ومشوّهًا، كما حدث مع الروائي الروسي الشهير تولستوي لما انتقل من الإلحاد إلى النصرانية، واعترافه بعجزه عن فهم بعض أسسها العقدية وغموضها واضطرابها، ونفس الشيء حدث مع الفيلسوف أنتوني فلو، وغيرهم كثير من مختلف طبقات الناس.

وفي المقابل هناك من يؤثر اختصار الطريق ليريح نفسه من عناء البحث وبذل الجهد في معرفة الحقيقة، فينكر وجود الإله الخالق وينفي كل ما ارتبط به ولزم عن

الإيمان به. وهذا هو صنيع وموقف وخيار جمهور الملاحدة حين يمرون بأزمات عاطفية أو نفسية أو أسرية أو اجتماعية، فبدل البحث عن الحقيقة بشكل جدّي والتعاطي مع الأمر بمنطق مسؤول، يهربون إلى الإنكار، لتبدأ مأساة جديدة من نوع جديد، كما ستأتي الإشارة إلى هذا المعنى!

أين قصص هؤلاء الملاحدة وشعاراتهم المهترئة في البحث عن الحقيقة، من قصة الصحابي الجليل سلمان الفارسي، وقصة الصحابي الجليل بلال الحبشي، وقصة الصحابي الجليل عمار بن ياسر وغيرهم كثير، ممن تحمّلوا العذاب الأليم والضغط الشديد من الكفار والمشركين في سبيل الإسلام بعد أن وجدوا فيه ما تهفوا إليه النفس ويطمئن إليه العقل وينجذب إليه الفؤاد! خصوصًا سلمان الفارسي الذي كان مجوسيًّا من أهل فارس/ إيران، ثم هرب من بلاده وساح في العراق والشام والخليج بحثًا عن الحقيقة التي تنسجم مع العقل والفطرة، وهو في كل ذلك صابر يعاني ويقاسي!

بل اسمع لقصة باحث جاد عن الحقيقة، خاض بحار البحث وتتبّع الأفكار والأطروحات المختلفة، لكي يتمكن من تشييد قناعاته المعرفية ومن ثم السلوكية على أرضية واضحة وصلبة ويقينية.. إنه الإمام المسلم أبو حامد الغزالي، يقول:

«لم أزل في عنفوان شبابي وريعان عمري، منذ راهقت البلوغ، قبل بلوغ العشرين إلى الآن، وقد أناف السن على الخمسين، أقتحم لجة هذا البحر العميق، وأخوض غمرته خوض الجسور، لا خوض الجبان الحذور، وأتوغل في كل مظلمة، وأتهجّم على كل مشكلة، وأتقحم كل ورطة، وأتفحص عن عقيدة كل فرقة،

وأستكشف أسرار مذهب كل طائفة، لأميز بين محق ومبطل، ومتسنن ومبتدع، لا أغادر باطنيًا إلا وأحب أن أطلع على باطنيته، ولا ظاهريًا إلا وأريد أن أعلم حاصل ظاهريته، ولا فلسفيًا إلا وأقصد الوقوف على كنه فلسفته، ولا متكلمًا إلا وأجتهد في الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته، ولا صوفيًا إلا وأحرص على العثور على سر صوفيّته، ولا متعبدًا إلا وأترصد ما يرجع إليه حاصل عبادته، ولا زنديقًا معطلًا إلا وأتجسس وراءه للتنبه لأسباب جرأته في تعطيله وزندقته».(١)

وهذا أيضًا الدكتور الكبير عبد الوهاب المسيري، الذي وُلد مسلمًا في مصر، ثم صار ملحدًا، ثم عاد إلى الإسلام، وخلال هذه السنين الطويل بين الماركسية والشك والحيرة، حتى إنه اعترف بأنه كان شديد المقاومة للإيمان الديني، بسبب نزعته العقلية الحادة، كان جادًّا في البحث عن الحق، إلى أن وجده في الإسلام، بعد رحلة طويلة بين الأفكار والفلسفات والاتجاهات المختلفة. يقول: «لقد التحقت في بداية حياتي لفترة قصيرة بالإخوان المسلمين، في مرحلة الصبا، ثم اتجهت إلى الماركسية، وعشت مرحلة من الشك، ولكن مع الالتزام بالقيم المطلق، مثل الحق والخير والجمال، والإيمان بأن الإنسان كائن غير مادي، وضرورة إقامة العدل في الأرض، وبالتدريج وعلى مدى رحلة فكرية استغرقت أكثر من ثلاثين عامًا عدت مرة أخرى إلى الإسلام، لا على أنه عقيدة دينية وحسب، ولا على أنه شعائر، وإنما على أنه رؤية للكون والحياة».(٢)

---

(١) المنقذ من الضلال والمفصح عن الأحوال ص٦٢-٦٣.

(٢) الثقافة والمنهج ص٦٩. ولتفاصيل أوسع انظر كتابه: رحلتي الفكرية، فهو مهم جدّاً.

أين ملاحدة اليوم من كل هذا! ولكن إلحاد الشباب اليوم ليس أكثر من فلتة عقل جاهل أو غضب عاطفة هائجة، رغم التهويلات التي يحاول بعضهم تصوير قناعته وخياره بها! بل حتى زعماء الإلحاد المعاصر -رغم شعارات العلم والحقيقة التي يخدعون بها الأتباع- تجد لديهم إصرارًا عجيبًا على الإلحاد وعنادًا كبيرًا في إنكار الإله الخالق، فعرّاب الإلحاد المعاصر ريتشارد دوكنز -عالم البيولوجيا البريطاني- صرح في أحد البرامج بأنه عند موته سيكون لديه شهود وكاميرا تسجل لحظة موته على الإلحاد لكي لا يشوه أحد الحقيقة لاحقًا فيقول بأن دوكنز تراجع عن قناعاته الإلحادية![1] ولك أن تتساءل أين شعار (الحقيقة نسبية) وشعار (اتباع الدليل) في هذا التصريح الفاضح والموقف الذي لا يدل سوى على رسوخ العناد في النفس!

القضية -إذن- ليست نقصًا في الأدلة، بل هي الإصرار والعناد لمجرد العناد والتمرد، كما أشار الله سبحانه إلى ذلك بقوله: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾.[2] وهذا ما صرّح به توماس ناجل -فيلسوف ملحد-: «كم يسيئني أن بعض من أعرف من العقول الكبيرة الحكيمة يتبنى المفاهيم الدينية، إنني لا أعارضهم لأنني لا أؤمن بالإله فحسب، بل إنني أتمنى من داخلي أن أكون على صواب في رفضي للإله. إني لا أريد أن يكون هناك إله يتحكم في الوجود كما يدعي المتدينون».[3] ويقول الكاتب البريطاني مارتن روسن بوضوح وصراحة: «لن أؤمن

(١) قطيع القطط الضالة. سامي أحمد الزين ص٦٣.

(٢) النمل: ١٤.

(٣) الإلحاد مشكلة نفسية. عمرو شريف ص٢٧٦.

بالله حتى لو أثبت الله وجوده. أنا لا أؤمن بالله لا لأنني لا أملك أن أفعل ذلك، وإنما لأني لا أريد ذلك».[1] وهنا نقول صدق رب العزة حين قال عن أمثال هؤلاء الكفار المجرمين: ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾.[2] وقال ربنا تبارك شأنه: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾.[3] فهذا شأن الملاحدة والكفار أبدًا، يكفرون الله ورسله لأن نفوسهم ممتلئة بالكبر ومتقيّحة بالعجب والغرور، ولديهم نزوع شديد للعلو في الأرض والإفساد فيها، بدون رقيب ولا حسيب، وبدون قيود ولا حدود، وتاريخ الكفر والإلحاد خير شاهد. ومن يطالع مناظرة ريتشارد دوكنز مع الكاردينال جورج بيل في أستراليا عام ٢٠١٢، يرى بوضوح صارخ إصرار ريتشارد دوكنز بعناد مثير للانتباه على رفض وجود الإله حتى وإن جهل لماذا نحن هنا؟ ولماذا هذا الكون؟[4]

* * * *

(٧) خدعة التبرير النفسي

لو عدنا إلى صدمة الملاحدة، نجد أنّه رغم اختلاف أسبابها كما قلنا، ورغم تباين مستويات حدتها بين الأشخاص، إلا أن القاسم المشترك بينهم جميعًا هو أنها تعمل على تركيز وتكثيف شيطنة الرؤية الإيمانية في عقولهم ونفوسهم! فهنا تصير

---

(١) براهين وجود الله. سامي عامري ص١٣٤.

(٢) الكهف: ٥٧.

(٣) النمل: ١٤.

(٤) حوارات سيدني. بدءاً من الصفحة ١٥.

الرؤية الإيمانية -الإسلامية في سياق حديثنا- رؤية غير عقلانية، متخلفة، خرافية، استبدادية، ظلامية وشرّيرة تقمع الإنسان وتعمل على كبت وخنق مشاعره وأفكاره وأشواقه وحريته وطموحاته! وفي المقابل تعمل صدمة الوعي على تركيز مثالية الرؤية الإلحادية وتكثيفها في عقول هؤلاء المنتقلين ونفوسهم. فهنا تصير الرؤية الإلحادية الإنكارية، رؤية عقلانية، متطورة، منطقية، متسامحة، مستنيرة وراقية وطموحة وحضارية، تعمل على فسح المجال واسعًا لتحرير طاقات الإنسان ومساعدته على الشعور بحريته وكرامته، وعلى تفعيل رغباته المكبوتة وأحلامه المقموعة، وأنه يستطيع أن يفعل ما يشاء بلا خوف ولا هواجس!

وسواء هذا أو ذاك، فالأمر ناتج عن خدعة التبرير النفسي. والتبرير هو «أن ينتحل المرء سببًا معقولًا لما يصدر عنه من سلوك خاطئ أو معيب، أو لما يحتضنه من آراء ومعتقدات وعواطف ونيات سيئة حين يسأله الغير أو حين يسائل نفسه. هو تقديم أعذار تبدو مقنعة مقبولة لكنها ليست الأسباب الحقيقية لما فعل ولما يفعل أو يزمع فعله».[1] فالملحد انطلاقًا من هذا التعريف حريص على شيطنة الإسلام والإيمان والدين عمومًا، لكي يشعر بالارتياح النفسي، ولكي يقنع نفسه بأن خياره وانتقاله من الإسلام إلى الإلحاد له مبررات موضوعية! إنه في الواقع يحتاج أن يتعامل مع الإيمان على أساس أنه عدو، لكي ينسى ما هو فيه من التناقض والقلق، ولكي يشعر بالمبرر لتبنيه الإلحاد، ولكي يشعر بالقيمة والتقدير، كما صرّح بذلك الملحد

(١) أصول علم النفس. أحمد عزت راجح ص٥٦٢.

جوليـان بـاجيني -فيلسـوف بريطـاني-: «يحتـاج الملاحـدة لعـدو حتـى يشـعروا بذواتهم».[١]

لكن؛ أحد أهـم الإشكاليات التي يمكـن طرحها هنا هـي: معلـوم أن جمهـور الملاحدة يعلنون بأنّهم ألحدوا قبل العشرين من أعمارهم، وإذا كان من الواضح بـأن هذه المرحلة لا تساعد صاحبها من الناحية المعرفية على النظر المنطقي المتماسك، فكيف يمكن للملحد إذن أن يثق بعقله في تبني قناعة الإلحاد والانتقال إليه، وهو نفسه كان يرى إيمانه بالخالق عقيدة منطقية وعقلانية؟! وكيف يمكن له أن يتحقق من صحة وصواب هذا الانتقال المعرفي والقيمي الجذري في هذه السن المبكرة؟! أليس يمكن أن يكون الملحد بدأ إلحاده بحماسة مشبوبة وتسرع أهوج، ثم في خضم تكثيف الشبهات ونزوات التمرد وحب الظهور، لم تزده الأيام إلا حماسة لإلحاده دون أن يكون له أدنى مبرر منطقي أو أخلاقي!

أنتوني فلو الذي كان يُلقب بـ«أشرس الملاحدة» قبل تحوله إلى الإيمان بعد عقود طويلة قضاها في الإلحاد، يحدثنا بأن قرار الإلحاد الذي اتخذه عندما كان في الخامسة عشر من عمره، كان متهورًا ومتسرّعًا، ولأسباب واهية ومتهافتة. يقول: «لقد قلت في بعض كتاباتي الإلحادية المتأخرة، أنّني وصلت إلى نتيجة بشأن عدم وجود إله بصورة متعجّلة جدًّا، وبشكل سطحي جدًّا، والذي تبيّن لي فيما بعد أنّها كانت أسبابًا خاطئة».[٢]

---

(١) الإلحاد مشكلة نفسية. عمرو شريف ص٢٠٤.

(٢) هناك إله. أنتوني فلو ص١٩.

والشيء نفسه يحدثنا به الأكاديمي بول فيتز -عالم النفس- الذي قضى عشرين عامًا في الإلحاد، فيقول: «أحد الانعكاسات التي رأيتها أن أسبابي في أن أصبح ملحدًا شكاكًا وأحافظ على ذلك من عمر الثامنة عشرة حتى أصبحت في الثامنة والثلاثين كانت سطحية بالكامل وتفتقر لأساس روحي وفكري جدي، وعلاوة على ذلك اقتنعت أن هذه الأسباب شائعة بين الأمريكان، خصوصًا في المجتمعات الفكرية والأكاديمية والفنية والإعلامية».[١] وفرنسيس كولنز -مدير مشروع الجينوم البشري بأمريكا- أنه حين التحق بالجامعة قبل سن العشرين، كان لاأدريًا، يقول: «قولي بأنني «لا أدري» كان أقرب إلى القول بأنني «لا أريد أن أدري». كوني شاب في مقتبل العمر مع عالم مليء بالمغريات كان من الأنسب تجاهل الحاجة إلى الاستجابة لسلطة روحية عليا. لقد مارست نوعًا من التفكير ونمط من سلوك «العمى الطوعي»».[٢]

هذه العجلة وهذا التهور والسطحية لا تخطئها العين بين الشباب العربي الذي انتقل إلى الإلحاد! فإنّك مهما حاورتهم أو قرأت لهم في مواقع التواصل أو في المنتديات أو في الفيديوهات، لا تجد سوى الاضطراب والسخرية والضجيج، ولا تجد سوى تكرار الشعارات نفسها والشبهات نفسها، مع ضحالة معرفية مثيرة للشفقة، فتدرك بأن ذلك الضجيج يعكس رغبة قوية في إخفاء قلقهم واضطرابهم وسذاجتهم أيضًا!

---

(١) نفسية الإلحاد. بول فيتز/ ٢١٣.

(٢) لغة الإله ص٢٣.

كتب أحد الشباب الملحد على صفحته في فيسبوك قبل انتحاره بعشرين يومًا تقريبًا ما يلي: «كثيرًا ما فكرت في الانتحار، لكن ليس كاليوم، قررت الانتحار، نعم، لكن ليس كما في السابق أنتحر خوفًا من الألم والآلهة والمستقبل، الآن اشتد علي الألم، ألم الاشتياق إلى الأزلية والعدمية (الألوهية) التي كنت عليها في الأصل والآن أريد العودة إليها».. فتأمل هل تجد في هذا الكلام شيئًا من المعنى والتماسك!

نقول هذا؛ لأن المفروض في الانتقال من رؤية وجودية ذات مضامين معينة إلى رؤية أخرى مناقضة لها في الأسس والمنطلقات وفي النظم والغايات، المفروض أن هذا الانتقال يمر بأربعة مراحل، وهي **(الفحص)**، **(الاستشكال)**، **(الهدم)**، **(البناء)**. ونعني بالفحص أن الملحد يفحص أطروحات الإيمان -الإسلام في سياق حديثنا- وعناصر منظومته العقدية والسلوكية والتشريعية، وهذا الفحص لا تكون له قيمة فلسفية ما لم يكن مبنيًا على أسس معرفية متماسكة، وإلا فأية قيمة لما يفحصه الجاهل بجهله؟ ثم مرحلة الاستشكال؛ فالأصل أن الملحد يستشكل معطيات المنظومة الإسلامية، ويحلل أصولها ومرتكزاتها وقواعدها. وكل هذا يكون منبثقًا عن رؤية معرفية متماسكة، وإلا فأي قيمة معرفية لاستشكال يقوم به الجاهل؟ ثم تأتي مرحلة الهدم، حيث يكون الملحد قد توصل إلى مفاصل الخطأ والوهم في بنية الرؤية الإسلامية، فينقضها لبنة لبنة، من حيث مبادئها وأصولها، وفروعها وجزئياتها. وهذا لا قيمة له فلسفيًا ما لم يكن ناتجًا عن أسس معرفية منضبطة وصارمة، وإلا فأي نقد ونقض يستطيع الجاهل القيام به؟ ثم أخيرًا تأتي مرحلة البناء للرؤية البديلة بشعبها المختلفة، وكذلك يقال هنا، بأن هذا البناء البديل لا معنى له إلا أن يكون قائمًا على

أسس قوية ومتماسكة تكون ذات صلة وثيقة بمختلف جوانب كينونة الإنسان، أي معرفيًا ونفسيًا وسلوكيًا واجتماعيًا وتنظيميًا، وإلا فأي بناء يمكن للجاهل أن يقوم به وينشئه بديلًا عن الرؤية الإسلامية؟

حين أصر الكفار والمشركون على رفض نبوة سيدنا محمد ﷺ، أنزل الله سبحانه وتعالى عرضًا واضحًا وصريحًا: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾.[1] فهذا التوجيه بمفهومه العام يدعو الآخر الرافض للإله والدين والنبوة إلى الابتعاد والانعزال عن سلطة الثقافة الرائجة وسلطة الأفكار المتداولة؛ بشكل ثنائي للنقاش والتحاور لإدراك الحق، لأنّ الحوار الثنائي الهادئ والبعيد عن ضجيج المناظرات حيث تتضخم الذات ويتصلّب الوعي، يساعد العقل على التّبصر والفهم، ومن ثم، يساعده على التخفف كثيرًا من تأثيرات الأفكار المسبقة وتداعيات التصورات الشائعة.

ثم مرحلة أخرى، يوجه القرآن إليها هذا الإنسان الباحث عن الحقيقة حتى يصل إلى مستوى برد اليقين والاقتناع الكامل، فإما القبول لهذا الدين أو الرفض له، وهي الاختلاء بمفرده، لتقليب وجوه الرأي وتثوير الفكر في معطيات هذا الدين، ووضعها تحت مجهر قواعد الفطرة ومعاني الحياة ومبادئ العقل وسنن التاريخ، بعيدًا عن رواسبه الفكريّة وضغوط الوسط الذي يعيش فيه (المجتمع والأفكار والإعلام، والشهرة..).

---

(١) سبأ: ٤٦.

صحيح أنّ هذه العمليّة.. الانعزال عن الوسط الفكري برواسبه ومفاهيمه وتصوراته، لإعادة النظر وامتحان الأفكار والقناعات، صعبة وشديدة على النفس، ولكنّها عمليّة مُثمرة للغاية ومفيدة للعقل والوجدان في صاحبها، لأنّها تكشف له الحقيقة كاملة، فإما أن يقبلها عن يقين واقتناع، وإما أن يرفضها عن يقين واقتناع، وبالتّالي يتحمل مسؤوليّته، سواء في القبول أو في الرفض.

إذن فالله تعالى في هذه الآية قد وضع الإنسان الكافر -والملحد إنسان كافر- موضع التحدي، ووضعه في مواجهة مع نفسه وقناعاته. كأنه يقول له: تزعم أنّ هذا الدين ليس حقًا، إذن ها هي الطريقة التي يجب عليك أن تسلكها للتأكد بنفسك.. طريقة التحاور الثنائي مع شخص له عقل وعلم، ثم، العزلة بعيدًا عن الكل، وتشغيل طاقات عقلك.

هذا التحدي والتوجيه الرباني ينطلق من فكرة أنّ الأصل لا توجد بين العاقل والحقيقة عداوة، وأنّ العاقل يذهب حيث يأخذه الدليل ويقوده البرهان. فماذا يريد الملحد أكثر من هذا؟ ولكن عموم الملاحدة ممتلئون بجنون العظمة، ولذلك يرفضون حتى إعادة النظر في قناعتهم الإلحادية بالرغم من أنّها مبنية على أسس واهية ومهترئة، لأنّ الاعتراف بخطأ قرار الإلحاد والانتقال إليه يُشكّل طعنة نجلاء في عظمتهم المتوهمة! ولهذا تجد أمثال ريتشارد دوكنز -الذي ملأ الدنيا ضجيجًا، والذي دائمًا يتغنى بأنه يتبع الحقيقة ولا يعنيه شيء إلا الحقيقة!- عندما يُسأل عن إمكانية أن يكون مخطئًا في إلحاده؟ لا يجد سوى التهرب من الجواب المباشر، بل

يندفع نحو كلام إنشائي بارد، والقفز إلى غير محل السؤال، مع إلقاء موعظة إلحادية مكرورة![١]

*　　*　　*　　*

(٨) وهم التحرر والانتصار

والسؤال هنا هو: عندما قرّر الملحد إنكار وجود الإله الخالق، وأعلن تمرّده على دين الإله الخالق، فراح يلهث وراء سراب الحريّة الخالب، هل وجد نفسَه؟! أي هل حقق هويّته وأشبع غريزة الانتماء فيه؟! هل وجد السعادة والسكينة والطمأنينة؟! أم أنّ لسان حاله ينطلق ببلاغة واضحة قائلًا: لا أعلم هويتي! الحيرة تمزقني! القلق يحطمني![٢]

لا أعلم هويتي؛ أليس هذا حقيقة ومآل كل ملحد! فالإلحاد هو البحث عن الهُويّة الشخصيّة والرغبة في إشباع غريزة الانتماء! والإنسان عندما يبدأ رحلة البحث عن «الهويّة» و«الانتماء»، فإنّه لا يتردد في التمرد على كل شيء يظن أنّه يحرمه من تحقيق هويته الشخصيّة ويمنعه من إشباع غريزة الانتماء! هذا هو تلخيص قول الملحد «الدين قيود سخيفة وأنا أريد أن أكون حرًّا. لا أريد أن يحدد لي أحد ما يجب أن أفعل وما لا يجب عليّ أن أفعل»! وهي الحقيقة التي صرّح بها القرآن وهو يكشف جانبًا من تلك الدوافع القابعة وراء كفر الكافر، فقال سبحانه: ﴿بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ

---

(١) قطيع القطط الضالة. سامي أحمد الزين ص٦٦.

(٢) هناك كتيّب صغير بهذا العنوان للدكتور حسام الدين حامد، وهو حوار بينه وملحد متشكك.

أَمَامَهُۥ﴾.[١] أي أنّ الإنسان حين يُنكر البعث بعد الموت ويستبعد ذلك -ونُنبّه هنا إلى أنّ هذه الآية لم تأت في سياق النفي لوجود الخالق العظيم، بل في سياق النفي لوجود الحياة بعد الموت وإنكار الآخرة فقط- فإنّ حقيقة هذا الموقف ودافعه الأساسي هو الرغبة في حياة بلا ضوابط ولا التزام بمنظومة معيّنة من الأوامر والنواهي. بل يفضل أن يعيش حياة الفوضى العارمة، كما هي دلالة كلمة «لِيَفْجُرَ» الدالة على الانتشار بلا ضوابط!

يقول ألدوس هكسلي -فيلسوف وكاتب إنجليزي-: «بالنسبة لي وللكثيرين غيري، فإن فلسفة العدمية كانت أداة للتحرر. وإذا كان التحرر الذي نتوق إليه هو تحرر من بعض المنظومات السياسية والاجتماعية والأخلاقية، فإن اعتراضنا على الجوانب الأخلاقية يرجع إلى أنها تتعارض مع حريتنا الجنسية».[٢]

إذن الملحد -بسبب عوامل مختلفة سبقت الإشارة إلى بعضها- يعتبر أنّ إلغاء وجود الله تعالى من حياته شرط ضروري للحصول على الحرية والكرامة اللتين لا وجود أصيل للإنسان إلا بهما! فالملحد -كما يعرف كلُّ من حاور الملاحدة أو قرأ لهم أو سمع منهم- لم يلحد لأنّه لا توجد أدلة كافية على وجود الخالق سبحانه، بل لأنّه يرفض أن يوجد الخالق في حياته! ليست لديه مشكلة مع وجود الله من عدمه بحد ذاته، كما يقول الفيلسوف الفرنسي الملحد: «إن نفي الإله ليس غاية في حد ذاته، بل وسيلة تروم بناء أخلاق بعد-مسيحية، أو علمانية بحق».[٣] وإنما مشكلته الجوهريّة

---

(١) القيامة: ٥.

(٢) الإلحاد مشكلة نفسية. عمرو شريف ص١٩٨.

(٣) نفي اللاهوت ص٥٧.

هي أنّه لا يريد أن يتدخل الله في حياته بضوابط تشريعيّة «إفعل ولا تفعل»! إنّه يريده أن يظل الإله بعيدًا عن حياته، وأن لا يكون هو جوهرَ وجودها، لأنّه يعتبر هذا الوجود الإلهي في حياته ذلة ومهانة وعبوديّة وحرمانًا واحتقارًا! ومن ثمَّ فهو حريص -شديد الحرص - على رفض وجود الله تعالى في حياته، إذ هذا الرفض هو وسيلته الوحيدة -كما يتوهم!- لأن يشعر بالقوة بدل الضعف، وبالقدرة بدل العجز، وبالاستطاعة على الانتقال من الأوهام السخيفة والخرافات الساذجة إلى أنوار الحقيقة والعقلانية والإبداع!

باختصار يمكن أن نقول بأنّ الملحد يعتبر الأمر مسألة تحدٍّ: إذا كان الله موجودًا في حياتي عبر تعاليم شريعته فأنا بالضرورة غير موجود، إذ كان هذا الالتزام يعني بالضرورة تنازلًا صريحًا عن عقلي وحرّيتي وإرادتي! وإذا كنتُ أنا موجودًا بمعنى اكتفائي بالعقل والعلم وتمتعي بالإرادة والحرية والحياة التّي أريد وكما أريد، فالله بالضرورة غير موجود ولا يجب أن يوجد ولا معنى لوجوده! إنها ثنائية وجودية مطلقة لا خيار لي عنها، إما الله وإما أنا! لقد استطاعت فكرة الخالق أن تستعبد الإنسان، وأن تسلبنا «على وجه الخصوص تقديرنا لذاتنا كبشر».[1] أما أنا الإنسان المعاصر، إنسان العقل والعلم والحضارة، فقد استطعت أن أتغلّب على هذا الوهم وهذه الخرافة، وسرقتُ سرّ المعرفة من الإله المقدس، فعرفتُ أسرار الكون والحياة، وسأكتشف كل شيء، والمسألة مجرد وقت لا أكثر، فلماذا أظل تحت راية الإله!

---

(١) لماذا لست مسيحيًا. برتراند رسل ص٥٥.

يقول بيخو باريخ -بروفيسور النظرية السياسية في جامعة هال الأمريكية-: «على الرغم من أن الدين قد يقدم مساهمات إيجابية للحياة السياسية، فإنه قد يولّد آثارًا خبيثة وضارة كما يؤكد الليبراليون عادة، وهم مصيبون في ذلك. فالدين قد يكون إطلاقيًا، مغرورًا، واثقًا بصلاحه الذاتي، دوغمائيًا، وغير قادر على تقبل التسويات، كما أنه قادر على بعث الدوافع القوية واللاعقلانية أحيانًا، وقادر على زعزعة استقرار المجتمع بسهولة، مستببًا بالخراب السياسي، ومحولًا الأرض إلى جحيم حقيقي، كما أنه يضمر قيمًا ذكورية، ولديه نزعة نحو ممارسة العنف».[1]

إذن تمرد الملحد على الله تعالى، وإعلان الثورة عليه، إنّما هو في الحقيقة تمرد وثورة على صورة بائسة في عقله عن الله تعالى! فهو يتمرد ويثور على إله كاريكاتوري، همّه الوحيد تحطيم الطاقات العقلية والروحية والاجتماعية في الإنسان! إله يريد أن يظل الإنسان طفلًا صغيرًا، وتابعًا ذليلًا، بلا عقل ولا إرادة ولا حريّة! إله يستمد عظمته من هذا السحق المدمر والإذلال الفظيع الذي يريده ويمارسه على الإنسان وعلى مجتمع الإنسان! هذا هو الإله الذي لا يريده الملحد أن يتدخل في حياته، إنه يصنع إلهًا من الوهم ثم يهاجمه ويرفضه ويتمرد عليه، أو دعنا نذكّر بما اصطلحنا عليه سابقًا: (مغالطة إله القش). ومن ثم يرتعب خوفًا من مجرد التفكير في وجوده في حياته!

ولكن، في غمرة هذه الثورة الهائجة والحماسة الشاردة ينسى الملحد أن يسأل نفسَه سؤالًا بسيطًا وهو: لماذا أبحث عن الحريّة؟! إنّه سؤال ظاهره بسيط غير أنّ

---

(١) أسطورة العنف الديني. وليام كافانو، ص٦٦.

باطنه عميق الدلالة! والجواب عنه يُشكل ثورة مُزلزلة لصرح الإلحاد! إذ أنّ الملحد يعتقد أنّه كومة ماديّة، أصله خليّة تافهة تطورت عبر ملايين السنين، وحياته الشخصيّة والكائنات من حوله عبث، والوجود فوضى وعشوائيّة، كما أنّ مصيره بعد الموت هو التّراب والتحلل والفناء الأبدي؟! هذا الاعتقاد الإلحادي يتناقض جذريًّا مع مفاهيم الحريّة، الجمال، السعادة، العقل.. إلخ، لأنّ وجود هذه المفاهيم وحرص الملحد عليها وسعيه إليها واحتفاؤه بها، يُبرهن على إدراكه وإحساسه بأنّها قيم تستحق التضحيّة بكل شيء لأجل الحصول عليها والتّمتع بها. وليت شعري ما قيمة هذه المعاني الجميلة والمقدسة التي يبحث عنها الملحد، إذا كان كل شيء في الحياة -حتّى ذات الملحد- عبث؟! وإذا كل شيء -حتّى ذات الملحد- سينتهي بالموت الأبدي؟!

لقد توهم الملحد أنّه إذا أبعد الله تعالى عن حياته فإنّها ستكون أفضل وأروع، وستكون أسعد وأجمل، وسيكون أكثر حريّة وقدرة على الانطلاق! لكن في الواقع، صاحبنا الملحد لم يفعل شيئًا، سوى أنّه استبدل ألوهيّة حقيقيّة بأخرى مزيّفة، كما قال الملحد ريتشارد ليونتن -عالم وراثة أمريكي- «إن المادية هي المطلق، ولن نسمح للألوهية أن تقترب من الباب»![1] لقد أبعد الملحد الله تعالى عن حياته بُغية التحرر من العبوديّة، لكنّه وقع في هُوّة عبوديّة أشد بؤسًا، وأقسى ألمًا، وأفظع تدميرًا لإنسانيّاته.. وذلك حين صار عبدًا لأهوائه، وعبدًا للفوضى والعبث في كل شيء، وعبدًا لقوانين ماديّة يعتقد أنّه صارمة وحتميّة! ولهذا حرم نفسه من تحقيق معنى

---

(١) الإلحاد مشكلة نفسية. عمرو شريف ص٢٧٦.

إنسانيّته الجميلة! فالإنسان يستطيع أن يشبع غرائزه كافة وبأقصى ما يمكن من المتعة، لكنّ تذكر الموت يجعل كل تلك الشهوات والرغبات ضئيلة تافهة، بلا قيمة ولا معنى!

نستطيع أن نرصد معالم شخصيّة الملحد من منطلق سعيه المحموم إلى الحريّة، وتوقه العارم للحصول عليها:

✓ شخصية الملحد تطغى فيها الأنا بشكل هائل جدًّا، ولهذا فهو يريد أن يسير كل شيء في الكون والحياة على مزاجه وتصوره، وإلا فكل شيء خطأ وتزوير وشرور!

✓ شخصيّة الملحد منحرفة أخلاقيًّا، إذ رغبته الجامحة في حياة بلا قيود ولا حدود، تُحتّم أن يكون كذلك، لأنّ هذه هي الطريقة الوحيدة لإشباع نزعاته وشهواته!

✓ شخصيّة الملحد تطغى عليها السذاجة الفكرية، ولهذا فهو دائم البحث عما يبرر له قناعته ومواقفه وطبيعة نمطه في الحياة، ولهذا يرتعب من التفكير المنطقي!

✓ شخصيّة الملحد تعاني مأساة رهيبة ومهولة، لأنّه يجد نفسَه بين هواتف الفطرة وضغوطها وبين رغبته القوية في ألا يكون هناك إله ولا حياة بعد الموت، فمجرد تفكيره في احتماليّة وجود الإله والحياة بعد الموت يُحطم كل شيء في داخله!

هذه السمات الأربع في شخصيّة الملحد لا يمكن أن تنفك عن مفهوم الإلحاد، ولذلك لا يمكن -من الناحيّة النظريّة على الأقل- أن ينفك عنها الملحد! إن الإلحاد بحث عن الذات الآفلة، ولذلك يتمرد الملحد على الأديان وعلى آلهة الأديان، لأن

هذا الدين وهذا الإله قُدّم له أو فهم هو منه صورة مشوهة، مختزلة، ناقصة، ومتناقضة! ومن ثم، يتوهم عدم وجود الإله! والحقيقة أنّه إذا لم يكن الإله موجودًا، فليزم عن ذلك استحالة الإلحاد، أي استحالة أن يكتشف الإنسان الإلحاد، فأن تُلحد يعني أن تؤمن بالمعنى والغاية والقداسة، لكن الإلحاد لا يؤمن بهذا، إذن لا يمكن أن يكون هناك إلحاد. ولهذا، فالإلحاد في دلالته النهائية بحث عن الإله، ولكنه بحث مبهم وغامض! كما يقول علي عزب بيجوفيتش: «إن العدمية ليست إنكارًا للألوهية، ولكنها احتجاج على غيابها».[١] ذلك لأن الملحد إنسان قبل أن يكون ملحدًا، كما نؤكد دائمًا، وفطرة الإنسان لا يمكن أن تنفك عن ضرورة الإيمان، ولا عن صورة الكمال -مجملًا- الواجب للإله الخالق العظيم، كما نبّه القرآن على ذلك بقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾.[٢]

* * * *

(٩) الإيمان اكتشاف للذات

وإذا كان الإلحاد بحثًا عن الذات الآفلة، فإن الإيمان اكتشاف للذات الفطرية. ولقد ساعد المنهج القرآني الإنسان على اكتشاف ذاته الفطرية في إطار ستة نماذج كليّة، وهي باختصار:

---

(١) الإسلام بين الشرق والغرب ص١٣٨.

(٢) الأعراف: ١٧٢.

أولًا: نموذج التوحيد. لم يناقش القرآن قضية إنكار وجود الله تعالى، لأنها لازمة لمبادئ تكوين العقل، بل ناقش بمستويات مختلفة قضية إفراد الله سبحانه بالحاكميّة ببُعديها العبادي والتشريعي. ولهذا كانت دعوة الرسل جميعًا منحصرة في: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾.[1]

ثانيًا: نموذج الفطرة. نبّه القرآن الكريم العقل إلى حقيقته الأصليّة، وأنّها تشكيلة ربانية تتضمن مجموعة من الضوابط والمبادئ، ترجع كلّها إلى حقيقة واحدة هي الإيمان بوجود الإله الخالق: ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِ﴾.[2]

ثالثًا: نموذج التسخير. كشف القرآن للإنسان أنّ هذا الكون الذي يعيش فيه، مسخر له تسخيرًا دقيقًا، ولذا عليه أن يكتشفه لاستثمار ذخائره لصالح المهمّة الكبيرة التي انتدبه الله تعالى لها من بين كافة الكائنات: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ﴾.[3]

رابعًا: نموذج التراحم. أخبر القرآن بأنّ قواسم: الفطرة، العبادة، التسخير، المصير، تُحتّم على الإنسان أن يحرص على إشاعة نفحات التراحم بينه وبين باقي أفراد المخلوقات: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ﴾.[4]

---

(١) الأعراف: ٥٩. و: ٦٥. هود: ٦١. المؤمنون: ٣٢.

(٢) الروم: ٣٠.

(٣) الجاثية: ١٣.

(٤) الحجرات: ١٣.

خامسًا: نموذج القيمة. وضح القرآن الكريم حقيقة جوهرية بخصوص معيار قيمة الإنسان، ألا وهو التقوى، التي تتضمن التوحيد، السلوك، التشريع، وبهذا تجاوز كل معايير الأرض، وربط الإنسانَ بهذا المعيار الحقيقي: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾.(١)

سادسًا: نموذج الخلود. كشف القرآن للإنسان أنّه مخلوق للخلود. ومن ثمَّ فوجوده في عالم الفناء وجود مؤقت لا يلبث أن ينتقل منه إلى عالمه الحقيقي، ولهذا يجب عليه أن يمارس نشاطاته المختلفة بهذا الإدراك والإحساس: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾.(٢)

إنّ ثمرات هذه الصياغة الجديدة التي حرص القرآن على إعادة تشكيل وعي الإنسان وفقها هي:

أولًا: ثمرة التقدير الذاتي. لقد عرف الإنسان قيمته وحقيقته وطبيعة مهمّته ومصيره بعد الموت. ولا شك أنّ هذه المعرفة تُفيض فيه دفقات هائلة من مشاعر التميّز والتقدير الذاتي، وهذا يملؤه سعادة وسلامًا. ومن هنا يعيش الإنسان الربّاني في ظلال القرآن، رحابة في العقل وامتلاءً في الوجدان وتجاوزًا لتلك الحدود والقيود التي تُكبّل الإنسان وهو بعيد عن الله ﷻ.

ثانيًا: ثمرة الإحساس بالمسؤوليّة. لقد عرف الإنسان أنّه ليس مخلوقًا عاديًا، بل هو كائن عظيم، ولهذا من الطبيعي -بل الضروري- أن يستشعر المسؤوليّة

---

(١) الحجرات: ١٣.

(٢) الانشقاق: ٦.

الجليلة الملقاة عليه، والتي اصطفاه الله تعالى لأجلها من بين سائر الكائنات. ولا شك أنّ إحساس المسؤولية سيجعله يقظًا في كل نشاطاته وحريصًا على التعامل مع الحياة بروابطها وأحداثها وأشخاصها بمعانيها الصحيحة.

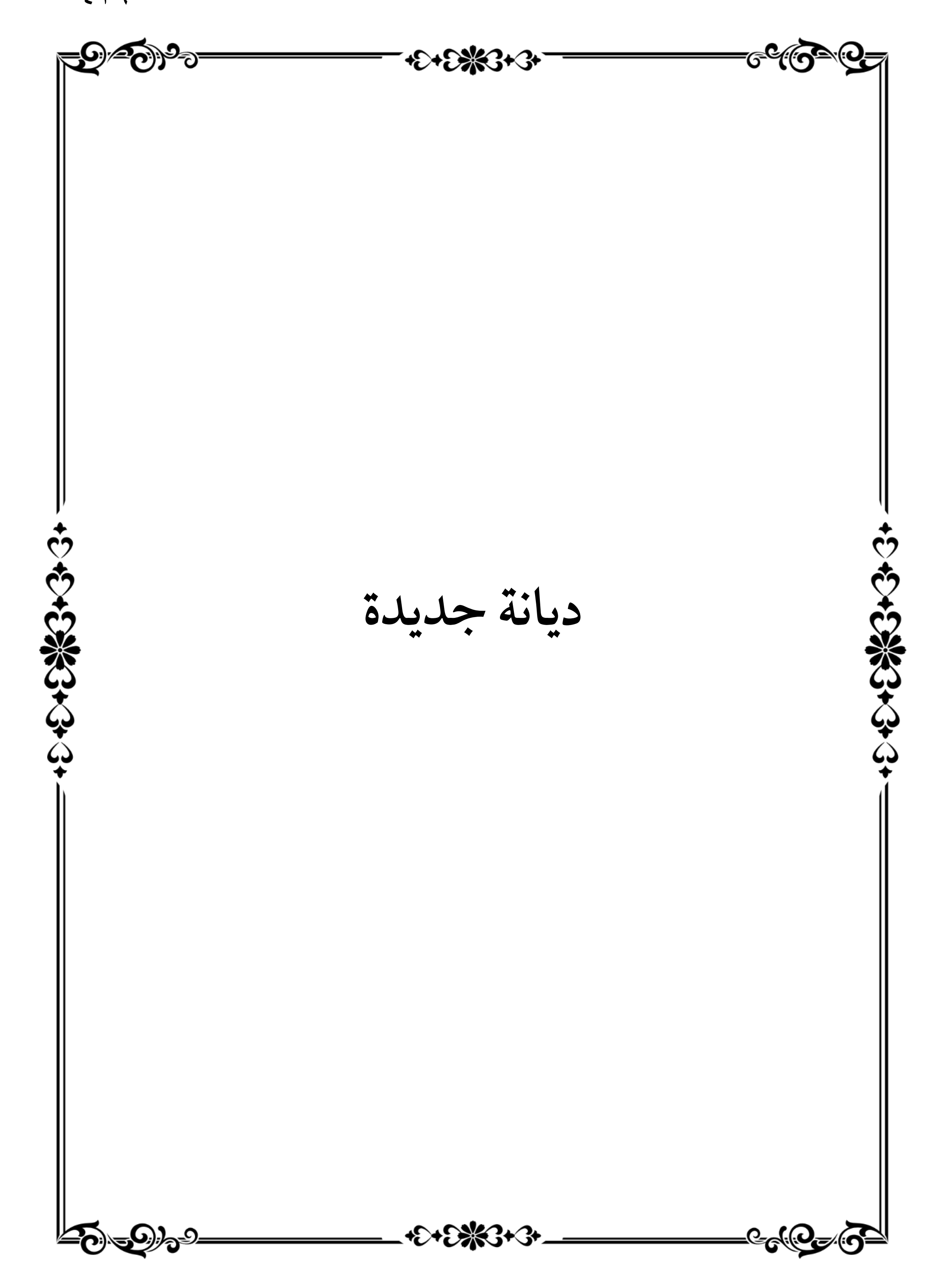
ثالثًا: ثمرة السعادة الأبدية. إن أجمل إحساس يمكن للإنسان أن يتنسّم جماله ويتذوق روعته في ظلال الإسلام، لهو إحساس الخلود وأنّه يمكن في أية لحظة أن ينتقل من ضيق الدنيا إلى رحابة الأبديّة. ولا جرم أنّه شعور يُفيض في الإنسان إدراكات ثرية ومشاعر عميقة. ولهذا يكون المسلم على صلة دائمة بذاته الحقيقيّة بشتى أبعادها، وبحقيقة فطرة الوجود بمختلف تجلّياتها، وبحقيقة الأبديّة بجميع مظاهرها، وفوق هذا كله بالحقيقة الكبرى والمطلقة.. بالله جل جلاله .

فقارن هذه الحقائق، وقارن هذه الشخصيّة الرّبانيّة، بحقيقة الإلحاد وشخصيّة الملحد.. حقيقة الإلحاد الذي يزعم أنّها أرحام تدفع وأرض تبلع، وحقيقة الملحد الذي يشعر أنّ أصله حيوان وأنه كومة ماديّة وأنّ مصيره الفناء الرهيب!

نخلص من هذا التحليل إلى تقرير حقيقة أن بحث الملحد عن الحريّة، وتمرّده على فكرة الإله الخالق بسببها، هو نفسه برهان ساطع على إيمان الملحد المتخفي بضرورة وجود الإله الخالق العظيم. ذلك لأنّه بدون وجود هذا الإله الذي يُمثل المطلق والمقدس المتعالي، فإنّ قيمة الحريّة تكون بلا معنى! فالبحث عن الحريّة يفترض تمايزًا جذريًّا بين كينونة الملحد (الإنسان) وكينونة الطبيعة (المادة)، أي مقدرة الملحد على تجاوز إطار الطبيعة (المادة) إلى مستوى أعلى منها. ومن ثَمَّ يكون السؤال الجوهري هو: من أين اكتسبت الحريّة قيمتها المتعاليّة على المادة؟!

وكيف يُفسر الملحد قيمة الحريّة في الإطار الإلحادي المادي، الذي يرى أنّ كل شيء عبث وفوضى؟! وحتّى إذا سفه سفيه من الملاحدة، فقال بأنّ الأمر يرجع إلى التطور الذي صاحب نشوء الإنسان وتطوره، فإنّنا نقلب عليه وهمه هذا، بالسؤال عن أول إنسان بحث عن الحريّة وسعى إليها: لماذا بحث عنها؟ أليس البحث يدل دلالة واضحة على وجود غريزة الحريّة في الكينونة الإنسانيّة كما أن العطش يدل على وجود شيء اسمه الماء؟ وعلى علم مسبق باحتياج الإنسان إليه وهو يخوض غمار حركة الحياة ونشاطاتها وعلاقاتها؟ ولكن الملاحدة قوم لا يعقلون!





ديانة جديدة

(١) حماسة الترويج للإلحاد

لا تخطئ عين المراقب تلك الحماسة الهائجة وذلك الاندفاع العارم لدى الملاحدة في الترويج للإلحاد والعمل على نشره وإشاعة أفكاره ومبادئه، بل وعرضه على أنه البديل الأفضل والخيار الأمثل لكل الأديان عمومًا وللإسلام خصوصًا! وفي سبيل ذلك يبذلون الكثير من الجهود ويحرصون على استغلال كل الوسائل والإمكانيات لتحقيق أحسن النتائج، سواء في مستوى هدم الإيمان، أم في مستوى احتلال مواقعه! ولهذا، فالملحد اليوم لا يمكنه إنكار سلطة الهم الدعوي على تفكيره ومشاعره وأهدافه ونشاطاته، فـ «مسألة حمل الهم الدعوي لدى الملاحدة الجدد، والسعي في كسب الأتباع والمتحولين قضية حاضرة جدًّا في العقلية الإلحادية الجديدة».[١] ويقول هيثم طلعت: «التبشير الكهنوتي بالإلحاد صار سمة الملحدين الجدد».[٢] وهذا ما يعترف به الزعيم السوفيتي لينين: «برنامجنا يتضمن بالضرورة الترويج للإلحاد».[٣] بل أحد كهنة الإلحاد الكبار، وهو ريتشارد دوكنز، يعترف بكل صراحة بأن له ولأصدقائه الملاحدة رسالة ومهمة مقدسة ألا وهي التبشير بالإلحاد بين البشرية، يقول: «أنا كملحد، وكذلك أصدقائي الملحدون، نرى في أنفسنا أننا أدّينا غرضًا لحياتنا، وذلك باتخاذ موقف تجاه العالم، وواجهنا البشرية بالحقائق، أخبرناهم بأننا ليسنا مخلدين، ولن تبقى أرواحنا للأبد، وعلينا أن ننتفع مما هو ممتاح

---

(١) مليشيا الإلحاد. عبد الله العجيري ص٢٤.

(٢) الإلحاد يسمم كل شيء ص٦٧.

(٣) طلاسم نجسة. محمد الهبيلي ص٣٣.

من الوقت لوجودنا على ظهر هذا الكوكب، وعلينا أن نجعله على أفضل ما يكون، وأن نحاول تركه على هيئة أفضل مما وجدناه عليه».[(١)] قلت: لكنه، هو وأصدقاؤه لم يخبرونا لماذا يقومون بذلك؟! ولماذا يريدون منا تصديقهم؟!

يتجلّى هذا الحرص الدؤوب من طرف الملاحدة، في إنشاء عشرات المواقع والمنتديات والقنوات على يوتيوب والحسابات والمجموعات في مواقع التواصل الاجتماعي، والقيام بإلقاء المحاضرات وعقد الندوات والمناظرات، واستغلال البرامج والوثائقيات والأفلام لتمرير الأفكار والرؤى الإلحادي، واستغلال شعارات برّاقة كالعقل والعلم والحريّة والتقدم، من أجل تزيين الإلحاد، في مقابل اتهام الإسلام خصوصًا والأديان عمومًا بالتخلف والرجعيّة والدروشة! كل ذلك من أجل نشر شبهاتهم ومغالطاتهم (مستوى الهدم)، وللتبشير بالفردوس الإلحادي (مستوى الاحتلال). بل تجاوز بهم الأمر إلى استعمال السلطة لصد كل تشكيك في أطروحة التطور الدارويني أو التوكيد على وجود التصميم والنظام في الكون، من خلال سحب دعم البحوث العلمية ممن يقوم بهذا التشكيك أو الإثبات مع الطرد النهائي من الجامعة.[(٢)]

---

(١) حوارات سيدني ص٢١.

(٢) يمكن أن نذكر هنا كيف لجأ الدراونة في أمريكا إلى المحاكم لمنع تدريس مبدأ التصميم الذكي القائل بوجود خالق وراء تصميم الحياة. ففي عام ١٩٨٢ في ولاية آركانساس، وفي عام ١٩٨٧ في ولاية أريزونا، وفي عام ٢٠٠٥ في ولاية بنسلفانيا، رُفعت قضايا ضد تدريس البيولوجيا من خلال التصميم الذكي في المدارس بهذه الولايات. وحكم القضاة لصالح الملاحدة، بدعوى أن التصميم الذكي ليس علمـًا! لأنّه لا يخضع للملاحظة، ولا =

ويمكن أن نُذكّر هنا بما فعله الاتحاد السوفيتي لنشر الإلحاد بين الشعوب التي تقع تحت سلطانه، فقد مارس منتهى الإرهاب والفظاعة لغرس الإلحاد في النفوس والعقول، وفرض على الناس بالحديد والنار تبني الرؤية الشيوعية المادية الإلحادية! بالإضافة في الصين وما فعلته في عهد ماو تسي تونغ، وما تفعله حاليًا بحق المسلمين الإيغور، معتبرة أن الإسلام خطر شديد يجب التخلص منه، ومن ثم قامت بفصل آلاف الأطفال المسلمين عن آبائهم لغسل أدمغتهم، أما الشباب والرجال وحتى النساء فهم يتعرضون للتعذيب والعبودية والاغتصاب! وهناك من يذهب إلى أن الصين بدأت بالمسلمين وستأتي لاحقًا على كل أتباع الأديان الأخرى الذين يعيشون تحت سلطتها!

هذه الملحوظة -أعني هذا الحشد والدعم المتنوع والذي تُنفق عليه الأوقات الطويلة، ويُضحى له بالجهود الكبيرة، وتُرصد له الأموال الطائلة، ويشترك فيه أصحاب السلطة العليا والمال والسياسة- التي لا يمكن للملحد نفسه أن ينفيها وينكرها -ولا أتحدث هنا عن الأتباع الذين لا يعرفون أصلًا لماذا هم ملحدون!-

---

= للتكرار، وللاختبار، وهو مرتبط بما وراء الطبيعة! انظر: صخور الزمان. ستيفن جاي جولد/ ص١٥٣. كأنّ خرافة التطور خاضعة للملاحظة، وممكنة التكرار، وخاضعة للاختبار، ولا ترتبط بالميتافيزيقا! ولكنه الاستقواء بالسلطة الحاكمة! كما أنّ الفيلم الوثائقي المنشور على يوتيوب «مطرودون»، يكشف لنا كيف يستغل الملاحدة -بمختلف أشكالهم- في أمريكا سلطتهم لطرد وملاحقة كل عالم تُسوّل له نفسه تفنيد التطور ونقد خرافات الدراونة وكشف زيوفهم.

تؤكد لنا على حقيقة في غاية الخطورة، ألا وهي أن الإلحاد الذي يُعرض بديلًا للأديان، من حيث كونه منظومة شمولية في المعرفة والرؤية، والشعارات والرموز، وفي السلوك ومنهج الحياة، لا يمكن نفي سمة الديانة عنه، أي إن الإلحاد في واقعنا المعاصر تحول إلى ديانة جديدة، لها مقدساتها ومعاييرها ورموزها وأهدافها! بل هو حريص كل الحرص على فرض معتقداته ومقدساته على كل أفراد النوع البشري. يقول كلنت فلنتلي -كاتب ملحد-: «اتضح لي أن الإلحاد الجديد لا يدعو إلى حرية المعتقد، بل إلى فرض المعتقدات الشخصية على الناس»، يعلق الأستاذ الهبيلي قائلًا: «الإلحاد الجديد ليس دعوة لتحكيم العقل والعلم والمنطق، بل رؤية وهدف تمت صياغته بشكل واحد غير قابل للتعدد، دعوة إلى التقسيم، إلى الإقصاء، دعوة إلى تحطيم الطبيعة الإنسانية في الاختلاف والتعدد التي طالما ميزتنا كبشر».[١]

يعترف الملحد ديفيد سلون بهذه الحقيقة، فيقول بوضوح وصراحة: «يمتلك الإلحاد الجديد كل سمات الدين المتخفي، بما في ذلك حالة الاستقطاب التي تشخّص نظامه الاعتقادي، والذي يُمثّل كل شيء على أنه حسن حسن، حسن وسيئ، سيئ سيئ.. بالإضافة إلى سلطة قادته المتعالية على النقد».[٢] أي إن خطة الإلحاد اليوم لا تقتصر على قناعة شخصية تتعلق باعتقاد عدم وجود الإله، بل تتجاوز ذلك إلى العمل على صياغة نسق شامل ومتكامل للشخصية والفكر والواقع، ومن ثم ضرورة التبشير بهذه الديانة البديلة المؤسسة على أنقاض الأديان! كما اعترف بذلك

---

(١) طلاسم نجسة. محمد الهبيلي ص١٥٤.

(٢) ثلاث رسائل في الإلحاد والعلم والإيمان. عبد الله الشهري ص٢١.

صراحة الزعيم السوفيتي الملحد فلاديمير لينين: «برنامجنا يتضمن بالضرورة الترويج للإلحاد».[١]

وهذا ما صرّح به الملحد الفرنسي ميشيل أونفري، قائلًا: «إن نفي الإله ليس غاية في حد ذاته، بل وسيلة تروم بناء أخلاق بعد-مسيحية، أو علمانية بحق». لماذا؟ يجيبنا ببساطة قائلًا: «لأن الله موجود فكل شيء مباح». ردًا على مقول «إذا كان الله غير موجود فكل شيء مباح»! ولذلك يؤكد على أن المستقبل للإلحاد: «بما أن عصرًا مسيحيًا قد عقب عصرًا وثنيًا، فإن عصرًا ما بعد مسيحي سيواصل المسير حتمًا، وتؤكد فترة الاضطرابات التي نعيش في خضمّها أن اللحظة هي لحظة إعادة تشكل للقارات، وهنا تكمن أهمية مشروع نفي اللاهوت الإلحادي».[٢] ولست أدري لماذا يفترض أن التاريخ يسير في طريق تتويج الإلحاد!

وقضية الدعم والترويج الدؤوب والهائل، تبدو طبيعية جدًّا حين نقرأها في إطار سعي الإلحاد الجديد لأن يكون ديانة جديدة، بديلًا عن الديانات المختلفة. ذلك لأنّ كل ظاهرة اجتماعيّة لا يمكن أن تحقق الانتشار بين أفراد المجتمع أو بين الفئة المستهدَفَة إلا بعد حصولها على الدعم الكافي والتأييد الوافي من جهات تملك القدرة والسلطة والفاعلية في التأثير، ولديها هي نفسها رغبة قوية في شيوع هذه الظاهرة وهيمنتها ورسوخها من أجل تحقيق أهداف معيّنة، لها علاقة بأجنداتها الخاصة! وحين تفقد هذا الدعم والتأييد، فلا شك أنّ جذوتها تخمد سريعًا وتموت

(١) طلاسم نجسة. محمد الهبيلي ص٣٣.

(٢) نفي اللاهوت ص٥٧-٥٨-٧٤.

وشيكًا. ومن هنا؛ فالعلاقة بين الظاهرة وبين عملية الترويج والإشاعة علاقة وثيقة للغاية، ولا يمكن الفصل بينهما، لأنّ هذا الفصل يعني الموت الحتمي للظاهرة في المدى القصير جدًّا!

إنّ مراقبة حركة الواقع المعاصر في العالم العربي والإسلامي تؤكد بما لا يدع مجالًا للشك، أن هناك جهات مختلفة تقدم دعمًا هائلًا للإلحاد العربي، من مصلحتها انتشار الإلحاد -بمختلف أشكاله واتجاهاته- بين الشباب المسلم، وأنّها هي التي تمده بأسباب البقاء والانتشار! ولا نحتاج لكثير تأمل في سر هذا الدعم والحرص الشديد، لنكتشف بأنّه يكمن في كونهم يعتبرون أن القضية قضية معركة أفكار وعقائد وقناعات، ولذلك لابد من المواجهة ولابد من الانتصار فيها باستعمال واستغلال كل الوسائل والآليات الممكنة والمتاحة، وحتى القذرة، إذ يعتبرون الإسلام وباءً يجب التخلص منه، وخرافة ينبغي تطهير العقول منها، وأنّ إخراج المسلم من الإسلام والإيمان ليلتحق بركب التطور والنموذج المادي شرف عظيم له، كما أنّهم يعتبرون الإسلام والعقيدة الإسلامية العقبة الكأداء في طريقهم نحو الهيمنة المطلقة والطويلة المدى على المواقع الاستراتيجية في السياسة والاقتصاد العالمي، إذ لا يمكن تحقيق السيطرة الاقتصادية ما لم تتم العلمنة الشاملة للوعي والشعور وأنماط الحياة، أي تحقيق الفصل والسلخ عن عقيدة الإله ليظل الإنسان مستغرَقًا في عالم الشهوات والماديات!

ولذلك من الخطأ البيّن النظر إلى الإلحاد والترويج له بين الشباب المسلم وفي المجتمعات المسلمة بعيدًا عن معركة الأفكار والقناعات والثقافات التي يشنّها

الغرب على الإسلام والمسلمين بمختلف الطرق والوسائل والأساليب، وبعيدًا عن هدف تدمير الأسرة الإسلامية وعلمنة الشخصية الإسلامية وصهرها في بوتقة الهوس المادي والسعار الشهواني، لتظل عملية الاحتلال الاقتصادي ونهب ثروات البلاد وكنوزها مستمرة بلا انقطاع!

* * * *

(٢) الإلحاد بديل أفضل!

إذا نظرنا مليًّا في القضية؛ سنجد أنّه ما كان ليتم لزعماء الإلحاد الجديد أمرهم وانتشار أفكارهم وتحقيق أهدافهم، إلا بعرض الإلحاد بديلًا أفضل ومنظومة مكتملة الأركان والمقومات، بإمكانها أن تسد مسد الأديان عمومًا والإسلام خصوصًا. أي إن الحرص على هذه الشمولية في الطرح الإلحادي والظهور بمظاهرها يأتي في سياق الحرص على إقناع الأتباع والمستهدفين به بأنّ الإلحاد قادر على تلبية احتياجاتهم المختلفة، المعرفية والقيمية والسلوكية والاجتماعية، وبأنّه قادر على عرض تفسيرات جديدة وعقلانية وعلمية وموضوعية، بدل تلك التفسيرات الخرافية واللاعقلانية واللاعلمية التي تقدمها الأديان الأخرى عمومًا والإسلام خصوصًا! وهذا عند التأمل يرجع إلى أن الإنسان بطبعه لا يمكن أن يعيش في العراء بلا عقيدة ولا رؤية شمولية، بغض النظر عن قيمتها في ميزان الحق، بل كل أفكار الإنسان وقناعاته ومواقفه وأنماطه وثيقة الصلة برؤية وجودية معينة.

يشرح يوري غلازوف سر قوة الماركسية في الاتحاد السوفيتي السابق، فيقول: «الاتحاد السوفيتي هو بلد الأيديولوجية الماركسية اللينينية الرسمية، هذه

الأيديولوجية التي تتغلغل في كافة مستويات المجتمع تغلغلًا شاملًا ومستعصيًّا قد يفوق تغلغل الدين في ظل أي حكومة كهنوتية... من الخصال التي يتسم بها المواطن السوفيتي أنه ينتقد النظام أو أيديولوجيته في بعض تفاصيلها، ولكنها لا ينتقده أبدًا في مجمله، وكلما تعمق الفرد في دراسة الماركسية اللينينية تفاقهم إحساسه بأنه رغم معارفه وخلفيته عاجز عن الإطاحة بالتراث الماركسي، ذلك أنه يشعر برهبة استثنائية إزاء تصوره أنه سيجد نفسه في الخواء دون أي نظرية أو أيديولوجية البتة. إذ ليس لديه أي شيء يستعيض به عنها، لا نظرية مقبولة ومختبرة، ولا منظور عالمي له مثل هذه السمات».[١] ويقول وليام كافانو: «إن المثال الرئيسي للدين السياسي في الغرب هو الماركسية/ الشيوعية والفاشية. لقد تم الحديث عن الماركسية كدين منذ أيام ماركس. وفقًا لستيرنر، فإن الشيوعية تمجد الإنسان إلى نفس الدرجة التي تمجد بها الأديان الأخرى إلهها أو رمزها. كما أن لودفيغ فيورباخ كتب في ١٨٤٢ بأن علينا أن نصبح متدينين من جديد، ينبغي أن تصبح السياسة ديننا».[٢]

كل هذا يساعدنا على فهم سر حرص أرباب الإلحاد المعلن والمتخفي على نشر العلمانية والليبرالية والحداثة والنسوية والمفاهيم المادية، وبذلهم الجهد الجهيد في سبيل تحويل هذه الرؤى والأفكار والأطروحات إلى ثقافة ورؤية شعبية![٣] بسبب أن «الثقافة الشعبية تؤثر في الناس بشكل يفوق الكتابات النظرية

---

(١) العلم في منظوره الجديد. روبرت أغروس، جورج ستانسيو ص١٣٣.

(٢) أسطورة العنف الديني ص١٧٤. بتصرف يسير

(٣) في معرض الدار البيضاء للكتاب لعام (١٤٤٠-٢٠١٩)، تم عرض كتاب لملحد مغربي باللهجة العامية، فتأمل! بالإضافة إلى عملية التفسيق الأخلاقي والقيمي وتفكيك الأسرة =

والمنهجية».[١] ويتم كل ذلك -بالإضافة إلى استغلال وسائل التواصل الاجتماعي المختلفة، واستعمال اللهجات العامية، وخطابات شعبية قريبة من عقول المراهقين والشباب- عبر القيام بأنشطة مكثفة ومتنوعة تصب كلها في النهاية في ترسيخ الأفكار العلمانية والليبرالية والنسوية والإلحادية، وأيضًا من أجل أن يشعر هؤلاء الأتباع والمقلدون بالقيمة والتقدير والدعم النفسي، وبأنهم جماعة متميّزة، عقلانية، وعلمية، ومتحضرة، وأن اختيارهم للإلحاد قرار صحيح بلا أدنى شك! ولهذا «يعتبر الكثيرون من علماء النفس أن الملاحدة يعانون عقد نقص، وللهرب مما تسببه هذه العقدة من الشعور بالدونية وعدم الشعور بالأمان فإنهم يكبتون هذه المشاعر ويستبدلون بعقدتهم عقدة التعالي، وهذا ما يجعل الملاحدة يشعرون بأنهم متميزون وأنهم أفضل من الآخرين، ومن أجل إشباع هذه العقدة يسعى الملاحدة إلى الشهرة».[٢]

بل لهذا أيضًا يحرص الزعماء على الإشادة بالملاحدة والزنادقة عبر التاريخ وفي كل المجتمعات، واعتبار من قُتل منهم شهيدًا من شهداء الفكر الحر، ومن شهداء الإنسانية، ومن ثم يضفون عليه معاني التبجيل والإطراء، ليكونوا قدوات للملاحدة الأتباع، وليشعروا أن قلتهم عبر التاريخ الطويل ومحاربتهم في كل المجتمعات ليست لأن موقفهم العقدي والفكري خطأ وانحراف، بل لأن الجمهور

= وخلق نزعة الصدام في المرأة تجاه الرجل، كما يتم ذلك في المسلسلات المدبلجة إلى اللهجات المحلية، وكذا الوثائقيات والبرامج والأدب الجديد.

(١) الثقافة والمنهج. عبد الوهاب المسيري ص١٧١.

(٢) الإلحاد مشكلة نفسية. عمرو شريف ص٢٠٤.

هم الذين في عقولهم خلل وعجز وقصور، ويؤثرون الخرافة على التنوير والحقيقة! يقول محمد عبد الحميد الحمد: «أكثر مَن نُسب إلى الزندقة هم من المفكرين الأحرار، الذين قد يخرجون في اجتهاداتهم عن التصورات الدينية المألوفة في مواضيع خاصة حول علاقة الإنسان بالباري سبحانه، أو حول دور الأنبياء والرسل، أو حول إعجاز القرآن ومعجزات الرسل».[1] بل يعترف جمال جمعة بأن كتابه (ديوان الزنادقة) الذي جمع فيه أشعارًا كثيرة تتعلق بالطعن في الدين والإله والنبوة والقدر والشرائع، جاء لأنه خشي «أن يأتي اليوم الذي لا نجد فيه سطرًا واحدًا منها أو شاهدًا شعريًّا يفصح عن أفكارهم للأجيال القادمة».[2]

يحدثنا ويرليمان -كاتب ملحد، وناقد لغلاة الملحدين- كيف أن زعماء الإلحاد الجديد في أمريكا والغرب عمومًا يحرصون على تنظيم أنفسهم والتواصل مع أتباعهم عبر المؤتمرات وإلقاء المحاضرات -المدفوعة، وتتراوح قيمة التذكرة بين ٢٠٠ إلى ٣٠٠ دولار- وأنه في معظم المؤتمرات يكون نفس الطرح، حيث يستمع الحاضرون إلى «قصص شخصية من الإكراه على الدين والاضطهاد الديني، جنبًا إلى جنب مع السخرية من المعتقدات القديمة والثناء على التقدم العلمي والتكنولوجي. وتكون عبارة مثل «الجنس البشري يتقدم إلى الأمام، لأن الدين يتراجع إلى الوراء» هي المنبر الذي يلقي من فوق كل متكلم خطابه. أما النص الفرعي لكل هذه العروض تقريبًا فهو واحد «كيف تحوّل صديقك المتدين، عائلتك

---

(١) الزندقة والزنادقة ص١٤٧.

(٢) ديوان الزنادقة ص٢٩.

المتدينة، جارك المتدين إلى الإلحاد»».[١] ويقول عبد الله العجيري في بحثه حول الإلحاد المعاصر: «يبدو أن إيجاد الروابط الاجتماعية الإلحادية باتت قضية مهمة عند كثير منهم وأصبحت مسألة يحرص عليها، فثمة شعور متزايد عند الملاحدة بأهمية تغذية نزعة الانتماء، وإذا كانت الأديان تغذي هذه النزعة بمظاهر التجمع والدعوة لممارسة الشعائر والطقوس وغيرها، فليكن للملاحدة ما يغذي هذه النزعة أيضًا».[٢] وهذا ما يقوم به زعماء الإلحاد العربي وإن في حدود أضيق في وقتنا الحاضر، لاعتبارات مختلفة وقاهرة!

يمكن القول، بأن زعماء الإلحاد، عبر تحركاتهم الدائبة، التي تظهر في الندوات والمحاضرات والمناظرات، كما في الكتب والمقالات والفيديوهات، يحرصون على إنشاء وهم كبير لدى الأتباع، هذا الوهم يتجلى في ستة مظاهر كبرى، وهي:

أولًا: وهم القوة. عبر إيهام الأتباع بأن قوة الملاحدة في العصر الحديث باعتبارهم جماعة متميّزة بفكرها ورؤاها وأهدافها، لا تزال تزداد قوة باطراد.

ثانيًا: وهم الفاعلية. عبر إيهام الأتباع بأن الملاحدة في العصر الحديث لديهم فاعلية قوية استطاعوا بمجهوداتهم أن يقفوا وجهًا لوجه مع أتباع الأديان والإيمان.

ثالثًا: وهم الإنقاذ. عبر إيهام الأتباع بأن الإلحاد في العصر الحديث لديه رسالة مقدسة، وهي إنقاذ الناس من خرافات الأديان والإيمان، ليعيشوا بحرية وسلام وسعادة.

---

(١) مهددات الإلحاد الجديد ص٤٧.

(٢) مليشيا الإلحاد ص٣٩.

رابعًا: وهم الحقانية. عبر إيهام الأتباع بأن الإلحاد قناعة تتطلبها اللحظة الحضارية الحالية، فهو الحق المطلق أدركه الملحد، أما الإيمان والإله والدين فمجرد زيوف وخرافات.

خامسًا: وهم العقلانية. من خلال العمل على تصوير المؤمن في صورة الملوث فكريًا والضعيف عقليًا، أما الملحد فهو المستقيم في عقله وتفكيره، ولا هم له سوى الحقيقة.[١]

سادسًا: وهم المستقبل. النتيجة الطبيعية للأوهام السابقة، هي إيهام الأتباع بأن حركة المستقبل تتجه حتمًا نحو الإلحاد، وفي الإلحاد سيتحقق للإنسان الفردوس المنشود.

فهذه الأوهام الستة التي يعمل زعماء الإلحاد الجديد على ترسيخها في أذهان ونفوس أتباعهم، بل وضعاف المؤمنين المتابعين لهم، لا شك أنها تمنح الملحد شيئًا من إحساس العزاء، وشيئًا من شعور القيمة والتقدير، وشيئًا من الأصالة والانتماء والجذور!

* * * *

(١) يقول هادي المدرسي: «الغريب أن الملحدين يستهزئون من فكرة المقدس، ولكنهم ينصبون لأنفسهم مقدساً اسمه الإلحاد، فمن لا يؤمن بالإلحاد فهو عندهم ملوث في فكره وعقله، ومن أصبح ملحداً فهو طاهر مقدس». حوار ساخن عن الإلحاد ص٢٦٦.

(٣) الإلحاد عقيدة جديدة

إن الملاحدة اليوم يعرضون الإلحاد في شكل عقيدة، وإيمان، ورؤية محيطة - وإن كانوا يرفضون تسمية الإلحاد بأنه عقيدة وإيمان- وهم بلا شك صادقون ومحقون في هذا العرض، إذ إن الإنسان لا يقوم إلا بوجود عقيدة ما، ولا بد له من الإيمان، إن حقًا وإن باطلًا، ذلك لأنّ محرك الإنسان في مختلف نشاطاته وعلاقاته هو الإيمان بفكرة، مبدأ، شيء مقدس. فلولا الإيمان لما استمرت حركة الإنسان ولما تقدمت خطوة واحدة، ولما حقق طموحاته ولما بلغ قمم النجاح والمجد الذي ينشده. وكل هذا لأن طبيعة الإنسان تستلزم الإيمان ليكون نبراسًا لفكره ووقودًا لروحه وطاقة لنفسه. فالذين يعتقدون أنهم تحرروا من الإيمان إنما يعيشون في وهم كبير، إذ إن انفصالهم عن الإيمان الإلهي، أي الإيمان بوجود الإله، لا ينفي اتصالهم بالإيمان الأهوائي، أي الإيمان بالأباطيل واتّباع الأهواء، وتنصيب أشياء أخرى كالعلم والطبيعة آلهة يُضفون عليها القداسة والعظمة والمجد. يقول ديفيد لوي مؤلف كتاب «دين السوق»: «إذا تبنينا الرؤية الوظيفية وفهمنا الدين على أنه ما يُقدم لنا أساسًا نقف عليه عبر تعليمنا ما هو العالم وما هو دورنا فيه، حينها سيكون من الواضح لنا أن الأديان التقليدية أصبحت أقل تحقيقًا لهذا الدور، لأن أداء هذه الوظيفة أصبح مناطًا بأنظمة اعتقاد وأنظمة قيم أخرى. فقد اصبح العلم اليوم بديلًا أقوى لتفسير العالم، وأصبحت الاستهلاكية نظام قيم أكثر جاذبية، أما سلالة الأديان الأكاديمية فهي الاقتصاد، الذي أصبح أكثر العلوم الاجتماعية تأثيرًا. واستجابة

لذلك، فإن هذا البحث يحاجج بأن نظامنا الاقتصادي القائم ينبغي أن يُفهم باعتباره ديننا، لأنه أصبح يحقق وظيفة دينية بالنسبة إلينا».[١]

فالقضية كلها -حين التأمل الموضوعي- إنما هي انتقال من الإيمان الحق ولوازمه ومقتضياته إلى الإيمان الباطل ولوازمه ومقتضياته! أي أن الملحد في الحقيقة لم يفعل شيئًا، سوى أنه غيّر ولاءه وانتماءه، وانتقل من فضاء إيماني معيّن (الإسلام) إلى فضاء إيماني آخر (الإلحاد)، ومن التقديس للإله الخالق إلى التقديس للذات، الصدفة، المادة، الهوى! لأنّ الإنسان لابد له من (مقدس مطلق) يمنحه الشعور بالقيمة والمعنى والغاية!

يقول الدكتور عبد الجلي الكور: «إن الذين يعتقدون أنهم لم يعودوا يؤمنون بالله نجدهم يؤمنون حتمًا بكل ما يقع تحت إدراكاتهم (الحسية بالأساس) من زينة/ متاع هذا العالم الدنيوي أو بكل ما تشرئب نحوه أهواؤهم أو تتعلق به آمالهم فيتفانون في الاستمتاع به استكثارًا منه واستهلاكًا له. ولولا إيمانهم بشيء من هذا، لما استطاع أحدهم أن يقوم بأصغر خطوة في طلبه».[٢]

ولذلك وصف الله سبحانه الكفار بأنهم يؤمنون بالباطل، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.[٣] والباطل قد يكون في شكل حسي كالأوثان والأصنام والزعماء والأباطرة، وقد يكون في شكل معنوي كالهوى

(١) أسطورة العنف الديني. وليام كافانو ص١٦٩.

(٢) لماذا لست ملحداً ص٦٦.

(٣) العنكبوت: ٥٢.

والعلم والطبيعة. وأشد أنواع الباطل الإلحاد، إذ الباطل هو كل ما يكون ضد الحق والتوحيد والعدل، والإلحاد بلا شك يقف في الضفة المقابلة للحق والتوحيد والعدل، ولذلك وصفهم بالخسران، وجاء بالكلمة معرّفة، للتنبيه على أنهم خسروا خسرانًا كاملًا، بحيث إن كل خسارة في جانب خسرانهم لا تساوي شيئًا!

و إذا جئنا إلى العصر الحديث، نجد أن الاتجاهات الكبرى، كالماركسية والرأسمالية والحداثة والعلمانية عرضت نفسها للإنسان على أنها المنقذ المخلص، من الخرافات والأوهام والأساطير، كما من الآلام والبؤس والشقاء والفقر، ومن ثم وعدته بأن المستقبل في ظلالها سيكون أفضل وأجمل وأسعد، بعد أن حدّدت له ما ينبغي وما لا ينبغي عليه تبنيه من التصورات والأفكار، والرؤى والمفاهيم، والقيم والأنماط، والروابط والغايات!

هذه الاتجاهات كلها، حرصت على أن تصنع للأفراد (مقدسات) وتزيّنها لهم ليظلوا يلهثون وراءها دائمًا، كالاهتمام بالفن والأدب والموسيقى والموضة والحرية والرفاه والتقنية المتطورة. فالاهتمام بهذه الأشكال والانغماس فيها يجعل صاحبها يشعر من حيث هي إبداع إنساني خالص، إمكانية الاستغناء عن(الله)، باعتبار القدرة على الإبداع وتلبية الحاجة دونما ارتباط ب(الله)، فهي واقعًا عملية استبدال مقدس بمقدس آخر!

لكن من الواضح جدًّا أن هذا المنطلق، أعني شمولية الإلحاد، لدى زعماء الإلحاد والممثلين له يعكس اعترافًا ضمنيًّا بأنّ الإنسان ليس بُعدًا واحدًا، هو المادة الصلبة المتطورة كما يروجون، بل بالحري أنه ذو تركيبة متشابكة ومعقدة، يترابط

فيها البُعد المادي بأبعاد أخرى غير مادية. وأنّ هذه التركيبة المعقدة من المادة وغير المادة هو علة احتياج الإنسان لمنظومة شمولية ذات جوانب متعددة، وهذا يتناقض بشكل صارخ مع الصورة التي تعرضها الرؤية الإلحادية للإنسان والواقع والعالم!

❋ ❋ ❋ ❋

(٤) فكرة المستقبل للإلحاد

وعلى كل حال، فإن الديانة الإلحادية، باعتبار أنها تعمل على أن تحل محل الأديان ذات الأصل الإلهي، لا عجب أن تهتم أكثر بفكرة أن المستقبل للإلحاد، وأن التاريخ يسير في مسار حتمي نحو الإلحاد. ولكن، لابد من «تنظيف» العالم من الدين والإله وكذلك من العناصر غير المفيدة، ولهذا نجد أن «جميع الداروينيين قد اتفقوا على أن إبادة الأجناس «الدنيا» في مجملها تطور إيجابي مؤدٍ إلى التقدم».[١] وهل ننسى هنا قضية الموت الرحيم في الغرب لمن يعاني من مشاكل صحية أو شيخوخة ضاغطة! ولذلك «جعلت الداروينية موت «المتدنيين» يبدو حتميًا بل ومفيدًا، ذلك من خلال اختزال الإنسان إلى حيوان، ومن خلال التأكيد على عدم المساواة بين البشر، ومن خلال إظهار أن موت العديد من الكائنات «غير اللائقة» ظاهرة طبيعية ضرورية، بل وحتى تقدمية».[٢] وكل هذا كما هو ظاهر في سبيل المستقبل الزاهر والفردوس المنشود، فزوتنار الحائزة على جائزة نوبل للسلام عام ١٩٠٦، قالت في

---

(١) من داروين إلى هتلر ص٢٧٨.

(٢) من داروين إلى هتلر ص٢٣٧.

خطاب قبولها للجائزة: «أولئك الذين أقروا بقانون التطور ويسعون في تحقيقه مقتنعون بأن ما هو آت هو دائمًا أفضل، وأكثر نبلًا، وأسعد مما يمكن في الماضي».[١]

غير أننا إذا ما نظرنا في مستندات ترويج الديانة الجديدة لفكرة استحواذها على المستقبل، لنرى مدى قوتها وأصالتها، سنجدها أنه يمكن حصرها في الدعوى التالية: أن العلم سيكتشف كل شيء، ومن ثم، فإن العلم سييسر كل شيء! فلنشتغل بكشف ما في هذه الدعوى، لأنه إذا سقطت بسقوط أصولها، لا جرم لا يعود للقول الإلحادي المتعلق بأن المستقبل للإلحاد والفردوس المنشور سيكون بالإلحاد، أي معنى ولا أدنى قيمة.

حين يرفع الملحد هذا الشعار، فإنه يغفل -أو يتغافل!- عن المضامين الكامنة فيه، والتي يمكننا حصرها في:

أولًا: القدرة على المعرفة المطلقة.

ثانيًا: الوجود قابل للإدراك البشري.

ثالثًا: الكون محكوم بقوانين فيزيائية ثابتة.

رابعًا: الإنسان كيان قابل للاستيعاب.

خامسًا: توافقية الكون والإنسان.

لكن، ماذا يكون حين نضع هذه المضامين تحت ضوء بنود الإيمان الإلحادي؟

---

(١) من داروين إلى هتلر ص٢٦٥.

أما **المضمون الأول** المتعلق بالقدرة على المعرفة المطلقة، فينقضه قول الملحد باستحالة المعرفة المطلقة، لأن الحقائق عنده كلها نسبية!

وأما **المضمون الثاني** المتعلق بقابلية الوجود للفهم، فينقضه قول الملحد بفوضوية الكون وعشوائيته، ومن ثم نفيه النظام والإتقان في هندسة الوجود!

وأما **المضمون الثالث** المتعلق بخضوع الكون لمجموعة ثوابت فيزيائية، فينقضه قول الملحد بعدم وجود ثوابت ناظمة للوجود لعناصره وعلاقاته!

وأما **المضمون الرابع** المتعلق بأن الإنسان كيان قابل للاستيعاب، فينقضه قول الملحد بأن الإنسان نفاية مادية متطورة، تتسم بالسيولة والنسبية![١]

وأما **المضمون الخامس** المتعلق بتوافقية الكون والإنسان، فينقضه قول الملحد بأن الحياة مسرحية عبثية، والكون عشوائي، والقيم نسبية، فلا غاية ولا قداسة![٢]

فهل العلم قادر حقًا على معرفة كل شيء، كما يزعم ذلك الملاحدة ويروجون له ويبشرون به؟ وهل العلم حقًا قادر على تيسير كل شيء، كما يزعم ذلك الملاحدة ولا يملون من رفع شعاره؟

---

(١) يقول ستيفن هوكينج: «ما الجنس البشري إلا نفاية كيميائية على كوكب متوسط الحجم». الجائزة الكونية الكبرى. بول ديفيز ص٢٣٦.

(٢) يقول بول ديفيز: «أغلب الفيزيائيين وعلماء الكونيات سيتفقون مع هوكينج في أن الحياة ليست إلا زينة تافهة عرضية للعالم المادي». الجائزة الكونية الكبرى ص٢٦٣.

لقد قال مرة برتراند رسل بغرور ساذج: «يقترب علم الطبيعة من المرحلة التي يبلغ فيها الكمال». فرد عليه وِل ديورانت قائلًا: «جميع الدلائل تدل على العكس من ذلك».[١] بل هو نفسه قال مرة: «العلماء يعترفون في تواضع بوجود مناطق يجد العلم نفسه عاجزًا عن الوصول إليها».[٢] المهم دعنا ننظر هل صدق رسل -والملحدون معه- في دعواه وأمنيته، أم أن الدلائل تكذب زعمه وتهدم وهم الملحدين جميعًا.

يقول ستيفن وينبرغ: «النظريات الكونية تظل أكثر من غيرها عرضة للتغيير»، ولهذا «علينا أن نسلم دائمًا أن نماذجنا البسيطة قد لا تصف إلا جزءًا صغيرًا من الكون أو فترة محدودة من تاريخه».[٣] وسبب ذلك ببساطة هو أن «العالم، مجمل القول، شيء معقد»، هذا التعقيد في الواقع «يمنعنا من أن نكون قادرين بالفعل على تفسير كل شيء».[٤] وهذا يؤكده أيضًا الفيزيائي الملحد ستيفن هوكينج بقوله: «في الواقع، فإن العديد من النظريات العلمية التي ثبت صحتها، تم استبدالها فيما بعد بنظريات أخرى تساويها في النجاح وتقوم على مفاهيم للواقع جديدة كليًّا».[٥]

ويقول أليكس ورزنبرج: «إن افتراض أن العلم الغربي يتسم بالتطور المطرد في قدرته على التنبؤ وفي سيطرته على العالم بتنبؤاته وتحكمه مع العائد التكنولوجي،

---

(١) مباهج الفلسفة ج١ ص٧٢.

(٢) الدين والعلم. برتراند رسل ص١٧١.

(٣) الدقائق الثلاث الأولى من عمر الكون ص٤٢و١٣٥.

(٤) أحلام الفيزيائيين. لنفس المؤلف، ص٢٠و ٤١.

(٥) التصميم العظيم ص٥٩.

هذا الافتراض يواجه تحديا واسع النطاق من جانب مؤرخين للعلم ومن علماء متخصصين في سوسيولوجيا العلم ومن مفكرين آخرين ينتمون إلى ما بعد الحداثة». [١]

ويقول بول كلارنس إيرسولد -أستاذ الطبيعة الحيوية-: «تستطيع العلوم أن تمضي مظفرة في طريقها ملايين السنين، ومع ذلك فسوف تبقى كثير من المشكلات حول تفاصيل الذرة والكون والعقل كما هي لا يصل الإنسان إلى حل لها أو الإحاطة بأسرارها. وقد أدرك رجال العلوم أن وسائلهم وإن كانت تستطيع أن تبين لنا بشيء من الدقة والتفصيل كيف تحدث الأشياء، فإنها لا تزال عاجزة كل العجز عن أن تبين لنا لماذا تحدث الأشياء. إن العلم والعقل الإنسان وحدهما لن يستطيعا أن يفسرا لنا لماذا وُجدت الذرات والنجوم والكواكب والحياة والإنسان بما أوتي من قدرة رائعة». [٢]

ويقول ايرون شرودنغر: «إن الصورة التي يرسمها العلم للعالم الحقيقي حول صورة ناقصة جدًّا. صحيح أنه يقدم حشدًا ضخمًا من المعلومات الواقعية، ويسلك كل تجربتنا في نظام رائع الاتساق، ولكنه يسكت سكوتًا فاضحًا عن كل ما هو قريب فعلًا إلى قلوبنا. كل ما يهمنا حقًا أنه لا يستطيع أن يقول لنا كلمة واحدة عن الحمرة والزرقة، عن المرارة والحلاوة، عن الألم الجسدي واللذة الجسدية، ولا هو يعرف شيئًا عن الجمال والقبح، عن الخير والشر، أو عن الله والأزلية. صحيح أن العلم

(١) فلسفة العلم: مقدمة معاصرة ص٣٦.

(٢) الله يتجلى في عصر العلم ص٤٢.

يدعي أحيانًا أنه يجيب عن أسئلة في هذه المجالات، إلا أن الأجوبة هي في الأغلب على قدر من السخف لا نميل معه إلى أخذها مأخذ الجد».[١]

بعد أن عرضنا لهذه النماذج من أقوال واعترافات العلماء المتخصصين، يمكن أن ندرك بوضوح وأن نتأكد بيقين أن الملحد المعاصر المنبهر بالعلم التجريبي يعيش في وهم كبير، هو وهم «العلم سيكتشف وسييسر كل شيء مستقبلًا»! هو وهم، لأنّ الملحد لا يمكنه أن يجيب عن سؤال: متى يمكن القول الآن اكتشف العلم كل شيء، ولا يوجد مزيد يمكن اكتشافه مستقبلًا؟ ومَن هي المؤسسة المخوّلة لإعلان ذلك؟ وكيف يمكن التأكد بشكل يقيني ونهائي من أن العلم وصل إلى نقطة النهاية في اكتشاف الكون؟ وماذا بعد تحقيق الاكتشاف النهائي لنظام الكون، هل سيتم إغلاق الكليات والمراكز والمختبرات العلمية؟ أم سيكون الفردوس الإلحادي الأبدي خاليًا من العلوم والمعارف؟

❊ ❊ ❊ ❊

(٥) ديانة متكاملة الأركان

وللملاحدة أن يجادلوا وأن يستنكروا وصف الإلحاد بأنّه ديانة جديدة وعقيدة بديلة، لهم ذلك، ولكن ما لا شك فيه، هو أنّ هذا الجدل والاستنكار يُترجم جهل الفئة المغفّلة بطبيعة المنظومة الإلحاديّة التي يتبنّونها، كما يعكس حرص الفئة القائمة بالترويج والتمكين للإلحاد على إخفاء الأبعاد الكامنة في طرحهم وأهدافهم ومدى تناقضها المكشوف مع الأسس الإلحادية نفسها!

---

(١) العلم في منظوره الجديد ص١٢٤.

إن من المشاكل البارزة في الإلحاد المعاصر، أن الملحد لا يعتقد أنّه يعتقد بل يعتقد أنه لا يعتقد، أي إنه لا يتصور بأن قناعته الإلحادية هي في جوهرها عقيدة تنطلق وتتأسس على مجموعة من المقدسات الكامنة، بل يتصور أن هذه القناعة والخيار الذي انتقل إليه من الإيمان، هو نتاج علم وعقل ونضج وتحرر من الأوهام والخرافات، وأنه بلا ثوابت ولا مطلقات ولا مقدسات! وحتى إذا سلّمنا بأن الإلحاد ليس أكثر من نفي لوجود الإله الخالق وإنكار له، أي أنه متجاوز للمعتقد الإيماني، فلا شك أن الملحد بما أنّه يعتقد صحة القناعة الإلحادية وعدم صحة القناعة الإيمانية، فهو ذو عقيدة راسخة وإيمان صلب وثابت، لا تقل عند بعضهم رسوخًا وصلابة وثباتًا عن موقف كثير من المؤمنين بديانتهم وإيمانهم وعقيدتهم!

إن نفي وجود الله، هي فكرة مقدسة، وعقيدة ثابتة، ومبدأ مطلق بالنسبة للإلحاد والملحدين! وليت شعري كيف يسمي الملاحدة هذا إن لم يكن عين الإيمان والثبات والديانة والتقديس!

الواقع أنّ الملحد الذي يرفض وصف الإلحاد بأنّه ديانة أو عقيدة؛ إنما مشكلته أنه لا يتصور جيدًا وبشكل كامل لوازم قناعته الإلحادية ومضامينها الفلسفية والقيمية، ولذلك ترى هؤلاء يعترضون ويعاندون ويجادلون عندما يُذكر لهم شيء من تلك اللوازم والمضامين، إذ كانوا يتوهمون أن القضية تتوقف عند النفي والإنكار، وليس لها آثار ولوازم ومآلات على المستوى المعرفي والنفسي والسلوكي والاجتماعي والحضاري، فلما استبعدوا ذلك، لا عجب أن يرفضوا ما يُلقى إليهم منها، ثم لا يجدون سوى السخرية والمغالطات واستدعاء المواعظ الإلحادية!

وإنك لترى هذا النفور والرفض من كل مَن يُنَبَّه على شيء من تلك اللوازم والمآلات متجليًّا حتى في استغلال خاصية الحظر في مواقع التواصل الاجتماعي، فترى الملاحدة يتتبعون حسابات وقنوات المسلمين الكاشفة للجوانب المظلمة في الإلحاد، ليبلغوا عنها تحت ذريعة نشر الكراهة وغيرها، لتقوم إدارة الموقع كموقع فيسبوك بحظر الشخص المستهدَف وإلغاء حسابه![(١)]

يقول ديفيد بيرلنسكي في مسألة رفض الملاحدة مراجعة وتأمل لوازم القناعة الإلحادية: «إذا كان الملاحدة العلميون مطبوعين على تحدي وجود الله، فإنهم أقل استعدادًا للتأمل في لوازم نفيه»[(٢)] ببساطة لأن هذه العملية تحتاج لمقدرة نفسية وشجاعة أدبية عالية لمواجهة خطأ الذات، كما أنها تحتاج لمجهود كبير للتحرر من بريق الشعارات وضجيج قطيع القطط الضالة حسب تعبير ريتشارد دوكنز. ذلك لأن التفكير الجاد ثم الالتزام بنتائجه من الواضح أنه عمل شاق ومكلف، خصوصًا حين يكون المرء ذا مكانة اجتماعية مرموقة وشهرة واسعة!

---

(١) لقد ثبت بالأدلة القاطعة وفي أكثر من موقف، بأن فيسبوك وغيره كتويتر ليس بريئاً من الحملة ضد المسلمين، فهناك مثلاً عشرات الصفحات والمجموعات والحسابات الإلحادية والنصرانية التي تنشر منشورات أو صوراً كاريكاتيرية تتضمن السخرية من نبي الإسلام، ومن التعاليم الإسلامية ومن المرأة المسلمة ومن الملتزم المسلم، ومع ذلك لا تعتبر هذه المواقع مثل هذه المنشورات نشراً للكراهة! بل يدخل في سلاح الحظر حتى النشطاء السياسيين وغيرهم ممن هم ضد دولة الاحتلال اليهودي الصهيوني، بحكم الصلة الوثيقة بين الصهاينة ومدراء تلك المواقع!

(٢) وهم الشيطان. ديفيد بيرلنسكي ص٦٧.

إن الملحد لا يريد أن يفهم أن كل أقواله تؤكد بوضوح وجلاء على أن الإلحاد الذي ينتمي إليه ليس مجرد رأي قد يداخله الاحتمال والتغير إذا ما ظهرت أدلة كافية، بل يراه عقيدة ثابتة وراسخة ومطلقة! ولا يريد أن يعتبره مجرد موقف من بعض القضايا في نشاط الإنسان والواقع والحياة يتغير بتغير ظروفها وشروطها، بل يتعامل معه على أنه ديانة شاملة ومتكاملة الأركان، وعلى أنه عقيدة متماسكة ومقنعة تمام الإقناع! ومن الطريف بعد هذا أن نكتشف بأن ريتشارد دوكنز يقول في بعض محاضراته: «إن معقد «المؤمن/ المريض» يعاني من مغالطة مهمة أخرى، وهي أنه يمتنع عن سؤال نفسه: لماذا أتمسّك بمجموعة العقائد والإيمانيات هذه؟ هل السبب هو اطّلاعي المسبق على كل العقائد المتوفرة على وجه الأرض ثم بعد ذلك اخترت هذه؟ بالتأكيد هو لا يدرك أنه لا توجد عملية اختيار ابتدائية، إنما هو تلقين وتعوّد وتدريب».[١] ومن يسمع هذا الكلام يظن أن الملاحدة يحرصون شديد الحرص على امتحان قناعاتهم وتقليب وجوه النظر فيها بشكل مستمر، ولذلك فإلحادهم قناعة شديدة المنطقية والعقلانية!

يمكن تحديد مناشئ هذا الوهم في ثلاثة أمور:

(أولًا) الهوس العارم الذي يشهده العالم اليوم تجاه التمرد على العقائد والإيمان والأديان. إذ مع هيمنة سلطان الثقافة الغربية وهي تعتبر التمرد على الدين معيارًا للحق والعقلانية والتطور، صار الجميع مهووسين بهذا التمرد!

---

(١) حوارات سيدني ص٨٨.

(ثانيًا) التقليد والانبهار بمشاهير الإلحاد الغربيين، فكان ذلك حاجزًا له عن تبصّر مواقع الحق من الباطل، وقد قيل أنّ «محبة الرجال للرجال فتنة حاملة على قبول الباطل، وبُغض الرجال للرجال فتنة حاملة على رد الحق».(١)

(ثالثًا) خلط الملحد بين القناعة الشخصية -وهي قناعة تُشكلها روافد مختلفة- وبين اللوازم الحتمية للأسس النظرية للإلحاد، ومن ثم، تراهم يفسرون إلحادهم لا كما هو في أسسه النظرية بل حسب قناعاتهم الشخصية!

يحدثنا أحمد أمين عن الفرق بين الرأي والعقيدة، فيقول: «فرق كبير بين أن ترى الرأي وأن تعتقده؛ إذا رأيت الرأي فقد أدخلته في دائرة معلوماتك، وإذا اعتقدته جرى في دمك، وسرى في مخ عظامك وتغلغل إلى أعماق قلبك. ذو الرأي فيلسوف، يقول إني أرى الرأي صوابًا وقد يكون في الواقع باطلًا، وهذا ما قامت الأدلة عليه، وقد تقوم الأدلة على عكسه غدًا، وقد أكون مخطئًا فيه وقد أكون مصيبًا. أما ذو العقيدة فجازم باتٌّ لاشك عنده ولا ظن. عقيدته هي الحق لا محالة، هي الحق اليوم وهي الحق غدًا، خرجت عن أن تكون مجالًا للدليل، وسمت عن معترك الشكوك والظنون».(٢)

فضع هذا التعريف والبيان حول الفرق بين الرأي والعقيدة على الطرح الإلحادي (مقولات، شعارات، ممارسات) وانظر بأية نتيجة تخرج وإلى أية غاية تنتهي! إنك ستدرك -لا محالة- بأن الإلحاد وقع في نفس ما يتهم به الأديان عمومًا

---

(١) الإمتاع والمؤانسة. أبو حيان التوحيدي ج٢ ص٢١٥.

(٢) فيض الخاطر. أحمد أمين ج١ ص٧.

والإسلام خصوصًا، أعني اتهامه بأنّ الدين السماوي منظومة دوغمائية، أي أنها عقائد متعصبة، تدعي امتلاك الحقيقة المطلقة، وتمنع التشكيك في قيمتها، وتحارب كل ما يمكن أن يخالفها ويطعن في معطياتها! وليس حرص الملاحدة على إبعاد الدلالات المعرفية والنفسية والسلوكية والاجتماعية للإلحاد من دائرة البحث والفحص النقدي، فضلًا عن التشكيك في قدرة الإلحاد على احتلال مكانة الدين الأصلي، ليس كل ذلك إلا أمارة واضحة ودلالة ساطعة على هذه الدوغمائية البائسة!

يقول محمد الهبيلي: «يبدو الملاحدة الجدد وكأنهم حريصون جدًا على عدم تغيير قناعاتهم، فهم يتعاملون مع هذه القناعات كمتحجرة لا ينبغي أن تختلط بمواد قد تُغيِّر من تركيبها، حتى إنهم صاروا مشهورين بهذه الصفة. وعلى سبيل المثال، يُردد الملاحدة دائمًا أن الدين هو مصدر الحروب عبر التاريخ، ويجتهدون في ترسيخ هذه الصورة النمطية في أذهان العوام، حتى مع ظهور كتاب «موسوعة الحروب»، الذي أثبت بالأدلة والبراهين أنه من بين ١٧٦٣ حربًا موثقة عبر التاريخ، فإن ٩٣٪ منها كانت حروبًا علمانية لا دينية، ومع ذلك فهم غير مستعدين لتغيير قناعاتهم، ومستمرون في تغذية هذه الكذبة حتى تضخمت وصارت كبيرة وسمينة».[١]

بل دعك من كل هذا؛ وانظر إلى الواقع المعاصر. لقد حرصت العلمانية المادية والرأسمالية المتغولة على محاصرة الأديان في أضيق جانب ممكن، وإبعادها عن المجال العام، ومن ثم لم تعد تتحاكم إلى المرجعيات الدينية، تحت مبررات شتّى، لكن الذي حدث هو أن هذه العلمانية والرأسمالية عملت على احتلال الموقع

---

(١) طلاسم نجسة ص٥٦.

الذي كانت تحتله الأديان بين أفرادها، وعرضت نفسها للإنسان على أنها المنقذ المخلص، من الخرافات والأوهام والأساطير، كما من الآلام والبؤس والشقاء والفقر، ومن ثم وعدته بأن المستقبل في ظلالها سيكون أفضل وأجمل وأسعد، بعد أن حدّدت له ما ينبغي عليه تبنيه من التصورات والأفكار، والرؤى والمفاهيم، والقيم والأنماط، والروابط والغايات!

هذه الاتجاهات كلها، حرصت على أن تصنع للأفراد مقدسات وتزيّنها لهم ليظلوا يلهثون وراءها دائمًا، كالاهتمام بالفن والأدب والموسيقى والموضة والحرية والرفاه. فالاهتمام بهذه الأشكال والانغماس فيها يجعل صاحبها يشعر من حيث هي إبداع إنساني خالص، إمكانية الاستغناء عن(الله)، باعتبار القدرة على الإبداع وتلبية الحاجة دونما ارتباط ب(الله)، فهي واقعًا عملية استبدال مقدس بمقدس آخر! هذا المقدس الجديد يتأسس على فكرة أن الابتعاد عن الإله يمكنه أن يصنع مستقبلًا أفضل، ويمكنه أن يقدم معرفة أشمل!

بل حرصت العلمانية المعاصرة على أن تجلس بين الناس مجلس الأديان، فأنشأت الهيئات والمراكز لتدبير الشؤون العالمية وفق أسسها العلمانية المادية الرأسمالية. فالأمم المتحدة مثلًا لها كل سمات الإله المتجاوز، والمرجعية العليا، فهي تقرر الحقوق والواجبات، وتفصّل المبادئ والغايات، كما أن لها كامل الصلاحية في رفع الدول وخفضها، وأيضًا لها الحق في إعلان الحرب والسلم، وفض النزاعات والأمر بما تراه معروفًا والنهي عما تراه منكرًا، وعلى الجميع (الضعفاء فقط) الخضوع لها والانصياع لمواثيقها وعهودها وأحكامها وقراراتها، لأن دورها لا

يقتصر على جانب دون آخر أو نشاط دون غيره، بل تشمل مختلف جوانب الحياة ونشاطات الأفراد والمجتمعات. وفوق كل هذا، فهي ليست محايدة بل تنطلق وتتحرك وتعمل ضمن رؤية خاصة وعقيدة خاصة وأجندات خاصة!

ولهذا وجدنا القرآن الكريم يكشف بأنّ الإله أو المقدس أو المتعالي أو المطلق ليس بالضرورة يجب أن يشير إلى موجود خارج نطاق الزمان والمكان، بل قد يتجلى مفهوم الإله والمقدس والمتعالي في (**الهوى الشخصي**): ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾.[1] أو في (**القادة والزعماء**): ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾.[2] وسواء الهوى أم القادة، فليس المقصود أن صاحبه يعبد نفسه أو القائد الرمز عبادة طقوسية شعائرية، بل المعنى هو ذلك التمركز حول الهوى أو القائد الرمز، واتباعه والتسليم له، وذلك الشعور النفسي العارم والمطبوع بطابع التبجيل والتعظيم، حتى كأنه فعلًا إله يأمر فيُطاع، وصنم يُركع له ويُسجد! كما أشار النبي ﷺ تعليقًا على الآية المذكورة: «أما إنَّهم لم يَكونوا يعبدونَهم، ولَكنَّهم كانوا إذا أحلُّوا لَهم شيئًا استحلُّوهُ، وإذا حرَّموا عليْهم شيئًا حرَّموه».[3]

وقد تنبه لهذا المعنى غوستاف لو بون، فقال: «الإنسان ليس متديّنًا فقط عن طريق عبادة آلهة معينة، وإنما أيضًا عندما يضع كل طاقاته الروحية وكل خضوع إرادته، وكل احتدام تعصبه في خدمة قضية ما أو شخص ما، كان قد أصبح هدف كل

(١) الجاثية: ٢٣.

(٢) التوبة: ٣١.

(٣) سنن الترمذي.

العواطف والأفكار وقائدها. إن عدم التسامح والتعصب يُشكّلان المرافق الطبيعي للعاطفة الدينية، وهما موجودان حتمًا لدى أولئك الذين يعتقدون بأنهم يمتلكون سر السعادة الأرضية أو الأبدية».[1]

* * * *

(٦) إشاعة ضرورة تجاوز الدين

ولهذا، فحين يبشر الإلحاد اليوم باختفاء الإله والدين في المستقبل القريب، أي يوم تتحرر البشرية -بزعمه- من خرافات الإيمان الديني بسبب كشوفات العلم التجريبي، حين يفعل ذلك فهو في الحقيقة يعيش في وهم كبير، ويقدم لأتباعه مخدرًا شديد التأثير!

والحقيقة أن القول باختفاء الدين وعقيدة الإله، نتيجة ضرورية بالنسبة للملحد للقول بأن العلم سيكتشف كل شيء وسييسر كل شيء. هذا المستند ينطلق من افتراض أن النزعة الدينية ليست أصيلة في الإنسان، ومن ثم فزوال سببها الذي هو -في زعم الملحد- الجهل والخرافة، يلزم عنه زوالها واختفاؤها، وقد فصلت القول سابقًا حول دعوى أن الأصل في الإنسان الإلحاد وليس الإيمان، ومن المفيد العودة إليه، لكن هنا أضع كلمة أخرى من باب التوكيد لما سبق ذكره في ذلك الفصل.

نحن ندعي استحالة اختفاء النزعة الدينية أو فكرة الإله من حياة الإنسان وعقله وضميره وتاريخه، حتى وإن بلغ الغاية القصوى في العلم التجريبي والتحضر الفائق،

---

(١) سيكولوجية الجماهير ص٩٢.

بل منتهى ما يمكن أن يقع هو أن ينحرف الإنسان عن الحق وأن يخبط في التيه حول الإله والإيمان والدين، وهذا ما حدث خلال التاريخ الماضي الطويل، وهو ما سيحدث خلال التاريخ المستقبلي إلى أن تفنى الدنيا، فالماضي والمستقبل أشبه بتيّار الماء في النهر، الماء نفسه في أوله وآخره، وإن تغيرت حركته وسرعته ومساراته.

هذه الدعوى نستدل عليها من طبيعة الإنسان نفسه. إن الإنسان مجموع نزعات، فمنها نزعة البقاء، ونزعة التقدير، ونزعة الاعتراف، ونزعة الحب، ونزعة الحرية، وغير ذلك. غير أن هذه النزعات ذات مراتب متباينة من حيث أصالتها وجوهريتها في الكينونة الإنسانية، فليس سواء نزعة الحرية مع نزعة البقاء مثلًا. وإذ كان الأمر كذلك، فإن النظر يحيطنا علمًا بأن هناك نزعات جوهرية في الإنسان تحيل الانسلاخ عن الدين وتجاوز عقيدة الإله. هذه النزعات يمكن حصرها في أربع، وهي:

النزعة الأولى: المطلق. لا يفتأ الإنسان يبحث عن مطلق يتجلى فيه الكمال والعظمة والقداسة، بغض النظر عن طبيعة هذا الشيء الذي يتخذه هذا الإنسان أو ذاك مطلقًا ونهائيًا ومتعاليًا، سواء كان الإله الحق أم الآلهة الباطلة. وشوق الإنسان للمطلق المتجاوز لا يمكن أن يملأه شيء آخر، لأنه نزعة جوهرية في فطرته. ولهذا نجد في تاريخ الإنسان، قديمًا وحديثًا، وفي كل الحضارات وبين مختلف الشعوب، نزوع شديد نحو المقدس المتعالي، لأن طبيعة الكينونة البشرية لا تحتمل الفراغ من عقيدة الإله أو قل عقيدة المطلق.

النزعة الثانية: الخلود. الإنسان كائن أبدي، هكذا شاء الله تعالى أن يكون، وهكذا يدرك كل فرد ويشعر، ولو إدراكًا مبهمًا. هذا الإدراك وهذا الشعور يتجلى في التفكير الدائم في المستقبل وكيف يمكن جعله أفضل وأجمل، كما يتجلى في حرص كل إنسان على حراسة نفسه ضد أسباب الموت والعمل على إطالة العمر، كما يتجلى في إحساس الحزن والمأساة كلما أَلَمَّ بالإنسان خاطر الفناء، وغير هذا من مظاهر نزعة الخلود وحب البقاء التي تسيطر على الإنسان بغض النظر عن زمانه ومكانه ومستواه في الذكاء والعلم.

النزعة الثالثة: التفسير. كل شيء في العالم، الإنسان نفسه، الحياة وتنوعها، الكون ومشاهده، كل هذا يثير في الوعي والوجدان رغبة قوية وعميقة في فهمه وتفسيره، من أين جاء، وما مصدره، ولماذا كل هذا موجود، وما الغاية منه، وإلى أين يسير، وغير هذا من الأسئلة الكبرى التي تضغط -بنسب مختلفة- على مختلف طبقات الناس. وهذا فيه دلالة واضحة على أن الإنسان يدرك مسبقًا بأن العالم لا يمكن أن يكون مجرد أكوام مادية صلبة، بل هناك حقائق جوهرية ومعاني أصيلة كامنة في بنيته.

فهذه النزعات أو الغرائز أو سمها ما شئت، تؤكد بما لا يدع مجالًا للشك بأن الإله والدين لا يمكن بل يستحيل أن يختفيا من عالم الإنسان، مهما تباينت صورهما وأشكالهما بين الأمم والشعوب، اللهم إلا أن يتحول الإنسان إلى كائن آخر، يكون مختلفًا جذريًا عن طبيعته التي استمرت معه منذ أول لحظة وطئت قدماه الأرض!

أقول هذا، لأن الإلحاد لا يمكن أن يمنح الملحد شعور القداسة، ولا أن يمنحه عزاء الخلود، ولا أن يقدم له تفسير للأشياء والمشاهد يقبله وعيه وضميره، بل بالعكس، وجدنا زعماء الإلحاد يطالبون أتباعهم بالابتعاد عن بحث الأسئلة الكبرى بدعوى أنها بلا فائدة ولا معنى!

لقد أبعدت الجاهلية المعاصرة في الغرب والشرق عقيدة الإله عن واقع الحياة، وحصرته في مجال القلب وبعض زوايا الحياة الخاصة، وانطلقت تلهث وراء شعارات خلقتها لنفسها زاعمة أنها قادرة على تحقيق يوتوبيا رائعة ومجتمع نموذجي وعالم رائع، وما فتئت تروج لذلك بكل وسيلة وبمختلف الأساليب وفي شتى المحافل، فماذا كانت النتيجة؟

يقول ليوبولد فايس المفكر النمساوي -أو محمد أسد بعد إسلامه- منتقدًا الحضارة الغربية: «فشلت الحضارة الغربية في تحقيق توازن متآلف بين حاجات الإنسان الدنيوية وتطلعاته الروحية. ألغى الغرب القيم الروحي الأخلاقية السابقة دون أن يكون قادرًا على تقديم أي نسق أخلاقي وروحي آخر. أخضع كل شيء للسببية العقلية، وبالرغم من كل التقدم في مجال التعليم، لم تقدر الحضارة الغربية على كبح ميل الإنسان الأحمق في السقوط فريسة للشعارات والنظريات الاقتصادية، مهما كانت عبثيتها التي يعتقد الديماغوجيون الفوضويون أنها ملائمة. وتبنت الحضارة الغربية مفهوم تقنية وتنظيم الفنون الرفيعة، إلا أن أمم الغرب تظهر على الدوام عجزها عن السيطرة على القوى التي أطلق علماؤهم عقالها، ووصلوا إلى مرحلة أصبحت فيها القوة العلمية المطلقة، ماضية يدًا بيد مع الفوضى العالمية

المتزايدة. ومع غياب أي قيم دينية وروحية، أصبح المواطن الغربي غير مستفيد أخلاقيًا وروحيًا من نور المعرفة الهائل الذي يطرحه العلم».[(١)]

فماذا كانت النتيجة؟ لقد كانت الهوس المجنون والسعار العارم واللهاث المضني وراء إشباع الشهوات الحسية بمختلف أشكالها وألوانها! الركض الدائم وراء الإشباع والجديد من الشهوات، أحيانًا تحت شعار تحقيق الذات، وأحيانًا تحت شعار النجاح، لكن الحقيقة الكامنة هي إحساس الفرد بالتفاهة وعدم المعنى، وشعوره بالخواء والفراغ، فهو في بحثه اللاهث عن الشهوات الجديدة إنما يخفي توتره وقلقه الذي يعصر كيانه الباطني. يقول محمد أسد: «لقد اتصف البشر بالطمع في كل العصور، إلا أنه لم يصل الدرجة التي أصبح عليها في عصرنا، حتى أنه تحول إلى هاجس يعمي الأبصار عن رؤية أي شيء آخر عداه. تطلع ورغبة لا تقاوم للاستحواذ على المزيد، الحصول على المزيد اليوم أكثر مما حصلنا عليه أمس، والحصول في الغد على أكثر مما حصلنا عليه اليوم، عفريت يركب أعناق البشر ويجلد قلوبهم ويدفعهم إلى الركض نحو أهداف تومض وتبرق على البعد، وبمجرد أن يحصلوا عليها يكتشفون أنها هباء، وأن هناك أهدافًا أخرى أشد بريقًا، ما تزال نائية في الآفاق البعيدة إلا أنها أكثر إغراء فيركضون من جديد ليتكشفوا أنها أيضًا لا قيمة لها بمجرد تحققها».[(٢)]

وهذا هانز هيرمان هوپا –المفكر المعاصر، أمريكي من أصل ألماني– خصص

---

(١) الطريق إلى مكة ص٤٣٨.

(٢) الطريق إلى مكة ص٤٦١.

كتاب «الديموقراطية: الإله الذي فشل»، لبيان الأضرار الوخيمة للديموقراطية، ومساهمتها الوثيقة في الانهيار الحضاري الشامل، سياسيًا واقتصاديًا واجتماعيًا وأخلاقيًا وأسريًا. يقول في بعض فصول هذا الكتاب: «بعد أكثر من قرن من الديموقراطية القسرية، أصبحت النتائج المتوقعة جلية أمام أعيننا. إن العبء المفروض على مالكي العقارات والمنتجين يجعل العبء الاقتصادي المفروض على العبيد والأقنان يبدو معتدلًا بالمقارنة معه. ارتفع الدَّين الحكومي إلى مستويات مذهلة.. وخضعت كل تفاصيل الحياة والممتلكات الخاصة والتجارة والعقول لجبال من القوانين «التشريعات» أكثر من أي وقت مضى. وتحت شعار الأمن الاشتراكي أو العام أو القومي يعمل الأوصياء علينا «الحكام» على «حمايتنا» من ظاهرة الاحتباس الحراري والتبريد وانقراض الحيوات والنباتات، ومن الأزواج والزوجات والآباء وأصحاب العمل، ومن الفقر، والمرض، والكوارث، والجهل، والتعصب، والعنصرية، والتحيز الجنسي، وعدد لا يحصى من الأعداء والمخاطر العامة الأخرى. وبوجود المخزون الهائل من أسلحة العدوان والدمار الشامل، «يدافعون» عنا، حتى خارج الولايات المتحدة، في وجه أي هتلر جديد وفي وجه جميع المشتبه بتعاطفهم مع هتلر. ومع ذلك، فإن المهمة الوحيدة التي كان من المفترض أن تقوم بها أي حكومة هي حماية حياتنا وممتلكاتنا، ولكن على ما يبدو كلما ارتفعت نفقات الأمن الاشتراكي والعام والقومي، زاد تدهور حقوق ملكيتنا الخاصة وزادت مصادرة ممتلكاتنا، والاستيلاء عليها وتدميرها وتراجع قيمتها.. وكلما صدر المزيد من القوانين الورقية، تفاقم شعور عدم اليقين القانوني والخطر

الأخلاقي أكثر وأكثر، واستبدل الفوضى بالقانون والنظام. وعلى الرغم من أننا أصبحنا عاجزين أكثر من أي وقت مضى ومعوزين وفقراء ومهددين ومعرضين للخطر، أصبح حكامنا أكثر فسادًا ومسحلين تسلحًا خطيرًا وأكثر غرورًا».[١]

فإذا كان هذا حال الغرب اليوم، رغم أنه ليس ملحدًا إلحادًا نهائيًا، فكيف سيكون مجتمع مطبوع بطابع الإلحاد، قد أبعد نهائيًا الإله والدين من حياته ونشاطاته وعلاقاته؟! فإذا ثبت لنا بيقين قاطع أن الحضارة المادية المعاصرة رغم احتكامها إلى العلم وحرصها على تأطير شؤونها به، ورغم عدم إنكارها الكامل للإله والدين فإنّها تعيش حالة أزمة خانقة، فلا شك أن فكرة المستقبل للإلحاد لن يعود لها قيمة إلا ما تحققه في شحن الأتباع عاطفيًّا للبقاء داخل دائرة الإلحاد!

❋ ❋ ❋ ❋

(٧) الإلحاد رؤية وانتماء

إذا كنا نريد توجيه رسالة إلى الملحد، فهي دعوتنا له أن يفهم الإلحاد لا كما يريد هو، بل كما هو في أسسه ومبادئه، وكما هو في لوازمه ومقتضياته، وكما هو في آثاره ونتائجه. فكما لا يصح أن يرفع أحد شعار الانتماء إلى الإسلام، ثم هو بعد ذلك يرفض فهم الإسلام كما هو في مصدريه الأصليين (القرآن والسنة)، ويرفض الالتزام بأسسه العقدية ومفاهيمه الأصلية ونُظمه التشريعية، إذ حين يفعل ذلك، فإنه يكون أحد رجلين، إما جاهل بمعنى الإسلام وبمعنى كونه مسلمًا، وإما خبيث ماكر يريد

---

(١) الديموقراطية.. الإله الذي فشل ص١٥٨.

خداع الآخرين وتزييف الحقيقة في عقولهم. فكذلك الشأن مع الملحد، لا يصح أن يرفع شعار الانتماء إلى الإلحاد، ثم هو بعد ذلك يرفض فهم الإلحاد كما هو في مبادئه وأصوله ومعايير ولوازمه، فحين يفعل ذلك، فإنه يكون أحد رجلين، إما جاهل بمعنى الإلحاد وبمعنى كونه ملحدًا، وإما خبيث ماكر يريد خداع الآخرين وترسيخ الرؤى الإلحادية بينهم دون أن يتفطنوا له!

والحقيقة أن الملحد يدرك أن الإلحاد ديانته الجديدة، ولو على مستوى اللاوعي، ويحرص على ترجمة ذلك بشكل عملي في الكثير من سلوكاته ومواقفه وتصرفاته. فلو أخذنا تعريف الملحد لنفسه بـ «أنا إنسان ملحد»، نجده تعريفًا يمثّل تعريف «الهويّة/ الأنا» بمحدداتها المختلفة، إنْ على مستوى الوعي وإنْ على مستوى الفعل، كما أن هذا التعريف يرسم للملحد مركزه وزاوية رؤيته للذات والواقع والعالم! والتناقض الحاد هنا يتجلّى في أنّه في إطار الإلحاد ووفق أسسه ومبادئه، لا معنى لكلمة (أنا/ أنت/ هو)، فهذه الكلمات تتضمن شحنات هائلة جدًا من (القيمة/ المعنى/ التجاوز/ الغاية)! لأن الكل في المنظور الإلحادي شيء واحد، بلا سمات ولا تمايزات، ولا خصائص، لأنه لا شيء سوى المادة! إن إحساس الملحد بالتمايز يدمر منظومته الإلحادية!

وبهذا نستطيع أن نفهم بأنّ الإلحاد ليس مجرد موقف يتعلق بفكرة وجود الإله من عدمه، وينتهي الأمر، كما سبق أن نبهنا، بل هو «رؤية وانتماء»! هذه الرؤية وهذا الانتماء مؤسَّسان على منظومة معرفيّة معيّنة، هي (المادية)، ولها بالضرورة آثار محدّدة في واقع السلوك والحياة بمختلف نشاطاتها وعلاقاتها وامتداداتها! ونقول

بالضرورة، لأنّ الإنسان بما أنه (فكرة وفعل)، لا يمكن أن يتحرك في الواقع بغير دوافع تتشكل في إطار رؤيته الكلية وعقيدته المعرفية.

الملحد -إذن- في الحقيقة لم يفعل شيئًا، سوى أنه غيّر ولاءه وانتماءه، وانتقل من فضاء إيماني معيّن (الإسلام) إلى فضاء إيماني آخر (الإلحاد)، ومن التقديس للإله الخالق إلى التقديس للذات، الصدفة، المادة، الهوى! ذلك لأنّ الإنسان لابد له من (مقدس مطلق) فهو الذي يمنحه الشعور بالقيمة والمعنى والغاية! فلو أخذنا مفهوم الصدفة عند الملحد، سنجد أنه يضفي معاني الألوهية عليها، فالصدفة إله الملاحدة الخفي! لقد أوجدت الكون، وحددت عناصره وقوانينه وضبطت ثوابته، كل ذلك قامت به بدقة فائقة! والصدفة أبدعت الكائنات المختلفة، ووضعت كل ذرة فيها في مكانها الصحيح، كما أنها ابتكرت هذا التناسق بين الإنسان والكون ومنظومة الحياة، بل وداخل كل كائن حتى وإن كان غير مرئي بالعين المجردة! وكل هذا يعني بالضرورة أن الصدفة كيان لها علم وحكمة وإرادة وقدرة!

الواقع أن هذا يبدو واضحًا حين نتذكر بأن الإلحاد مصطلح قيمي. والمصطلحات القيمية بما أنها تتعلّق بالإنسان وأبعاده المختلفة وعلاقاته بأشياء الوجود وأشخاصه وأحداثه، فإنّها تحمل شحنات معرفيّة تتشكّل ضمن عوامل نفسية وسياقات اجتماعية معيّنة، تُوَجِّه الرؤية وتُؤَثِّر في السلوك ومعاييره في الواقع والحياة.

يؤكد هذا المعنى -أي أنّ الإلحاد يدخل ضمن المصطلحات القيمية التي تعكس أبعاد الهوية وخصائصها ومقوماتها- ممارسة الملحد للدعوة إلى الإلحاد،

عبر مختلف الوسائل المتاحة، من كتب ومواقع ومحاضرات ولقاءات، كما سبقت الإشارة إلى كل ذلك، حين ذكرنا الجهود التي يبذلها الإلحاد المعاصر للترويج للإلحاد بين مختلف طبقات المجتمع.

كما أن تبني الإنسان لرؤية وجودية تتخذ في حسه وعقله بديلًا للديانات الأخرى؛ يحمله على التبشير بها والترويج لها والدعوة إليها. لأنّ هذه الممارسة الدعويّة تمنح صاحبها الإحساس فعليًّا بالانتماء إلى مقدس مطلق، يحدد الرؤية للذات والعالم والآخر!

إنّ المنظومات والرؤى الكونية لا يمكن أن تنفصل عن الدعوة والتبشير بها بين الآخرين. لأنّ هذه المنظومات والعقائد الشمولية تفترض أن رسالتها مرتبطة بالإنسان في كل زمان ومكان. ولذلك؛ فإنّ حقيقة هذا التلازم بين العقيدة بما تحمل من أسس ومقتضيات، وما تتضمن من آثار ومآلات، وبين الدعوة إليها والترويج لها والتبشير بها بمختلف الأساليب حتى في أبسط نشاطات الحياة وما فيها من سلوكيات وعلاقات وغايات.. هذا التلازم تنبع ضرورته من كون أنّ النفس البشريّة لا تدرك ولا تشعر بقيمة ذاتها ووجودها ومُكوّناتها إلا بالآخر وفي الآخر، فالآخر (الفرد/ المجتمع) هو الذي يمنح الإنسان الإحساس بالانتماء، وبالتالي بأصالة الوجود والتقدير الذاتي!

من أجل ذلك لا يمكننا أن نفهم من حرص الملاحدة المتواصل وتبشيرهم المستميت بالفردوس الإلحادي؛ أنّ الإلحاد مجرد موقف شخصي من قضية وجود

الله تعالى، بل بالأحرى نحن نجد أنفسنا ملزمين بأن نفهم بأنّ الإلحاد ديانة جديدة تسعى لفرض نفسها على الإنسان المعاصر بوسائل مختلفة وتحت شعارات شتّى!

❊ ❊ ❊ ❊

(٨) مفهوم الدين

إذن -كما سبق أن ذكرنا- لا يمكن أن ننفي سمة الديانة عن الإلحاد. ومع ذلك، أجد من الإنصاف للملاحدة أن نبحث مفهوم الدين وخصائصه الكبرى التي تُشكل جوهره وترسم ملامحه العامة، لنرى مدى شموليّة معنى كلمة «دين» للإلحاد المعاصر أم لا.

عندما نرجع إلى القواميس والمعاجم اللغويّة،[1] نجد أنّ كلمة «دين» بمختلف اشتقاقاتها، تتحرك داخل فضاء مجموعة من المعاني والدلالات المرتبطة ارتباطًا وثيقًا فيما بينها، وهي:

١. **الانقياد والخضوع.**

٢. **الطاعة والاتّباع.**

٣. **العادة والسلوك.**

٤. **الجزاء والمكافأة.**

---

(١) معجم مقاييس اللغة. لابن فارس، لسان العرب. لابن منظور، القاموس المحيط. للفيروزآبادي. ويرجى النظر في فصل مصطلح (الدين) في كتاب المصطلحات الأربعة في القرآن لأبي الأعلى المودودي.

تأمل هذه المعاني الأربعة، يكشف لنا أنّ مفهوم الدين له أربعة أبعاد:

أولًا: البُعد الإدراكي. يتجلّى في الانقياد لعقيدة تتضمن تفسيرات للحقائق الكونية.

ثانيًا: البُعد الوجداني. يتجلّى في الالتزام بإرادة ثابتة بمتطلّبات تلك العقيدة.

ثالثًا: البُعد الاجتماعي. يتجلّى في اتّباع أنماط سلوكيّة اجتماعيّة نابعة من تلك العقيدة.

رابعًا: البُعد النفسي. يتجلّى في الشعور بالقيمة الذاتيّة بقدر الالتزام بالأبعاد الثلاثة الآنفة.

خامسًا: البُعد القانوني. يتجلّى في اتّباع قوانين معينة حاكمة، تكون منبثقة من العقيدة.

إذن كلمة «دين» تعني تبنّي الإنسان لمنظومة عقدية شموليّة، تُحدّد له تصوراته وسلوكاته وإطار نشاطات الحياة المختلفة. ولهذا فخصائص مفهوم الدين تتجلّى في خمسة جوانب:

أولًا: العقيدة. أي وجود منظومة عقائديّة، أساسها الاعتقاد بوجود مطلق مقدس. وفي إطارها تتحدّد زاوية الرؤية لـ(الإنسان، الحياة، القيم، المصير).

ثانيًا: العبادة. أي وجود منظومة طقوسية فرديّة وجماعيّة، يلتزم بها المنتمي لهذه العقيدة. وتكون العقيدة هي مصدر ما يُقبل ولا ما لا يُقبل في هذا الالتزام.

ثالثًا: الأخلاق. أي وجود منظومة أخلاقيّة، يتخلّق بها المنتمي لهذه العقيدة. وسمة هذه المنظومة أنّ العقيدة هي التي تحدد ما يجب التحلّي به وما يجب التخلّي عنه.

رابعًا: التشريع. أي وجود منظومة قانونيّة، يلتزم بها المنتمي لهذه العقيدة في النشاطات والعلاقات. ومكونات هذه المنظومة تكون نابعة من المنظومة العقدية.

خامسًا: الأخبار. أي وجود منظومة أخباريّة، تروي للمنتمي والتابع لهذه العقيدة قصة الإنسان والكون، من حيث الأصل والتاريخ، والوظيفة، كما المصير بعد الموت.

فهذه السمات توجد في كل دين ومذهب شمولي، وإن بنِسَبٍ مختلفة أو تركيز على جوانب دون أخرى. لأنّ كل دين ومذهب شمولي ينطلق من فكرة مسبقة، وهي أن الإنسان كائن مركب من جوانب وأبعاد مختلفة، حتى وإن أنكرت بعض المذاهب الشمولية هذه الحقيقة! وبما أن الإنسان كذلك، فهو بالضرورة يحتاج لمنظومة مركبة وذات أبعاد متعددة، ولهذا تسعى كل الأديان والمذاهب لتلبية احتياجات تلك الجوانب، بطرق مختلفة، ونِسب مختلفة.

ولعلك لاحظت أنني جعلت العبادة والأخلاق والتشريع والأخبار مرتبطة بالعقيدة. والحقيقة أن ذلك طبيعي جدًّا، إذ إن الإنسان إنما يتحرك في تفكيره وعلاقاته ونشاطاته وتفسيراته داخل رؤية شمولية وعقيدة كلية، ولا يمكن لذلك أن يكون هناك إنسان بلا رؤية، عقيدة، مرجعية. وهذا من سمات تميز الإنسان عن الحيوان، حتى إنه يمكن القول بأن العقيدة والمرجعية العليا عنصر أصيل في بنية وعي

الإنسان، رغم أن بعض الناس يكونون على وعي كامل بطبيعة الرؤية، والعقيدة، والمرجعية التي يتبنونها وينتمون إليها ويتحركون في إطارها، وبعضهم وإن كانوا يفكرون ويتحركون ويسلكون وينشطون ضمن تلك الرؤية الكلية والمرجعية النهائية، فهم لا يدركونها إدراكًا واعيًا، كما ترى جماهير الشعوب الغربية يحكم أفكارهم ورؤاهم ونشاطاتهم وأحلامهم وعلاقاتهم النموذج المادي والمرجعية المادية، التي تختزل كل شيء في البُعد المادي، إلا أنهم ليسوا واعين تمامًا بالأبعاد الكبرى لهذا النموذج، ولا بالأسس الفلسفية لها!

يقول فتحي ملكاوي: «لكل فرد من بني البشر رؤية للعالم، سواء أدرك ذلك أم لم يدرك، فكل فرد له افتراضات وصور وتحيزات تؤثر على الطريقة التي يرى فيها الوجود والحياة، وتتصف هذه الافتراضات بقدر من الثبات والتماسك، وليس بالضرورة أن تكون صحيحة. وتشبه رؤية العالم النظارات التي تؤثر على الطريقة التي يرى فيها الفرد الأشياء من حوله، وتتشكل رؤية العالم نتيجة التعليم والتنشئة والثقافة التي يعيشها الفرد».[١]

ويقول سامي عامري: «كل منا يحمل في صدره تصورات للكون وما يحويه، لكن كثيرًا منا لا ينتبه إلى حقيقتها، فهو يتنفسها كما يتنفس الهواء دون أن يعيش حال التنفس بعقله، حتى إذا انقطع نفَسُه أو سئل عن هذا الهواء الصاعد النازل أدرك حقيقة الأنفاس وتعلقها بحياته».[٢]

---

(١) رؤية العالم عند الإسلاميين. مجلة إسلامية المعرفة، عدد ٤٥، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م، ص٨.

(٢) براهين وجود الله ص٤٧.

نأتي الآن لطرح السؤال التالي: هل تنطبق هذه الخصائص الخمسة على الإلحاد؟

نحن نطرح هذا السؤال؛ لأنّه ببساطة إذا ثبت أنّ تلك المكونات الخمسة الآنفة الذكر تشمل الإلحاد أيضًا، فالإلحاد بلا شك دين، شاء الملحد أم أبى، أعني كونه دينًا باعتباره احتوائه على عناصر ومكونات مفهوم الدين. فلنتأمل المعطيات التالية:

(العقيدة): تقوم العقيدة الإلحاديّة على مجموعة معتقدات منها: «الإله غير موجود»، «الإنسان كومة ماديّة»، «الحياة عبث بلا معنى»، «الأخلاق خداع ونفاق»، «المنفعة مقياس كل شيء». فهذه المطلقات وغيرها تُشكل منظومة العقيدة الإلحاديّة، وبدونها لا يكون هناك إلحاد!

(الشعائر): يفخر الملاحدة بأنّ الإلحاد ليس فيه شعائر تعبديّة. لكن حين نفهم أنّ العبادة شعور نفسي قبل أن تكون حركات بالجوارح، وحين نتذكر إقامة الملاحدة لمجموعة أعياد سنويّة ودوريّة يحتفلون بها مع طقوس خاصة بها،[1] يتلاشى هذا الزعم البائس!

---

(١) فمن يسمون أنفسهم بعبدة الشيطان -ليس إيمانـًا منهم بوجود الشيطان، بل هو رمز لهم للتحرّر من الأديان- لهم لقاءات دوريّة، يشربون فيها الخمور والماريغوانا ويمارسون الجنس الجماعي واللوطية وزنا المحارم ويقومون بإحراق وتدنيس الكتب المقدسة لأتباع الأديان. وهناك ملاحدة الرائيلية وهم فرقة إلحادية منكرة للخالق عز وجل يقوم أتباعها بعبادة الكائنات الفضائية التي يفترض أنها صنعت الإنسان داخل المخابر في القديم. وهناك عيد العري العالمي الخاص بهم، حيث يقوم الملاحدة بالتعري الكامل، رجالاً ونساءً، تعبيراً عن تمردهم الكامل على قيود الدين والأخلاق. وهناك عيد خاص بميلاد تشارلز داروين مؤسس نظرية التطور الخرافيّة. وفي بريطانيا قام بعض الملاحدة بإنشاء كنيسة خاصة بهم! وقد سبق أن نقلنا كيف يحرص الملاحدة في أمريكا مثلاً على الاجتماعات الدورية، وعمل أنشطة مختلفة.

(الأخلاق): تقوم الأخلاق الإلحاديّة على مجموعة قيم محددة، تُشكل إطار السلوك والعلاقات للملحد. جوهر هذه الأخلاق هو النفعيّة، أي إنّ كل ما يحقق نفعًا فهو أخلاقي إلحاديًّا. وهذا ينطلق من مبدأ (الحياة عبث بلا قيمة)، و(القيم نسبية وغير مطلقة)، و(الموت نهاية الرحلة)، ولذلك يظل الفرد الملحد يلهث بلا توقف.

(التشريع): التشريعات القانونيّة في الإطار الإلحادي لا تحظر على الملحد الربا، وتجارة الخمور، والإباحيّة الجنسيّة، وقتل الأجنّة غير المرغوب فيهم، وقتل المرضى ذوي الأدواء المزمنة، وإعلان الحروب على الدول الضعيفة إذا كانت ذات جغرافيا استراتيجيّة أو موارد ماديّة غنيّة، كما أنها تحارب كل الخصوصيات والرموز الدينية.[١]

(الأخبار): لا يفتأ الملاحدة يقدمون منظومة أخباريّة لتفسير معطيات التاريخ والكون والحياة والإنسان. فالكون نشأ صدفة أو هو أزلي، والحياة عبث وسخف، والتاريخ صراعات طبقيّة ماديّة، والإنسان أصله خلية تافهة نشأت صدفة، ولا حياة بعد الموت. وهم يفعلون ذلك ضد المعطيات الخرافية للأديان كما يعتقدون!

---

(١) في عام ١٤٤١-٢٠١٨، قامت الشرطة الفرنسية بإخراج بعض المحجبات اللواتي جلسن في أحد الشواطئ العامة، بدعوى أن لباسهن لا يناسب الشاطئ! كما قامت بطرد بعض المحجبات من ساحة برج إيفل، لأن المكان سياحي! أما بخصوص تشريع غزو البلدان الأخرى لأن أهلها من درجة أدنى، فهذا ما قام الغرب خلال القرنين الماضيين، فقتل ودمر ونهب شعوب العالم الأخرى التي حكم عليها بالتخلف والبدائية! وفي فرنسا يحرصون على إقرار قوانين تمنع كل ما من شأنه التشكيك في القيم العلمانية ومعارضتها، أما نقد الهولوكوست المزعوم فهو من المحرمات في عموم دول أوروبا!

وهكذا تبيّن لنا بوضوح أنّ الخصائص التي يتميّز بها الدين في نفسه، هي نفسُها الخصائص التي يتميّز بها الإلحاد. فسواء الإسلام أم الإلحاد كلاهما يُشكّل منظومة شاملة ومتكاملة تقدم للإنسان تفسيرات معيّنة وإجابات محددة للأسئلة الوجوديّة التي تشغل فكر الإنسان ووجدانه، رغم الفروق الكبيرة بين التفسيرات والإجابات في الإسلام والإلحاد.

من خلال ما تم عرضه، نكتشف حقيقة مهمة؛ وهي أنه لا يوجد فرق بين الإلحاد أو أي دين آخر، سوى من جهة المنطلقات والغايات وبالتّالي التفسيرات. لأنّ الشيء إذا حلّ محل شيء آخر أخذ حكمه بالضرورة، حتّى مع وجود اختلافات في المنطلقات والتفسيرات والغايات. ولهذا وجدناهم يصفون إلحادهم بديانة الإنسانيّة، ديانة الحقيقة، ديانة العقل، ديانة العلم!

ومن هنا، نستطيع أن نعتبر «الدين منهجًا في الحياة تتبعه كل جماعة أو يرتضيه كل مجتمع، على اعتبار أن هناك ارتباطًا وثيقًا بين طبيعة النظام الاجتماعي وطبيعة التصور الاعتقادي... فالتصور الاعتقادي ما هو إلا دين المجتمع الذي يتصور في ضوئه حقيقة الوجود وحقيقة الإنسان ووضعه في هذا الوجود وغاية الوجود البشري في الحياة، ثم يتجه على هذا الأساس إلى تصور الوسائل التي يمكنه استخدامها لتحقيق غايته في الحياة».[١]

القضية إذن ليست أن تُسمي النظام المعرفي الذي تعيش فيه حياتك الفكرية والنفسية والسلوكية والاجتماعية، ومختلف العادات والتقاليد والقوانين، دينًا أم لا،

---

(١) علم الاجتماع الديني. عبد الله الخريجي ص٣٥. بتصرف يسير

فالأمر أكبر من ذلك، وعدم التسمية لا يغيّر من الحقيقة شيئًا. القضية تتمثل في أنك تتبنى رؤية كلية عامة، في إطارها وحسب مبادئها وأسسها، تُشكّل أفكارك وأحلامك وسلوكاته وعلاقاتك ونشاطاتك. فالفرد الماركسي مثلًا، حتى وإن أنكر أن الماركسية دين، إلا أنه إنكار لا قيمة له، لأنّ جوهر الماركسية يدل على أنها دين كامل العناصر والمقومات، فالماركسية لديها رؤية شمولية للوجود، هي الرؤية المادية، وفي إطار هذه الرؤية يحدد الفرد الماركسي -أو يجب أن يفعل- طبيعة الإنسان وقيمته، وأنماط الحياة ومسالكها، وقواعد العلاقات الاجتماعية وضوابطها. والشيء نفسه يقال عن العلمانية، فهي أيضًا تستند إلى تصور كلي، هو فصل الإنسان عن خالقه، وأن هذا الخالق يجب أن يظل في عليائه بعيدًا عن واقع الإنسان وألا يتدخل في شؤونه، ومن ثم يُشكل الفرد العلماني أنساق فكره وأنماط حياة ومسالك العلاقات الاجتماعية والتنظيمية في إطار هذه الرؤية الكبرى.

إذن؛ باختصار، نقول: الدين رؤية كلية شاملة، تتحدد في إطارها منظومة الأفكار والتصورات، وأنماط السلوك والفعل، ونُظم التشريع والقوانين، بغض النظر عن قيمة ذلك كله في ميزان الحقيقة. ولك بعد هذا أن تضع أي اسم شئت!

وإذ قد وصلنا إلى هذه النتيجة، من المهم أن نقرر بأنه ليس هناك إلا دينان اثنان لا ثالث لهما، وهما: (الدين الإلهي) و(الدين الأهوائي).

أما **الدين الإلهي**، فهو الدين المنزل من عند خالق الإنسان ورب الكون ومبدع الحياة، قد وضع فيه من التعاليم والضوابط والتوجيهات ما ينسجم مع طبيعة الإنسان وطبيعة المهمة التي خلقه لأجلها، إذ هو العليم الخبير بالإنسان، وبما يصلح له في

وظيفته الكبرى، وما يحقق له السعادة العظمى في الدنيا والآخرة: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾.[١]

وأما **الدين الأهوائي**، فهو الدين الموضوع من عند الإنسان بمجرد الهوى والتشهي، حتى وإن ألبسه لباس العقل والعلم، سواء أكان من ملك أم أكان من فيلسوف أم أكان من زعيم أم أكان من حزب أم أكان من ممثلي الشعب، وكل هؤلاء يسمون اصطلاح القرآن بـ«الطاغوت»، كما في قوله: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ ﴾.[٢]

وهذه الحقيقة، حقيقة أن كل نظام شمولي، هو دين، باعتباره يتضمن رؤية كلية، تنبثق عنها أفكار وسلوكيات وعادات وقوانين من يؤمنون به وينتمون إليه، هذه الحقيقة كشفها القرآن الكريم في كثير من آياته، كما أثبت أن معركة النبوات لم تكن إلا مع هذه الأديان الأهوائية والشركية، من أجل تقديم منظومة تليق بالإنسان وبالدور المقدس الذي أنيط به في عالم الدنيا.

فيقول عن فرعون مصر: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴾.[٣] فهذه الآية تدل على أن النظام الفرعوني كان نظامًا علمانيًا وثنيًّا لا مكان فيه لله سبحانه، إذ لم يكن فرعون وقومه يتّبعون شريعة من شرائع الأنبياء، بل كانوا يتّبعون أهواء فرعون التي جعلها

---

(١) الروم: ٣٠.

(٢) النحل: ٣٦.

(٣) غافر: ٢٦.

لهم دينًا يعيشون في أفكاره وتصوراته وأنماطه وأحلامه، فكان هو الحاكم والآمر والناهي، كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ۝ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾.[1]

والشيء نفسه قرره القرآن بخصوص كفار قريش، فقد وصف ما كانوا عليه بالدين، باعتبار أنهم كانت لهم رؤية وعقيدة، عنها انبثقت عاداتهم وتقاليدهم وقوانينهم، وفي إطارها تشكلت نفوسهم وشخصياتهم، قال سبحانه آمرًا نبيه الأكرم ﷺ بإعلان المفاصلة النهائية والكاملة بين دين الإسلام ودينهم الوثني، أي بين منهج الإسلام ومنهج الكفر والشرك: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾.[2]

❊ ❊ ❊ ❊

(٩) شبهة أن الإلحاد ليس له كتاب مقدس

في هذا السياق من المفيد التذكير باعتراض يعترض به بعض الملاحدة حين يقال لهم بأن الإلحاد دين، فيقولون: كيف تقولون بأن الإلحاد دين، والإلحاد ليس له كتاب مقدس، ولا يؤمنون بالغيبيات، ولا منظومة قوانين!

الواقع أن هذا الاعتراض؛ وإن كان يعترض به زعماء الإلحاد، فهو من جهة خبثهم وخداعهم لأتباعهم، وأما المعترضون الأتباع، فهذا الاعتراض ليس سوى دلالة على سذاجة فهمهم للإلحاد ولوازمه ومقتضياته.

---

(١) هود: ٩٦-٩٧.

(٢) الكافرون: ١ - ٦.

والحقيقة أن جواب هذا الاعتراض قد سبق التنبيه عليه حين ذكرنا الخصائص الخمسة التي يشترك فيها الإلحاد مع غيره من الأديان، لكن لا بأس بكلمة أخرى هنا. أما كون الإلحاد ليس فيه كتاب مقدس[١] فليس يلزم أن يكون هناك كتاب مادي محسوس ومجموع بين دفتين، لينطبق اسم الدين على هذه الجماعة أو تلك. بل يكفي أن تكون هناك رؤى كلية وأفكار عامة يؤمن بها أفراد الجماعة، ويتناقلونها بينهم، ومنها يستوحون أفكارهم، وبها يكيّفون حياتهم، ويؤطرون نشاطاتهم المختلفة. علمًا أنك دائمًا تجد شعور الأتباع الملحدين تجاه أقوال زعمائهم موسومًا بالقداسة والتعظيم والتبجيل، فهي الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وحتى حين يكون مشحونًا بالتناقض والاختلاف، فالتشكيك في العقل والفهم والبحث له عن التأويلات والمخارج أولى من التشكيك في كلام الزعيم!

يشير مكسيم رودنسون -عالم اجتماع ماركسي- إلى شعور القداسة بين الماركسيين تجاه ماركس وأقواله وتراثه، فيقول: «لقد قال ماركس أشياء كثيرة، ومن اليسير أن نجد في تراثه ما نبرر به أية فكرة، إن هذا التراث كالكتاب المقدس، حتى الشيطان يستطيع أن يجد فيه نصوصًا تؤيد ضلالته».[٢] وهذا ليس خاصًا بماركس والماركسيين، بل يشمل كل الأيديولوجيات، كما ترى التقديس والتعظيم بين العلمانيين والحداثيين والنسويات للقيم والأفكار والمبادئ الغربية، بدعوى أنها قيم

---

(١) هناك كتاب صغير الحجم منشور في الإنترنت باسم (الكتاب المقدس للملحدين) جمع فيه صاحبه مجموعة من الأقوال والاقتباسات الناقدة والناقمة على الإله والأديان، فتأمل!

(٢) الإسلام والرأسمالية ص١٦.

عالمية ومبادئ وأفكار إنسانية.! ورغم أن كثيرين منهم يرفعون شعار الإسلام إلا أنهم مستعدون للتنازل عن مبادئه وأحكامه حين تتعارض مع المنظومة الغربية، فهي المقدس والمطلق والمعيار!

وأما القول بعدم قول الإلحاد بالغيبيات، فهذا مجرد خداع للذات وللآخر، فالإلحاد رؤية غيبية في الأساس، ولا يمكن للإلحاد أن يستمر بدون حضور الغيب فيه. فعندك مثلًا قضية سلطان العلم الطبيعي وأنه قادر على اكتشاف كل شيء، لكن كل ذلك معلق بالمستقبل البعيد، أي بالغيب المجهول! وعندك مثلًا التطور، فهو حدث قبل وخلال ملايين السنين الموغلة في التاريخ، أي أنها مرتبطة بالغيب المجهول! وعندك مثلًا الأكوان المتعددة، فهي أكوان بالآلاف وربما بالملايين أو المليارات تتطور وتندمج وتفنى وهكذا دواليك! وعندك مثلًا استحالة وجود شيء خارج العالم المادي، رغم أن هذا العالم المادي شاسع بما يفوق الخيال! فإن لم يكن كل هذا -وأمثاله- غيبًا يؤمن به الملحد ويتلقاه بالتسليم، فما هو الغيب إذن، وعلى أي شيء ينطبق؟!

وأما مسألة القوانين، فهذه الجزئية في الاعتراض من الفضائح المخزية، فلو أخذنا الاتحاد السوفيتي قديمًا، أو الصين وكوريا الشمالية حديثًا، وهذه دول ملحدة إلحادًا صارخًا، وأضف كل الدول الغربية والشرقية، فكلها قوانينها نابعة من الرؤية العلمانية المادية، حتى وإن زيّنت بعض الدول دستورها بذكر الدين الأصلي للشعب! فإنك ستجد (ترسانة) قوانين تضبط نشاطات الأفراد والشركات والمنظمات وكل شيء، هناك (حلال وحرام)، وهناك (مقدسات ومحظورات)،

وهناك (مباحات وجائزات)، الأمر لا يتعلق فقط بالأمور الكبرى، بل تتدخل بعض هذه الدول تقريبًا في كل صغيرة وكبيرة في الحياة الخاصة للأفراد. وكل هذه الترسانة القانونية والتنظيمية لم تأت من فراغ، بل هي وليدة الرؤية الإلحادية المادية التي يتبنّاها ويؤمن بها الزعيم والرئيس ومختلف المسؤولين في سلم الحكومة والإدارة. الملحد هنا انخدع ببعض الحريات المتاحة له، كالحرية الجنسية، واللهاث وراء المال، وما كان من قبيل ذلك، غير أنه في الحقيقة محكوم رغمًا عنه بقوانين وشرائع صارمة لا يمكنه الخروج عنها وتجاوزها.

إذن كان المقصود من هذا الفصل بيان أن الإلحاد بما أنه رؤية وجودية يضبط الملحد تصوراته وأنماط حياته ومختلف نشاطاته وفق مبادئها وأسسها (إلى حد معين فقط)، فإذن الإلحاد دين وعقيدة وإيمان، وما كان للإلحاد أن يكون له معنى لولا أنه فعلًا دين وعقيدة وإيمان! وإن المرء ليعجب عميق العجب؛ كيف للعاقل أن ينتقل من دين أعلى (والمقصود هنا الإسلام) إلى دين أدنى (والمقصود هنا الإلحاد)، رغم أن الدين الأول يقول له أنت كائن رفيع المكانة، ومقدس بين الكائنات، ولذلك فالخالق لا يتركك سدى مهملًا، بل أنزل إليك شريعة فيها عقيدة تفسر لك حقائق الوجود الكبرى، وفيها من القيم والمبادئ ما يضفي على حياتك المعنى والقيمة، وفيها من الشعائر والعبادات ما يجعلك موصولًا بآفاق الوجود الرحيبة، وفيها من الشرائع والأحكام ما يضبط حياتك الاجتماعية ضبطًا يورثك السلام والسعادة والعدل، وأن هذا الخالق قد أعد لك حياة بعد الموت في منتهى الروعة والجمال وبلا نهاية! إن المرء ليعجب عميق العجب، لولا أنه يذكر أن

النفوس سريعة الإقبال على الباطل لما تجد فيه من الوهم والبطالة والغفلة والكسل، بطيئة الاستجابة للحق لما تجد فيه من الجد والمجاهدة والانضباط واليقظة!

في حين أن الدين الثاني يقول له أنت كائن حقير القيمة، وحياتك عبث سخيف، ومصيرك ليس أفضل من مصير الحشرات التافهة، بل إن هذا الدين يقذف به إلى صحراء قاحلة لا معالم فيها ولا هدى، فيظل يخبط خبط عشواء، لا يعرف أصله، ولا لماذا هو هنا، ولا ما هو مصيره، ولا يعرف هذا الكون المهيب لماذا هو موجود، ولا هذا التنوع المدهش في الكائنات ما الغاية منه، بل يعيش في ظنون شاردة وأوهام كاسدة، تتقاذفه أمواج الحيرة وتتلاعب به الشكوك، فيشعر بالاختناق لأن فطرته العميقة تؤكد على أنه يسير في الطريق الخطأ! ولكنها الأهواء.. ولكنها الأهواء!





البديل الإلحادي

(١) الإلحاد مرجعية بديلة

قديمًا كان الإلحاد أقرب إلى القناعة الشخصية؛ يحاول الملحد أن يفلسفها ويدلل على صحتها، ولا يكاد يفكر في نشرها بين عموم الناس، لما يرى من سلطان الدين وسطوة الإيمان، بالإضافة إلى قلة إمكانيات النشر والترويج. أما اليوم؛ فالإلحاد قد تجاوز أفق القناعة الشخصية إلى طور آخر، وهو طور النشر والتبشير والإغراء والمواجهة المباشرة، وآية ذلك ما نراه من ذلك الكَم الهائل من المقالات والحسابات والصفحات والمنتديات والقنوات، بالإضافة إلى الكتب والمحاضرات واللقاءات، فضلًا عن تلك الأعمال الضخمة من الأفلام والبرامج لعلمنة الرؤية والفكر والشعور والأحلام وأنماط الحياة وتفكيك الأسرة، بل لغرس القناعة المادية، وأنه لا إله والحياة مادة!

وقد سبقت الإشارة إلى كل ذلك ولو بشكل مختصر بهدف إعطاء فكرة عامة للقارئ.

لكن في هذا المبحث أطرح سؤالًا أراه مهمًا وهو: لماذا يحرص زعماء الإلحاد المعاصر على عرض الإلحاد في صورة البديل الأفضل للأديان -وفي سياقنا الإسلام بالنسبة للملحد العربي-، والعمل على تقديم منظومة شاملة ومتكاملة حول المعرفة والأخلاق والقناعات والروحانية[١] ونمط الحياة؟

---

(١) في عام ٢٠١٤، أصدر الملحد الأمريكي الشهير سام هاريس، كتابًا في مجال الروحانية، وقد ترجم الكتاب بعض المواقع الإلحادية العربية بعنوان (الصحوة: دليل في الروحانية بلا أديان) فتأمل!

الحقيقة أن الأمر مرتبط بجانبين اثنين، وهما:

(أولًا) لما ترك الملحد الإسلام خصوصًا والأديان عمومًا؛ بذريعة أن هذه المرجعية الإيمانية بما أن مصدرها غيبي يقع خارج الذات والعالم، لا يمكن الوثوق بها إذ لا دليل عليها! كان لابد من أن يطرح البديل الأفضل للإسلام خصوصًا وللأديان عمومًا. ولما كانت الأديان ذات الأصل الإلهي -خصوصًا الإسلام- نظامًا شاملًا ومتكاملًا، لزم الملحد أن يعرض الإلحاد على أنه منظومة شاملة ومتكاملة، إذ لا معنى أن يترك المرء مرجعية شاملة ومتكاملة إلى مرجعية جزئية وقاصرة ومختزلة.

(ثانيًا) الملحد إنسان قبل أن يكون ملحدًا، والإنسان ليس كتلة مادية كما يزعم الملحد ويروج لذلك، ليستقيم له إلحاده، بل الإنسان كيان متعدد الأبعاد ومتنوع الجوانب. هذه الأبعاد والجوانب من الطبيعي أنها تتطلب تلبية احتياجاتها المختلفة، وإلا اختلّت واضطربت، وذلك يؤدي إلى أن يفقد الإنسان معناه وقيمته، وما يترتب على ذلك من الآثار السلبية. ومن هنا يحرص الإلحاد على الظهور بمظهر القادر على تلبية تلك الأبعاد!

الملحد -إذن- صار اليوم يتعامل مع الإلحاد على أنه مرجعية بديلة، كما أنه يعرضه كذلك في كتاباته ولقاءاته ومناظراته. والحقيقة أنه لو لم يفعل ذلك ولو لم يسلك هذا المنهج لما كان للإلحاد أدنى قيمة أو جاذبية، سواء بالنسبة له هو شخصيًّا أو بالنسبة لمن يحاول ضمهم إلى الجماعة الإلحادية! فمن يُلحد لا يُلحد إلا لأنه يعتقد بصورة مسبقة وضمنية أنّ الإطار الكلي للإلحاد أفضل من الإطار الكلي الذي يعرضه الإيمان.

ومن ثم، تجد أئمة الإلحاد الصريح والمتخفي يتنادون بضرورة طرح البديل، إذ الهدم لا يكفي، بل لابد من البناء. يقول مثلًا دوركهايم: «ليس من المستحسن أن نزيل فقط العناصر الدينية في المعتقدات والممارسات التقليدية، فالأخلاق والدين تاريخيًا مرتبطان معًا بصورة لا يسهل معها فصلهما، فالمطلوب هنا اكتشاف البدائل العقلية لهذه الأفكار الدينية، لا يكفي فقط أن نقطع، يجب أن نستبدل».[١]

* * * *

(٢) مفهوم المرجعية

يمكن بيان مفهوم المرجعية بالقول أنها «الإطار الكلي والأساسي المنهجي، المستند إلى مصادر وأدلة معينة، لتكوين معرفة ما أو إدراك ما، يُبنى عليه قول أو مذهب أو اتجاه يتمثل في الواقع علمًا أو عملًا».[٢] ويقول المفكر الكبير عبد الوهاب المسيري: «المرجعية هي الفكرة الجوهرية التي تُشكل أساس كل الأفكار في نموذج معين والركيزة النهائية الثابتة له التي لا يمكن أن تقوم رؤية العالم دونها (فهي ميتافيزيقا النموذج)».[٣]

وفق هذين التعريفين، فإن القول بأن الإلحاد مرجعية بديلة -كما يقدمها الملاحدة وكما هو واقع الأمر- يعني أن هذه المرجعية بما أنها صارت معيارية بالنسبة للملحد، فلها بالضرورة أصول ومبادئ وأهداف ومنطلقات وغايات، وهذه

---

(١) الأسرة في الغرب: أسباب تغيير مفاهيمها ووظيفتها. خديجة كرار، ص٢٠٦.

(٢) المرجعية في المفهوم والمآلات. سعيد الغامدي ص٣٤.

(٣) الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان ص٣٦.

كلها تنبثق عن الرؤية الإلحادية الكلية للذات والقيم والعالم، وفي إطارها تتشكّل مختلف النشاطات والسلوكيات والعلاقات والغايات!

وإنما قلنا بأن تلك الأصول والمبادئ والأهداف والمنطلقات والغايات تنبثق عن رؤية كلية، لأنّ الإنسان بطبعه يستبطن رؤية معيارية ونظرة كلية، تكون هي الإطار الذي تتحرك جزئيات النشاطات المختلفة، من أفكار ومشاعر وسلوكيات وعلاقات وطموحات وغيرها. ولا يلزم أن يكون كل فرد واعيًا بهذه النظرة الكلية المرجعية، إذ لا ينتبه لذلك إلا أفراد يضعون بينهم وبين سياق مجتمعاتهم مسافة معينة تحررهم من ضغطه وسلطته، كما لا ينتبه لذلك عموم الناس إلا عند الاحتكاك برؤية كلية ومرجعية كونية وإطار حضاري مختلف عن رؤيتهم وإطارهم ومرجعيتهم، سواء بالاحتكاك المباشر عبر السفر مثلًا، أو بالقراءة والمطالعة، أو خلال طور التحولات الجذرية.

يقول مؤلفا كتاب (العلم في منظوره الجديد): «لكل حضارة من الحضارات تصور كوني للعالم، أي نظرة يُفهم وفقًا لها كل شيء ويُقيَّم. والتصور السائد في حضارة ما هو الذي يحدد معالمها، ويشكّل اللحمة بين عناصر معارفها، ويُملي منهجيتها، ويوجّه تربيتها. وهذا التصور يُشكّل إطار الاستزادة من المعرفة والمقياس الذي تقاس به. وتصورنا للعالم هو من الأهمية بحيث لا ندرك أن لدينا تصورًا ما إلا حين نواجه تصورًا بديلًا، إما بسفرنا إلى حضارة أخرى، وإما باطلاعنا على أخبار العصور الغابرة، وإما حين يكون تصور حضارتنا للعالم في طور التحول».[١]

---

(١) العلم في منظوره الجديد. روبرت أغروس، جوج ستانسيو ص١٥.

ولقد أشار القرآن الكريم إلى سلطة النظرة الكلية، واستبطان كل إنسان وحضارة لرؤية كونية معينة، وعنها تصدر كل النشاطات، وفيها تتشكل كل الأنماط السلوكية والأنساق الفكرية، فتأمل النظم التالي: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾.[١] فانظر كيف قرّر أن نظرة الكفار للعالم أي الرؤية الكلية، مؤسسة على فكرة العبثية وعدم المعنى، فهذا الكون وهذه الحياة بالنسبة لهم مجرد مسرحية عبثية، بلا معنى ولا غاية، وفي إطار هذا الاعتقاد وهذه القناعة فيهم تشكلت سلوكاتهم ونشاطاتهم وأنماط حياتهم، ثم انظر كيف قرّر أن النتيجة الحتمية لترسخ فكرة العبثية والرؤية المادية هي الإفساد في الأرض وشيوع الفجور وفشو الفسوق بين أصحاب هذه النظرة المنحرفة للعالم!

انطلاقًا من هذا البيان، نطرح السؤال التالي: هل يمكن للإنسان أن يتحرر من المرجعية، فيعيش حياته على مستوى الفكر والسلوك بدون أي إطار مرجعي، أم أن الإنسان بسبب تكوينه النفسي والعقلي الفطري، لابد له من مرجعية معينة يتبنّاها وفي إطارها يفكر ويفسر ويتحرك؟

نحن نقول بأنه لا يمكن للإنسان من حيث هو إنسان أن يتحرر من المرجعيات. والنظر في هذه المسألة يحيطنا علمًا بأن حتمية المرجعية للإنسان نابعة من ثلاثة أصول:

---

(١) ص٢٧-٢٨.

الأصل الأول: تكوين الإنسان. أي أن التكوين الذي قضاه الله تعالى للإنسان يحتّم على الإنسان أن يتحرك في إطار الدوافع والغايات أو قل النيات والإرادات، وهذه لابد لها من أسس كلية تكون هي المؤطر والموجّه للإنسان في مناهج الفكر وأنماط السلوك والتنظيم.

الأصل الثاني: دور الإنسان. أي أن الإنسان بما أنه مخلوق، فهو مخلوق لغاية مقررة مسبقًا ولابد، ولهذا تجد الناس جميعًا يعيشون لأهداف معينة بغض النظر عن قيمتها. ولما كان الأمر كذلك، كان وجود مرجعية عليا لتحديد الأهداف حتميًّا.

الأصل الثالث: مصير الإنسان. أي أن الإنسان بفطرته وعقله البديهي يدرك بأنه لن يُخلّد في هذا العالم، بل لابد له من حد ينتهي إليه أجله ويخرج عنده من الدنيا. ولما كان الأمر كذلك كان لابد للإنسان من مرجعية تحدد له مصيره بعد الموت ولوازم ذلك.

وإذ قد فهمنا الأصول الموجبة للمرجعية، وأن طبيعة الإنسان بمختلف شُعبها تستلزم وجود مرجعية معيارية تكون هي الإطار الذي يتحرك فيه الإنسان لتحديد المعنى وتفسير الذات والعالم، وتوجيه السلوك والأهداف والعلاقات المختلفة. إذ قد فهمنا هذا، إذن من اليسير أن نفهم سر حرص كبار أرباب المذاهب والاتجاهات والفلسفات على تحديد مرجعيّتهم العليا، وضبط أصولها ومبادئها وقواعدها وأهدافها والاجتهاد في الدفاع عنها ضد كل الاعتراضات التي قد يطرحها الآخر، وليس ذلك -بالإضافة للأصول الثلاثة الآنفة الذكر- إلا لعلمهم أنه لا قيمة لأي فكر

أو فلسفة ورؤية وجودية شمولية، إلا بمرجعية معيارية عليا، يمكن استلهام مبادئها وأصولها ومنطلقاتها في الفكر والسلوك والنشاطات والعلاقات.

إن من يتأمل «الدعوات الفطرية والإصلاحية والاتجاهات والمذاهب يجد أن كبار منظريها يهتمون بتأصيل الأصول والمنطلقات، ووضع الأسس والركائز الجوهرية، لأهميّتها النظرية والعملية، ولذلك نجد هؤلاء جميعًا ينافحون عن هذه الركائز المرجعية ويجتهدون في تثبيتها ورد أي شبهة أو اعتراض يوجه إليها، مع أنهم قد يتغاضون عن الاعتراضات الفرعية، وليس ذلك إلا لأهمية المرجعية وخطورة التعرّض لها، لكونها القاعدة الصلبة التي يُبنى عليها كل شيء يأتي بعدها».[١]

وأنت إذا نظرتَ في سر هذا المعنى؛ اكتشفت أن أهمية المرجعية أو الإطار الكلي أو الرؤية الشمولية أو غير هذا من الأسماء، تكمن في التالي:

أولًا: تحديد الموقع الوجودي. والمقصود به أن الإنسان بفطرته يبحث عن موقعه بين مكونات العالم، فتأتي المرجعية التي يتبنّاها فتحدد له موقعه، إما في مرتبة التكريم كما هو شأن المرجعية الإسلامية، وإما في مرتبة التحقير كما هو شأن المرجعية المادية.

ثانيًا: تأطير الرؤية المعرفية. والمقصود به أن العقل الإنساني لا يمكن أن يعمل إلا داخل نظام معرفي كلي لتفسير الجزئيات وتأويل المعطيات ضمن أصول نظامه المعرفي، فتأتي المرجعية التي يتبنّاها فتحدد له هذه الرؤية المعرفية التفسيرية.

---

(١) المرجعية في المفهوم والمآلات. سعيد الغامدي ص٣٨.

ثالثًا: توجيه النشاط السلوكي. والمقصود به أن الإنسان لابد له من الإرادة، والإرادة لابد لها من فعل، والفعل لا ينفصل عن رؤية الإنسان لموقعه الوجودي، كما لا ينفصل عن أصوله المعرفية، فتأتي المرجعية التي يتبنّاها فتحدد له وجهة سلوك نشاطاته المختلفة.

يقول عبد الوهاب المسيري في بيان ضرورة المرجعية الحتمية واستحالة انفصال الفرد والمجتمع عن مرجعية معينة: «لا يمكن لأي مجتمع أي يحدد توجهه واتجاهاته وأولوياته من دون تحديد المرجعية النهائية، ولا يمكن أن يسير أموره بطريقة تتفق مع مصالح أعضاء هذا المجتمع أو مصالح نخبه الحاكمة كما حددوها لأنفسهم ولجماهيرهم، لأنه من دون مرجعية نهائية سيفتقد المجتمع المعايير التي يمكن أن يحكم بها على ما يحيط به من ظواهر وما يقع له من أحداث، من أبسطها إلى أكثرها تعقيدًا».[1]

ولما كان الأمر كذلك؛ تجد الناس كافة، بمختلف مراتبهم ومؤهلاتهم وحضاراتهم وتوجهاتهم، لا يقبلون مطلقًا التشكيك في مرجعياتهم وأصولها ومبادئها ومنطلقاتها وغاياتها، إذ كان ذلك تشكيكًا في عقولهم وخياراتهم وأواصرهم الاجتماعية! ولهذا كانت أقوام الأنبياء عليهم السلام يعتبرون دعواتهم للتوحيد وإفراد الله تعالى بالألوهية والحاكمية، تسفيهًا لأحلامهم وتضليلًا لآبائهم وتحقيرًا لمسالكهم كلها في الحياة، ومن ثم آثروا خوض المعارك والحروب وإراقة الدماء

---

(١) العلمانية والحداثة والعولمة ص٩٢.

وتخريب العمران، بل والتعرّض للعذاب الأبدي الذي توعدهم به أنبياؤهم على التنازل عن مرجعياتهم الكفرية الوثنية!

يقول ليوبولد فايس -مفكر نمساوي أسلم بعد دراسة معمقة للإسلام، وسمى نفسه محمد أسد- خلال حديثه عن ثورة التوحيد الذي جاء به الرسول ﷺ وكيف تلقاها كفار قريش: «حين بدأ بالدعوة إلى التوحيد وأعلم أن عبادة الأصنام إثم عظيم، فإنهم لم يروا في ذلك تهجمًا فقط على معتقداتهم الموروثة عن أجدادهم وأسلافهم، بل رأوا فيها محاولة لتدمير نظامهم الاجتماعي».[١]

وفي هذا الإطار أيضًا، يقول ويرليمان -وهو إعلامي أمريكي ملحد-: «في حلقة من برنامجي فورين أويجيكت، سألت الصحفي الأمريكي اليهودي ماكس بلومنثال: لماذا ولّدت انتقاداتنا لكل من أيان هيرسي علي والفيلم المعروف المسمى أميركان سنايبر الكثير من الكراهية ضدنا؟ كان رد بلومنثال: إن الرواية التي تحكيها هيرسي علي والرواية التي تراها في أميركان سنايبر مريحة جدًا للأمريكيين، إنها تخبرهم بأنهم خيّرون، بأنهم خيّرون بطبيعتهم، بأنهم مسالمون، بأن كل هذه الحروب التي شاركوا فيها أجبروا عليها، بأن أياديهم نظيفة، بأنهم في صراع ديني من دون جذور سياسية تستلزم نقاشًا دقيقًا أو سياقًا تاريخيًا، بأن الاستعمار لم يحدث قط.. إن السبب وراء أننا مكروهون -أنا وبلومنثال- هو لأننا نعترض طريق سردية هذه الرواية».[٢]

---

(١) الطريق إلى مكة ص٤٣١.

(٢) مهددات الإلحاد الجديد ص١٣٥. أيان هيرسي علي: ملحدة من أصل صومالي، كانت =

وأيضًا هذا هو سر حرص الغرب وصبيانهم من بني جلدتنا، من العلمانيين والليبراليين والحداثيين والنسويات[١] على التوجه مباشرة نحو أصول المرجعية الإسلامية وهدمها وتفكيكها وتفريغها من مضامينها، إذ بمجرد أن يفك المسلم ارتباطه بالمرجعية الإسلامية فإنّه يسهل تبنّيه للرؤية الغربية وأن يلهث وراء أنماط الحياة الغربية، وذلك ما يحقق للغرب أهدافه وأجنداته في السياسة والاقتصاد والتربية وغير ذلك، ليطيل إلى أقصى أمد ممكن إخضاع العالم الإسلامي لسلطته!

قبل الانتقال إلى بيان استحالة البديل الإلحادي، أود أن أضع مقارنة بين أصول المرجعية الإسلامية والمرجعية الإلحادية، لما لذلك من الأهمية، وقد رأيت وضعها في جدول ليسهل النظر فيها والإحاطة بها:

	المرجعية الإسلامية	**المرجعية الإلحادية**
الخالق	✓ موجود حقيقي ✓ له الكمال المطلق ✓ يتواصل مع الخلق	✓ غير موجود، وبالتالي نفي كماله، وكذا إمكانية التواصل مع الخالق

= مسلمة وارتدت، ثم جعلت هدفها في الحياة مهاجمة الإسلام والمسلمين، والدعوة للتعامل معهم بشدة وعنف!

(١) والخطة اليوم هي أن كثيراً من هؤلاء صار يرفع شعار (مفكر إسلامي، باحث إسلامي) ويتم الترويج له إعلامياً على أنه كذلك، والأمر من أجل خداع المتلقي البسيط!

الإنسان	✓ كائن مكرّم ✓ أصله مخلوق بشكل مباشر ✓ له غاية كبيرة في الوجود	✓ كائن تافه بلا قيمة ✓ أصله متطور عن حيوان ✓ ليس أية غاية في الوجود
الأخلاق	✓ قيم ثابتة في الإنسان ✓ أساس ارتقاء النفس ✓ مصدرها الروح	✓ قيم نسبية بلا ثبات ✓ قيمتها بمدى منفعتها ✓ مصدرها الحس الخارجي
الحقيقة	✓ هناك حقائق مطلقة ✓ إمكانية إدراكها عقليًا ✓ مصادرها متنوعة	✓ ليست هناك حقائق ثابتة ✓ استحالة إدراكها عقليًا ✓ لها مصدر وحيد «المادة»
الحياة	✓ لها قيمة مقدسة ✓ مسرح للابتلاء ✓ هناك سنن ضابطة لها	✓ مجرد مسرحية عبثية ✓ لا توجد مقدسات ✓ الفوضى قانون مطلق
الكون	✓ له بداية وجودية ✓ تضبطه قوانين صارمة ✓ مسخر للإنسان	✓ أزلي أو وُجد صدفة ✓ تحكمه العشوائية ✓ استنزافه لصالح الرفاه

العلم	✓ له فضيلة عظيمة ✓ البحث فيه عبادة مقدسة ✓ أحد مصادر المعرفة	✓ البديل عن الإله ✓ استغلاله للرفاهية المادية ✓ المصدر الأعلى للمعرفة
المصير	✓ أبدي إما السعادة أو الشقاء	✓ الفناء المطلق والعودة إلى العدم

فهذه أصول الاختلاف بين المرجعية الإسلامية والمرجعية الإلحادية، عرضتها باختصار لأجل التنبيه، وإلا فإن التفصيل يحتاج لكتاب مستقل.

❋ ❋ ❋ ❋

(٣) معايير المرجعية الحقة

وبعد: هناك غرور واضح في الخطاب الإلحادي بشأن قدرته على احتلال موقع الدين والإيمان، بل يذهب الغرور بزعماء الإلحاد الجديد شوطًا بعيدًا فتراهم يبشرون بالفردوس المنتظر حين يسيطر الإلحاد وتعلو كلمته وتتحرر البشرية من الإله والدين والإيمان! لكن، يحق لنا أن نسأل إن كان حقًا يمكن للإلحاد أن يكون بديلًا أفضل للإسلام؟ ونحن نقتصر هنا على ذكر الإسلام، لأنه الدين الرباني الصحيح الذي يحتوي على منظومة مرجعية شاملة ومتكاملة، عكس الأديان الأخرى كالنصرانية واليهودية، التي صارت بفعل التحريف المتواصل، تفتقر إلى الكثير جدًّا

من المكونات لتحقيق الشمول والتكامل في الطرح، كما تتطلّب فطرة الإنسان والواقع والحياة. ثم نحن لا يعنينا الدفاع عن الأديان الأخرى.

أبادر بالقول؛ بأن الإلحاد يستحيل -ضمن أصوله ومقولاته المؤسِّسَة- أن يكون بديلًا أفضل للأديان عمومًا وللإسلام خصوصًا. هذه الاستحالة نابعة من التناقض الحاد بين طبيعة التكوين الفطري والعقلي في الإنسان، وبين طبيعة المبادئ والأصول التي ينبني عليها الإلحاد. ومن الواضح والمؤكد أنه لا قيمة لأية مرجعية كلية تتجاهل بعض جوانب كيان الإنسان، أو تعجز عن تلبية بعض مكوناته، أو تفشل في تقديم معارف لا تنسجم معها.

إن الإنسان ليس كومة مادية صلبة، كما يزعم الملحد، فالحس والواقع والدراسات كلها تؤكد على أن هذا الزعم ليس أكثر من خرافة وأيديولوجية، وبالتالي ليس له نصيب من الصحة. إن الإنسان مكون من شقين، الأول هو الروح وما يرتبط بها من مشاعر وأشواق وأفكار، والثاني هو الجسد وما يرتبط به من رغبات وشهوات. ورغم الاختلافات الجوهرية بين هذين العنصرين المكونين لكيان الإنسان، إلا أن بينهما صلات وثيقة جدًّا وعلاقة تأثر وتأثير متبادَلة. والحق أن هذا ما اضطر العلم المعاصر والنظرة العلمية الجديدة للاعتراف به، بعد عقود طويلة من الإنكار ورفع شعار أن لا شيء إلا المادة.

يقول مؤلفا كتاب (العلم في منظوره الجديد): «النظرة الجديدة تفترض وجود عنصرين جوهريين في الإنسان: الجسم والعقل». وصرّحا قبل ذلك: «لقد كانت

النظرة القديمة لا تتضمن إلا المادة والقوانين الطبيعية، أما النظرة العلمية الجديدة فمن المحتم عليها أن تتضمن المادة والقوانين الطبيعية والعقل».[١]

فلنذكر هنا أبعاد التكوين في الإنسان، ونحصرها في التالي:[٢]

أولًا: المعرفة. الإنسان بطبيعته يبحث عن رؤية كلية تفسر له الذات والعالم، والعلاقات القائمة بينهما. فهو يريد أن يعرف أصله، ودوره ومصيره، كما يريد أن يعرف علاقته بخالقه والطريق إليه، كما يريد أن يفهم حدود علاقته بهذا العالم الذي يعيش فيه.

ثانيًا: الأخلاق. الإنسان بطبيعته يبحث عن منظومة قيم أخلاقية ثابتة ومطلقة، فالأخلاق ليست حاجة هامشية لدى الإنسان بل أصيلة وجوهرية، لأنه كائن أخلاقي. ولا يمكن أن تكون للأخلاق قيمة موضوعية ما لم يكن مصدرها متجاوزًا للإنسان نفسه.

ثالثًا: الجمال. الإنسان بطبيعته ينجذب نحو الجمال المادي والمعنوي، لأن التفكر في الذات والآفاق الكونية والحياتية يحرّك في أعماقه أوتارًا تجعله يشعر بصلات وثيقة بين نفسه والكون. ولا يمكن أن يكون للجمال معنى ما لم يكن للإنسان والكون والحياة معنى.

---

(١) العلم في منظوره الجديد. روبرت أغروس، جوج ستانسيو ص٢٣-٣٠.

(٢) بعد الانتهاء من مسودة الكتاب، وجدت الدكتور الفيلسوف المغربي طه عبد الرحمن قد تحدث عن هذا المعنى والمكونات، وحصرها في (المعنى) (السعادة) (الكمال) (الخلود) روح الدين: من ضيق العلمانية إلى سعة الائتمانية ص٨٥ وما بعدها. فالحمد لله على حسن توفيقه.

رابعًا: السلوك. الإنسان بطبيعته يريد منظومة سلوك واضحة وثابتة، إذ بذلك فقط يستطيع ممارسة حياته وخوض غمار واقعه بثبات ويقين، كما أن يستطيع معرفة حدوده ووجهته النهائية. ولا يمكن أن تكون لمنظومة السلوك قيمة ما لم تكن متجاوزة للإنسان والمجتمع.

خامسًا: الكمال. الإنسان بطبيعته ينشد الكمال في كل شيء، بل حتى وإن عجز عن تحقيقه في المرتبة التي إليها يطمح، تراه يُضفي الكمال على غيره ليشعر به. ولذلك تراه لا يفتأ يبحث عن التجديد والإتقان بشكل دائم ومستمر.

سادسًا: الخلود. الإنسان بطبيعته يبحث عن الخلود والاستمرار في الوجود، ذلك لأن نزعة الأبدية أصيلة في كيانه الفطري والإدراكي، ولذلك لا يعيش الإنسان أبدًا في الحاضر فضلًا عن الماضي، بل يعيش دائمًا في المستقبل على مستوى الفكر والشعور.

فهذه هي السمات العامة والعناصر أو النزعات أو المطالب أو سمها ما شئت، في التكوين الإنساني، رغم اختلاف الثقافات وتباعد الأزمنة وتباين مستويات الحضارة، فهي من الأصول الفطرية الثابتة في النفس البشرية. وهي سمات، نزعات، مطالب، مهما قلّبتَ فيها وجوه الرأي وحاولت اكتشاف سرها الكامن، لا جرم أنك تجده وثيق الصلة بتركيبة الإنسان الثنائية، أعني ركن الروح وركن الجسد.

هذه التركيبة تجعل الإنسان ثنائي الوجهة:

(الأولى) هي الالتفات والاهتمام بعالم الجسد، المحسوس، والمرئي، ويدخل في هذا مختلف النشاطات ذات الصلة بالواقع الآني، من الأكل والشرب والعمل والتدبير والعلاقات.

(الثانية) هي الالتفات والاهتمام بعالم الروح، المعنى، والغيب، ويدخل في هذا مختلف النشاطات ذات الصلة بالمستقبل الغيبي، من التأمل والطموح والبحث عن عالم أفضل وأجمل.

ولولا أن الإنسان يتمتع بهذه الثنائية في الوجهة والمقصد، أي أنها شيء أصيل في جذر فطرته وكيانه، لولا ذلك، لما استطاع أن يخترق جدار الزمان والمكان والواقع، والتواجد بفكره وروحه في عوالم يؤسسها تأسيسًا يفوق في أفضليته وكماليته واتساعه عالم واقعه الآني!

وإذ كان الأمر كذلك، فإن طبيعة التكوين والتركيب في كيان الإنسان يتطلب ويقتضي منظومة ذات أبعاد مختلفة تستطيع الاستجابة لتلك النزعات والمطالب، كما تستطيع تلبية طموحات وجهة الجسد ووجهة الروح معًا. وإنما قيمة الرؤى الكلية (الإسلام/ الإلحاد) في مدى تحقيقها لذلك كله.

وتلخيص ذلك يكون في منح المنتمي القدرة على:

أولًا: التجريد. يوفر الإسلام للمنتمي إليه مقدرة عالية على ممارسة فعل التجريد، وأعلى شكل للتجريد هو ما يخص الإله الخالق. فالخالق سبحانه في الإسلام متجاوز للمادة، بحكم شرط الألوهية الفائقة التي يتصف بها. ومعلوم أن

الإنسان كلما تقاصرت قدراته عن ممارسة التجريد كان قريبًا من مستوى الحيوان. أما الإلحاد، فبحكم رؤية المادية لكل شيء في العالم، لا عجب أن يحرم المنتمي إليه من هذه الخصيصة الإنسانية الفاضلة، أعني التجريد، بل تراه حريصًا على غمس المنتمي إليه في إطار المادة وحبسه في حضيضها!

ثانيًا: التجاوز. يوفر الإسلام للمنتمي إليه مقدرة عالية على ممارسة فعل التجاوز للواقع الحسي والمادي والآني. وأرقى أشكال هذا التجاوز تتجلى في قدرة العقل المسلم على الانتقال من ضيق المعطيات المادية والعناصر الكونية إلى سعة الدلالة وأفق المعنى الكامن في باطنها. فهذا العالم بأشخاصه وأشيائه بالنسبة للعقل المسلم ليس مكونات مادية باهتة ومتناثرة، بل هي تتضمن دلالة ساطعة على وجود إله عظيم السلطان، خلق كل ذلك بالحق وللحق. أما الإلحاد، فبحكم أساسه المادي لكل شيء في الوجود، لا شك أنه يعجز عن التفاعل والتواصل مع معطيات العالم والتلقي لإيحاءاته ودلالاته.

ثالثًا: التزكية. يوفر الإسلام للمنتمي إليه مقدرة عالية على ممارسة التزكية النفسية عبر عملية التأجيل للشهوات والغرائز المختلفة. فالإسلام يعترف بشهوات النفس المختلفة، لكنه حدد لتلبيتها وإشباعها ضوابط معينة وفرض عليها أحكامًا محددة، بحيث ما لم يتوفر الإطار الذي شرّعه لتلبيتها وإشباعه، تكون في حكم المحظور والإثم المعاقَب عليه إن في الدنيا وإن الآخرة. ولا شك أن الأخلاق لا معنى لها بدون عنصر القدرة على التأجيل. أما الإلحاد، فبحكم اعتباره الإنسانَ وسخ

متطور والحياة عبث بلا معنى والموت نهاية الرحلة، لا عجب ألا يجد الملحد أدنى مبرر لالتزام فضيلة التأجيل لتلبية غرائزه وشهواته وإشباعها.

رابعًا: الشمول. يوفر الإسلام للمنتمي إليه إمكانية الرؤية الشمولية للذات والواقع والعالم، ومن ثم يعصمه من الاختزال والتسطيح والوقوف إلى الظاهر. فالإسلام لا يقيم حدودًا بين الروح والجسد، ولا بين العقل والمادة، ولا بين الدنيا والآخرة، ولا بين الدين والواقع، بل يعلّم المسلم على أن يتعامل بمنطق الشمول وأسلوب الوحدة المتماسكة، ومن ثم أمره بأن يعطي لكل شيء حقه بلا إفراط ولا تفريط، فالدنيا مزرعة الآخرة، وهو مطالب بالحفاظ على جسده وروحه معًا، وهو مأمور بفسح المجال لعقله للنماء والارتقاء لكن ليس بعيدًا عن الواقع. وهكذا يعيش المسلم منسجمًا مع ذاته والحياة والوجود، ولا يجد أدنى تناقض بين عقيدته الدينية وسلوكاته العملية، ولا بين العمل في الدنيا والارتباط بالآخرة.

إذا عدنا إلى الأصول العامة للمرجعية الإلحادية كما سبق أن ذكرناها في جدول المقارنة، وهي باختصار: (ليس هناك إله خالق)، (الإنسان خردة مادية متطورة)، (الحياة مسرحية عبثية تافهة)، (لا وجود لحقائق ثابتة ومطلقة)، (قيمة الأخلاق مرتبطة بمنفعتها)، (العلم الطبيعي قادر على كل شيء)، (الفناء هو المصير المحتوم للإنسان).

إذا عدنا إلى هذه الأصول العامة؛ سنجد ولابد مناقضة صارخة لتلك الأصول المكونة لكيان الإنسان ومصادمة فادحة لها! ولا شك أنّ هذا التناقض والتصادم له

آثار سلبية مدمرة، إن على مستوى الفرد وإن على مستوى المجتمع. فالإنسان في الإلحاد يفقد الرؤية الكلية للذات والعالم، ويفقد معرفة جوهره وأصله، ولماذا هو موجود والمصير المنتظر الذي يسير إليه، كما أنه يعيش بلا ثوابت ولا ضوابط ولا أصول، بل يجد نفسه مضطرًا للتقوقع داخل الرؤية المادية الجافة القاسية الفظيعة. وكل هذا يُحوّل حياته إلى جحيم لا يطاق وإلى سجن كئيب، لأن ضغط الفطرة والعقل والكون، كل ذلك يطالبه بمقتضياته ويضغط عليه بإيحاءاته، والإلحاد يعجز عن تلبية تلك النزعات والتفاعل مع تلك الإيحاءات العميقة.

فكيف بعد هذا يمكن أن يكون الإلحاد مرجعية بديلة؟! إن الاستحالة هنا تكمن في أن الإنسان يجهل جهلًا مطبقًا طبيعة التكوين في الإنسان، ومن ثم لا يمكن بل يستحيل أن يتعامل معه تعاملًا صحيحًا سليمًا، فالإنسان هو الإنسان، ولا يمكن أن يكون شيئًا آخر غير ذاته الفطرية، رغم ما قد يعتريها ويتراكم عليها من الفساد والانحراف والأهواء. هذا الإنسان يحتاج لعقيدة واضحة المعالم ثابتة الأصول، عقيدة تفسر له الوجود، ومركزه فيه، ومهمته فيه، وطبيعة علاقاته بباقي الكائنات، عقيدة تنبثق عنها منظومة معايير تكون هي المرجعية العليا التي يجب أن يحتكم إليها ويرتّب حياته بمختلف نشاطاتها وفق مفاهيمها. وكل هذا لا يمكن بل يستحيل لرؤية ومرجعية تتعامل مع العالم على أنه كتلة مادية، وتتعامل مع الإنسان على أنه وسخ مادي، ولا تعترف بشيء غير المادة الصلبة، لا يمكن بل يستحيل لمثل هذه الرؤية والقناعة والعقيدة أن تكون بديلًا أفضل للإنسان، تلبي له احتياجاته العقلية والروحية والمادية.

إن الإلحـاد منظومـة شـاملة ومتكاملـة في العقيـدة والتصـور، وفي المعرفـة والإدراك، وفي السلوك والممارسة، وفي العلاقات والنظم، فهو إذن ديانة متكاملة الأركان، مثل أية منظومات كبرى، رغم اختلاف المنطلقات والغايات والنتائج، غير أن الديانة الإلحادية ديانة يمكن وصفها بـ«الديانة السائلة» لأنها بلا معايير ثابتة ولا أصول متماسكة، وبلا رؤية واضحة للإنسان والحياة والقيم والكون. بل عمادها التزييف والتهويل والخداع!

إن إثبات الإلحاد مرجعية معيارية بديلة لمرجعية الإسلام[١] يلزم عنه إثبات القول بالمصالح والمفاسد، أي الخير والشر، وهذا القول يلزم عنه إثبات القول بالتحسين والتقبيح العقليين، وكل هذا لا شك مطلع أنه يتنافى مع القول بأنه العالم وجود مادي، محصور في الشهادة الحسية، ثم لا شيء غير المادة. وبهذا، فالملحد ملزم بأحد أمرين، إما إثبات تركيبة العالم من المادة وغير المادة، وهذا ينقض بنيان الإلحاد، وإما إنكار هذه التركيبة في العالم، وهذا يلزم عنه نقض القول بمرجعية الإلحاد!

❋ ❋ ❋ ❋

---

(١) نقول الإسلام لأنه لا شأن لنا بالأديان الأخرى، فنحن نتحدث عن الإسلام ولا يلزمنا الدفاع والمحاججة عن الأديان الأخرى لمجرد كونها تؤمن بالإله وببعض الأركان التي تشترك فيها مع الإسلام.

(٤) شمولية المرجعية الإسلامية

في المقابل؛ إذا استعرضنا الأصول العامة للمرجعية الإسلامية كما سبقت الإشارة إليها في جدول المقارنة، ووضعناها على أصول تكوين الإنسان الفطري والعقلي، سنجدها قد فُصّلت عليها تفصيلًا دقيقًا، بلا زيادة ولا نقصان، ولهذا تستطيع أن تلبي له كل احتياجاته الفطرية ونزعاته العقلية ورغباته في واقع الحياة، لكن في أفق السمو والنظافة والارتقاء والمسؤولية. فلا يوجد في الإسلام يقول الحكماء (ليته لم يكن)، ولا لشيء لم يكن فيه (ليته كان)، كما قيل لبعض الأعراب وقد أسلم، -لما عرف دعوة النبي ﷺ- عن أي شيء أسلمت؟ وما رأيت منه مما دلك على أنه رسول الله ؟ قال: ما أمر بشيء، فقال العقل ليته نهى عنه، ولا نهى عن شيء، فقال العقل ليته أمر به، ولا أحل شيئًا، فقال العقل ليته حرمه، ولا حرم شيئًا، فقال العق :ليته أباحه.

ولا شك أن ذلك نابع من حقيقة أن هذه المرجعية الإسلامية تنزيل من الخالق العظيم الذي خلق الإنسان وهو أعلم به من نفسه، وأعلم بما يناسب مختلف أبعاده التكوينية، وأعلم بما يناسب المصير الأبدي في مسار السعادة والهناء. كما قال سبحانه: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾.[1] وقال عز وجل: ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾.[2] وقال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾.[3]

---

(١) الملك: ١٤.

(٢) الفرقان: ٦.

(٣) الإسراء: ٨٢.

أتصور أن هذه المعطيات الآنفة الذكر تخلص بنا إلى وجود حاجة فطرية في الإنسان للمرجعية الإلهية، لأنها الوحيدة القادرة على تلبية احتياجات شُعب كيان الإنسان. وهذا راجع إلى حقيقتين كبريين، وهما:

أولًا: شمولية العلم. فالله سبحانه بما أنه الإله الخالق، فهو متصف بصفة العلم المطلق والحكمة اللامتناهية، فلا يفوته شيء. ولما كان هو الذي خلق الإنسان، فقد فصّل له مرجعية تراعي كيانه وغاية وجوده ومصيره بعد الموت.

ثانيًا: تجاوز الإنسان. فالله سبحانه بما أنه الإله الخالق، فهو متجاوز للإنسان وللوجود جميعًا، وبذلك لن يكون في دستوره الرباني تحيّزًا لهذا الجانب ضد آخر، أو لهذه الفئة ضد أخرى، بل كل شيء موضوع بحكمة وعدل ورحمة.

عكس المرجعية الإلحادية المطبوعة بطابع الأهواء المتقلّبة المنفلتة، والجهل الكبير بالإنسان من حيث أصله ودوره ومصيره. ولهذا لا يمكن أن يقدم الإلحاد مرجعية مقبولة ومنسجمة ومتوافقة مع طبيعة الفطرة والعقل والحياة، بل طبيعته تحتم أن تكون مرجعيته مهترئة، مترهلة، قاصرة ومختزلة وسطحية، وهذا هو سبب مأساة الملحد!

ونقول هنا كلمة مهمة إن شاء الله تعالى وهي: العقل يدرك الحقائق بشكل جزئي ومجمل فقط، لأنه مخلوق، وكل مخلوق فهو محدود، بالرغم من أن الله تعالى منحه القدرة الفطرية على الفهم والإدراك بشكل تراكمي ومستمر في مسار الأبديّة أي أنّ العقل من جهة لا يستطيع أن يحيط علمًا بشكل مفصل ومطلق بكل شيء لأنّه مخلوق، ومن جهة أخرى لديه القابلية للإدراك الدائم، لأنّ الله تعالى أعطاه

هذه القابليّة، بحيث لو تصورنا أنّ الموتَ لا يكون، فإنّ الإنسان سيظل دائم الإدراك للعلوم والمعارف إلى الأبد. وهذا يبرهن بشكل قاطع على أنّ مصدر العقل ومصدر الوجود، ليس ماديًّا من طبيعة الكون والحياة، بل هو موجود خارج الزمان والمكان والإنسان، وهو الذي خلق العقل والكون على هذا النحو البديع والتناسق المتقن. ولهذا فإنّ دائرة إدراك العقل محدودة وضيقة، لأنه في أقصى حالاته لن يستطيع الانعتاق من قبضة مجموعة عوامل تسهم في تضييق مجاله الإدراكي مثل عامل نفسي ضاغط، أو عامل فكري مسبق، أو عامل تاريخي مترسب، أو عامل محدودية وسائله المادية، وغير ذلك. أما الشرع فدائرته أوسع وأشمل لأنها تنزيل من الله العليم الخبير: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾.[1] ولهذا كان العقل بقدر ما يكون قريبًا من الله تعالى تتسع دائرة إدراكه وتتفتّق طاقاته الدفينة. فلهذا أقول: نهاية العقول بداية الشرائع، أي أنّ أقصى ما يمكن للعقل أن يصله في مراتب الإدراك، فهو بداية الشرع، كما قال بعض العارفين: «نهاية الصديقين بداية الأنبياء». والأمر أشبه بالنظر بالعين المجردة والنظر بالمنظار، فالعين المجردة دائرة رؤيتها محدودة أما بالمنظار فإنَ هذه الدائرة تتوسع أكثر وأكثر.

إن البديل الذي يطلبه الملحد بانتقاله إلى الإلحاد، مهما كان مثاليًا، فهو بلا شك بديل ناقص بحكم محدودية الإنسان وعجزه وقصوره. ومن هنا؛ فالملحد نفسيًّا وعمليًّا يعيش حالة سيولة دائمًا، بلا أصول ولا ثبات، وهذا ما يجعله يدفع ثمنًا باهظًا، يحوّل حياته إلى كابوس مرعب!

---

(١) الملك: ١٤.

(٥) آثار المرجعية المادية

في هذا السياق؛ لا بأس أن نلقي نظرة سريعة على آثار البديل الذي طرحته الرأسمالية العلمانية في الغرب، ولك أن تبحث عن التجربة الاشتراكية الماركسية، وهذا لأخذ صورة مما يمكن أن يكون عليه البديل الإلحادي المطلق.

عندما خسرت الكنيسة المعركة ضد أصوات النقد ودعوات الخروج من سجنها الكئيب، انطلق الغرب بلهاث رهيب -بعد أن أعلن موت الإله!- نحو الانفصال والانسلاخ عن الدين والإيمان، ولم يكن من بد سوى السقوط في النقيض الذي كانت تطرحه الكنيسة، ألا وهو المادية العلمانية والرأسمالية المتغولة! وقد تعززت صحة هذا المنهج بالنسبة له بالكشوفات العلمية المتواصلة، في الكون والحياة والإنسان، فكان الوهم الطاغي هو إمكانية بل حتمية أن يقوم الإنسان وحده، بعيدًا عن الإله والدين والإيمان، إلا من شاء أن يحتفظ بكل ذلك في أعماق وجدانه وحياته الخاصة!

كانت النتيجة الحتمية لذلك، بعد أن حمل الإنسان الغربي منظار المادية يرى به كل شيء، الكون والحياة وحتى الإنسان نفسه، فصار عنده كل شيء مادة ولا شيء غير المادة، ومن ثم تعامل مع كل شيء بمنطق المادة، وأخضع كل شيء -حتى الإنسان نفسه- لقوانين المادة ومجهر المادة.. كانت النتيجة الحتمية أن انفجرت في طريقه تهاويل الأزمات المتعددة الأوجه! تمزّقت شخصية الإنسان الغربي، تفككت الأسرة الغربية، تضعضعت الأواصر الاجتماعية، انتفت الثوابت والأصول

والمرجعيات، انفجرت أزمات اقتصادية وبيئية، واستنزاف مرعب للأرض، ومُسخت فطرة الإنسان، وصار الكل يلهث وراء السراء، وراء اللاشيء! وبعد هذه الحصيلة المؤلمة جدًّا لم يجد بعض عقلاء الغرب سوى إطلاق صيحات التحذير من السقوط الرهيب المترائي في الأفق، ولكن هيهات!

وللتذكير فقط، فإن كل هذا قد حدث وهذه الفاتورة الضخمة قد وقعت، والغرب ليس إلحاديًا بشكل مطلق، بمعنى إنكار مطلق لوجود الإله الخالق، فرغم انغماسه الكبير في المادية إلا أن الشريحة العظمى من أفراده لا تزال تحتفظ بخيوط الإله والإيمان، كما يقول مايكل جيلسبي: «بالرغم من أن الدين قد يجد حيِّزًا في الحياة المعاصرة، فإنه لن يكون إلا في منزلة أدنى، بالتالي يتم التغاضي عنه كملكية خاصة، ولا يُرى كسلطة يجدر بها أن تقوم بتكوين حياتنا العامة».[١] فماذا لو كان الغرب ملحدًا إلحادًا كاملًا!

بل دعنا نلقي نظرة سريعة للبديل الذي قدمته العلمانية الليبرالية في بلدان العالم الإسلامي.

عندما تمكن الغرب من احتلال بلدان العالم الإسلامي، بدافع الأحقاد والأطماع، وأدرك استحالة بقاء هذا الاحتلال إلى الأبد، حرص على تربية جمهرة واسعة من أبناء هذه البلدان، ليقوموا بمتابعة تنفيذ المهمة القذرة، أي سلخ المسلمين عن إسلامهم وإخضاعهم للغرب وسجنهم في رؤاه المادية وأنماط حياته وتفكيره، بعيدًا عن ثواب الإسلام ومفاهيمه وأصوله!

---

(١) الجذور اللاهوتية للحداثة ص٢٢.

وهكـذا، اسـتلم العلمـانيون -بمختلـف أشـكالهم وألـوانهم- مقاليـد الحكـم والتوجيه في بلدان العالم الإسـلامي، وإن اختلفـت مسـتويات العلمنـة والتغريـب بـين بلد وآخر، حسب ظروف وعوامـل قـاهرة! فمـاذا كانـت النتيجـة بعـد أن قـاموا بتنحيـة الإسلام من مجال الفكر والسلوك والتشريع؟ الجواب هو الواقع البئيس الذي يعيشـه العـالم الإسـلامي، وكـذا التقـارير والدراسـات التـي لا تجـد ضـرورة عـن الاعـتراف بأزمات بلدان العالـم الإسلامي، في السياسة والاقتصاد والتعليم وغيرها! فكثر الجهل وانتشـرت الأميـة، إلـى ضـعف الـدخل الفـردي وشـيوع الفقـر، إلـى فسـاد الأخـلاق وتراجع الآداب، إلى تغلغل آفات الأنانيـة والطغيـان والاسـتبداد، إلـى تفكيـك الأسـر وارتفاع مهول في الطلاق، وكذا الأرقام الفلكية في نسب العزوبة والعنوسة!

وللتـذكير فقـط، فـإن كـل هـذا قـد حـدث وهـذه الفـاتورة الضـخمة قـد وقعـت، والعالـم الإسلامي ليس ماديًا في مستوى مادية الغرب، ولا الإلحاد الكامـل ينتشـر فيـه انتشـاره في الغـرب، إذ رغـم اللهـاث المسـعور وراء نمـط الحيـاة الغربيـة، والجهـد المبذول لتعبيد المسلمين للرؤى الغربية، فكـرًا وسـلوكًا وتشـريعًا، وفشـو المنكـرات والمعاصي، إلا أن شريحة عريضة من المسلمين لا تزال مرتبطة بالإسـلام ولهـا غيـرة عليه وحنين إليه، فماذا لو تحول العالـم الإسلامي إلى الإلحاد المطلق!

ولنرجع إلى الملحد لنُورد ما قالـه الفيلسـوف الملحـد (ميشـيل أونفـري) وهـو يبشرنا بالفردوس الإلحادي وإمكانيـة تحقيـق البـديل الأفضـل للأديـان: «صـحيح أنـه يجب إلغاء الإله، لكن من أجل ماذا؟ من أجل أخلاق جديدة وقـيم جديـدة لـم يسـبق لها أن ظهرت ولـم يفكـر فيهـا مـن قبـل، لأنهـا لـم تكـن قابلـة لـذلك، هـذا مـا سـيمكنه

تحقيق الإلحاد وتجاوزه. مهمة خطيرة وقادمة». لكن، ما هي هذه الأخلاق الجديدة والقيم الجديدة التي لم يسبق لها أن ظهرت ولم يفكر فيها أحد من قبل، ولا يمكن أن تتحقق إلا في ظلال الإلحاد؟ يجيبنا أونفري نفسه قائلًا: «عقد مذهب المتعة -الذي لا يضاهيه شيء في لوزمه الواقع- يعطي الشرعية لكل تواصل بين ذاتين، ويستغني نهائيًا عن الإله وعن الدين، فلا حاجة هناك للوعيد بالنار، ولا لتصوير يتلألأ للفردوس، ولا فائدة من إرساء أنطولوجيا الجزاء والعقاب بعد الموت بغية الدعوة للعمل الخيّر والعادل والمستقيم. إنها أخلاق بلا واجب وبلا حساب سماوي».[١]

إن هذا الطرح وهذه البشارة الإلحادية، كما يعرضها هذا الملحد، تعكس أمنية الملاحدة، أعني الحرية بلا حدود ولا قيود، والانغماس في الأوحال بلا رقيب ولا حسيب! إلا أنها تحملنا على وضع مجموعة من التساؤلات التي نتمنى أن يتشجع الملاحدة يومًا بالإجابة عنها: لماذا يبحث الملحد عن أخلاق جديدة وقيم جديدة! ألم يصدع رؤوسنا بأن الأخلاق نسبية! ألم يصدع رؤوسنا بأن الإنسان ليس أكثر من وسخ مادي متطور! ألم يصدع رؤوسنا بأن الحياة ما هي إلا مسرحية سخيفة! ألم يصدع رؤوسنا بأن العالم مليء بالشرور، فلماذا يزعج الملحد نفسه بالسعي نحو تغييره! ألم يصدع رؤوسنا بأنه يرفض الدين (وفي سياقنا: الإسلام) لأنه منظومة شمولية، فلماذا يريد إذن ابتكار بديل شمولي، تتحدد فيه معايير الصحة والخطأ، القبول والرفض، إفعل ولا تفعل! ثم، على أي أساس إلحادي يمكن للملحد أن يقدم للبشرية أخلاقًا جديدة وقيمًا جديدة، والأصل أن ذلك ليس يمكن -نظريًا قبل أي

(١) نفي اللاهوت ص٥٢- ٧٧.

شيء آخر- ما لم تكن هناك نظرة مقدسة وسامية للإنسان والحياة والكون، وما لم تكن هناك معايير ثابتة ومتعالية وراسخة! ثم، آخرًا، أليس مثل هذا التبشير ومثل هذه الدعوة تؤكد بما لا يدع مجالًا للشك -إلا عند السذج والمغفلين- كلامنا بأن الإلحاد المعاصر دينٌ متخفي، يحمل كل سمات الدين وعناصره وأركانه!

إن من مقدسات الإلحاد الجديد فكرة أن الإلحاد يمكنه أن يصنع مستقبلًا أفضل، ويمكنه أن يقدم معرفة أشمل، لكن، كيف يفسر لنا الملحد -من وجهة نظر إلحاديّة خالصة- هذا الارتباط بالمستقبل وتعليق آماله كلها عليه، أي تحقيق معرفة أشمل وواقع أفضل؟ ولماذا يعتقد أن حركة التاريخ تسير في اتجاه تصاعدي من الأدنى إلى الأرقى؟ ألا يبرهن هذا الموقف منه على إحساسه العميق بقدرته على تجاوز نطاق الطبيعة/ المادة، واختراق جدران اللحظة الراهنة؟ ألا يُترجم هذا الموقف منه تجذر فكرة الأبدية في كينونته، ومن ثَمَّ فهو يؤكد على أنّ الإنسان بجوهره الإنساني لا يعيش في الآن والحاضر، بل يعيش في الغد والمستقبل؟ ألا يكشف هذا الموقف منه ترسخ بُعد المطلق والمقدس في بنية عقله ووجدانه باعتباره إنسانًا، بسبب اتخاذه نقطة المستقبل نقطة مركزيّة، أو لنقل نقطة مقدسة؟ أتصور أن هذه مشكلة على الملحد أن يفكر فيها طويلًا!

الإشكال الكبير الذي يقع فيه الملحد، أنه بقدر ما يحرص على المستقبل الزاهر والجميل والرائع، يجد نفسه عاجزًا عن العيش عمليًّا فيه! كيف؟

(**أولًا**).. من المفيد أن نتذكر أنّ فكرة «واقع أفضل + معرفة أشمل» فكرة كليّة، والكليّات لا تتحقق في الوجود إلا بأشكال جزئيّة، ومن هنا، يظل حرص الإنسان

على تحقيق معطيات فكرة كليّة ما كالحرية، الجمال، التعقل، الإرادة، المعرفة.. إلخ، متواصلًا بشكل تسلسلي إلى ما لا نهاية، بسبب إدراكه على مستوى الوعي الباطني، عجزه المطلق عن التحقيق الكامل لتلك الفكرة الكليّة المعيّنة، وهذا يخلق فيه رغبة متواصلة ومتزايدة باستمرار في تحقيق «واقع أفضل + معرفة أشمل»، أي كلما بلغ مستوى معيّنًا من مستويات «واقع أفضل + معرفة أشمل» يجد أنّ هذا الواقع والمعرفة ينفتحان باستمرار كالزاوية المنفرجة.

(ثانيًا).. يتوهم الملحد أنّه يستطيع الإمساك بزمام التحكم المطلق في النتائج، وبالتّالي تحقيق جميع أمانيه «واقع أفضل + معرفة أشمل». لكن هذا الوهم ينتفي عندما ندرك أن الإرادة الإنسانيّة مُجبرة على الخضوع لمنظومة محددة من المعطيات مسبقًا، بالإضافة إلى القدر الإلهي المطلق، حسب عقيدتنا الإسلامية، سواء في جانب الأسباب أم في جانب النتائج، إلا أن الفرق يتجلّى في أنّ الإنسان لديه مساحة واسعة في ممارسة الأسباب، لكنّه مجبر على النتائج. هذه الحقيقة أشار إليها القرآن بقوله: ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ﴾.[1] أي ليس كل ما يتمناه الإنسان يتحقق له. ومن هنا فالملحد قد يمارس أسباب «واقع أفضل + معرفة أشمل» في إطار رؤيته الإلحاديّة، لكنّه حتمًا لن يستطيع مطلقًا تحديد نتائج هذه الأسباب في المستقبل. وهذا ما وقعت في الحداثة والعلمانية الغربية، وكانت النتائج مهولة مرعبة!

(ثالثًا).. كلما تقدم الملحد في مسار «واقع أفضل + معرفة أشمل»، انفتح على معطيات جديدة منفلتة، لا تكون منسجمة مع إرادته النهائيّة من «واقع أفضل +

---

(١) النجم: ٢٤.

معرفة أشمل»، (لم يكن أحد قبل مائة عام مثلًا يتصور وجود الإنترنت وأنه سيكون وسيلة فعّالة للحكومات، المخابرات، المجرمين)، وبالتّالي ترتفع عنده نسبة الرغبة في التحكم فيها، وهذا يؤدي بدوره إلى طغيان عنيف وفظيع، في سبيل تحقيق رغبة التحكم الأمثل. وبالتّالي تنتفي الحريّة والوعي والإرادة، بل يتحول الإنسان في ظلال «واقع أفضل + معرفة أشمل» الإلحادية إلى آلة صامتة، وكائن ذي بُعد واحد، هو بُعد الآن والحاضر فقط، وعندها يفقد الإنسان أي مبرر للوجود، فيتوهم أنّه بلغ نهاية التاريخ!

هذه الفوضى العارمة، وهذا الانفلات العنيف، وهذا الطغيان الرهيب، أشار إليها القرآن الكريم بقوله: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾.[1] أي أن الإنسان عندما ينفصل عن الله تعالى الذي يشكل بحق البُعد المطلق والمقدس والمركز النهائي، هنا يتقوقع على ذاته ويُقدسها تقديسًا، لتكون النتيجة هي انفراط أموره الفكرية والسلوكية والاجتماعية، حسبما تراه في واقع الحداثة الغربية، ومن نهج نهجها كروسيا والصين واليابان وغيرها.

وإن جادل الملحد في هذه الحقائق، فليتفضل وليقدم لنا صورة تفصيلية ودقيقة للغاية عن «واقع أفضل + معرفة أشمل» اللذين يسعى إليهما. ولن يستطيع!

إن قضية «واقع أفضل + معرفة أشمل»، لا يختص بها الملحد، ولم يتفرد بها الإلحاد كما يتصور الملحد، بل بالحري أنها قضية لها امتداد ورسوخ في كل الأديان والرؤى الكبرى. وسبب ذلك يرجع إلى أنّ «الإنسان هو الكائن الأخلاقي الوحيد

---

(١) الكهف: ٢٨.

الذي يضيق بواقعه ويتطلّع إلى ما ينبغي أن يكون»، كما يقول الدكتور سعد الدين صالح،[١] ذلك لأن الطاقات التي يموج بها باطن الإنسان، وعيه ووجدانه وأشواقه، كلها يضيق بها الواقع المحدود، فلا يجد الإنسان بفطرته إلا الارتباط الدائم والمتواصل بالمستقبل.. المستقبل حيث يتمنى وينشد أن تتحقق له أحلامه وأشواقه، وحيث يتسنى له الحصول على مساحة واسعة من الحرية وتنفيذ الإرادة وتحقيق السعادة والمعرفة.

إن الإلحاد لا يمكنه أبدًا -في إطار أسسه ومبادئه- أن يعالج قضية «واقع أفضل + معرفة أشمل»، معالجة فعّالة وإيجابية، وذلك للأسباب التالي:

أولًا. لأنه يتعامل مع الإنسان على أنه كومة مادية.

ثانيًا. لأنه يتصور العالم كله على أنه ركام مادي.

ثالثًا. لأنه يعتقد النسبية والسيولة في الحقيقة.

رابعًا. لأنه بلا مرجعية عليا لها ثوابت واضحة.

خامسًا. لأنه لا يملك سلطة فرض السعي نحو تحقيق الأفضل.

سادسًا. لأنه لا يعترف بثبات القيم الأخلاقية.

سابعًا. لأنه يؤمن بأن الفناء نهاية الرحلة.

في إطار هذه العوامل السبعة؛ كيف يمكن للإلحاد أن يعالج قضية «واقع أفضل + معرفة أشمل»، معالجة متماسكة وواضحة وصحيحة!

---

(١) قضايا فلسفية في ميزان العقيدة الإسلامية ص٣١٥.

أما إذا جئنا إلى الرؤية الإسلامية؛ فسنكتشف بأن تكوينها الداخلي يمنحها قدرة عالية على معالجة هذه القضية معالجة فعّالة للغاية، وذلك للأسباب التالية:

أولًا. لأن الإسلام يتعامل مع الإنسان على أنه ثنائي التركيب «روح وجسد».

ثانيًا. لأن الإسلام يتصور العالم على أنه مستويات تتراوح بين الشهادة والغيب.

ثالثًا. لأن الإسلام يقرر ثبات الحقيقة ورسوخ أصولها في الطبيعة البشرية والكون.

رابعًا. لأن الإسلام يقدم منظومة متشعّبة تحيط بكينونة الإنسان الشخصي والواقعي.

خامسًا. لأن الإسلام يملك سلطة فرض عليه السعي نحو تحقيق الأفضل مستقبلًا.

سادسًا. لأن الإسلام يعتبر الأخلاق قيمًا جوهرية، والالتزام به عبادة مقدسة.

سابعًا. لأن الإسلام يؤكد على انفتاح التاريخ، وأن الموت مجرد بوابة نحو الأبدية.

في إطار هذه العوامل السبعة؛ يجد المسلم كل المبررات للحرص والعمل على تحقيق فكرة «واقع أفضل + معرفة أشمل»، خصوصًا أنه يعتقد أن الأمر لا ينحصر في عالم الدنيا الفاني، بل يمتد ليشمل مسار التاريخ الأبدي بعد الموت.

فأي الفريقين أهدى سبيلًا وأقوم طريقًا!

(٦) الذات الآفلة وشعور الاغتراب

وبعد: لا ينتقل أحد إلى الإلحاد إلا وهو يعتقد بأن الإلحاد أفضل من الإيمان، وأنه بالانتقال إلى الإلحاد يكون قد انتقل إلى العقلانية والعلم والحرية، وكل هذا يعني أنه الآن بعد أن صار ملحدًا قد صار بإمكانه تحقيق ذاته التي كانت -بالنسبة إليه- مهدرة ومسحوقة في الإيمان!

لكن نحن نسأل: هل وجد الملحد فعلًا ذاتَه في الإلحاد؟! دعنا نرى بعض النماذج.

لا أزال أذكر كلمة قرأتها لملحد نطق بها في لحظة صدق مع الذات حيث قال: «ربما لا توجد آية في القرآن أصدق من قوله: ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا﴾. لقد قضيتُ عامين في الإلحاد لم أذق فيهما طعم الراحة!!».

شبيه بهذا الاعتراف الصادق الكاشف؛ نجده عند أحد أئمة الإلحاد المعاصر، إنه الوجودي جان بول سارتر -ت ١٩٨٠-: «الإلحاد أمر أليم وقاس، فثبوت غياب الإله أشد وطأة على النفس من ثبوت وجوده».[١]

ومثله نجده عند الشاعر العراقي عبد الوهاب البياتي -ت ١٩٩٩-:

لابد أن نختار

أن نقبض الريح وأن ندور الأصفار

---

(١) خرافة الإلحاد. عمرو شريف ص٣٩.

أن نجد المعنى وراء عبث الحياة

فالعيش في هذا المدار المغلق انتحار.[١]

ونقل شمس الدين الشهرزوري عن ابن الشبل البغدادي الحائر قصيدة طويلة، أنقل لك منها مختارات:[٢]

بقربـــك أيهـــا الفلـــك المـــدارُ ... أقصـــدٌ ذا المســـير أم اضـــطرارُ

مـــدارك قـــل لنـــا في أي شـــيءٍ ... ففـــي أفهامنـــا منـــك انبهـــارُ

ومـــا هـــذا الفضـــاء فهـــل فضـــاءٌ ... ســـوى هـــذا الفضـــاء بـــه تُـــدارُ

ونخـــرج كـــارهين كمـــا دخلنـــا ... خـــروج الضـــب أخرجـــه الوجـــارُ

فمـــاذا الامتنـــان علـــى وجـــودٍ ... لغيـــر الموجـــدين بـــه الخيـــارُ

وكانـــت أنعمًـــا لـــو أن كونًـــا ... نُخيّـــر قبلـــه أن نُستشـــارُ

أيضًـا تولسـتوي الروائـي الروسـي -ت ١٩١٠-، هـذا الرجـل الـذي تخطـت شهرته حدود بلده إلى العالم أجمع، والذي عاش في ظلال مجد دنيوي عـريض، قبـل أن يصل إلى بر الإيمـان، اعـترف بأنـه فكّـر طـويلًا في الانتحـار، يقـول: «وكانـت فكـرة الانتحار تخطر لي في كل يوم، بل كل ساعة، كما كانـت فكـرة الجهـاد في سـبيل كمـال الحياة، رفيقة لأحلام شبابي. وقد لزمني هذا الفكر وكان يبدو لـي جميـلًا جـذابًا بهـذا المقدار حتى اضطررت أخيرًا أن ألجأ إلى وسائل عديدة للحؤول دون تنفيذه بسرعة،

(١) الأعمال الشعرية ج٢ ص٩٦.

(٢) تاريخ الحكماء: نزهة الأرواح وروضة الأفراح ص٣٣١.

ولـم يحملنـي علـى الـتردد في الانتحـار سـوى رغبتـي في اسـتعمال كـل قـوى حيـاتي في تنظيف أفكاري من أقذار الأوهام العالقة بها ولو لـم يتم لي هـذا لكنـت أقتـل نفسـي في الحال». (١)

أيضًا، هذا الدكتور عبد الوهاب المسيري الذي عاش ماركسيًا، وخاض تجربـة الشك والحيرة لثلاثين سـنة، ثـم عـاد إلـى الإسـلام، يحكـي جانبًـا مـن تلـك المعانـاة، فيقول في كلام طويل عن الأسئلة التـي تصـادم الرؤيـة الماديـة، وكيـف أنهـا وضعته في موقـف خـانق وضـاغط. أجتـزئ مـن ذلـك هـذه الفقـرة: «كانـت الأسـئلة تطـاردني وتنهكني، خاصة حينما آتي بفعل فاضل، يكلفني كثيرًا. إذ كان علي كـل مـرة أن أتخـذ قـرارًا وجوديًـا، لـيس لـه أي أسـاس في النمـوذج المـادي المهـيمن: أن أفعـل الخيـر وأتحاشى الشر وأدفع الثمن. وهذا أمر مرهق جدًا، أن يفكر المرء بتوتر شـديد في كـل موقـف يواجهـه، ويـوازن الأمـور ويحكـم عليهـا مـن منظـوري نمـوذجين متناقضـين، واحد مادي والآخر إنساني، ثم يقرر وجوديًا، ودون سبب واضح أن يختار الثاني دون الأول. وقد استمر بحثي المحموم لمدة ربع قرن قبل أن أصل إلى ما وصلت إليه مـن قناعات إيمانية». (٢)

وهي نفس المعاناة التي قاسى آلامها الشاعر الشهير إليا أبو ماضي، وعبّر عنهـا نظمًا في قصيدة الطلاسم الطويلة، كما في المختارات التالية:

---

(١) اعتراف تولستوي ص٣١.

(٢) الثقافة والمنهج ص٨٠.

جئت، لا أعلم من أين، ولكنّي أتيت

ولقد أبصرت قدّامي طريقًا فمشيت

وسأبقى ماشيًا إن شئت هذا أم أبيت

كيف جئت؟ كيف أبصرت طريقي؟

لست أدري!

أجديد أم قديم أنا في هذا الوجود

هل أنا حرّ طليق أم أسير في قيود

هل أنا قائد نفسي في حياتي أم مقود

أتمنّى أنّني أدري ولكن..

لست أدري![1]

ثم سار على هذا المنهج، كاشفًا عن حيرته العنيفة القاتلة، وتساؤلاته التي لا يجد لها جوابًا!

وهذه الشاعرة العراقية نازك الملائكة تعترف فتقول:

وروحي مستعرُ الاحتقار

يرى الكون أفقًا وضيعًا حقير

---

(١) ديوان إيليا أبو ماضي ص١٩١.

حياتي تحس وجيبَ الحقود

على عالم مغرق في الشرور

ففيمَ أعيش؟ سئمت البقاء

وشاقَ حياتي صمتُ العدم

وأبكي.. أبكي.. فدمعي لهيب

يحطم روحي ويُذوي المنى

تُعذبي حيرتي في الوجود

وأصرخ مِن ألمي مَن أنا؟[1]

ولدينا أنتوني فلو الذي لُقّب بأشرس الملاحدة، والذي قضى عقودًا طويلة من عمره في بيئة الإلحاد، منظّرًا ومناظرًا. هذا الرجل رغم أنه قضى عمرًا مديدًا في الإلحاد كما قلنا، إلا أنّه في النهاية لم يستطع مقاومة نداء الفطرة ودلائل العقل ومعطيات الكون، ومن ثم أعلن عودته إلى الإيمان بوجود خالق لهذا الكون، وأثبت ذلك في كتابه المعنون بـ (هناك إله).

ليس هؤلاء الذين ذكرنا أسماءهم سوى نماذج قليلة ممن عبّروا عن إحساس الألم وضغط المأساة، بعد أن دخلوا النفق المظلم بسبب عدم الإيمان، بل هناك كثيرون، وكلهم برهان صادق على أن الإلحاد خيّب ظن الملحد، وأنه حرمه من

(١) ديوان نازك الملائكة ج٢ ص٥١-٥٢.

إيجاد ذاته الآفلة، وأن كل تلك الوعود الكبيرة لم تكن في حقيقة الأمر سوى أحلامًا وردية منّى بها الملحد نفسَه!

ولقد صدق الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي في قوله: «قد علمتنا الحياة أن أكثر الناس قلقًا وضيقًا واضطرابًا، وشعورًا بالتفاهة والضياع، هم المحرومون من نعمة الإيمان وبرد اليقين. إن حياتهم لا طعم لها ولا مذاق، وإن حفلت باللذائذ والمرفهات، لأنهم لا يدركون لها معنى، ولا يعرفون لها هدفًا، ولا يفقهون لها سرًّا، فكيف يظفرون مع هذا بسكينة النفس، أو انشراح الصدر؟!».[١]

أما العجيبة المثيرة للدهشة، فهي أن يدعي ميشيل أونفري -فيلسوف فرنسي ملحد- أن الإلحاد عكس كل ذلك، فهو يعطي للإنسان والحياة المعنى والنبل والغاية، يقول في سياق نقد أشكال العدمية المعاصرة، وضرورة تجاوز القيم السائدة والحلول الدينية والعلمانية المنحدرة من اليهودية والمسيحية: «وحده مذهب الإلحاد يجعل الخروج من العدمية ممكنًا»!![٢] هل كان أونفري في كامل وعيه وبقواه العقلية وهو يهذر بهذا اللغو! بل هل نسي أنه اعترف سابقًا بأن الحضارة المعاصرة تعاني مأساة العدمية، حيث «نجد بالأحرى نزعة عدمية وتقديسًا للاشيء وشغفًا بالعدم، وعشقًا مرضيًّا لمعزوفات ولوحات نهايات الحضارات الكئيبة، وافتتانًا بالهاويات وبالحفر التي لا قعر لها والتي يفقد فيها المرء روحه وجسده وهويته وكينونته وكل اهتمام بأي أمر من الأمور، إنه مشهد كارثة: مشهد القيامة الخانق».[٣]

---

(١) القضايا المبدئية والمصيرية الكبرى للإنسان ص١٧٦.

(٢) نفي اللاهوت ص٥٢.

(٣) نفي اللاهوت ص٢٧.

وليت شعري أي إمكان لدى الإلحاد للخروج من العدمية وهو أساسًا مبني على العدمية! أليس من المجون الفكري ادعاء أن الإلحاد بإمكانه تحقيق هذا الخروج وإنقاذ الإنسان من جحيم العدمية المهول!

تذكرنا هذه المأساة التي يتجرع مرارتها هؤلاء الأشقياء بقول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾.[1] وهذا تعبير عجيب! فلو قال مثلًا (الذين لا يؤمنون خسروا أنفسهم) لكان مفهومًا، لكنه لما عكس الأمر دل ذلك دلالة واضحة على عمق الصلة بين الإيمان الحق بالله تعالى وما يلزم عن ذلك، وبين كينونة الإنسان، عقلًا ووجدانًا، فكرًا وضميرًا. أي إن الإنسان حين يفقد الإيمان بالله سبحانه هنا يكون قد خسر نفسه، هنا يكون قد أعلن موته الفلسفي والقيمي والسلوكي، ذلك لأن الله سبحانه كما أنه مصدر الحياة والوجود للإنسان، فهو مصدر المعرفة والحكمة والكمال والسعادة له، فلا جرم أن الإنسان يخسر كل شيء في اللحظة التي ينفصل فيها عن الإيمان ويذهب بعيدًا عن خالقه سبحانه.

يقول سيد قطب: «لقد خسروا أنفسهم وفقدوها؛ فلم تعد لهم نفس تؤمن! وهو تعبير دقيق عن حالة واقعة.. إن الذين لا يؤمنون بهذا الدين -مع عمق ندائه وإيحائه للفطرة بموحيات الإيمان ودلائله- هؤلاء لابد أن يكونوا قد فقدوا قبل ذلك فطرتهم! لابد أن تكون أجهزة الاستقبال والاستجابة الفطرية في كيانهم معطلة مخربة؛ أو محجوبة مغلفة. فهم في هذه الحالة قد خسروا أنفسهم ذاتها، بفقدانهم أجهزة الاستقبال والاستجابة الفطرية الحية في كيانها، ومن ثم فهم لا يؤمنون.. إذ أنهم لم

---

(١) الأنعام: ١٢.

يعودوا يملكون أنفسهم التي بها يؤمنون.. وهذا هو التفسير العميق لعدم إيمانهم مع توافر دلائل الإيمان وموحياته من حولهم.. وهذا هو الذي يحدد مصيرهم في ذلك اليوم. وهو الخسارة الكبرى المترتبة على خسارتهم من قبل لنفوسهم».[١]

ويقول حسين فضل الله خلال كلامه على هذه الآية: «وأيّ خسارة أعظم من خسارة الإنسان نفسه، وذلك بخسرانه الأساس الوحيد لخلاصه، وهو رحمة ربّه المرتبطة بخط الإيمان في الحياة؟! وهكذا يربط القرآن بين عدم الإيمان بالله وبين خسارة الإنسان نفسه.. وقد يفهم الإنسان منها أن القضية لا تعيش في النطاق الأخروي فقط، بل تمتد إلى النطاق الدنيويّ لما يفرضه ذلك من ظلمةٍ في التصوّر والرؤية والعمل، في مقابل ما يحصل عليه المؤمن من إشراق الروح في ذلك كله».[٢]

ومن هنا؛ فالآية تشير إلى أنّ طبيعة الفطرة البشريّة طبيعة خيّرة، مؤمنة، وأنّ كل طاقاتها الفكريّة والوجدانيّة تساعدها على هذا الإيمان والاهتداء، أي معرفة الله والتعبّد له ومحبّته والشوق إلى لقائه. وبهذا فعندما يرفض الإنسان الإيمان، ويتنكب طريق الحق والهداية بالإلحاد أو الشرك أو المعاصي، فهو في الحقيقة يعمل على هدم بنائه الفطري وتشويه جماليات الإنسانيّة فيه، وهذا من شأنه أن يفتح عليه أبوابًا هائلة من الشقاء البئيس والمأساة العنيفة. وإنّ نظرة خفيفة على نفسيّة الملحد، والمشرك، والعاصي المذنب، تساعدنا على فهم أعمق لهذه الحقيقة.

---

(١) في ظلال القرآن ج٢ ص١٠٥٣.

(٢) من وحي القرآن ج٩ ص٤٤.

إنّ المأساة وشعور العدمية والاغتراب، والإحساس بتمزق الأواصر بين الذات والعالم، هي الحقيقة المرّة التي يواجهها الملحد -والحديث عن الملحد الواعي بمعنى الإلحاد- عند كل لحظة من لحظات الصدق مع الذات! وإنّها المعاناة القاسية التي يتجرّع مأساتها بصمت رهيب كئيب! ومن ثم؛ لا يمكن أن يهنأ بحياته، ولا يمكن أن يعيش حياة طيّبة!

لا جرم أن نقول -إذن- بأنّ الملحد عندما يفكر تفكيرًا جادًا؛ فإما أن يعود إلى الإيمان أو أن ينتحر، وليس له خيار ثالث، لأن المقولات المؤسّسة للإلحاد لا تساعده على مواصلة الحياة في أفق الانسجام بين فطرة الوعي وأشواق الروح وبين معطيات ودلالات الحياة والكون، بل بالحري أنّها تعمل على القذف به في أتون التمزق والعدمية والاغتراب وفقدان الانتماء! ولهذا قال يقول علي عزت بيجوفيتش منبّهًا على استحالة الالتزام بالإلحاد عمليًا: «يبدو أن الإنسان لا يمكنه أن يكون ملحدًا وماديًا مخلصًا حتى ولو أراد ذلك من كل قلبه».[1] والواقع يؤكد هذه الحقيقة!

ولهذا تسقط -إلحاديًا- كل المبررات لاستمرار الحياة في إطار مختلف الإكراهات والضغوط والعراقيل التي يتعرّض لها الملحد من حيث هو إنسان مجبر على الخضوع لسنن وشروط ثابتة وصارمة، جعلها الله تعالى حاكمة في عالم الدنيا. إن الضغوط الهائلة التي يتعرّض لها الملحد، سواء من جهة فطرته الإنسانية، أم من

---

(١) الإسلام بين الشرق والغرب ص٣٤٠.

جهة حركة الواقع الهادرة، أم من جهة إيحاءات الكون والحياة، كل هذا لا يعطي له فرصة الاستقرار والتوازن والثبات، ومن ثم يكون المنتظر منه ألا يقبل الحياة بل أن يؤثر خيار الانتحار، وإلا ليت شعري لماذا يتشبّث بالحياة وهو يعلم أن النهاية الحتمية بعد لحظة الموت مباشرة هي الفناء الأبدي!

يقول عبد الجليل الكور: «كون الإلحاد لا ينفك عن إدراك محدودية الوجود الإنساني يجعل مواصلة الاستدلال إلى نهايته تقتضي من الملحد الجاد مواجهة حافة الانتحار. فإدراك أن الوجود البشري مفتوح على العدم في مصدره ومآله يُوجب الإسراع إلى إنهائه لإيقاف الاستمرار في معاناته الضرورية بلا جدوى».(١)

وإذا كان المرء يعجب لملحد يرفض الانتحار بحكم إيمانه بأنّ الموت فناء وراحة أبدية، ويعجب لتشبّثه الكبير بالحياة رغم مقاساته الآلام والمعاناة، بشتى أشكالها ومظاهرها، فإن ذلك كله ليبرهن برهنة ساطعة على أن في داخل الإنسان -والملحد إنسان قبل أن يكون ملحدًا- نزعة قوية جدًّا نحو الحياة والبقاء، وفيه شعور عميق راسخ بأنه فعلًا كائن أبدي وليس ابن عالم الفناء والاضمحلال، وبسبب هذه النزعة يظل الملحد متمسّكًا بالحياة رغم كل الألم الذي يتعرّض له! فوفق الأسس الإلحادية، الانتحار ضرورة إلحادية، ولا يستطيع أي ملحد أن يبرر رفضه للانتحار وتمسكه بالحياة!

* * * *

---

(١) لماذا لست ملحداً؟ عبد الجليل الكور ص١٩.

(٧) استحالة الالتزام بالأسس الإلحادية

إنّ مشكلة جمهور الملاحدة أنهم لا يعيشون لوازم المبادئ الإلحادية ومقتضياتها بشكل عملي كامل، ولذلك لا يدركون فظاعة الإلحاد، ولذلك يخالفون قناعتهم الإلحادية، كما رأينا الآن بخصوص التمسك بالحياة ورفض الانتحار! فلو استعرضنا جوانب من يوميات ملحد يريد أن يلتزم بمبادئ الإلحاد في واقعه السلوكي اليومي، لوجدناه يقاسي الأمرّين ويعاني معاناة هائلة، بسبب أنه لا توجد في الإلحاد إمكانية تحقيق الاستقرار والسعادة:

يستيقظ، يتناول فطوره، ثم يقوم ليذهب إلى عمله، لكن، عند عتبة البيت سألته نفسه: ما الضامن ألا تدهسك سيارة مثلًا قبل الوصول إلى مقر العمل؟

ذهب إلى موعده مع الطبيب، وبعد الكشف شدّد عليه الطبيب بالتزام قائمة الدواء، لكن، سألته نفسه: لماذا تثق في الطبيب، من المحتمل أنه غشّك؟

عاد إلى البيت، فوجد زوجه قد أعدت الطعام، لكن، سألته نفسه: ما الضامن أنها لم تضع لك في هذا الأكل سمًا مثلًا لتقتلك لأنك أغضبتها البارحة مثلًا؟

في الشغل تذكر زوجه، لكن، سألته نفسه: أليس من المحتمل أنها تخونك في غيابك، فمن حقها إلحاديًا أن تستمتع بحياتها، ولا يوجد مبرر مادي ألا تفعل مع غيرك!

فتح الإنترنت، وذهب إلى موقع علمي وقرأ دراسة علمية جديدة، لكن، سألته نفسه: ما الضامن أن محرر الدراسة والموقع لم يزيّفا المعلومات الواردة فيها؟

فكر في الإنجاب، لكن، سألته نفسه: أليس الإنجاب عمليًا يتسبب في خسارة وأذى وألم ومعاناة؟ فما المبرر والأساس الفلسفي للتفكير فيه وتحمّل تبعاته؟[(١)]

نشبت الحرب بين بلده وبلد أجنبي، فسألته نفسه: إن انضممت إلى بلدك خنتَ شعاراتك المثالية، وإن رفضتَ كنت مرتكبًا للخيانة الوطنية، فما الحل؟

خرجت مظاهرات تطالب بالحقوق والحريات، فقرر المشاركة، لكن المشاركة تعني الإيمان بالقيمة المقدسة للإنسان والحياة، والأصل أن كل شيء مادة؟

من خلال هذه النماذج اليومية البسيطة، نرى أن الملحد لو التزم فعلًا بمبادئه وشعاراته الإلحادية (الحياة عبث، الأخلاق نسبية، الموت فناء.. إلخ)، فإنه سيُجنُّ لا محالة، أو سيعيش في حقارة ونذالة لا متناهية، أو تتحوّل حياته إلى جحيم رهيب! وكما سبقت أن ذكرت، فإن أحد أبرز مشاكل الملاحدة هي أنهم لا يعيشون قناعتهم الإلحادية بشكل عملي وتطبيق كامل! فالملحد يفسر الإلحاد كما يهوى لا كما هو واقع الأسس الإلحادية وكما هي لوازمها التطبيقية، وهذا ديدن أرباب الأهواء، يأخذون من الضلالات العقدية والانحرافات الفكرية ما يرغبون ويفسرونها كما يريدون، ثم إذا قيل لهم في ذلك وبُيِّنت لهم حقيقة أصل مذهبهم ومآل عقيدتهم

---

(١) قال بعض كبرائهم: «إن جريمة الإنسان الكبرى هي أنه قد وُلد». ولهذا كانت «الغالبية العظمى من العدميين ليسوا فقط «لا ولودين» بل هم مصابون برهاب الإنجاب، بكلمات أخرى، ليس عدم الإنجاب عندهم خياراً فقط، بل هو مبدأ يتعذّر نقضه». أساتذة اليأس: النزعة العدمية في الأدب الأوروبي ص٢٢- ٣٥.

وثمارها المرّة بادروا إلى الإنكار واتهموا القائل بعدم الفهم! وهذا كما نجده عند الملحد، نجده عند العلماني والماركسي والليبرالي العربي، فقد رأينا مَن حاول وضع أقنعة إسلامية على المادية الماركسية أو العلمانية أو الليبرالية فتراهم يفسرون هذه الاتجاهات كما يحلو لهم لا كما هي في بلاد نشأتها وأصل ظهورها، فإذا قيل لهم في ذلك قالوا أنتم لا تفهمون العلمانية أو الماركسية أو الليبرالية!

وبعد: إنّ قضيّة الإيمان أو الإلحاد، تستحق من العاقل ألا يتعامل معها بسذاجة لا مباليّة وسطحيّة عابرة، بل يجب عليه -من أيّة جهة نظرنا وبأي معيار حكمنا- أن يطيل فيها التفكر، ويقلّب فيها براهين النظر، لأنّها قضيّة وجوديّة كبرى تتعلّق بالمصير الأبدي، فضلًا عن آثارها الحتميّة في واقع الحياة ونشاطاتها المختلفة. ولذلك فهي لا تحتمل العبث واللامبالاة!

لكن، إذا لكل مأساة روافد، فما هي روافد مأساة الإلحاد؟

في العام ١٨١٣؛ زار شوبنهاور -زعيم المتشائمين، توفي ١٨٦٠- يوهان غوته -أديب ألماني، توفي ١٨٣٢-، وعند رحيله أهداه غوته رسالة تحمل مضمونًا مثيرًا ولافتًا للانتباه، لقد قال له: «إن أردتَ أن تجد المتعة من الحياة، فعليك أن تمنح القيمة للعالم».[١]

إضفاء القيمة على العالم -والعالم هنا مفهوم يشمل الذات وأشخاص وأشياء الكون والحياة- هو أحد المعاني التي يفتقدها الملحد على مستوى الوعي ومستوى

---

(١) جنون الفلاسفة. نايجل رودجرز- نيل ثومبثون ص٧٦.

الشعور، لأن الأسس الإلحادية لا تساعده على ذلك، ومن ثم يشعر بالتناقض والتمزق والانسحاق!

وقد يجاهد الملحد ويقاوم هذا الإحساس الطاغي والعنيف؛ ولكن عندما تُستنزف طاقته فإنّه يعجز عن المواصلة والاستمرار، وهنا لا يجد بين يديه إلا الانتحار أو العودة إلى الإيمان! ذلك لأنّ الإنسان بفطرته يبحث عن الانسجام، ومن ثم لا يمكن أن تنفصل عنده القناعة النظرية عن التطبيق السلوكي لتحقيق غايات محددة، بالرغم أنّ «من الدوافع ما هو شعوري، أي يفطن الفرد إلى وجوده.. ومنها ما هو لا شعوري لا يفطن الفرد إلى وجوده».[(١)]

والملحد يشعر بالتناقض والمأساة؛ لأنّ واقع النشاطات والعلاقات العملية والاجتماعية يتطلّب قدرًا عاليًا من الالتزام بمنظومة من المبادئ والقيم حتى تستقيم الحياة، وهذا غير ممكن إلا بإضفاء القيمة والمعنى على العالم. ومن ثم تكون محاولة الملحد الالتزام بالأسس الإلحادية في الواقع اليومي وترتيب حياته وفقها وعلى منوالها محاولة مرعبة، لأنّها ستُحوّل حياته إلى جحيم مرعب، كما أنّها ستُحوّل المجتمع إلى غابة متوحشة!

قبل سنوات أجرت قناة الجزيرة الإنجليزية حوارًا مع ريتشارد دوكنز -الملحد الشهير- وكان مما صرّح به يومئذ قوله: «أنا دارويني بشغف عندما يتعلق الأمر بتفسير كيفية الحياة، وأنا ضد الداروينية بشغف عندما يتعلق الأمر بترتيب حياتنا».[(٢)]

---

(١) أصول علم النفس. د، أحمد عزت راجح ص٧٨. بتصرف يسير.

(٢) هذا رابط الحلقة وهي مترجمة: https://www.youtube.com/watch?v=tjQD١GvSL١k

وهي فكرة ثابتة عنده، فقد سبق أن ذكرها في مناظرة له في أستراليا عام ٢٠١٢، بعد أن سئل: «أليس من المحتمل أن نعود ونتكس لنسلك سلوك التفسير الداروينى بأن البقاء للأصلح؟»، فكان جوابه: «طبعًا أتمنى ألا نعمد كبشر أن نسلك سلوك قانون البقاء للأصلح في حياتنا السياسية والاجتماعية، وكذلك في اختيارنا القيم التي نعتمدها لنحيا على هذا الكوكب. ولطالما قلت، إنني مناصر قوي للتفسير الداروني العلمي فيما يتعلق بالإجابة عن سؤال «لماذا نحن موجودون؟»، أما أن نحيا حياتنا كبشر وفقًا للمفهوم الدارويني في تفسير التنازل على البقاء، أي أن نجعل المجتمع مجتمعًا داروينيًا «أي كما يصف داروين سلوك المجتمعات الحيوانية في نزاعها على البقاء» فإنه سيكون مجتمعًا أبعد ما يكون عن الراحة والأمان لو اخترناه كنموذج للعيش».[١]

لقد دوكنز أدرك أن الرؤية الداروينية تحوّل الحياة إلى غابة موحشة ومتوحشة وحلبة صراع مرير! ولكن يحق لنا أن نستغرب ممن يرفع شعار (الإلحاد هو الحل)، ويدافع عن التطور الدارويني بحماسة مثيرة، ومع ذلك يرفض الالتزام بمضامين هذا الإلحاد ومقتضيات الداروينية في واقع الحياة ونشاطاتها وعلاقاتها المختلفة!

الواقع أنّه لا يوجد ملحد حقيقي، ولا يمكن أن يوجد! لأنّ الملحد عندما يحاول أن ينسجم مع إلحاده لا يمكنه مطلقًا أن يكون إنسانًا فاضلًا. ذلك لأنّ الإلحاد يفرض على الملحد أن يتعامل مع الذات والآخر بحياديّة صلبة وآليّة صارمة، ومن ثمَّ يمكنه أن يقترف أشنع الأفعال في سبيل إشباع الأنا المتضخمة بدون أن يشعر

---

(١) حوارات سيدني ص٢٢.

بأدنى تأنيب للضمير، لأنّ هذا التأنيب لا ينتمي للمادة الصلبة، بل لعالم آخر فوق المادة، وهو لا يعترف إلا بالمادة. كما أنّه ليست لديه معايير يحكم بها على مواقفه وتصرفاته، لأنّ المعايير تقتضي الإيمان بمرجعيّة فوق المادة.

❋ ❋ ❋ ❋

(٨) مناقضة الإلحاد للتكوين الفطري

إذا انتقلنا إلى الرافد الثاني في منظومة نشأة المأساة الإلحادية، فيمكننا تحديده في طبيعة النظام الإدراكي في الإنسان. فالإنسان يُولد بمنظومة مبادئ إدراكية وقيمية، في إطارها يستوعب نفسه والعالم من حوله، وفي إطارها يتعامل مع المحيطين به، مثل مبدأ السببية والتصميم والغاية، ومثل قيم الحب والكره والصدق والكذب والحقيقة والخيال.

يقول جستون باريت: «لحسن الحظ يُظهر الأطفال منذ ولادتهم علامات إدراكهم لأساسيات عمل الأشياء في العالم، فالأشياء العادية لا تتحرك دون ملامستها ولا تنتقل سحريًا من مكان إلى آخر، ولا تختفي ببساطة من الوجود. يُبدي الأطفال استمتاعًا بالقصص الخيالية لأنهم يعلمون بأن العالم لا يسير بهذه الطريقة».(١)

أما العقيدة الإلحادية فتقرر بأنّ الإنسان مجرد كومة مادية، فلا وجود لعنصر غير المادة الصلبة، حتى الوعي والشعور والقيم ليست أكثر من انعكاسات للحس المادي، وبهذا تنفي أن يُولد الإنسان بأية أساسيات إدراكية وقيمية مسبقة، بل الإنسان

---

(١) فطرية الإيمان ص٣٤.

يُولد صفحة بيضاء ثم لاحقًا يكتب الواقع المادي والخبرة الحسية جُملها وفقراتها وفصولها!

يقول فلاديمير لينين: «ليس ثمة في العالم أي شيء غير المادة المتحركة، والمادة المتحركة لا تستطيع أن تتحرك إلا في المكان والزمان».[١] ويقول بودويتنيك وياخوت: «لقد أثبت العلم إثباتًا قاطعًا بأنه لا وجود لعالم غير مادي «لعالم الغيب»، «للعالم الآخر»، ومن غير الممكن أن يكون له وجود. وفعلًا، طالما ليس هناك أي شيء غير المادة، فإن الممكن وجوده هو عالم واحد فقط، العالم المادي».[٢] ولنا أن نتساءل عن مدى إمكانية العلم الطبيعي في أن يقطع بعدم وجود غير العالم المادي، وهو أساسًا لا يمكنه التعامل مع غير العالم المادي! ولكنها العقلية المادية الجازمة رغم رفع الشعارات البرّاقة!

لكن؛ رغم هذا الدعوى الإلحادية وحرص الرؤية المادية على اختزال الكينونة الإنسانية في بُعد واحد هو المادة، ورد كل الأشواق التي يموج بها باطن الإنسان إلى المادة.. رغم كل ذلك، إلا أن الملحد حين يتأمل نفسه والكون من حوله، حين يفكر في الواقع والتاريخ المديد، حين يمارس العلاقات الاجتماعية المختلفة، وحين يواجه حضارات وثقافات وتقاليد أخرى تختلف عن حضارته وثقافته وتقاليده، وأن

---

(١) المادية والمذهب النقدي التجريبي ص٢٠١

(٢) عرض موجز للمادية الديالكتيكية ص٥٢. الجملة الأخيرة في الفقرة تتضمن مغالطة فجة، فالملحد بما أنه يعتقد أنه لا يوجد إلا المادة إذن لا يمكن أن يكون شيء إلا المادة! لقد تناسى أنه مطالب أساسًا بتقديم الأدلة على أنه لا يوجد شيء إلا المادة، بل فضّل القيام بخدعة المصادرة على المطلوب، وتحكيم قناعته الشخصية!

هناك خصائص وسمات فارقة بينهما، حين يفعل كل هذا، يدرك أن هناك خللًا ما، خللًا ينبّهه بل يؤكد له على أن كل هذا (الذات والآخر والعالم والحياة) ليس عبثًا، لأن هواتف الفطرة ولأن مبادئ العقل ولأن دلالات الواقع الموّار، كلها تنفي إمكانية العبث!

ستيفن وانبرغ -الملحد الحاصل على جائزة نوبل في الفيزياء- يترجم لنا جانبًا من هذا الشعور المتناقض الذي يكابده الملحد في لحظات الصدق مع الذات، فيقول: «إن من الرائع أن نجد في قوانين الطبيعة خطة وضعها خالق مهتم وتؤدي فيها الكائنات البشرية دورًا متميّزًا. وأنا أشعر بالحزن عندما أشك في ذلك».(١)

والملحد -لأنه إنسان قبل أي شيء آخر- لا يمكن أن يتحرر من ضغط الأسئلة الوجودية الكبرى، مهما حاول الهروب منها والتقليل من شأنها، لأنها أسئلة نابعة من صميم كينونة الإنسان الفطرية وأعماق وعيه الروحي. والملحد يدرك -وأكرر أنني أعني الذي يعي معنى كونه ملحدًا ولوازم الإلحاد الفلسفية والقيمية- أن الإلحاد لا يمكنه أن يقدم له أجوبة لتساؤلات العقل واستفهامات الفطرة، وهذا ما يزيده ألمًا وحسرة ومأساة، لأنه حين هرب من الإله ظن أن بإمكانه أن يهرب حتى من كينونته الفطرية، ومن ثم اكتشف أن ذلك الهروب والرفض والإنكار لم يُسكت صوت الباطن بل زاده قوة وشدة وضغطًا! وذلك لأن «الإنسان -حتى وهو يعترف بحدود إدراكه- يأمل دائمًا في معرفة كلية وقطعية تجيب عن أسئلته الوجودية الكبرى، ومحال أن تطمئن نفسه إذا استمرت هذه الأسئلة معلقة بلا جواب إلى غير

---

(١) أحلام الفيزيائيين ص١٩٩.

أجل».[١] فتخيل حجم الضغط الذي يعاني منه الملحد حين يحاول مواجهة الأسئلة الكبرى! وهذا ريتشارد دوكنز يعترف بعجزه عن تفسير الوعي، ولا يجد مفرًا من الفرار من مواجهة سؤاله، يقول: «من الصعب جدًا تفسير طبيعة وعي الإنسان ومصدره، أرجوكم اقذفوا الكرة بعيدًا عني إلى ملعب الآخرين». ويقول الفيلسوف الملحد لويس ولبررت: «لقد تحاشيت متعمدًا الخوض في أي مناقشة حول الوعي».[٢] بل هذا ديدين الماديين دائمًا، يعتبرون الأسئلة الوجودية الكبرى، كأصل الحياة وسرها، والموت وما بعده، وحقيقة الإنسان ومصيره، والكون ووجوده، والقيم والأخلاق، وغير ذلك، يعتبرون كل هذا مجرد لغو لا معنى له، وتعابير ميتافيزيقية غير مشروعة لأنها بلا فائدة ولا حقيقة، ولهذا من الأفضل عدم الاشتغال بها!

تولستوي الروائي الروسي، هذا الرجل الذي عمت شهرته آفاق العالم أجمع، اعترف بأنه عندما كان ملحدًا لم يكن يعير أسئلة المعنى من قبيل (لماذا تعيش؟ ما الغاية من حياتك؟) أي اهتمام بسبب اللهاث المسعور وراء المال والشهرة والمجد الدنيوي! ويوم خطرت بباله هذه التساؤلات اعتبرها أسئلة صبيانية لا يليق بالرجل الحكيم أن يفكر فيها! لكن؛ حين ألحت وأصرت عليه، ولم يجد مفرًّا من التوقف عندها، ومن ثم حاول تقديم أجوبة مقنعة عليها، اكتشف بأنها أسئلة شاملة لأعمق أسرار الحياة البشرية، إلا أنه عجز أن يقدم جوابًا واحدًا رغم كل معارفه ورغم كثرة

---

(١) الغيب والعقل: دراسة في حدود المعرفة البشرية. إلياس بلكا، ص٣٠.

(٢) حوار ساخن عن الإلحاد. هادي المدرّسي، ص١٦٧.

المحاولات! لقد اعترف بأن القلق صحبه مدة طويلة وكان يضغط عليه بعنف وقسوة حتى اهتدى إلى الإيمان![1]

ولئن كانت أسئلة من قبيل: من أين جئت؟ لماذا أنا هنا؟ هذا الكون لماذا هو موجود؟ لماذا هذا التنوع البديع في الحياة؟.. لئن كانت مثل هذه الأسئلة لها ضغطها وشدتها وصدمتها على النفس والعقل، فلا شك أن سؤال الموت من أهم وأكبر الأسئلة التي تؤرّق الملحد، بالرغم من محاولة الهروب منه أو التغافل عنه بالانغماس في الضجيج والضوضاء أو العمل على اعتباره شيئًا عاديًّا جدًّا! تكمن قيمة سؤال الموت في أنه يقف الملحد وجهًا لوجه مع الحقيقة المرعبة.. حقيقة وماذا بعد؟ ذلك لأن ارتقاء الإنسان أو انحطاطه وثيق بالإجابة عن سؤال الموت!

إن إلقاء نظرة سريعة على واقع الحضارة المعاصرة، كفيل بتوضيح وكشف مأساة الملحد الذي يعي جيّدًا معنى كونه ملحدًا! نقول هذا؛ لأنّ الحضارة المعاصرة حضارة مادية بامتياز، كما أنها حضارة لا يمكن أن نقول بأنها إلحادية بمعنى إنكار وجود الإله الخالق، بل هي فقط قامت بتحييد الإله الخالق عن نشاطات الحياة وقطعت صلتها به فيما يخص شؤونها العامة. ومن هنا؛ فإذا كانت هذه الحضارة قد أنتجت مآسي رهيبة لأفرادها باعتراف علمائها وفلاسفتها، رغم تلك الشعرة الرقيقة التي تصلها بالإله الخالق، فكيف إذن لو كانت حضارة ملحدة بشكل كامل ومطلق!

إن معاناة الفرد المعاصر في ظلال الحضارة المادية، صارت حقيقة ثابتة لا

---

(١) اعتراف تولستوي ص٢٧ وما بعدها.

يمكن إنكارها. فهذه الحضارة «كما يصفها كثير من علماء النفس الحديث، حضارة تُشعر الفرد بأنه منبوذ مهجور في عالم يستغله ويغشه ويخدعه، حضارة تُشعر بالعزلة والعجز وقلة الحيلة في جو عدائي يغشاه من كل جانب. فقد شجعت التنافس المسعور بين الناس، وأوهنت روابط الأسرة، وزلزلت أركان الإيمان، وجعلت كل إنسان يعيش لنفسه. فهي في جملتها حضارة مادة وهوس وسرعة وتوتر وضجيج. فلا عجب إذن أن اقترنت هذه الحضارة باعتلال الصحة النفسية، واختلال الصحة الخلقية، وذيوع الاضطرابات السيكوسوماتية، والجريمة والانتحار والمخدرات والطلاق وغير ذلك من المشكلات الاجتماعية. هذا إلى ما تزخر به من أفراد فقدوا سعادتهم واتزانهم النفسي وغشيهم اليأس والقنوط والتوجس والسخط وعدم الرضا بشيء».[١]

إن رؤية الملحد لا يمكن أن تكون سوى رؤية سائلة، مبهمة، هلامية، بلا ثبات ولا معايير ولا غايات. فهو بحكم ركائز العقيدة الإلحادية، يجد نفسه مندفعًا نحو اللهاث المسعور وراء اللذة والمنفعة الآنية، لأنه ليس عنده ثقة باللحظة التالية، على الأقل هناك إمكانية الموت! يقول زيغمونت باومان: «الحياة في الحداثة السائلة هي تمرين يومي على الفناء الكوني. وما يكتشفه سكان عالم الحداثة السائلة سريعًا هو أنه لا شيء في ذلك العالم ملزم بالدوام، ناهيك عن الاستمرار إلى الأبد. فالرغبات التي تُعتبر اليوم مفيدة وضروريّة، تصبح تاريخًا قبل أن تستقر لفترة كافية لتتحول إلى عادة

(١) أصول علم النفس. أحمد عزت راجح ص٦٢٢. والاضطرابات السيكوسوماتية هي الاضطرابات والأمراض الجسدية الناتجة عن ضغوط عصبية ونفسية.

وحاجة، وليس هناك شيء يُعتقد أنه سيبقى هنا إلى الأبد، لا شيء يبدو غير قابل للاستبدال، فكل شيء يولد موسومًا بالموت الوشيك».[١]

والحقيقة أن الإنسان في عصر الحداثة لا يمكنه غير ذلك، لأنّ «من سمات الحداثة المسكوت عنها، أن نركز على ما هو مقابل لنا ونتغافل عن المغزى العميق من جذورنا»، ومن ثم، فأن تكون حداثيًّا يعني «أن تكون جديدًا، أن تكون بداية جديدة، مختلفًا عن كل ما سبقك. وعي الفرد بحداثته يعني وعيه بأنه مبدع ذاته، كشخص حرٍّ مبتكر بمعنى جذري، لا كشخص مضبوط بالعادات ومحكوم بالقدر والعناية الإلهية».[٢]

ولا شك أنه في خضم هذا الهوس والسرعة واللهاث وانعدام الثقة في كل شيء، يفقد الإنسان شعوره بذاته وهويته، كما تتمزّق روابطه بفطرة الكون والحياة، فيجد نفسه تائهًا في دوامة وجودية مرعبة، مواجهًا المجهول وحيدًا ومنتظرًا الفناء المهول يتيمًا، بدون سند ولا عزاء! وقد اعترف مثلًا ستيفن وانبرغ بأنّ العلم الطبيعي لا يمكنه أن يوفر للإنسان العزاء الذي يوفره له الدين تجاه معضلة الموت التي تقف الملحد مع الحقيقة وجهًا لوجه، فيقول: «ومع ذلك لم يخطر لي قط أن العلم سوف يوفر على الدوام العزاء الذي طالما قدمه الدين في مواجهة الموت».[٣]

لا يمكن للملحد أن يهنأ بحياته، ولا يمكن أن يعيش حياة طيّبة، لأنّه بين

(١) الأخلاق في عصر الحداثة السائلة. زيغمونت باومان ص٢٤١.

(٢) الجذور اللاهوتية للحداثة. مايكل ألين جيلسبي ص١٤.

(٣) أحلام الفيزيائيين ص٢٠٣.

ضغطين هائلين: ضغط العقيدة الإلحاديّة التي تقول له (أنت مجرد حثالة مادة، حيوان متطور لا قيمة لك، والحياة عبث بلا معنى، والكون فوضى بلا نظام، ومصيرك التراب مثل الحشرات التافهة)، وبين ضغط الفطرة ونداءاتها التي تريد إرواء طاقاتها المقدسة: الإيمان، الحق، القيمة، الانتماء، الغاية، الثبات، والتي مهما حاول الملحد أن يلبي هذه الاحتياجات فيها، فدائمًا يكون مصيره الفشل الذريع، لأنّ طبيعة الرؤية الإلحادية تسحب المعنى والغاية عن الذات والوجود والحياة!

ولقد أشار الله سبحانه إلى هذه الحقيقة المرعبة، وإلى هذه المأساة العنيفة، وإلى هذا الجحيم الملتهب الذي يعيش فيه ويقاسي آلامه بصمت، كلُّ مَن رفض وحيه المقدس نظامًا ومنهج حياة شامل لمختلف نشاطات الحياة الخاصة والعامة، فقال: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾[١] فهذا حكم إلهي قدري وشرعي، لا يمكن لأحد أن يتجاوزه أو يُعفى منه.

يقول سيد قطب: «والحياة المقطوعة الصلة بالله ورحمته الواسعة، ضنك مهما يكن فيها من سعة ومتاع. إنه ضنك الانقطاع عن الاتصال بالله والاطمئنان إلى حماه. ضنك الحيرة والقلق والشك. ضنك الحرص والحذر: الحرص على ما في اليد والحذر من الفوت. ضنك الجري وراء بارق المطامع والحسرة على كل ما يفوت. وما يشعر القلب بطمأنينة الاستقرار إلا في رحاب الله. وما يحس راحة الثقة إلا وهو مستمسك بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها. إن طمأنينة الإيمان تضاعف الحياة

---

(١) طه: ١٢٤.

طولا وعرضا وعمقا وسعة، والحرمان منه شقوة لا تعدلها شقوة الفقر والحرمان».[١]

إنّ من السهل جدًّا أن يعلن الإنسان إلحاده.. ولكن؛ من العسير للغاية أن يلتزم بمضامين إلحاده ومقتضياته في نشاطات الفكر والحياة! فالإنسان ليس كتلة مادية كما يتصور الملحد، بل هو كائن مركب، فيه أبعاد مترامية ومتشابكة تبحث عن المعنى والغاية والقداسة، تبحث عن القيم والأخلاق والتعاون والتكافل، تبحث عن الحب والجمال والسمو، تبحث عن الأنا والهوية والانتماء، تبحث عن تفسير لأصل الإنسان ولغاية وجوده ومصيره بعد الموت، تبحث عن تفسير لهذا الكون المترامي الأبعاد والمعقد تعقيدًا بالغًا لكن بتصميم مدهش للغاية.

إنّ اختيار أحد القرارين وثيق الصلة بطبيعة الفطرة الإنسانية. فهذه الفطرة مهما تراكم عليها من الفساد والخبث والغبش والضلال؛ فإنّ فتيل شمعتها لا يخبو بشكل نهائي، بل يظل متوهجًا ولو بشكل ضعيف للغاية. ولذلك كلما سرّح الملحد طرفه في أعماق الذات وأرجاء الكون وجنبات الحياة، وما تزخر به هذه المجالات من مشاهد وإيحاءات، كلما فعل ذلك عجز عن مدافعة إدراك الإتقان وروعة التصميم في أشخاص الكون والحياة. وهو إدراك يجبر الوعي والشعور على الاعتراف والإقرار بأنّ لهذا الكون شأنًا عظيمًا، وله غاية مقدسة، ووراءه خالقًا جليلًا، هو الذي قدّر كل شيء تقديرًا. وهذا أحد المقاصد الواضحة في الأمر الإلهي بتقليب النظر في آفاق الأنفس والكون والحياة: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾.[٢] وقال سبحانه: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا

---

(١) في ظلال القرآن ج٤ ص٢٣٥٥.

(٢) الروم: ٢٢.

خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴾.[١]

لقد اعترف أنتوني فلو –الملحد الشرس كما كان يُلقب طيلة عقود طويلة– بأن الكشوف الهائلة حول دقة النظام والتصميم والإتقان في بنية الكون كانت من أهم الأسباب التي دفعته للإيمان، لأنّها وقفته وجهًا لوجه مع سؤال عميق وهو دقة التوافق بين الكون وبين متطلّبات الإنسان، وذلك ما يعني أن هناك مصدرًا خارجيًّا أوجد الكون على شكل مناسب جدًّا للإنسان، لأنه علم مسبقًا بقدومه.[٢]

إن الحياة العمليّة مليئة بالتحديات والعراقيل والحرمان، وهذا يشمل كل الناس بغض النظر عن انتماءاتهم العقدية والفلسفية والدينية. لكن من المؤكد أن هناك فروقًا بارزة بين تلقي الإنسان لذلك كله خلال مختلف مراحل حياته، وهو مؤمن بالإله الخالق، وبالأصل الكريم للإنسان، وبالأبعاد السامية لوجوده ولمصيره بعد الموت. وبين تلقي كل ذلك وهو منكر لوجود الإله الخالق، وهو يعتقد أن الإنسان ليس أكثر من وسخ مادي متطور، وأن الحياة مجرد مسرحيّة عبثيّة، وأن مصير الإنسان ليس أفضل من مصير الحشرات والحيوانات!

إنه لا قيمة بدون دين، ولذلك قال مؤسس نظرية الكم ماكس بلانك: «المكون الديني شيء جوهري ليعيش الإنسان في تناغم مع ذاته».[٣] ولذلك من الواجبات

---

(١) الروم: ٨.

(٢) هناك إله ص١٥٣.

(٣) العودة إلى الإيمان. هيثم طلعت ص٢٢.

المقدسة ضرورة نشر العقيدة الإسلامية النقية الصحيحة بين عموم الشباب، وبيان أسسها النفسية وآثارها السلوكية والاجتماعية والحضارية، والنضال عنها ضد شبهات المغرضين ومغالطات المفسدين وحروب الماديين. وسر ذلك؛ أنّ العقيدة -كما يقول سيد سابق- إذا صلحت «صلح السلوك واستقام، وإذا فسدت فسد واعوجّ. ومن ثم كانت عقيدة التوحيد والإيمان ضرورة لا يستغني عنها الإنسان ليستكمل شخصيته ويحقق إنسانيّته». فلا جرم إذن أنّ «التمكين لهذه العقيدة هو الذي يُهذّب الحياة ويرقّيها، ويصل بها إلى المدنية الحقة ويُبلّغها ما تنشده من الخير والتقدم، وما تستهدفه من الحق والعدل، فينعم الفرد وتسعد الجماعة وتحيى الحياة الطيبة».[1] وتاريخ الإنسان -فردًا وجماعة- أسطع برهان على صحة هذا المعنى، سواء حين يؤمن ويستقيم، أم حين يكفر ويلحد. بل إن جوهر أزمة الإنسان والحضارة في كل الجاهليات التي عرفتها البشرية قديمًا وحديثًا هو فقدان العقيدة الصحيحة.

وكهنة معبد الإلحاد، يدركون فعّالية عنصر الإيمان في كينونة الإنسان وآثارها في توجيه الوعي وضبط السلوك وتأطير العلاقات. ولذلك يبذلون الكثير جدًّا لفصل الإنسان عن الإيمان! لأنهم يريدون الأمور فوضى بلا ضوابط ولا مبادئ ولا مقدسات ولا خصوصيات، لكي يحققوا أهدافهم الوبيئة ومآربهم الدنيئة من المال والسلطة والسيطرة.

---

(١) العقائد الإسلامية. سيد سابق ص٢٧٣. بتصرف يسير.

وأستغل هذا الفصل الذي خصصته للكلام عن البديل الإلحادي، لأختم بالإشارة إلى ضرورة أن يهتم القائمون على توجيه الشباب وتحصينهم ضد شبهات المذاهب الفكرية الهدامة، كالإلحاد والعلمانية والليبرالية، بضرورة العمل على تقديم الإسلام، عقيدة وشريعة، بأسلوب يجد فيه هؤلاء الشباب بديلًا أفضل لتلك المذاهب والأفكار الإلحادية، ذلك لأن «إيجاد البديل أسلوب تربوي يتوخى سد الحاجات وتهذيب الرغبات، وهو أسلوب أصيل جاء به الكتاب والسنة... وإيجاد البدائل الصالحة أسلوب تشريعي يُربي في المسلم الرغبة في الخير والقناعة به والتسليم له، كما يُربي فيه الرغبة عن الشر والإثم والعدوان ونبذه».(١) ولهذا نجد أن الشريعة لا تحرم شيئًا وتنهى عنه إلا وتقدم بديلًا عنه يكون خيرًا وأفضل، كما نجد في تحريم الربا مع إباحة البيع، ومع تحريم الزنا إباحة الزواج، بل يمكن الاستئناس لهذه الدعوة بقول الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ ﴾.(٢) فعندما يخاطَب الشباب بما لا يعقلون، كيف يمكن أن يقبلوا كلامك رغم أنه حق في نفسه؟ والملاحدة والمذاهب الفكرية تدرك هذه الحقيقة جيّدًا، ولذلك لا يزالون يطورون في أساليبهم الدعوية بين الآخرين لترغيبهم في أفكارهم وتبني مذاهبهم!

---

(١) نشاط المذاهب الفكرية المعاصرة على الإنترنت. د، عبد الله الكحيلي ص٢٣١-٢٣٢. وقد تكلم عن البدائل الممكنة للدعوة في ظل واقعنا المعاصر وانتشار وسائل التواصل والاتصال.

(٢) إبراهيم: ٤.

وفائدة أخرى لها صلة بهذه الإشارة، وهي ضرورة أن يكشّف أهل العلم والبحث تحليل الحضارة المعاصرة وكشف عيوبها ونقائصها، وبيان الأصول والمنطلقات إلى أنتجت أزمة الإنسان المعاصر في الجاهلية المعاصرة، وذلك لأن هذا النهج من أعظم أساليب ترسيخ البديل الإسلامي وبيان قيمته وعظمته، وكشف مآلات ونتائج الكفر والمادية والعلمانية والإلحاد كما هو مشاهد في عصرنا الحاضر، ومن ثم، فالأمر ليس كما يروجه البعض بأن هذا الصنيع يدل على انهزامية شخصية تجاه العبقرية الحضارية للآخر، بل نحن نقول إن هذا الرفض والتشنيع على نقد الحضارة المعاصرة في نظمها الفكرية والعقدية والأخلاقية والاجتماعية هو الذي يضمر شعور الهزيمة والانبهار بها. ولهذا وجدنا القرآن يتحدث طويلًا وبأساليب مختلفة عن الشيطان، وكشف منطلقاته وخططه وأساليبه وغاياته، ليس لأجل إرهاب المسلم من هذا الكائن الغيبي، بل لتنبيهه إلى بُعد غيبي له حضور قوي ومباشر في نشاطاته المختلفة، فيزداد ارتباطًا بالخالق. وكذلك تحدث القرآن عن الأمم الكافرة وأوضاعها وأزماتها وأمراضها، وأيضًا تحدث عن أسباب سقوط الحضارات واضمحلال الأمم والمجتمعات. وهذا بالنسبة للعاقل الحكيم «استراتيجية» عظيمة في تحصين المسلم على مستوى الوعي والشعور فضلًا عن الفعل والسلوك، ضد الانحرافات العقدية والأخلاقية التي تُنتجها الرؤية الشركية ولابد، ومن ثم، تكون عنصرًا فعّالًا في اكتشاف ضحالة وشناعة البديل الذي يطرحه الشرك ويمارسه الكفر،

وفي اكتشاف قيمة وسمو وقداسة البديل الذي يقدمه الوحي الإلهي في مجالات الحياة. ولهذا لابد أن يعتني أهل الذكر بهذا الجانب وعرضه للشباب المسلم بأسلوب مبسط بعيدًا عن «ترسانة» المصطلحات الأكاديمية التي يُغرق بها البعض كتاباتهم!

وليكن هذا آخر ما أردنا بيانه والإشارة إليه، ونسأل الله أن يرزقنا الثبات والعصمة من الفتن، ما ظهر منها وما بطن، إنه ولي ذلك والقادر عليه، والحمد لله رب العالمين.



مصادر الاقتباسات

١. **الأتباع والمتبوعون في القرآن**. صلاح الخالدي/ دار المنار، ط ١/ ١٤١٧-١٩٩٦.

٢. **الاتجاهات العقلانية الحديثة**. ناصر العقل/ دار الفضيلة، ط ١/ ١٤٢٢-٢٠٠١.

٣. **اجتماع الجيوش الإسلامية على حرب المعطلة والجهمية**. ابن قيم الجوزية/ دار عالم الفوائد، ط ١/ ١٤٣١.

٤. **أحلام الفيزيائيين**. ستيفن وانبرغ/ دار طلاس، ط ٢/ ٢٠٠٦.

٥. **الاختلاف في اللفظ**. ابن قتيبة الدينوري/ دار الراية، ط ١/ ١٤١٢-١٩٩١.

٦. **الأخلاق في عصر الحداثة السائلة**. دار كلمة، ط ١/ ٢٠١٦.

٧. **آداب الشافعي ومناقبه**. أبو محمد ابن أبي حاتم الرازي/ دار الكتب العلمية، ط ١/ ١٤٢٤-٢٠٠٣.

٨. **إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم**. أبو السعود/ دار إحياء التراث العربي.

٩. **أساتذة اليأس: النزعة العدمية في الأدب الأوروبي**. نانسي هيوستن/ هيئة أبو ظبي للثقافة، ط ١/ ١٤٣٣-٢٠١٢.

١٠. **الأسباب التي تصد عن قبول الحق**. نايف العتيبي/ كرسي القرآن الكريم، جامعة الملك سعود، ط ١/ ١٤٣٥.

١١. **الأسرة في الغرب: أسباب تغيير مفاهيمها ووظيفتها**. خديجة كرار/ دار الفكر، ط ١/ ١٤٣٠-٢٠٠٩.

١٢. **أسطورة العنف الديني**. وليام كافانو/ الشبكة العربية للأبحاث، ط ١/ ٢٠١٧.

١٣. **الإسلام الديموقراطي المدني**. شيريل بينارد/ دار تنوير، ط ١/ ١٤٣٥-٢٠١٣.

١٤. **الإسلام الذي يريده الغرب**. صالح الغامدي/ مركز الفكر المعاصر/ ط ٣/ ١٤٣٦.

١٥. **إسلام السوق**. باتريك هايني/ دار مدارات، ط ٢/ ١٤٣٧-٢٠١٦.

١٦. **الإسلام بين الشرق والغرب**. علي عزت بيجوفيتش/ دار الشروق، ط ٤/ ٢٠١٤.

١٧. **الإسلام في مواجهة الغزو الفكري الإستشراقي والتبشيري**. محمد بخيت/ دار مجدلاوي، ط ١/ ٢٠١٢.

١٨. **الإسلام والرأسمالية**. مكسيم رودنسون/ دار الطليعة، ط ٤/ ١٩٨٢.

١٩. **إشكالية المرجع في الفكر العربي المعاصر**. عبد الإله بلقزيز/ دار المنتخب العربي، ط ١/ ١٤١٢-١٩٩٢.

٢٠. **أشهر الرسائل العالمية**. محمد بدران. لجنة التأليف والترجمة والنشر/ ١٣٦٨-١٩٤٨.

٢١. **أصول علم النفس**. أحمد عزت راجح/ دار المعارف، ط ١٢. بدون تاريخ.

٢٢. **اعتراف تولستوي**. ترجمة أنطونيوس بشير/ دار سؤال للنشر، لبنان. ط ١/ ٢٠١٥.

٢٣. **الاعتقادات**. أبو القاسم الأصفهاني/ مؤسسة الأشرف، ط ١/ ١٩٨٨.

٢٤. **الإعلام بمناقب الإسلام**. أبو الحسن العامري/ دار الأصالة، ط ١/ ١٤٠٨-١٩٨٨.

٢٥. **الأعمال الشعرية**. عبد الوهاب البياتي/ المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٩٥.

٢٦. **إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان**. شمس الدين بن قيم الجوزية/ دار ابن الجوزي، ط ٢/ ١٤٣٢.

٢٧. **اقتضاء الصراط المستقيم**. أبو العباس ابن تيمية/ دار إشبيليا، ط ٢، ١٤١٩-١٩٩٨.

٢٨. **الإقناع في مسائل الإجماع**. أبو الحسن ابن القطان/ دار الفاروق الحديثة، ط ١/ ١٤٢٤-٢٠٠٤.

٢٩. **الإلحاد بين قصورين**. مناظرة وليام كريغ وسام هاريس/ مركز دلائل، ط ٢/ ١٤٣٧.

٣٠. **الإلحاد مشكلة نفسية**. عمرو شريف/ دار نيو بوك، ط ١/ ١٤٣٧-٢٠١٦.

٣١. **الإلحاد يسمم كل شيء**. هيثم طلعت/ نيو بوك للنشر والتوزيع، ط ١/ ٢٠١٥.

٣٢. **إله الإلحاد المعاصر**. **كوستي بندلي**/ منشورات النور. بلا تاريخ.

٣٣. **الإمتاع والمؤانسة**. أبو حيان التوحيدي/ المكتبة العصرية/ ١٤٣٢-٢٠١١.

٣٤. **الأمد على الأبد**. أبو الحسن العامري/ دار الكندي، ط ١/ ١٣٩٩-١٩٧٩.

٣٥. **الأمر بالإتباع والنهي عن الابتداع**.

٣٦. **الإنسان ذلك المجهول**. أكلسيس كاريل/ مكتبة المعارف، ١٤١٩-١٩٩٨.

٣٧. **الإنسان والحضارة**. عبد الوهاب المسيري/ دار دوّن، ط ١/ ٢٠١٨.

٣٨. **الانسداد التاريخي: لماذا فشل مشروع التنوير في العالم العربي**. هاشم صالح/ دار الساقي، ٢٠١١.

٣٩. **إيثار الحق على الخلق**. ابن الوزير اليماني/ دار الصميعي، ط ١/ ١٤٣٧-٢٠١٦.

٤٠. **الإيمان والحياة**. يوسف القرضاوي/ مكتبة وهبة، ط ٢/ ١٣٩٣-١٩٧٣.

٤١. **الباعث على إنكار البدع والحوادث**. شهاب الدين أبو شامة المقدسي/ دار مجد الإسلام، ط ١/ ٢٠٠٧.

٤٢. **براهين وجود الله**. سامي عامري/ مركز تكوين، ط ١/ ١٤٤٠-٢٠١٨.

٤٣. **البرهان القاطع في إثبات الصانع**. ابن الوزير اليماني/ دار المأمون للتراث، ط ١/ ١٤٠٩-١٩٨٨.

٤٤. **تاريخ ابن الريوندي الملحد**. عبد الأمير الأعم/ دار الآفاق الجديدة، ط ١/ ١٣٩٥-١٩٧٥.

٤٥. **تاريخ الحكماء**. شمس الدين الشهرزوري/ جمعية الدعوة الإسلامية، ط ١/ ١٣٩٨-١٩٨٨.

٤٦. **تاريخ الفلسفة الحديثة**. وليم كلي رايت/ دار التنوير، ط ١/ ٢٠١٠.

٤٧. **تحقيق ما للإلحاد من مقولة**. محمد المزوغي/ دار الجمل، ٢٠١٤.

٤٨. **التراث والحداثة: دراسات ومناقشات**. محمد عابد الجابري/ مركز دراسات الوحدة العربية، ط ١/ ١٩٩١.

٤٩. **التسهيل لعلوم التنزيل**. ابن جزي الغرناطي/ المنتدى الإسلامي/ ١٤٣٣-٢٠١٢

٥٠. **التصميم العظيم: إجابات جديدة على أسئلة الكون الكبرى**. ستيفن هوكينج/ دار التنوير، ط ١ ٢٠١٣.

٥١. **التطرف العلماني في مواجهة الإسلام**. يوسف القرضاوي/ دار الشروق، ط ١/ ١٤٢٢-٢٠٠١.

٥٢. **تغطية الإسلام**. إدوارد سعيد/ رؤية للنشر والتوزيع، ط ١/ ٢٠١٥.

٥٣. **تفسير الطبري**. أبو جعفر ابن جرير الطبري/ دار هجر، ط ١/ ١٤٢٢-٢٠٠١.

٥٤. **تفسير القرآن العظيم**. ابن كثير/ دار طيبة للنشر والتوزيع، ط ٢/ ١٩٩٩،١٤٢٠.

٥٥. **تفسير المراغي**. أحمد مصطفى المراغي/ مطبعة الحلبي، ط ١/ ١٩٤٦،١٤٦٥.

٥٦. **تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين**. أبو القاسم الأصفهاني/ دار مكتبة الحياة/ ١٩٨٣.

٥٧. **تقييدان في وحدة الوجود**. أحمد بن عجيبة/ دار القبة الزرقاء، ط ١/ ١٤١٩- ١٩٩٨.

٥٨. **تلبيس إبليس**. أبو الفرج ابن الجوزي/ دار القلم، ط١/ ١٤٠٣

٥٩. **تهافت الفلاسفة**. أبو حامد الغزالي/ دار المعارف. تحقيق سليمان دنيا/ ١٣٨٥- ١٩٦٦.

٦٠. **الثقافة والمنهج**. عبد الوهاب المسيري/ دار الفكر، ط ٢/ ١٤٣١-٢٠١٠.

٦١. **ثلاث رسائل في الإلحاد والعلم والإيمان**. عبد الله الشهري/ نماء للبحوث والدراسات، ط ١/ ٢٠١٤.

٦٢. **الجائزة الكونية الكبرى**. بول ديفيز/ الهيئة العامة السورية/ ٢٠١٠.

٦٣. **جدل العقل والأخلاق في العلم**. حسان الباهي/ أفريقيا الشرق/ ٢٠٠٩.

٦٤. **الجذور اللاهوتية للحداثة**. مايكل ألين جيلسبي/ دار جدوال للنشر والترجمة، ٢٠١٩.

٦٥. **جنون الفلاسفة**. نايجل رودجرز- ميل ثومبثون/ دار الحوار، ط ١/ ٢٠١٥.

٦٦. **جنون الفلاسفة**. نايجل رودجرز- نيل ثومبثون/ دار الحوار، ط ١/ ٢٠١٥.

٦٧. **الحجة في بيان المحجة**. أبو القاسم الأصبهاني/ دار الراية، ط ١/ ١٤١١-١٩٩٠.

٦٨. **الحكم بالعدل والإنصاف الرافع للخلاف**. أبو سالم العياشي/ دار أبي رقراق ، ط ١/ ١٤٣٦-٢٠١٥.

٦٩. **حوار ساخن عن الإلحاد**. هادي المدرّسي/ مركز الفكر الرسالي، ط ١/ ١٤٣٨- ٢٠١٧.

٧٠. **حوارات سيدني**. ريتشارد دوكنز/ دار سطور، ط ١/ ٢٠١٧.

٧١. **خرافة الإلحاد**. عمرو شريف/ مكتبة الشروق الدولية، ط ١/ ١٤٣٥-٢٠١٤.

٧٢. **درء تعارض العقل والنقل**. أبو العباس ابن تيمية/ جامعة الإمام محمد بن سعود، ط ٢/ ١٤١١-١٩٩١.

٧٣. **دراسات في النفس الإنسانية**. محمد قطب/ دار الشروق، ط ١٠/ ١٤١٤-١٩٩٣.

٧٤. **دفاع عن الإنسان**. عبد الوهاب المسيري/ دار الشروق، ط ٢/ ١٤٢٧-٢٠١٦.

٧٥. **الدقائق الثلاث الأولى من عمر الكون**. ستيفن وينبرغ/ الدار المتحدة/ ١٩٨٦.

٧٦. **الديموقراطية.. الإله الذي فشل**. هانز هيرمان هوپا/ منشورات التكوين، ط ١/ ٢٠١٩.

٧٧. **دين الفطرة**. جان جاك روسو/ ترجمة عبد الله العروي/ المركز الثقافي العربي، طـ ١/ ٢٠١٢.

٧٨. **الدين والعلم**. برتراند راسل/ دار الهلال، بلا تاريخ.

٧٩. **الدين: بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان**. محمد عبد الله دراز/ دار القلم، طـ ٣/ ١٤٣١-٢٠٠٧.

٨٠. **ديوان الزنادقة**. جمال جمعة/ منشورات الجمل، طـ ١/ ٢٠٠٧.

٨١. **ديوان إيليا أبو ماضي**. دار العودة، بيروت.

٨٢. **ديوان نازك الملائكة**. دار العودة، بيروت/ ١٩٩٧.

٨٣. **رحلة عقل**. عمرو شريف/ مكتبة الشروق الدولية/ ١٤٣٢-٢٠١١.

٨٤. **رحلتي الفكرية في الجذور والبذور والثمر**. عبد الوهاب المسيري/ الهيئة العامة لقصور الثقافة، طـ ١/ ٢٠٠٠.

٨٥. **رحلتي من الشك إلى اليقين**. مصطفى محمود/ دار المعارف، بلا تاريخ.

٨٦. **الرد على الجهمية**. أبو سعيد الدارمي/ دار ابن الأثير، طـ ٢/ ١٤١٦-١٩٩٥.

٨٧. **الرد على المنطقيين**. أحمد ابن تيمية/ دار الفكر اللبناني، طـ ١/ ١٩٩٣.

٨٨. **رسالة المعاش والمعاد**. أبو عثمان الجاحظ، ضمن رسائله/ مكتبة الخانجي.

٨٩. **ركائز الإيمان**. محمد قطب/ دار الشروق، طـ ٣/ ٢٠١٠.

٩٠. **روح الدين: من ضيق العلمانية إلى سعة الائتمانية**. طه عبد الرحمن/ المركز الثقافي العربي، طـ ٣/ ٢٠١٣.

٩١. **الزنادقة: عقائدهم وفرقهم وموقف أئمة المسلمين منهم**. سعد العريفي/ دار التوحيد، ط ١/ ١٤٣٤-٢٠١٣.

٩٢. **الزندقة والزنادقة**. محمد الحمد/ دار الطليعة، ط ١/ ١٩٩٩.

٩٣. **سابغات: كيف نتعامل مع الشبهات الفكرية**. أحمد السيد/ مركز تكوين، ط ٣/ ١٤٣٨-٢٠١٧.

٩٤. **السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية**. عبد الكريم زيدان/ مؤسسة الرسالة، ط ١/ ١٤١٣.

٩٥. **سير أعلام النبلاء**. شمس الدين الذهبي/ مؤسسة الرسالة، ط ١١/ ١٤١٧-١٩٩٦.

٩٦. **سيكولوجية الجماهير**. غوستاف لو بون، ترجمة هاشم صالح/ دار الساقي، ط ١/ ١٩٩١.

٩٧. **شرح الأصبهانية**. أبو العباس ابن تيمية/ دار المنهاج، ط ١/ ١٤٣٠.

٩٨. **الشرح والإبانة على أصول السنة والديانة**. أبو عبد الله ابن بطة العكبري/ مكتبة العلوم والحكم، ط ١/ ١٤٢٣.

٩٩. **شفاء السائل**. أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون/ دار الفكر، ط ١/ ١٤١٧-١٩٩٦.

١٠٠. **صخور الزمان: دور العلم والدين في اكتمال الحياة**. ستيفن جاي جولد/ المركز القومي للترجمة، ط ١/ ٢٠٠٨.

١٠١. **طبقات الصوفية**. أبو عبد الرحمن السلمي/ دار الكتب العلمية، ط ٢،١٤٢٤-٢٠٠٣.

١٠٢. **طبقات المعتزلة**. أحمد بن يحيى المرتضى/ مؤسسة ديڤلد-ڤلزر،١٣٨٠-١٩٦١.

١٠٣. **الطريق إلى مكة**. ليوبولد فايس (محمد أسد)/ منشورات الجمل، ط ١/ ٢٠١٠.

١٠٤. **طلاسم نجسة: الإلحاد وإهانة الجنس البشري**. محمد الهبيلي/ مداد للنشر والتوزيع، ط ١/ ٢٠١٧.

١٠٥. **ظاهرة نقد الدين في الفكر الغربي الحديث**. سلطان العميري/ مركز تكوين، ط ٢/ ١٤٣٩.

١٠٦. **عرض موجز للمادية الديالكتيكية**. بودويتنيك وياخوت/ دار التقدم، ١٩٨٥.

١٠٧. **العقائد الإسلامية**. سيد سابق/ دار الفتح للإعلام العربي، ط ١٠/ ١٤٢٠-٢٠٠٠.

١٠٨. **العقلية الليبرالية**. عبد العزيز الطريفي/ دار الحجاز، ط ١/ ١٤٣٢-٢٠١١.

١٠٩. **عقيدتنا في الخالق والنبوة والآخرة**. عبد الله نعمة/ مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، ط ٢/ ١٩٨٣،١٤٠٣.

١١٠. **علم الاجتماع الديني**. عبد الله الخريجي/ رامتان، جدة، ط ٢/ ١٤٣٠-١٩٩٠.

١١١. **العلم في منظوره الجديد**. روبرت أغروس، جروج ستانسيو، عالم المعرفة، عدد ١٣٤/ ١٩٨٩.

١١٢. **العلم يدعو إلى الإيمان**. كريسي موريسون/ دار وحي القلم، ط ١/ ١٤٣٤-٢٠١٣.

١١٣. **العلمانية والحداثة والعولمة**. عبد الوهاب المسيري/ دار الفكر، ط١/ ٢٠٠٩.

١١٤. **عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ**. أحمد بن يوسف الحلبي/ دار الكتب العلمية، ط ١/ ١٤١٧-١٩٩٦.

١١٥. **العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم**. ابن الوزير اليماني/ مؤسسة الرسالة، ط ١/ ١٤٣٣-٢٠١٢.

١١٦. **العودة إلى الإيمان**. هيثم طلعت/ دار الكاتب، ط ١/ ٢٠١٤.

١١٧. **الغيب والعقل**. إلياس بلكا/ المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط ١/ ١٤٢٩-٢٠٠٨.

١١٨. **الفردوس الأرضي**. عبد الوهاب المسيري/ تنوير للنشر والإعلام، ط ١/ ١٤٣٤-٢٠١٤.

١١٩. **الفصل بين النفس والعقل**. عبد العزيز الطريفي/ مكتبة دار المنهاج، ط ١/ ١٤٣٩.

١٢٠. **فطرية الإيمان**. جستون باريت/ مركز دلائل، ط ١/ ١٤٣٨.

١٢١. **الفطرية: بعثة التجديد المقبلة**. فريد الأنصاري/ دار السلام، ط١/ ١٤٣٠-٢٠٠٩.

١٢٢. **الفقيه والمتفقه**. أبو بكر الخطيب البغدادي/ دار ابن الجوزي. ط١/ ١٤١٧-١٩٩٦.

١٢٣. **الفكر الإسلامي: نقد واجتهاد**. محمد أركون/ لافوميك، ترجمة هاشم صالح.

١٢٤. **فلسفة العلم: مقدمة معاصرة**. أليكس روزنبرج/ المركز القومي للترجمة/ ط ١، ٢٠١١.

١٢٥. **الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان**. عبد الوهاب المسيري/ دار الفكر، ٢٠٠٣.

١٢٦. **الفوائد**. شمس الدين بن قيم الجوزية/ عالم الفوائد، ط ١/ ١٤٢٩.

١٢٧. **في ظلال القرآن**. سيد قطب/ دار الشروق، ط ٣٧/ ١٤٢٩-٢٠٠٨.

١٢٨. **فيض الخاطر**. أحمد أمين/ المكتبة العصرية، ط ١/ ١٤٣١-٢٠١٠.

١٢٩. **القائد إلى تصحيح العقائد**. عبد الرحمن المعلمي اليماني/ المكتب الإسلامي، ط ٢/ ١٤٠٤-١٩٨٤.

١٣٠. **قصة الحضارة**. ول ديورانت/ دار الجيل، ١٤٠٨-١٩٨٨.

١٣١. **القضايا المبدئية والمصيرية الكبرى للإنسان**. يوسف القرضاوي/ الدار الشامية، ط ١/ ١٤٣٨-٢٠١٧.

١٣٢. **قضايا فلسفية في ميزان العقيدة الإسلامية**. سعد الدين صالح/ مطبوعات جامعة الإمارات، ط ١/ ١٤١٨-١٩٩٨.

١٣٣. **قضية التنوير في العالم الإسلامي**. محمد قطب/ دار الشرق، ط ٢/ ١٤٢٣-٢٠٠٢.

١٣٤. **قطيع القطط الضالة**. سامي أحمد الزين/ مركز دلائل، ط ٢/ ١٤٣٧.

١٣٥. **كتاب العزلة**. أبو سليمان الخطابي/ دار ابن كثير، ط ٢/ ١٤١٠-١٩٩٠.

١٣٦. **كتاب القصاص والمذكرين**. أبو الفرج ابن الجوزي/ المكتب الإسلامي، ط ١/ ١٤٠٣-١٩٨٣.

١٣٧. **الكنز الأكبر من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**. عبد الرحمن الصالحي/ الكتب العلمية، ط ١/ ١٤١٧-١٩٩٦.

١٣٨ . **كواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة**. عبد الرحمن حبنكة الميداني/ دار القلم، ط ١٢/ ١٤١٢-١٩٩١.

١٣٩ . **لا أعلم هويتي**. حسام الدين حامد/ مركز تفكر للبحوث والدراسات، ط ٢/ ١٤٣٧-٢٠١٦.

١٤٠ . **لغة الإله**. فرانسيس كولنز/ عصير الكتب، ط ١/ ٢٠١٩.

١٤١ . **لماذا لست مسيحيًا**؟ برتراند راسل/ دار التكوين، ط ١/ ٢٠١٥.

١٤٢ . **لماذا لست ملحدًا؟ في إمكانات التعليل العقلي**. عبد الجليل الكور/ إبداع، ط ١، ٢٠١٦.

١٤٣ . **الله يتجلى في عصر العلم**. مجموعة علماء/ دار القلم، بيروت لبنان.

١٤٤ . **ما الذي أؤمن به: مقالات في الحرية والدين والعقلانية**. برتراند رسل/ دار ممدوح عدوان، ط١/ ٢٠١٥.

١٤٥ . **مباهج الفلسفة**. ول ديورانت/ مكتبة الأنجلو المصرية/ ١٩٥٥.

١٤٦ . **مجموع فتاوى ابن تيمية**. دار الوفاء، ط ٣/ ١٤٢٦-٢٠٠٥.

١٤٧ . **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**. ابن قيم الجوزية/ دار الكتاب العربي، ط ٧/ ١٤٢٣-٢٠٠٣.

١٤٨ . **المدينة الفاضلة عبر التاريخ**. ماريا لويزا برنيري/ عالم المعرفة، صـ ١٦/ عدد ٢٥٥/ ١٩٩٧.

١٤٩ . **المرجعية في المفهوم والمآلات**. سعيد بن ناصر الغامدي/ مركز صناعة الفكر، ط ١/ ٢٠١٥.

١٥٠. **المرقاة**. سليمان العبودي/ دار الحضارة، طـ ١/ ١٤٣٧-٢٠١٦.

١٥١. **المساكين**. مصطفى الرافعي/ دار العصور، ط ١/ ١٤٤٧-١٩٢٩.

١٥٢. **مستقبل وهم**. سيغموند فرويد/ دار الطليعة، طـ ٤/ ١٩٩٨.

١٥٣. **مشكاة الأنوار**. أبو حامد الغزالي/ عالم الكتب، ط ١/ ١٤٠٧-١٩٨٧.

١٥٤. **معجم التعريفات**. الشريف الجرجاني/ دار الفضيلة، مصر. بلا تاريخ.

١٥٥. **المعجم الفلسفي**. جميل صليبا/ دار الكتاب اللبناني/ ١٩٨٢.

١٥٦. **معجم المصطلحات والشواهد الفلسفيّة**. جلال الدين سعيد/ دار الجنوب للنشر، تونس، بدون تاريخ.

١٥٧. **معجم مقاييس اللغة**. أبو الحسين ابن فارس/ دار إحياء التراث العربي، طـ ١/ ١٤٢٢-٢٠٠١.

١٥٨. **المغالطات المنطقية**. عادل مصطفى/ المجلس الأعلى للثقافة/ ٢٠٠٧.

١٥٩. **المكتوبات**. سعيد النورسي/ دار النيل للطباعة والنشر، طـ ٢/ ١٤٣٤-٢٠١٣.

١٦٠. **مليشيا الإلحاد**. عبد الله العجيري/ مركز تكوين. طـ ١/ ١٤٣٥-٢٠١٤.

١٦١. **من تاريخ الإلحاد في الإسلام**. عبد الرحمن بدوي/ سينا للنشر، ط ٢/ ١٩٩٣.

١٦٢. **من داروين إلى هتلر**. ريتشارد وايكارت/ مركز براهين للأبحاث والدراسات، طـ ١/ ٢٠١٩.

١٦٣. **من وحي القرآن**. حسين فضل الله/ دار الملاك، طـ ٢/ ١٤١٩-١٩٩٨.

١٦٤. **مناجزة الإلحاد**. أحمد التميمي ومحمود المسلمي/ بيت الغشام، طـ ١/ ٢٠١٨.

١٦٥. **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**. ابن الجوزي/ دار الكتب العلمية، ط ٢/ ١٤١٥-١٩٩٥.

١٦٦. **المنقذ من الضلال والمفصح عن الأحوال**. أبو حامد الغزالي/ دار الأندلس، ط ٧/ ١٩٦٧.

١٦٧. **منهاج السنة النبوية**. أبو العباس أحمد بن تيمية/ جامعة الإمام ابن سعود، ط ١/ ١٤٠٦-١٩٨٦.

١٦٨. **منهج ابن تيمية المعرفي**. عبد الله الدعجاني/ مركز تكوين، ط ١/ ١٤٣٥-٢٠١٤.

١٦٩. **مهددات الإلحاد الجديد**. سي. جي. ويرليمان/ مركز دلائل، ط ١/ ١٤٤٠-٢٠١٩.

١٧٠. **الموافقات**. أبو إسحاق الشاطبي/ دار ابن عفان، ط ١/ ١٤١٧-١٩٩٧.

١٧١. **الموسوعة الفلسفية العربية**. تحرير معن زيادة/ معهد الإنماء العربي، ط ١/ ١٩٨٦.

١٧٢. **الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة**. الندوة العالمية للشباب الإسلامي، ط ٤/ ١٤٢٠.

١٧٣. **موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية**. عبد الوهاب المسيري/ دار الشروق، ط ١/ ١٩٩٩.

١٧٤. **ميزان العمل**. أبو حامد الغزالي/ دار المعارف، ط ١/ ١٩٦٤.

١٧٥. **النبوات**. أبو العباس أحمد بن تيمية/ مكتبة أضواء السلف، ط ٢/ ١٤٢٧.

١٧٦ . **نشاط المذاهب الفكرية المعاصرة على الإنترنت**. عبد الله الكحيلي/ دار ابن الجوزي، ط ١/ ١٤٤٠.

١٧٧ . **نظام التفاهة**. آلان دونو/ دار سؤال، ط ١/ ٢٠٢٠.

١٧٨ . **نظرات في الفكر الإلحادي الحديث**. مشير باسيل عون/ دار الهادي، بيروت لبنان. ١٤٢٤-٢٠٠٣.

١٧٩ . **نظم المتناثر من الحديث المتواتر**. أبو عبد الله الكتاني/ دار الكتب السلفية، بلا تاريخ.

١٨٠ . **نفسية الإلحاد: إيمان فاقد الأب**. بول فيتز/ مركز دلائل، ط ٢/ ٢٠١٣.

١٨١ . **نفي اللاهوت**. ميشيل أونفري/ منشورات الجمل/ ٢٠١٢.

١٨٢ . **نقد الليبرالية**. الطيب بوعزة/ دار تنوير، ط ١/ ١٤٣٥-٢٠١٣.

١٨٣ . **نهاية التاريخ**. فرانسيس فوكوياما/ مركز الأهرام للترجمة، ط ١/ ١٤١٣-١٩٩٣.

١٨٤ . **هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى**. ابن قيم الجوزية/ دار عالم الفوائد، ط ١/ ١٤٢٩.

١٨٥ . **هناك إله**. أنتوني فلو/ العتبة العباسية المقدسة، ط ١/ ١٤٣٦-٢٠١٥.

١٨٦ . **الوجه الحقيقي للإلحاد**. رافي زكراياس/ دار رؤية للطباعة/ ٢٠١٤.

١٨٧ . **وظيفة الدين في الحياة**. محمد الزحيلي/ جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، ١٤٠١-١٩٨١.

١٨٨ . **وهم الإله**. ريتشارد دوكنز/ ترجمة بسام البغدادي، ط ٢، منشور على شبكة الإنترنت.

١٨٩ . **وهم الشيطان**. ديفيد بيرلنسكي/ مركز دلائل، ط ١/ ١٤٣٨ .

١٩٠ . **الوهم الليبرالي**. محمد الكنعان/ مركز الفكر المعاصر، ط ١/ ١٤٣٨ .

١٩١ . **وهـم دوكينـز**. ليسـتر مـاكغراث/ المركـز الإسـلامي للدراسـات الاسـتراتيجية/ ١٤٣٨-٢٠١٧.

١٩٢ . **ينبوع الغواية الفكرية**. عبد الله العجيري/ مجلة البيان، ط ١/ ١٤٣٤ .





نور الدين قوطيط

باحث في الفكر الإسلامي والمذاهب المعاصرة.
من مواليد المغرب عام 1401هـ/1981م، ومقيم منذ سنوات في فرنسا.
صدر له سابقا "أجنحة الحب: إضاءات في طريق السعادة الزوجية"،
و"خواطر زرقاء: تدوينات في الدين والفكر والحياة".

من إصدارات مؤسسة السبيل
www.al-sabeel.net

